

العَذَابُ الْمُمِيزُ

مِنْ مَجَالِسِ الشَّقِيقِيَّ



جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

رقم الإيداع :	٢٠٠٣ / ١٦٨٥١
الترقيم الدولي :	977-375-000-0



دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤
الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥
الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر
المملكة العربية السعودية

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

القاهرة: ١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٥٠٦٦٤٢٠ - محمول: ٠١٠١٥٨٣٦٢٦

الإدارة: برج الأطباء أول ش فيصل

ت: ٥٦٩٣٦١٥ - تليفاكس: ٥٦٩٢٨٥٠ - ٣٢٥٥٨٢٠

ص. ب ٨ بين السرايات

جمهورية مصر العربية

E-mail:ebnaffan@hotmail.com

العَدَابُ الْمَمِيرُ

مِنْ مَجَالِسِ الشَّنَقِيطِيِّ

فِي النَّفْسِيرِ

اعْتَنَى بِهِ رَعْلَى عَلَيْهِ

بَحْثُ الْبَرْبَرِ عَمَّا فِي السَّبْعِ

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

دَارُ ابْنِ عَفَّانَ

دَارُ ابْنِ الْقَيْمِ



«فنحن - أيها الإخوان - نذكر هذه المناسبات؛ لأننا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فتتطرق الآية من وجوهها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التخريج، والنحو، وأصول الفقه، والتاريخ، والأحكام إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة؛ لينتفع كل بحسبه» اهـ.

محمد الأمين الشنقيطي
رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات والخيرات، فمن تعلّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثير البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا، تصديقاً لقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا﴾ [الأنعام: ٩٢] ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلاّ الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين؛ إذا قرأه الإنسان وتدبّر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، إذا تدبّر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين».

محمد الأمين الشنقيطي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً لكل شيء، والصلاة والسلام على القائل: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(١).

وعلى صحابته المروي عنهم: «إلا فهمأ يعطيه الله رجلاً في كتابه»^(٢)... الأثر، الموعودين بالحسنى؛ وأتباعهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد تصفحت ما كتبه فضيلة الشيخ د. خالد بن عثمان السبت (حفظه الله) وقام به من جهد ينبيء عن علو همة ورغبة في الخير، وقد ظهر في الذي وقفت عليه من عمله أمانة علمية، وتجشم للصعاب.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام^(٣)

وأخبرني بقيامه بسماع الأشرطة عدة مرات أولاً، ثم عهد بنسخها ثانياً، ثم قام بتوثيق المعلومات ثالثاً. وهي معلومات غزيرة ومتنوعة، مما

(١) أخرجه أحمد (١٣١/١)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم: (٤٥٨٠) (٣٥٤/١٢)، والبيهقي في السنن (٢٣٢/٩)، وفي الدلائل (٥٤٩/٦)، وابن حبان (١٠٧/١)، والدارقطني (٢٨٧/٤)، والطبراني في الكبير (٢٨٣/٢٠)، والطحاوي في شرح المعاني (٢٠٩/٤)، وابن عبد البر في التمهيد (١٥٠/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٦٣/١). وانظر صحيح أبي داود (٣٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم: (١١١) (٢٠٤/١). وأطرافه في (٣٠٤٧، ٣٩٠٣، ٦٩١٥) من قول علي (رضي الله عنه).

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (بشرح البرقوقي ٦٤/٤).

يتطلب الوقت الكثير والبحث المتواصل، والتأمل والتحري، مما يكلف المرء عناءً هو عند طلبة العلم من أشهى المتع، كما قال الشاعر:

وَتَمَائِلِي طَرَباً لِحُلِّ عَوْنِصَةٍ فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَبَاقِ^(١)
وكما قال الشيخ:

أَبَيْتُ مُفَكِّراً فِيهَا فَتَضَحَّى لِفَهْمِ الْقَدَمِ خَافِضَةَ الْجَنَاحِ^(٢)
وكان الشيخ (رحمه الله) يوظف جميع معارفه لفهم القرآن.
وقد كفاني مؤنة ذلك الشيخ خالد. وقد أخذ القوس باريها.

ونحن طلبة العلم وتلاميذ الشيخ (رحمه الله)، مَنْ منا يستطيع أن يقوم بخدمة كتبه أو أشرطته أو محاضراته على الوجه الصحيح، فلا ينبغي أن يتوانى في القيام بذلك، والعلم رَجْمٌ بين أهله.

رحمة الله على الشيخ، وجزى الله الشيخ خالدًا بالخير. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والسلام.

عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي

١٤١٨/٢/٢٠ هـ

(١) البيت للشافعي، وهو في ديوانه ص ٦٤.

(٢) البيت ضمن أبيات للشيخ أوردها الشيخ عطية (رحمه الله) في ترجمته (وهي مطبوعة في آخر الأضواء ص ٣١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةً من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَنْ ضَلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَّوه، وكم من ضال تائه قد هدَّوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم. ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقول الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مُجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يُشبَّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين^(١).

أما بعد:

فإن القرآن العظيم هو مأدبة الله (عز وجل)^(٢)، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر

(١) مقتبس من كلام الإمام أحمد (رحمه الله) في مقدمة الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٦. وأورد نحوه ابن وضاح في كتاب البدع والنهي عنها ص ١٠ عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بغير إسناد.

(٢) اقتباس من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح وقفه، وقد =

ما بعدنا، وهو جبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تَرَكَه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلُق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم^(١).

ولقد بين النبي ﷺ حروف القرآن كما بيّن ما قد يخفى من معانيه؛ إذ إنَّ بغثته تدور على ذلك، كما أخبر (تعالى) عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: آية ٤٤].

وإنما المقصود من إنزال القرآن فهمه والعمل به، ولم ينزل من أجل القراءة فحسب - مع أنها مطلوبة - كما لا يكفي فهم معانيه من غير العمل به، ولا يمكن العمل به من غير فهم معانيه.

وطريق فهم القرآن هي تدبر ألفاظه ومعانيه، والتفكر فيها، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: آية ٨٢] وقال (تعالى): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ

= أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٢٧٢، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١/٢٤٠)، والدارمي (٢/٣٠٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٤٨٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/٣٧٥)، وسعيد بن منصور في سننه (تحقيق الحميد ١/٤٣)، والحاكم (١/٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٩/١٣٨)، والمروزي (مختصر قيام الليل ص ١٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٣٠ - ١٣١) والبيهقي في الشعب (٢/٣٢٥، ٣٤٣)، وابن حبان في المجروحين (١/١٠٠)، والخطيب في الجامع (١/١٠٧)، وابن الجوزي في العلل (١٠١/١ - ١٠٢)، وذكره في الذهبي في الميزان (١/٦٦).

(١) مقتبس من حديث زوي مرفوعاً وموقوفاً، ولا يصح رفعه، وقد أخرجه جماعة من أصحاب المصنفات كما في: سنن الدرامي (٢/٣١٢، ٣١٣)، مسند الإمام أحمد (٩١/١)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/٤٨٢)، سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن، حديث (٢٩٠٦)، (٥/١٧٢)، المعجم الكبير للطبراني (٢٠/٨٤)، وابن نصر في قيام الليل (المختصر ص ١٥٧)، والبيهقي في الشعب (٢/٣٢٦)، وانظر: شرح السنة (٤/٤٣٧، ٤٣٩)، مجمع الزوائد (٧/١٦٤).

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ [محمد: آية ٢٤] وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا دِيَارَهُمْ وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: آية ٢٩].

كما أن فهمه يحصل بتطلب تفسيره من كلام العلماء الراسخين في هذا الباب الشريف، الشارحين لآيات القرآن الكريم، والمبينين لمدلولاتها، سواء كان الأخذ عنهم مشافهةً، أو عن طريق مصنفاتهم.

وإن من العلماء الأفذاذ الذين بلغوا شأواً عظيماً في علم التفسير، العلامة المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله)، وهو وإن كان من المتأخرين، إلا أن سماع كلامه في التفسير يُذكر سامعه بالأئمة المتقدمين.

ومعلوم أن التأخر والمعاصرة لا يُطَفِّقانِ حق العالم إذا كان متحققاً في العلم. فـ «ليس لِقَدَمِ الْعَهْدِ يُفْضَلُ الْقَائِلُ»^(١)، ولا لِجِدْثَانِ عَهْدٍ يُهْتَضَمُ الْمُصِيبُ، ولكن يُعْطَى كُلُّ مَا يَسْتَحِقُّ»^(٢).

ذلك أن نتائج الأفكار لا تنقضي لانقضاء عصر بعينه؛ بل لكل عالم ومتعلم من ذلك حظ بحسب إِيْخَاذِهِ، وليس ثَمَّةَ ما يمنع أن يُدْخِرَ لبعض المتأخرين ما لم يُوهَبَ لبعض المتقدمين، وعليه فلا عبرة بقول بعضهم: «ما ترك الأول للآخر»!! فإن هذه الكلمة بالغة الضرر بالعلم؛ لكونها قاطعة للآمال عن تحصيله والإضافة فيه، كما لا يخفى. ولكن ينبغي أن يُقال: «كم ترك الأول للآخر». والشيء إنما يُسْتَجَادُ ويُسْتَرْذَلُ لجودته وردائه لا لتقدم قائله أو تأخره»^(٣).

قال أبو محمد بن قتيبة (رحمه الله) في مقدمة (الشعر والشعراء):

(١) هكذا ضبطه القرافي وجماعة (القائل) بالقاف، وذهب الزبيدي وجماعة إلى أنه بالفاء (القائل) من: فال رايه إذا ضعف. انظر: تاج العروس (٢٩/١).

(٢) ما بين الأقواس « من كلام المبرد في «الكامل» (٤٣/١).

(٣) انظر: كشف الظنون (٣٩/١)، ولأحمد بن فارس (رحمه الله) كلام مفيد في هذا الموضوع نقله الأستاذ عبدالسلام هارون (رحمه الله) في مقدمة التحقيق لكتاب (المقاييس في اللغة) (١٥/١ - ٢٠).

«ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلّد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدّمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلّاً حظّه، ووفرت عليه حقّه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويؤذّل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله، ولم يقصّر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مُشترَكاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره، وكلّ شرف خارجيّة^(١) في أوّله، فقد كان جرير، والفرزدق، والأخطل وأمثالهم يُعدّون مُحدثين... ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببُعْد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بَعْدنا... فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حادثة سنه؛ كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه» اهـ^(٢).

وقال في مقدمة (عيون الأخبار): «وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المُحدثين، إذا كان متخير اللفظ، لطيف المعنى، لم يُزِر به عندنا تأخر قائله، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدّمه، فكل قديم حديث في عصره، وكل شرف فأوله خارجيّة، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم، ووضع الموجود، ورفض المبذول، وحب الممنوع، وتعظيم المتقدم وغفران زلته، وبخس المتأخر والتجني عليه، والعافل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم» اهـ^(٣).

(١) الخارجيّة: خيل لا عزق لها في الجودة، فتخرج سوابق، والخارجي: الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم، وتقول: «خرجت خوارج فلان» إذا ظهرت نجابته. انظر اللسان (مادة: خرج) (٨٠٨/١)، القاموس (مادة: خرج) ص ٢٣٧.

(٢) الشعر والشعراء ٢٣ - ٢٤.

(٣) عيون الأخبار (١/م - ن).

وقال ابن مالك (رحمه الله) في مقدمة التسهيل: «وإذا كانت العلوم مَنَحاً إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مُستبعد أن يُدخَرَ لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين»^(١) ١.هـ.

وقال الزبيدي (رحمه الله) في مقدمته لشرح القاموس: «وكأنني بالعالم المُنصف قد اطلع عليه فارتضاه، وأَجَالَ فيه نَظرةً ذِي عِلْقٍ فاجتباه، ولم يلتفت إلى حُدُوث عهده وقرب ميلاده؛ لأنه إنما يُستَجَاد الشيء ويُستَرَدَل لجودته ورداءته في ذاته لا لِقَدَمِهِ وحُدُوثِهِ، وبِالْجَاهِلِ المُشِطِّ قد سمع به فسارع إلى تمزيق فروته وتوجيه المَعَابِ إليه... والذي غَرَّهُ أَنَّهُ عَمَلٌ مُخَدَّتٌ ولا عمل قديم، وحسبك أن الأشياء تُنْتَقَدُ أو تُبْهَرَجُ؛ لأنها تَلِيدَةٌ أو طَارِفَةٌ» ١.هـ.^(٢)

وقد أحسن القائل^(٣):

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقديماً
إن ذاك القديم كان حديثاً وسيُفسي هذا الحديث قديماً

والشيخ الأمين (رحمه الله) عالم متضلّع في فنون عدة من أبرزها التفسير. وسيأتي قوله في سياق ترجمته: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة» اهـ.

وللشيخ (رحمه الله) كتاب في تفسير القرآن بالقرآن يُعد من أحسن التفاسير وأجودها.

وإذا كان علم التفسير معدوداً في جملة العلوم الضرورية، وكان الشيخ الأمين بهذه المنزلة من الرسوخ فيه، فحق على طلبة العلم أن يُعْنُوا بما تركه الشيخ (رحمه الله) في هذا الباب.

(١) المساعد على تسهيل الفوائد (٣/١).

(٢) تاج العروس (٥/١).

(٣) البيتان في كشف الظنون (٣٩/١)، إضاءة الراموس (١٠٩/٢)، تاج العروس (٢٩/١).

وإن من هذه التركة النفيسة: عشرات من الأشرطة الصوتية التي تحوي كثيراً من دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير.

وقد كنتُ أعجبُ من إغفال كتابتها وإخراجها للناس مقروءة كي يعم الانتفاع بها؛ ذلك أن تلك الأشرطة يصعب الانتفاع بها بسبب عدم وضوحها في الغالب، سواء من جهة ضعف التسجيل آنذاك، أو من جهة سرعة الشيخ (رحمه الله) في الإلقاء. فصح العزم على إخراج ذلك خدمة لكتاب الله (تعالى)، ووفاء للشيخ المفسر (رحمه الله تعالى).

ولا يخفى أن مثل هذا الأمر يتطلب جهداً كبيراً من ناحيتين:

الناحية الأولى: صعوبة كتابة محتويات الأشرطة لما سبق.

الناحية الثانية: صعوبة توثيق المادة العلمية التي يوردها الشيخ (رحمه الله)؛ ذلك أن درسه حافل بالمعلومات المختلفة من شتى الفنون، من تفسير، ولغة، وإعراب، وسيرة، وتاريخ، وأصول، وقراءات، وغير ذلك.

ومما يزيد التوثيق صعوبة أن الشيخ (رحمه الله) لا يُعنى بالعزو إلى كتب التفسير أو أعلامه، الأمر الذي قد لا يتميز معه بعض ما أخذه من غيره مما فتح الله به عليه.

لمحة عن دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير^(١):

درّس الشيخ (رحمه الله تعالى) التفسير في أماكن متعددة، منها:

١ - المسجد النبوي، وقد أتم فيه تفسير القرآن كاملاً، وتوفي ولم يتم الثانية، وهي هذه^(٢).

وقد كان هذا الدرس يُعقد في كل يوم على مدار العام. كما ذكر ذلك

(١) انظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص ٦٩، ترجمة الشيخ (رحمه الله) الملحق في آخر الأضواء ص ٣٩ - ٤٨.

(٢) تجد ذلك صريحاً عند تفسير الآية رقم (٩٩) من سورة الأعراف.

بعض تلامذته الذين لازموا درسه في التفسير منذ عام (١٣٦٩هـ).

ثم صار الدرس مقتصراً على الإجازة الصيفية منذ سنة (١٣٧١هـ) حين انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى الرياض في ذلك العام. فكان الشيخ (رحمه الله) يعود إلى المدينة النبوية - في الإجازة - ويواصل هذا الدرس في مسجد رسول الله ﷺ.

وقد استمر الأمر على ذلك إلى أن انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى المدينة النبوية مرة ثانية عام (١٣٨١هـ) ليدرس في الجامعة الإسلامية.

وفي سنة (١٣٨٥هـ) صار وقت الدرس مقتصراً على شهر رمضان فقط؛ فكان يتوقف سائر العام، فإذا جاء رمضان أكمل التفسير من حيث وقف في العام قبله وهكذا.

وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى وفاة الشيخ (رحمه الله) عام (١٣٩٣هـ).

وكان درسه في رمضان يبدأ بعد صلاة العصر مباشرة ويستمر إلى قرب أذان المغرب، وربما كان وقت الدرس قصيراً لعارض، كما وقع للشيخ (رحمه الله) عند تفسيره لسورة الأعراف، فبعد أن فرغ من الكلام على الآية رقم (٩٧) منها توقف معتذراً بقوله: «وقد تقتصر الآن على هذه الكلمات القليلة لأن البارحة أخذنا دواء أضر علينا، فمعي الآن بعض الأثر» ١.هـ.

٢ - دار العلوم بالمدينة النبوية، وذلك في عامي (١٣٦٩ و ١٣٧٠هـ) إلى أن انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى الرياض.

٣ - المعهد العلمي، وكليتي الشريعة، واللغة العربية بالرياض. وذلك لما انتقل إليها عام (١٣٧١هـ)، وبقي على ذلك إلى عام (١٣٨١هـ) حين انتقل إلى المدينة النبوية.

٤ - الجامعة الإسلامية. حيث دَرَس فيها التفسير والأصول إلى أن توفي،

إضافة إلى آداب البحث والمناظرة كما سيأتي في ترجمته.

٥ - في بيته في مدينة الرياض، أو بعد انتقاله إلى المدينة النبوية (وهي دروس خاصة لبعض تلامذته).

يقول تلميذه الشيخ عطية (رحمه الله): «ولم يكن لي معه (رحمه الله) من وقت مُعَيَّن، مع كثرة الإخوان الدارسين عليه، المقيمين معه في بيته، إلا وقت واحد، هو ما بين المغرب والعشاء، لمدة سنتين دراسيتين ونحن بالرياض، قرأت خلالهما تفسير سورة البقرة»^(١) اهـ.

منهج الشيخ (رحمه الله) في تدريس التفسير^(٢):

كان لدرس الشيخ (رحمه الله) في التفسير من حيث التوسع وعدمه - كما ذكر أحد تلامذته^(٣) - ثلاثة أحوال:

الأولى: الإسهاب والتوسع. وعلى هذه الحال كانت دروسه في المسجد النبوي.

الثانية: التوسط بين التوسع والاقتضاب. وهذه حال دروسه في الجامعة في الأحوال العادية.

الثالثة: الاقتضاب الشديد. وهو المرور السريع على بعض المفردات في الآية، والإشارة السريعة إلى بعض معانيها، وكان يلجأ إلى ذلك في آخر السنة الدراسية عندما يرى أنه لا يمكن إكمال المنهج المقرر بأسلوب الحالة الثانية.

وسوف أقتصر في الكلام هنا على الحالة الأولى؛ لأنها هي التي تتعلق بغالب المادة التي بين أيدينا.

(١) ترجمة الشيخ (رحمه الله) لتلميذه الشيخ عطية (رحمه الله) في آخر الأضواء (١٤/٩).

(٢) انظر: ترجمة الشيخ لتلميذه الشيخ عطية (رحمه الله) في آخر الأضواء (٤٠/٩)، علماء ومفكرون عرفتهم (١/١٨١)، ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص ٢٢٢.

(٣) معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص ١٤.

لقد كان درس الشيخ (رحمه الله) يمتاز بتسخير جميع علوم العربية وغيرها من العلوم الإسلامية في تفسير كتاب الله (تعالى)، ومحكمة الآراء والمعاني التي تقال في الكلمة أو الآية إلى ما غلب في القرآن نفسه، ثم تفسيره بالسنة، ثم بما ورد عن السلف، مع التعمق في فهم ذلك بالأساليب العربية^(١).

كانت حلقة الدرس تفتح بأي من السورة المقصود تفسيرها، يتلوها أحد التلاميذ - وهي بمعدل خمس آيات تقريباً - فإذا فرغ القارئ شرع الشيخ في التفسير مبتدئاً بالمناسبة بين الآية وما قبلها في بعض الأحيان، ثم يعرض للمفردات اللغوية بحيث يعرض معانيها واشتقاقاتها وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، مستعيناً على ذلك بما لا يحصى من شواهد اللغة^(٢)، ومن ثم يتناول العلائق التركيبية بين المفردات، فيعرض لضروب القراءات الواردة فيها مع عزوها وتوجيهها، كما يذكر وجوه الإعراب وما تقرره من المدلولات، فإذا انتهى من ذلك صرف الأذهان إلى الاستنباط الفقهي، مع ذكر الخلاف والأدلة وال ترجيح، مستعيناً على ذلك بكل ما يتطلبه المقام من علوم اللسان والبيان، والأصول، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وما يتصل بذلك من العموم والخصوص والإطلاق والتقييد، ولا يفوته أن يربط بعض المعاني ببعض الوقائع المشابهة على صورة تُثري المعرفة، وتعمق أسباب الإقناع.

وإذا كان المضمون قصصياً عمداً إلى عناصر القصة، فاستخرج عبرها، وكشف نُذرها، وقاس ما فيها من صور الماضي على ما يعايشه الناس من أحداث الحاضر^(٣)، فكان كثير الربط بين هذا وهذا، فتجده يتحدث عن

(١) المصدر السابق ص ١١.

(٢) وربما كانت بعض تلك الشواهد تحمل معاني غير مستحسنة، وقد برر الشيخ (رحمه الله) إيرادها بقوله: «وقصدنا بهذا الكلام الخبيث بيان لغة العرب، لا المعاني الخسيسة التافهة؛ لأن معاني لغة العرب يُستفاد منها ما يعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله، وإن كان مُفَرَّغاً في معاني خسيسة تافهة، فنحن نقصد مطلق اللغة لا المعاني التافهة التي هي تابعة لها» ١-هـ من كلامه على الآية رقم (٢) من سورة الأعراف.

(٣) علماء ومفكرون عرفتهم (١٨١/١).

أسباب ضعف المسلمين اليوم، وعن الموقف من الحضارة الغربية، ولزوم الأخذ بأسباب القوة، وأسباب النصر والتمكين... وغير ذلك مما تجده في مواضعه من هذه الدروس.

وهكذا حينما يعرض لغزوة من الغزوات فإنه يستطرد في ذكر تفاصيلها المختلفة، وقد قال (رحمه الله) عند تفسير الآيات المتعلقة بغزوة حنين من سورة براءة: «ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية فصلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة، كما أوضحنا فيما مضى غزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة بدر في سورة الأنفال، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ» ١. هـ.

وإذا كانت الآية المفسرة مما يتعلق به بعض المبتدعة فإنه ينبه على ذلك ثم يستطرد في الرد عليهم، وقد قال عند تفسير الآية رقم (١٠٧) من سورة الأعراف حين عرض لشبهة الجبر والقدر: «ونحن في هذه الدروس دائماً نبين كيفية رد هذه الشبهة» ١. هـ.

وكان (رحمه الله) كثيراً ما يعرض السؤال الذي يتوقع انقداحه في أذهان السامعين ثم يجيب عنه، وقد قال عند تفسير الآية رقم (٣٧) من سورة التوبة: «إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم» ١. هـ وهذا تجده ماثلاً في هذا التفسير في ما يقرب من سبعين موضعاً.

وكثيراً ما يقرن الشيخ ذلك كله بالوعظ والتذكير بالاستعداد للآخرة واستحضار المراقبة لله (عز وجل).

وقد يستطرد في بعض الأحيان في قضية واحدة تستغرق الدرس كله - وهذا قليل فيما وقفت عليه - كما فعل عند الكلام على قوله (تعالى) من سورة الأعراف: ﴿مَا مَعَكُمْ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكُمْ﴾ [الأعراف: آية ١٢] حيث أطال في الرد على ابن حزم في رده القياس، كما ستقف على ذلك في موضعه من سورة الأعراف.

وكذلك عند الكلام على قوله (تعالى) من السورة نفسها: ﴿إِذْ

رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى
الْأَيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: آية ٥٤] حيث بسط الكلام
على مسألة الصفات.

وكذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَتْهُ لِبَنَائِهِ فَنُزِلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ
مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٧]
حيث أطلال النفس في الرد على أهل الفلك.

وربما أحال إلى بعض كتبه، كما نرى ذلك عند كلامه على المجاز
أثناء تفسير الآية رقم (٢١) من سورة براءة.

ومما يُذكر في هذا المقام مما يدل على غزارة تلك الدروس بالعلم،
أن الشيخ (رحمه الله) حينما عُرض عليه درسه السابق المتعلق بالرد على ابن
حزم في إنكار القياس - مُفَرَّغاً من الشريط المسجّل بعد سنة من إلقائه -
وسمعه الشيخ بصوته، قال: «لولا أنني أسمع صوتي بأذني وأنت - يعني
تلميذه الشيخ عطية - أتيتني بها مكتوبة؛ ما صدقت أن شخصاً يقول هذا
ارتجالاً»^(١).

ولمّا راجعه أحد تلامذته في تخفيف مستوى الدرس، أجاب بقوله:
«إن الله يفتح على المرء ما لم يكن يتوقع، ثم إن المسجد يجمع عجائب
من أجناس مختلفة، وبكفيني واحد يحمل عني ما بُلِّغْتُ مما عندي»^(٢) اهـ.

وقد نبه الشيخ (رحمه الله) على ذلك عند الكلام على قوله (تعالى)
من سورة براءة: ﴿لَا يَسْتَفْهِتُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة: آية ٤٤]
لما تكلم على بعض النواحي الإعرابية واللغوية المتصلة بالآية، فقال بعد
ذلك: «ونحن نذكر هذه الأشياء العربية، وإن كان أكثر المستمعين لا

(١) ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق.

يفهمونها؛ لأننا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير» اهـ.

وذكر (رحمه الله) بعض التحقيقات اللغوية في موضع آخر، ثم عقب ذلك بقوله: «فنحن - أيها الإخوان - نذكر هذه المناسبات؛ لأننا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فتتطرق الآية من وجوها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التصريف، والنحو، وأصول الفقه، والتاريخ، والأحكام، إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة ليستفيع كل بحسبه»^(١) اهـ.

وقال عند تفسير قوله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ اللَّهَ﴾ وَأَلْفِصَّةٌ... ﴿[التوبة: آية ٣٤]: «ونحن - عادةً في هذه الدروس - إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائله الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية» اهـ.

ولم يكن الشيخ (رحمه الله) يترك الحديث عن الأحكام المتعلقة بالآية نظراً لأن موضوعها قد غُطِلَ أو كاد في هذا العصر أن يُعْطَلَ، فنجدّه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَنَمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يقول: «وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأننا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد ويقوي كلمة لا إله إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد. ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوى جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه أردنا هنا أن نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة» ا.هـ.

وقد ينسى الشيخ (رحمه الله) مسألة يرغب في عرضها عند تفسيره

(١) ذكره عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

للاية فيستدرك ذلك في الدرس الذي يليه ويتكلم عليها قبل أن يشرع في تفسير الآيات التي بعدها، كما وقع عند تفسير الآية رقم (٣٧) من سورة براءة. ولربما وقع له ذهول عن أحد الأقسام التي هو بصدد الحديث عنها فلا يذكره، ثم ينبه على ذلك في مناسبة أخرى تماثلها، كما في كلامه على مادة (بَيَّنَ) والمعاني التي تأتي لها في حال لزومها وتعيدها، فقد تكلم عليها في سبعة مواضع، ثلاثة في الأنعام وأربعة في الأعراف، وقد قال عند كلامه عليها في الموضع السادس، وذلك ضمن تفسير الآية رقم (١٠١) من سورة الأعراف: «وقد ذكرنا فيما مضى في الكلام على قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام: آية ١٥٧] تصريح هذه الكلمة وما جاء من أمثلتها في القرآن ببعض أمثلتها، وكان ذلك الذي ذكرنا هنالك سقط منه قسم نسياناً، وكنا نتحرى إن جاءت لها مناسبة أخرى أن نبين القسم الذي سقط من كلامنا سهواً لئلا يضيع على بعض طلبة العلم الذين يسمعون هذه الدروس...» إلى آخر ما ذكره (رحمه الله).

ومع هذه الغزارة في المعلومات؛ فقد كان الشيخ (رحمه الله) حين يُلقى درسه كالسيل المنحدر؛ فهو يُسرِع في الإلقاء، وتتوارد عليه هذه المعلومات المتنوعة، التي تمده بها تلك الذاكرة النادرة، فيضع كل معلومة في موضعها، فتأتي متسقة مترابطة، كل ذلك في لغة عالية، لا لحن فيها ولا سوقية^(١).

ومع هذا الإسراع في العرض، بالإضافة إلى ذلك الكم الهائل من المعلومات المتنوعة، مع ما في ضمن ذلك من عزو للقراءات إلى قارئها، والأحاديث إلى مخرجها، والأقوال والمذاهب الفقهية لأصحابها، والأشعار والشواهد لقائلها، إلى غير ذلك مما عرض له في هذا التفسير؛ فإنك مع ذلك كله يندر أن تقوله على غلط مُحَقَّق، وقد تتبعت كل ما يذكره في هذا التفسير بغية توثيقه فهالني قوة ضبطه وحفظه وإتقانه. ولعل من الطريف أن أذكر أن الشيخ (رحمه الله) عند كلامه على القراءات في معرض تفسيره للاية

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم (١٨٢/١).

رقم (٦١) من سورة براءة أخطأ فنسب قراءة الخفض في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾ إلى الكسائي، فترددت في التعليق على ذلك لما عهدته من ضبطه وحفظه، ثم وجدته بعد أن جاوزها وتكلم على بعض المسائل يرجع ويقول: «وأما على قراءة حمزة الذي قرأ ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخفض - هو حمزة لا الكسائي - أما على قراءة حمزة...» إلى آخر ما ذكر.

ولربما عزا الحديث إلى بعض المصنفات فتطلبته فيه مرة بعد مرة بشتى الطرق المعروفة في تخريج الحديث حتى إذا كدت أن أجزم بعدم وجوده فيه وجدته بعد ذلك في غير مظهره.

هذا وقد جرى كثير من المفسرين على إيراد الأدلة والتفصيلات المختلفة عند أول مناسبة تعرض لهم، ثم إذا تكرر نظائر لذلك فإنهم يكتفون بالإشارة لما حرروه في الموضوع المتقدم، وهذا أمر يفيد في اختصار حجم الكتاب بلا ريب وإن كان يؤثر على القارئ كما لا يخفى، وقد جرى على هذه الطريقة الشيخ نفسه في كتابه أضواء البيان. وأما الطريقة الثانية وهي أن يبين ما احتاج إلى بيان في كل موضع وإن كان ذلك متكرراً، فهذه الطريقة أنفع للقارئ من التي قبلها خاصة في التفسير، يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي (رحمه الله): «اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه ﴿مَثَانِي﴾ ثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن وإصلاح الأمور كلها»^(١) هـ. ثم إن الحاجة لذلك تعظم إذا كان التفسير درساً يُلقى في سنين متطاولة في مواسم معينة مع ما بينها من التباعد في المدة وما يحصل مع ذلك من النسيان لدى السامعين إضافة إلى تجدد الكثير من الوجوه في كل مرة؛ ولذا جرى الشيخ (رحمه الله) في هذا التفسير على بيان الآية من جميع الوجوه مع صرف

النظر عن كون ذلك يقع متكرراً، فنجد أنه يبين أن ﴿لَعَلَّ﴾ تأتي بمعنى التعليل في جميع القرآن إلا في موضع واحد؛ يذكر ذلك في أحد عشر موضعاً، وينبه على الفرق بين النبأ والخبر في تسعة مواضع، كما نجد بعض القضايا يكررها في ثمانية مواطن كبيان الفرق بين الخوف والحزن، ولزوم الحمل على ظاهر القرآن إلا للدليل، وأن الشيء قد يُقصر على بعض أفرادهِ؛ لأنهم المنتفعون به، وقضية الحكم بغير ما أنزل الله، وأن علم الغيب يختص بالله (عز وجل)، وهناك بعض المسائل التي تكررت في سبعة مواضع، كالكلام على أطوار خلق الإنسان، وأن الله خلق الخلق ليختبرهم في إحسان العمل، وشرح الأسس الثلاثة التي يُبنى عليها الاعتقاد في باب الأسماء والصفات، والرد على القدرية القائلين بأن الله لم يشأ الكفر والمعاصي، والمناظرة المشهورة التي وقعت بين أبي إسحاق الإسفرائيني والقاضي عبد الجبار المعتزلي في القدر، وغير ذلك مما تكرر هذا التكرار في هذا التفسير، وأما القضايا التي تكررت دون ذلك فهي كثيرة لا أطيل بذكرها، علماً بأن ما بأيدينا من هذه الدروس إنما يمثل أجزاء قليلة من هذا التفسير المبارك، فكيف لو وُجد كاملاً؟

* موقفه من الروايات الإسرائيلية:

إن المطالع لكتب التفسير يجد أن عامتها لم يسلم من دخول الروايات الإسرائيلية على تفاوت بينها في ذلك، فمن مُقِلٍّ ومن مُسْتَكْثَرٍ، مع أن التفسير في غنية عنها، إلا أن كثيراً من المفسرين قد أولعوا بالتتبع لتفاصيل لا طائل تحتها ولا فائدة في معرفتها، كما نبه الشيخ (رحمه الله) على ذلك عند تفسير الآية رقم (٧٣) من سورة البقرة؛ ولذا نرى الشيخ في هذه الدروس لا يكاد يُورد شيئاً منها إلا ما ندر، ثم ينبه على ذلك بعد إيرادهِ أو قبله، كما قال عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف: «وستأتي قصة الرجل في سورة الصافات؛ لأن الله ذكر في الصافات قصة رجل وأجملها، والمفسرون يبسطونها ويشرحونها؛ إلا أن شرحهم لها وبسطها من القصص الإسرائيلية التي لا يُعوّل عليها...» ١. هـ ثم أورد القصة، وكما في كلامه

على الآية رقم (١٦٨) من سورة الأعراف حيث يقول: «وجرت عادة المفسرين أن يذكروا قصة غريبة عنهم في آية ذكرناها قبل هذا من سورة الأعراف - ثم ذكر الآية والقصة المشار إليها ثم عقب ذلك بقوله - هكذا يقولون، وتكثر هذه القصة... في كلام المفسرين عند هذه الآية الكريمة، وقد ألمحنا بالآية ولم نذكرها لأنها لم يثبت عندنا فيها شيء». اهـ. وهكذا عند كلامه على الآية رقم (١٧٥) من سورة الأعراف حيث ذكر بعض الأقوال التي مَعَوْلُها على الإسرائيليات ثم عقب ذلك بقوله: «وكل هذه إسرائيلييات» ثم نقل كلاماً من قبيل الإسرائيليات وعقبه بقوله: «وهذه إسرائيلييات لا معول عليها يذكرها المفسرون» ثم نقل كلاماً لبعضهم من ذلك القبيل وعقبه بقوله: «وغير هذا من روايات كثيرة إسرائيلية يحكيها المفسرون في تفسير هذه الآية من سورة الأعراف لا طائل تحتها ولا دليل على شيء منها». اهـ.

وهذا يُعد مزية لهذا التفسير كما لا يخفى.

وكان من عادته (رحمه الله) أن يختم الدرس بدعاء يُؤمَّن عليه مَنْ حضر، وقد علل ذلك بقوله عند تفسير الآية رقم (٥٥) من سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: «ونحن وإن كنا نعلم أن الإخفاء في الدعاء أفضل من [الجهر] به وندعو غالباً في هذا المجلس دعاءً ظاهراً، قصدنا به أن يسمعنا إخواننا ويؤمنون لنا فنكون مجتمعين على الدعاء في هذا الشهر المبارك، ولو أسررنا الدعاء لما سمعوه ولما آمنوا لنا، والمؤمن أحد الداعين...» إلى آخر ما ذكر.

القيمة العلمية لهذه الدروس:

يمكن أن أُلخص الكلام على هذه القضية في الأمور الآتية:

- ١ - علو كعب صاحبها في العلم، ورسوخه في التفسير، الأمر الذي يجعل لاختياراته وترجيحاته قيمة معتبرة.

- ٢ - غزارة المادة العلمية التي احتوتها هذه الدروس^(١)؛ فهي - كما سبق - تشتمل على معلومات كثيرة مستقاة من مختلف العلوم المحتاج إليها في التفسير، منها ما هو موجود في بعض كتب التفسير، ومنها ما هو مفرق في كتب تتعلق بفنون أخرى كتاريخ ابن جرير، وفتح الباري، وكتب اللغة وغيرها، إضافة إلى بعض الفوائد والشواهد التي تلقاها الشيخ (رحمه الله) عن أخذ عنهم العلم.
- ٣ - تجد في هذه الدروس كثيراً من الاستنباطات العلمية التي توصل إليها الشيخ بعد اطلاع واسع، وفهم ثاقب، ونظر صحيح.
- ٤ - من الأمور الجليلة في هذه الدروس أن الشيخ (رحمه الله) حينما يلقيها ليس هو مجرد ناقل يسرد ما قرأ فحسب، بل نجده ينقل كلام العلماء، ويقارن بين تلك المنقولات ويناقشها، ويختار منها ما يترجح لديه.
- ٥ - في هذه الدروس تقف على نموذج رفيع من توظيف القواعد والضوابط العلمية في الفهم والاستنباط والترجيح. وهذا من أنفع الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم.
- ٦ - تشتمل هذه الدروس على بيان مواطن العبر في القرآن، وربط ما جاء فيه بحياة الناس وواقعهم؛ فالشيخ لا يشرح الآيات على أنها تخاطب قوماً ذهبوا وقضوا، بل يبينها بطريقة تجعل السامع يعيش معها كلمة
-
- (١) وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فاعلم أن هذا القدر الذي وقفنا عليه من هذا التفسير المبارك لا يمثل إلا أجزاء قليلة من القرآن لا تتجاوز الأربعة، ومع ذلك تجد فيها من الأحاديث والآثار - من غير المكرر - ما يقارب الخمسمائة، وفيها من الأشعار والشواهد والمنظومات ما يزيد على ستمائة بيت، وفيها من القراءات ما يقارب خمسين ومائتي قراءة، وأكثر من عشرين ومائة فرع فقهي، وفيه نحو هذا الكم من المسائل المتعلقة بالعقيدة، كما تجد فيه أكثر من سبعين قاعدة من القواعد المتنوعة، وما يقرب من سبعين إشكالاً أجاب عنها، إضافة إلى ما يذكره من الفروق المتنوعة وهي تقارب الخمسين فرقاً، فضلاً عن القضايا الإعرابية والصرفية والبلاغية وغير ذلك.

كلمة، وآية آية، حتى يدرك أنه مخاطب بها.

٧ - يتعرض الشيخ (رحمه الله) في هذه الدروس لتحليل كل كلمة في الآية، ويبين معناها وما تدل عليه، كما يبين أصل مادتها وهكذا. فهو لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويتكلم عليها غالباً. وبهذا تدرك فرقاً جلياً بين هذه المادة التي بين يديك وبين ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في كتابه (أضواء البيان)؛ إذ إنه في (الأضواء) لا يتعرض لتفسير جميع الآيات، بل يتكلم على بعضها، كما لا يتطرق إلى تفسير جميع الألفاظ في الآية التي يفسرها؛ ذلك أنه قصد من تأليفه أمرين اثنين - كما صرح بذلك في مقدمته^(١) - هما:

١ - بيان القرآن بالقرآن.

٢ - بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبيّنة.

وقفة مع تسجيل دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير:

يبدو أن دروس الشيخ (رحمه الله) في الكلية لم تكن تُسجل صوتياً؛ إذ يقول أحد تلامذته في الكلية: «ولم تكن في ذلك الوقت نفكر في إحضار مسجل للصوت لأسباب: منها كبر حجم المسجلات، حيث يصعب حملها مع حمل الكتب، ومنها أنها تحتاج إلى أشرطة كثيرة قد يصعب على الطالب شراؤها، لقلة النفقة»^(٢) اهـ.

أما في المسجد النبوي فقد كانت تلك الدروس تسجل صوتياً، وبين أيدينا مجموعة منها تُعد بالعشرات.

يقول أحد تلامذة الشيخ: «ومرة من المرات أحصيت أربعين مسجلاً للصوت تُسجل دروسه»^(٣) اهـ.

(١) انظر الأضواء (٥/١ - ٦).

(٢) معارج الصعود ص ١٢.

(٣) نقله صاحب كتاب: جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف ص ٦٩.

إلا أن من المؤسف أن المتداول بين أيدينا منها يُعد ضئيلاً مقارنة بكثرة تلك الدروس! والظاهر أن جميع الدروس المسجلة في المسجد النبوي والمتداولة إنما هي من المرة الثانية من المرتين اللتين فسر فيهما الشيخ (رحمه الله) القرآن، وقد مات ولم يتمها وقد صرح (رحمه الله) بذلك عند تفسير الآية رقم (٩٩) من سورة الأعراف.

هذا وقد تطلبت ما سُجِّل من تلك الدروس العامرة فوق لي منها سبع نسخ^(١)، في كل نسخة منها زيادات - ولو يسيرة - قد سقطت من النسخ الأخرى، وبعد استعراض محتوياتها والمقارنة بينها صنعت من مجموعها نسخة مُكمَّلة تحوي جميع التفسير المسجل في تلك النسخ، وبهذا أمكن التخلص من كثير من المسح والانقطاع في التسجيل الواقع في كل نسخة مما وقفت عليه من تلك الدروس المسجلة، ثم رقمتها ترقيماً خاصاً وهو ما سأذكره قريباً - إن شاء الله تعالى^(٢) -.

(١) بعد المقارنات بين هذه النسخ وتكرار سماعها تبين لي بما لا يدع مجالاً للشك أنها تدور على نسخة واحدة في الأصل قد سُجِّلَت منها، وهي نسخة الشيخ عطية (رحمه الله) إلا أن قلة العناية بالتسجيل أدى إلى هذا التفاوت، والله المستعان.

(٢) ولتسهيل الوقوف على هذه النسخة بعثت بنسخة منها للمكتبة الصوتية في المسجد النبوي، كما تجدها أيضاً في تسجيلات البخاري بمكة، بالإضافة إلى بعض المواقع في الشبكة العنكبوتية، مثل:

١ - موقع رسالة الإسلام <http://www.islammessage.com>

٢ - موقع السلفيون <http://www.alsalafyoon.com>

(*) تنبيه: عند تصحيح طباعة هذا الكتاب وقفت على نسخة صوتية جديدة لهذه الدروس تفضل بها الشيخ الدكتور بسام الغانم فوجدت فيها بعض المادة التي ذهبت من النسخ الأخرى بسبب انقطاع التسجيل أو المسح، فألحقته في مواضعها من الكتاب، وهي إجمالاً على النحو التالي:

١ - زيادة بقدر سطرين ضمن تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

٢ - زيادة بقدر ثلاثة أسطر ضمن تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

٣ - زيادة بقدر ورقتين ضمن تفسير الآية السابقة.

٤ - زيادة بقدر خمسة أسطر ضمن تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

٥ - زيادة بقدر ثلاثة أسطر ضمن تفسير الآية (٥٢) من سورة الأعراف.

ذكر محتويات الأشرطة التي أمكن الوقوف عليها:

إن مجموع ما بأيدينا من هذه الأشرطة المتعلقة بالتفسير يبلغ ستة وسبعين شريطاً موزعة على خمس سور من القرآن الكريم هي: (البقرة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، التوبة) وإليك عرضاً لمحتوياتها تفصيلاً.

أولاً: من سورة البقرة: وهي ثلاثة أشرطة:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (٤٥) - (٥٣).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٥٤) - (٥٩)، (٦٧) - (٦٩).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٦٩) - (٧٩).

وهذه الأشرطة ليست ضمن سلسلة دروس الشيخ (رحمه الله) في المسجد النبوي؛ وإنما سجلها تلميذه الشيخ عطية سالم (رحمه الله) في منزل الشيخ (رحمه الله) حين أقعده المرض عن إلقاء درسه في الجامعة، فكان هذا التسجيل للطلبة تعويضاً لهم من انقطاع الشيخ (رحمه الله) عنهم.

ثانياً: من سورة الأنعام:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (٣٣) - (٣٨).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٣٨) - (٤٢)، نصف الآية (٤٣) قوله: ﴿تَضَرَّعُوا﴾.

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٤٣) - (٤٨).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٤٩) - (٥٣).

= ٦ - زيادة كثيرة بقدر شريط لمدة ساعة تقريباً ضمن تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

٧ - زيادة بقدر نصف سطر ضمن تفسير الآية (٦٨) من سورة الأعراف.

٨ - زيادة بقدر سطر ضمن تفسير الآية (٨١) من سورة الأعراف.

- الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٥٣) - (٥٧).
- الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٥٧) - (٥٩)، (٧٤).
- الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٧٤) - (٨٢).
- الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٨٣) - (٨٩).
- الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٩٠) - (٩٣).
- الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٩٣) - (٩٧).
- الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيتين: (٩٨) - (٩٩).
- الشريط رقم [١٢] فسر فيه الآيات: (١٠٠) - (١٠٢).
- الشريط رقم [١٣] فسر فيه الآيات: (١٠٣) - (١٠٨).
- الشريط رقم [١٤] فسر فيه الآيات: (١٠٨) - (١١١).
- الشريط رقم [١٥] فسر فيه الآيات: (١١٢) - (١١٦).
- الشريط رقم [١٦] فسر فيه الآيات: (١١٦) - (١٢٠)، (١٢٨).
- الشريط رقم [١٧] فسر فيه الآيات: (١٢٨) - (١٣١).
- الشريط رقم [١٨] فسر فيه الآيات: (١٣١) - (١٣٥)، (١٤١) - (١٤٤).
- الشريط رقم [١٩] فسر فيه الآيات: (١٤٤) - (١٤٦).
- الشريط رقم [٢٠] فسر فيه الآيات: (١٤٦) - (١٥٠).
- الشريط رقم [٢١] فسر فيه الآيتين: (١٥٠) - (١٥١).
- الشريط رقم [٢٢] فسر فيه الآيات: (١٥١) - (١٥٢). بداية (١٥٥).
- الشريط رقم [٢٣] فسر فيه الآيات: (١٥٥) - (١٥٨).
- الشريط رقم [٢٤] فسر فيه الآيتين: (١٥٨) - (١٥٩).
- الشريط رقم [٢٥] فسر فيه الآيات: (١٥٩) - (١٦٥).

ثالثاً: سورة الأعراف:

- الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) - (٣).
 الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٤) - (٧).
 الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٨) - (١١).
 الشريط رقم [٤] فسر فيه الآية: (١١).
 الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٣١) - (٣٥).
 الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٣٥) - (٣٨).
 الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٣٨) - (٤٤).
 الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٤٤) - (٥٢).
 الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٥٢) - (٥٤).
 الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٥٤) - (٦٢).
 الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيات: (٦٣) - (٧٢).
 الشريط رقم [١٢] فسر فيه الآيات: (٧٣) - (٨١).
 الشريط رقم [١٣] فسر فيه الآيات: (٨١) - (٨٩).
 الشريط رقم [١٤] فسر فيه الآيات: (٨٩) - (٩٩).
 الشريط رقم [١٥] فسر فيه الآيات: (٩٩) - (١٠١).
 الشريط رقم [١٦] فسر فيه الآيات: (١٠١) - (١٠٦)، (١١٥) - (١٢٤).

- الشريط رقم [١٧] فسر فيه الآيات: (١٢٤) - (١٣٥)، (١٣٧).
 الشريط رقم [١٨] فسر فيه الآيات: (١٣٨) - (١٤٤).
 الشريط رقم [١٩] فسر فيه الآيات: (١٤٨) - (١٥٥).
 الشريط رقم [٢٠] فسر فيه الآيتين: (١٥٦) - (١٥٧).

- الشريط رقم [٢١] فسر فيه الآيتين: (١٥٨) - (١٥٩).
 الشريط رقم [٢٢] فسر فيه الآيات: (١٥٩) - (١٦٣).
 الشريط رقم [٢٣] فسر فيه الآيات: (١٦٤) - (١٧٤).
 الشريط رقم [٢٤] فسر فيه الآيات: (١٧٥) - (١٨١).
 الشريط رقم [٢٥] فسر فيه الآيات: (١٨٢) - (١٨٩).
 الشريط رقم [٢٦] فسر فيه الآيات: (١٨٩) - (١٩٩).
 الشريط رقم [٢٧] فسر فيه الآيات: (١٩٩) - (٢٠٦).

رابعاً: من سورة الأنفال:

- الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) - (٧).
 الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٧) - (١١).
 الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (١١) - (١٣)، (٢٤) - (٢٨).
 الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٢٩) - (٤١).
 الشريط رقم [٥] فسر فيه الآية: (٤١) فقط.
 الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٤١) - (٤٤).
 الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٤٥) - (٥٠).
 الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٥٠) - (٦١).
 الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٦١) - (٦٩).
 الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٧٠) - (٧٣).
 الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيات: (٧٣) - (٧٥).

خامساً: من سورة التوبة:

- الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) - (٧).

- الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٧) - (١٦).
 الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (١٧) - (٢٥).
 الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٢٥) - (٢٨).
 الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٢٨) - (٣١).
 الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٣١) - (٣٥)، (٣٧).
 الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٣٨) - (٤٠).
 الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٤٠) وبعض (٤١)، ثم (٤٤) - (٥٧).
 الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٥٧) - (٦٣).
 الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٦٣) - (٦٧).

الطريقة المتبعة في إخراج هذا التفسير:

أولاً: فيما يتعلق بتفريغ محتويات الأشرطة ومراجعتها:

- ١ - قمت باستخراج نسخة مسجلة تحوي جميع محتويات النسخ التي توفرت لدي.
- ٢ - فيما يتعلق بتفريغ محتويات هذه الأشرطة فقد وكلت ذلك إلى مجموعة من طلبة العلم الذين تفضلوا بالقيام بهذه المهمة.
- ٣ - بعد أن تم تفريغ محتويات الأشرطة قمت بمراجعتها، وذلك بالمقابلة بين المکتوب على الورق وبين التسجيل الصوتي، وذلك للتأكد من سلامة النص المُنشئ. وقد التزمت أن لا تقل هذه المقابلة عن مرتين في كل شريط.

ثانياً: ما يتعلق بالتوثيق والعزو:

- ١ - قمت بترقيم الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث والآثار من مصادرها، وكذلك الشواهد الشعرية.

٢ - عملت على ذكر مصادر المادة العلمية التي يذكرها الشيخ (رحمه الله) من قراءات، وتصريف، وبلاغة، وإعراب، وأحكام، وقواعد، وغير ذلك مما تجده في حاشية الكتاب.

٣ - عَرَفْتُ ببعض المصطلحات القليلة التداول، وبعض الكلمات الغامضة.

ثالثاً: ما يتعلق بمنهج الكتابة والتوثيق:

١ - إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما في حال التفرد.

٢ - عند ذكر مصادر القراءات، أو الشواهد، أو القواعد، أو المسائل العلمية، فإنني أكتفي - غالباً - بذكر مصدر واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، دون التوسع في هذا الباب.

٣ - أثبت كلام الشيخ بنصه من غير تصرف إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب، وفي هذه الحالات على الوجه الصحيح من غير إشارة إلى ذلك. وفي حال وجود انقطاع في التسجيل، أو مسح في الشريط، أو لفظة غير واضحة، فإنني أضع مكان ذلك ما يتم به المعنى من كلام الشيخ في موضع آخر - إن وُجد - وإلا كملته بما يتناسب مع السياق، وأجعل ذلك بين معقوفتين []، وهكذا فيما يقع من سبق اللسان، ثم أنه إلى ذلك في الحاشية.

٤ - في بعض الأحيان يذكر الشيخ (رحمه الله) كلمة أو أكثر ثم يستدرك فيذكر كلاماً آخر، وفي هذه الحالة أترك الكلام الذي أعرض عنه الشيخ، وأثبت كلام الشيخ بعد الاستدراك. كما أن الشيخ (رحمه الله) قد يكرر الجملة ليفهم السامع مراده أو يعيدها بعد الفراغ منها تأكيداً لمضمونها في ذهن المستمع وهذا أمر يحتاج إليه الملقي، لكن إن وقع في المادة المكتوبة فإنه يُخل بتتابع الكلام وترابط أجزائه؛ ولذا فإنني - غالباً - أحذف الجملة المكررة التي لا تحمل أي فائدة زائدة من جهة المعنى ولا أشير لذلك.

- ٥ - يوجد في آخر كل درس من دروس سورة البقرة سؤالات موجهة من الشيخ عطية لشيوخه الأمين (رحمه الله)، وهي تتصل ببعض المواضع من الآيات المفسرة في الدرس نفسه، ثم يجيب الشيخ عنها. وقد قمت بوضعها في موطنها التي تتصل بها (في الهامش) مع الإحالة عند موطنها من المتن على الهامش، وقد أثبت جواب الشيخ بنصه، أما السؤال فقد أختصره أو أعيد صياغته.
- ٦ - إذا وقع للشيخ خطأ في الآية القرآنية فإني أصلحه دون الإشارة لذلك.
- ٧ - الأحاديث التي يوردها الشيخ (رحمه الله) أثبتتها كما نطق بها. مع أنه قد يذكرها بالمعنى في بعض الأحيان، وإنما اكتفيت بتخريجها.
- ٨ - فيما يتعلق بالشواهد والأشعار التي يوردها الشيخ (رحمه الله)، قد أجد مغايرة في بعض الألفاظ فيما بين ما نطق به الشيخ وما وقفت عليه من المصادر التي ذكر البيت فيها. فإن وقفت في هذه الحالة على رواية للبيت توافق ما ذكره الشيخ اكتفيت بذلك وأثبتته كما قاله. وإلا أثبتته كما قاله الشيخ المفسر، وأشارت في الهامش إلى نوع المغايرة التي وقفت عليها.
- أما إذا كان البيت من ألفية ابن مالك، أو مراقي السعود، أو غير ذلك من المنظومات العلمية فإني أثبتته كما في الأصل الذي أخذ منه.
- ٩ - عند بداية كل وجه من تلك الأشرطة أضع علامة (/) مع كتابة رقم الشريط والوجه في البياض الأيسر من الصفحة، هكذا (١/١) أو (١/ب) وهلم جراً.
- ١٠ - بعد كل درس يختم الشيخ (رحمه الله) بدعاء قدر نصف صفحة، وقد تركت نقل ذلك اختصاراً، ولأنه لا تعلق له بموضوع التفسير^(١).

(١) وقد نقلت نص دعائه في أحد الدروس في آخر الكتاب.

رابعاً: فيما يتعلق بالفهارس:

كنت قد أعددت فهارس متنوعة تُقَرَّبُ مادة الكتاب لدى القراء، ثم عدلت عن ذلك لأمرين:

الأول: أن الكتاب لم يكتمل، ولا زلنا نأمل الحصول على مزيد من الدروس المسجلة للشيخ (رحمه الله)، وهذا يعني أنه بمجرد حصول زيادة في المحتويات يحصل إخلال في الفهارس من جهة أرقام الصفحات كما لا يخفى.

وهذا السبب بعينه هو الذي ألجأ إلى أن تكون الإحالات إلى المواضع السابقة واللاحقة في الحاشية مرتبطة بأرقام الآيات في السور.

الثاني: كنت قد عهدت لأحد الفضلاء من طلبة العلم^(١) صناعة فهارس علمية شاملة لجميع ما ورَّثه الشيخ (رحمه الله) من العلم، سواء كان أصل مادته مؤلفاً للشيخ، أم كان دروساً مسجلة كُتبت بعد ذلك، كبعض المحاضرات، أو هذا التفسير، بالإضافة إلى بعض الفتاوى الخطية التي كتبها الشيخ (رحمه الله) ولم تطبع بعد، وهذا يغني عن وضع فهارس خاصة لهذا الكتاب. ولتيسير الوقوف على الآية المطلوب تفسيرها قمت بترقيم الآيات بالإضافة إلى كتابة اسم السورة ورقم الآية المفسرة في رأس كل صفحة.

هذا وقد سميته (العذب النмир من مجالس الشنقيطي في التفسير).

أسأل الله (عز وجل) أن ينفع به مَنْ كَتَبَهُ، أو قرأه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) وهو الأستاذ زاهر الشهري حفظه الله.

شكر ورجاء

أشكر كل من أعان على إخراج هذا العمل برأي، أو فائدة، أو مقابلة، أو مراجعة، أو غير ذلك، ولا سيما إخواني الفضلاء الذين تكبدوا عناء كبيراً في سبيل تفريغ محتويات الأشرطة على الورق. فأسأل الله أن يُجزل لهم المثوبة ويعظم لهم الأجر ويختم لهم بالسعادة إنه قريب مجيب.

كما أرجو كل من وقف عليه ورأى فيه نقصاً أو خللاً أن يرشدني إليه وله مني الشكر والدعاء.

ثم من كان لديه مزيد على ما وقفت عليه من دروس الشيخ المسجلة - وهي المذكورة ضمن هذه المقدمة - فليطلعي عليه إتماماً لهذا العمل، ونشراً لعلم الشيخ (رحمه الله)، ومشاركة في بذل النفع للخلق.

ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه: خالد بن عثمان السبت

المدينة النبوية

٩/رجب/١٤١٧هـ

ترجمة العلامة المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي^(١)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار. من أولاد الطالب أوبك، الذي هو من أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكّن الأبر، جد القبيلة المعروفة بالجكنيين، والتي يرجع نسبها إلى حمير.

ثانياً: مولده ونشأته:

وُلد الشيخ (رحمه الله) سنة (١٣٢٥هـ) عند ماء يُسمى (تَبَّه) من أعمال مديرية (كيفا) من موريتانيا.

وقد نشأ الشيخ (رحمه الله) يتيماً؛ إذ توفي والده وهو صبي صغير لا زال يقرأ في جزء عمّ من القرآن الكريم. فترعرع الغلام في بيت أخواله الذين هم من بني عمومته؛ ذلك أن والدته كانت ابنة عم أبيه، وكان ذلك

(١) مصادر الترجمة: ترجمة تلميذه الشيخ عطية سالم، وهي مطبوعة في آخر أضواء البيان، «علماء ومفكرون عرفتهم»، للمجذوب (١/١٧١)، «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي»، للسديس، «جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف»، للطويان (مطبوع على الراقمة، وهو عبارة عن رسالة ماجستير مقدمة في الجامعة الإسلامية عام ١٤١٢هـ).

البيت الذي تربى فيه الشيخ (رحمه الله) يزخر بمزيد من العلم فضلاً عما يكتنف تلك البيئة من قطر شنقيط عموماً من انتشار للعلم وذويه، والأدب وأربابه، والفروسية ورجالاتها.

وكان أبوه قد خلف له ثروة من المال والحيوان، ولم يخلف ولداً سواه.

يقول الشيخ (رحمه الله) متحدثاً عن بعض أيام الصبا: «كنت أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة، حتى حفظت الحروف الهجائية، وبدؤوا يقرئونني إياها بالحركات (ب، فتحة با، ب كسرة بي، ب ضمة بو) وهكذا... فقلت لهم: أو كل الحروف هكذا؟ قالوا: نعم، فقلت: كفى، إني أستطيع قراءتها كلها على هذه الطريقة؛ كي يتركوني، فقالوا: اقرأها. فقرأت بثلاثة حروف أو أربعة، وتنقّلت إلى آخرها بهذه الطريقة، فعرّفوا أنني فهمت قاعدتها، واكتفوا مني بذلك، وتركوني، ومن ثمّ حُبِّبت إليّ القراءة» ا.هـ.

ولمّا أتم العاشرة من عمره فرغ من حفظ القرآن الكريم على خاله عبدالله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح.

ثالثاً: طلبه للعلم

بعد أن أتم حفظ القرآن في سن العاشرة تعلم رسم المصحف العثماني على ابن خاله، وهو سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، كما قرأ عليه التجويد في مقراً نافع، برواية ورش، من طريق أبي يعقوب الأزرق، وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذ عنه سنداً بذلك إلى النبي ﷺ، وكان قد بلغ من العمر ستة عشر عاماً.

كما درس أثناء تلك القراءة بعض المختصرات في الفقه على مذهب الإمام مالك، كرجز ابن عاشر، كما درس الأدب مع شيء من التوسع على زوجة خاله، وأخذ عنها إضافة إلى الأدب: مبادئ النحو كالآجرومية، وبعض التمرينات، كما أخذ عنها بتوسع: أنساب العرب وأيامهم، والسيرة

النبوية، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي - وهو يربو على خمسمائة بيت مع شرحه لابن أخت المؤلف المعروف بحماد، ودرس عليها أيضاً نظم عمود النسب للمؤلف نفسه، وهو نظم طويل يُعد بالآلاف، بالإضافة إلى شرحه لابن أخت المؤلف (القدر المتعلق بالعدنانيين).

كل ذلك حصّله في بيت أخواله!! وقد أخذ عن غيرهم الفقه المالكي من مختصر خليل، والنحو من ألفية ابن مالك وغيرها، والصرف، والأصول، والبلاغة، وشيئاً من الحديث، والتفسير.

أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فكان تحصيله لها عن طريق المطالعة.

يُحدثنا الشيخ (رحمه الله) عن بداية الطلب فيقول: «ولما حفظت القرآن، وأخذت الرسم العثماني، وتفوقت فيه على الأقران، عُيّنت بي والدتي وأخوالي أشد عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهزوني والدتي بجملين، أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب، وملابس كأحسن ما تكون، فرحاً بي، وترغيباً لي في طلب العلم، وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل» اهـ.

رابعاً: همته في طلب العلم

كان الشيخ (رحمه الله) يتمتع بهمة عالية في طلب العلم، فلم يكن يُقوّت مسألة مما درس دون استيعاب وتمحيص، وإن كلفه ذلك جهوداً مضنية وأوقاتاً طويلة، وإليك هذه الواقعة التي تنادي بما ذكرت، يقول الشيخ (رحمه الله): «جئت للشيخ في قراءتي عليه، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت، ولم يرو لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس، وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهراً، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتى المغرب، فلم أنه أيضاً،

فأوقد لي خادمي أعواداً من الحطب أقرأ على ضوءها، كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبسي، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم...»
١.هـ.

هكذا كان يصنع (رحمه الله) حينما يعرض له إشكال!! بالإضافة إلى ما كان يكابده من سهر في تتبع كلام الشراح للكتاب الذي يشتغل بدراسته طلباً لاستيفاء كل ما قيل في المسألة أو الباب.

خامساً: غزارة علمه وسعة اطلاعه:

حبا الله الشيخ (رحمه الله) ذكاءً مفرطاً، وحافظة نادرة، وهمة عالية، فسخر ذلك كله في تحصيل العلم وجمعه بمختلف فنونه وصنوفه، من عقيدة، وتفسير، وحديث، وأصول، وعربية...

وكان كلامه في العلم يشد كل من سمعه، حتى يُخيل للسامع أن الشيخ أفنى عمره في ذلك الفن ولا يُحسن غيره!

وهذه ليست من المبالغة في شيء، ومن قرأ كتابه الرحلة، أو سمع شيئاً من محاضراته ومناظراته، سواء في المدينة النبوية، أو ما سُجِّل له إبان زيارته لعشر دول إفريقية على رأس وفد من الجامعة، عرف حقيقة ما ذكرت، كما أن دروسه المُسجَّلة في التفسير أكبر شاهد على ذلك.

ولقد صدق (رحمه الله) حينما قال: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة» ١.هـ.

وقال: «كل آية قال فيها الأقدمون شيئاً فهو عندي!!»

ولما قال له أحد الأشخاص: «إن سليمان الجمل - صاحب حاشية الجمل على الجلالين - لم يقل هذا». قال: «أحلف لك بالله أنني أعلم

بكتاب الله من سليمان الجمل بكذا؛ لأنني أخذت المصحف من أوله إلى آخره، ولم تبق آية إلا تتبعت أقوال العلماء فيها، وعرفت ما قالوا».

وكان (رحمه الله) يحفظ من أشعار العرب وشواهد العربية الآلاف المؤلفة من الأبيات، كما كان يحفظ أكثر أحاديث الصحيحين، وألفية ابن مالك، ومراقي السعود، وألفية العراقي، وغير ذلك من المنظومات في السيرة النبوية، والغزوات، والأنساب، والمتشابه من ألفاظ القرآن، وشيئاً من المتون في الفقه نثراً ورجزاً.

ومن سمع شيئاً من دروس التفسير لم يستكثر ذلك عليه.

سادساً: عقيدته:

إن من الأمور البارزة التي تشد انتباه المستمع لدروس الشيخ (رحمه الله) أو القارئ لهذا المكتوب منها، كثرة تقريره لاعتقاد أهل السنة والجماعة في جميع الأبواب الاعتقادية - خاصة ما يتعلق بالأسماء والصفات - فهو يقرر ذلك كله بعبارة واضحة على قواعد راسخة مع حشد من الأدلة النقلية والعقلية، حتى إن المستمع لكلامه أو القارئ له يُخيل إليه أن الشيخ (رحمه الله) لا يُحسن غير هذا الباب من العلم. ومع توسع الشيخ (رحمه الله) في تقرير عامة هذه المسائل وإفاضة في الاحتجاج للمعتقد الحق فيها، كان لا يكل ولا يمل من تكرار ذلك عند كل مناسبة، فنجد أنه يتكلم في بيان الأسس الثلاثة التي يُبنى عليها المعتقد الصحيح في الصفات في ثمانية مواضع من هذه الدروس التي وصلت إلينا، وهكذا كلامه على موضوع التشريع والحكم بغير ما أنزل الله، وكذا عند بيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، كما نجد الرد على القدرية في سبعة مواضع، وكذا عرض المناظرة بين الإسفرائيني والقاضي عبد الجبار في القدر، وفي ستة مواضع يقرر صفة الاستواء، وفي مثلها يذكر المحاوراة التي وقعت بين الأعرابي وعمرو بن عبيد في القدر، إلى غير ذلك مما يتكرر في هذه الدروس المباركة من مسائل الاعتقاد.

وهذا التقرير لمسائل الاعتقاد لا يقتصر على الدروس التي كان يلقيها في التفسير في مسجد رسول الله ﷺ بل نجدها مبثوثة في كتبه، لا سيما «أضواء البيان»^(١).

ولم يكن تمكن الشيخ (رحمه الله) مقتصراً على اعتقاد أهل السنة، بل هو راسخ المعرفة بمذاهب المتكلمين ووجوه بطلانها، وهذا ظاهر بجلاء فيما يقرره في هذه الدروس وفيما ذكره في كتبه، وقد قال (رحمه الله) عند تفسير الآية رقم (٥٤) من سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾ بعد تقريره للمعتقد الصحيح في باب الصفات وبيان بطلان مذهب المتكلمين في ذلك: «ونحن نقول لكم هذا ونقرر لكم مذهب السلف على ضوء القرآن العظيم مع أننا ما درّسنا دراسة شديدة مثل علوم الكلام والمنطق، وما تنفي به كل طائفة بعضاً من صفات الله، ونحن مطلعون على جميع الأدلة وعلى تركيبها التي نفي بها بعض الصفات، عارفون كيف جاء البطلان، ومن الوجه الذي جاء البطلان، واسم الدليل الذي تُرد به، ولكن ذلك لا يليق في هذا المجلس الحافل؛ لأنه لا يعرفه إلا خواص الناس، فبعد النظر العام الطويل في علم الكلام وما يستدل به طوائف المتكلمين، وما ترد به كل طائفة على الأخرى، والأقيسة المنطقية التي رتبوها ونفوا بها بعض الصفات، ومعرفتنا من الوحي ومن نفس الكلام والبحوث والمناظرات كيف يُبطل ذلك الدليل، ومن أين جاء الخطأ، وتحققنا من هذا كله، بعد ذلك كله تحققنا كل التحقق أن السلامة كل السلامة، والخير كل الخير في اتباع نور هذا القرآن العظيم، والاهتداء بهدي هذا النبي الكريم...» إلخ.

وبعد هذا العرض بقي أن تعلم أن الشيخ (رحمه الله) لم يحصل له هذا الرسوخ في هذا الباب في أخريات حياته بل تجد ذلك أيضاً في بعض مؤلفاته القديمة قبل استقراره في هذه البلاد، ومن ذلك ما كتبه في كتابه (رحلة الحج إلى بيت الله الحرام) جواباً على سؤال وجّه إليه عن مذهب

(١) وقد جُمع في ذلك رسالة علمية مقدمة إلى الجامعة الإسلامية.

أهل السنة في الصفات فأجاب بنفس الأسلوب والمستوى الذي كان يقرر فيه اعتقاد أهل السنة في هذا الباب في أخريات حياته. فرحمه الله رحمة واسعة.

سابعاً: الوظائف والأعمال التي تقلدها في بلاده:

تصدى الشيخ (رحمه الله) للتدريس والفتيا، كما اشتهر بالقضاء، وكانت طريقته فيه أن يستكتب المتقاضيين رغبتهما في التقاضي إليه، وقبلهما ما يقضي به، ثم يستكتب المدعي دعواه، ويكتب جواب المُدعى عليه أسفل كتابة الدعوى، ثم يكتب الحكم مع الدعوى والإجابة، ثم يحيلهما إلى من شاء من المشايخ أو الحكام للتصديق عليها وتنفيذها.

وكان يقضي في كل شيء إلا في الدماء والحدود، إذ كان للدماء قضاء خاص، وكان الحاكم الفرنسي في البلاد يقضي بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة، وبعد تمحيص القضية وإنهاء المرافعة، وصدور الحكم، يعرض على عالَمين من علماء البلاد للمصادقة عليه، ويطلق على العالَمين: لجنة الدماء، وكان (رحمه الله) أحد عضوي هذه اللجنة.

ولم يخرج الشيخ (رحمه الله) من بلاده حتى علا قدره، وذاع صيته، وعظمت منزلته بين الخاص والعام والقاصي والداني، وصار علماً من أعلام البلاد، وموضعاً لثقة الجميع.

ثامناً: سفره إلى الحج واستقراره في المدينة النبوية، وأثر ذلك عليه من الناحية العلمية:

سافر الشيخ (رحمه الله) من بلاده لسبع مضين من جمادى الآخرة، من سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف، قاصداً الحج عن طريق البر على نية العودة بعد ذلك إلى البلاد، وقد كانت تلك السفرة حافلة بالفوائد والمباحثات العلمية القيمة التي تبرهن على رسوخ الشيخ في العلم، وطول باعه فيه، يُسَلَّم بذلك كل من قرأ ما دَوَّنه في تلك الرحلة بعنوان: «الرحلة إلى بيت الله الحرام».

وبعد فراغ الشيخ من مناسك الحج توجه صوب المدينة النبوية، ثم عزم على البقاء والاستقرار فيها، وكان (رحمه الله) يقول: «ليس من عملٍ أعظم من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله ﷺ».

وقد كان لاستقراره في هذه البلاد أثر ظاهر في زيادة اطلاعه، وتوسيع دائرة علمه؛ ذلك أن الدراسة في بلاده كانت منصبة على الفقه في مذهب الإمام مالك خاصة دون غيره من المذاهب، إضافة إلى علوم العربية، والأصول، والسيرة، والتفسير، والمنطق، ولم تكن دراسة الحديث تحظى بما يحظى به غيرها، لاقتصار الناس على مذهب مالك (رحمه الله).

فلما بدأ الشيخ (رحمه الله) يزاوِل التدريس في المسجد النبوي، وخالط العامة والخاصة، ألقى من يمثل المذاهب الأربعة، ومن يناقش فيها، ويبحث عن الدليل ويتطلبه، كما وجد الدراسة في المسجد النبوي لا تقتصر على مذهب معين، فكان من المتعين على من تصدر للتدريس في مثل هذه البيئة الاطلاع على سائر المذاهب المعتمدة، والوقوف على أقوال العلماء في المسألة، مع التضلع بعلوم الكتاب والسنة، فدأب الشيخ (رحمه الله) في تحصيل ذلك، وقد ساعده على هذا التوسع تمكنه من علوم الآلة.

وإن هذا الأثر المشار إليه تجده بارزاً في كتابه «أضواء البيان» عندما يتعرض للمسائل الفقهية.

تاسعاً: الأعمال التي زاولها (رحمه الله) بعد استقراره في بلاد الحرمين:

١ - تفسير القرآن الكريم في المسجد النبوي، وقد أتم تفسير جميع القرآن، ثم شرع في تفسيره ثانية إلا أن المنية عاجلته، فمات (رحمه الله) ولم يُجاوز سورة براءة.

٢ - تدريس التفسير في (دار العلوم) في المدينة النبوية منذ عام (١٣٦٩هـ) إلى أن انتقل إلى الرياض عام (١٣٧١هـ).

٣ - تدريس التفسير والأصول منذ سنة (١٣٧١هـ) حينما افتتحت الإدارة

العامة للمعاهد والكليات بالرياض معهداً علمياً، تلاه عدة معاهد، وكليتا الشريعة واللغة العربية، وكان الشيخ (رحمه الله) ممن اختير للتدريس هناك، فانتقل إلى الرياض، وبقي يُدرس هناك حتى انتقل إلى المدينة كما سيأتي.

- تدريس بعض مؤلفات شيخ الإسلام (رحمه الله) حيث خصص الشيخ (رحمه الله) - إضافة إلى ما سبق - درساً لمدرسي المعهد في بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)، وكان ذلك في صحن المعهد بدخنة بين العشاءين.

- تدريس الأصول، وذلك في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم (رحمه الله) حيث كان الأمين (أكرم الله مثواه) يدرس الأصول لكبار الطلبة.

- تدريس الأصول لخواص تلامذته في بيته بعد العصر، كما أُملى على أحد تلامذته شرحاً لـ «مراقي السعود».

٤ - التدريس في الجامعة الإسلامية منذ سنة (١٣٨١هـ) حينما افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، فانتقل الشيخ (رحمه الله) للتدريس فيها، إضافة إلى كونه عضواً في مجلسها، وقد استمر على ذلك يُدرس التفسير والأصول حتى وافاه الأجل، كما دُرّس فيها آداب البحث والمناظرة.

٥ - السفر في الدعوة إلى الله (تعالى) وذلك في عام (١٣٨٥هـ) حيث سافر الشيخ (رحمه الله) على رأس بعثة من الجامعة الإسلامية إلى عشر دول إفريقية، بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا، وكانت سفرته هذه حافلة بالدروس والمحاضرات، واللقاءات العلمية، والمباحثات النافعة، وقد كانت مدة تلك السفارة تزيد على الشهرين.

٦ - التدريس في المعهد العالي للقضاء منذ افتتاحه سنة (١٣٨٦هـ) في مدينة الرياض، وكانت الدراسة فيه آنذاك على نظام استقدام الأساتذة الزائرين، فكان (رحمه الله) يذهب هناك لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول.

٧ - في (١٣٩١/٧/٨هـ) تم تشكيل هيئة كبار العلماء من سبعة عشر عضواً، وكان الشيخ (رحمه الله) واحداً من هؤلاء الأعضاء.

٨ - كان الشيخ (رحمه الله) أحد أعضاء المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

عاشراً: زهده وورعه:

إن العالم بحق من حَمَلَهُ علمه على خشية الله (عز وجل) ومراقبته، مع مجانية أعمال السفهاء من التكالب على الدنيا، والتهارش عليها، والتشاغل بها عن الله والدار الآخرة.

وإن المرء ليشهد عجبه حينما يقف على حال الشيخ (رحمه الله) في هذا الباب، حتى يخیل إليك أن المترجم واحد من أولئك السلف الصالح المقتدى بهم في العلم والعمل، والزهد والورع.

كان الشيخ (رحمه الله) يقول: «الذي يفرحنا أنه لو كانت الدنيا ميتة لأباح الله منها سد الخلة» ويحذر ابنه من جمعها والحرص عليها بحجة التصدق، وبناء المدارس، والأربطة، لأنها كالماء الملح، والله عز وجل لم يوجب على العبد جمع المال من أجل التصدق به، مع أن الواقع في الغالب أن العبد إذا جمع المال لا يعطيه للناس»^(١).

وقال الشيخ (رحمه الله): «وأنا أقدرُ الناس على أن أكون أغنى الناس، وتركت الدنيا لأنني أعلم أنه إذا تلطخ بها العبد لا ينجو منها، إلا من عصمه الله».

وكان الشيخ (رحمه الله) لا يُبقي عنده من المال إلا ما يكفيه في الشهر، ويوزع ما زاد على ذلك على فقراء الطلبة، والعجزة، والأرامل من قرابته، وكان يقول: «والله لو عندي قوت يومي ما أخذت راتباً من الجامعة، ولكنني مضطر، لا أعرف أشتغل بيدي، وأنا شايب ضعيف».

(١) هذا الكلام خلاصة لبعض كلام الشيخ (رحمه الله) لابنه الشيخ عبدالله.

ولم يكن الشيخ (رحمه الله) يبيع كتبه التي ألفها، وكان يقول: «علم نتعب عليه وبيع وأنا حي؟ لا يمكن هذا، ولكن أنا أدفع العلم، وواحد يدفع الفلوس، ويوزع للناس مجاناً، وأنا أعلم أنه سيصل إلى من لا يستحقه، ولكن سيصل أيضاً إلى من لا يستطيع الحصول عليه بالفلوس».

بل كان الشيخ (رحمه الله) لا يميز بين فئات العملة الورقية، وكان يقول: «لقد جئت من البلاد ومعني كنز قل أن يوجد عند أحد، وهو القناعة، ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها، فإني لا أؤثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية».

والشيخ (رحمه الله) من أبعد الناس عناية بالمظهر، وربما خرج بنعلين متغايرين أحدهما أحمر والآخر أخضر.

يقول الشيخ محمد العثيمين (رحمه الله): «كنا طلاباً في المعهد العلمي في الرياض، وكنا جالسين في الفصل، فإذا بشيخ يدخل علينا إذا رأيته قلت: هذا بدوي من الأعراب، ليس عنده بضاعة من علم!! رث الثياب، ليس عليه آثار الهيبة، لا يهتم بمظهره، فسقط من أعيننا، فتذكرت الشيخ عبدالرحمن السعدي، وقلت في نفسي: أترك الشيخ عبدالرحمن السعدي وأجلس أمام هذا البدوي؟! فلما ابتدأ الشنقيطي درسه انهالت علينا الدرر من الفوائد العلمية من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء، وفحل من فحولها، فاستفدنا من علمه، وسمته، وخلقه، وزهده، وورعه»^(١) ا.هـ.

وقدم إلى الرياض في بعض زياراته لمعهد القضاء، وعليه ثوب مبتذل، فلما كلمه أحد تلامذته في ذلك، أجابه بقوله: «يا فلان القضية ليست بالثياب، وإنما ما تحت الثياب من العلم» وقد صور الشافعي (رحمه الله) هذا المعنى بقوله:

عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ تُبَاعَ جَمِيعُهَا بِقُلْسٍ لَكَانَ الْقُلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَا

وفيهنَّ نفسٌ لو تُقَاسَ ببعضُها نفوسُ الورى كانتَ أجلَّ وأكبراً
وما ضرَّ نَصلَ السيفِ إخلَاقُ غمِّهِ إذا كانَ عَضْباً حيثُ وجَّهتُهُ فَرَى
فإن تَكُنِ الأيامُ أزرثَ بِبَزَّتِي فكم من حُسامٍ في غِلافٍ تَكسراً^(١)

ولما حاول أحد تلامذته ثنيه عن الحج في العام الذي توفي فيه لضعف صحته، أجابه بقوله: «دع عنك المحاولة، سفري إلى لندن أريد الشفاء بها لا بد أن أكفر عنه بحج».

ومات الشيخ (رحمه الله) ولم يخلف شيئاً من حطام الدنيا، فرحمه الله رحمة واسعة.

الحادي عشر: مؤلفاته:

ترك لنا الشيخ (رحمه الله) مجموعة من المؤلفات، وهي من جهة التعلق بزمان التأليف على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما ألفه في بلاده وهي:

١ - نظم في أنساب العرب، سماه: (خالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان). وقد ألفه قبل البلوغ، ثم دفنه بعد ذلك، معللاً هذا الصنيع بأنه كتبه على نية التفوق على الأقران. وقد قال فيه:

سميَّته بخالصِ الجُمانِ في ذِكرِ أنسابِ بني عدنانِ

٢ - رجز في فروع مذهب مالك (رحمه الله)، يختص بالعقود من البيوع والرهون، وهو يُعد بالآلاف. (مخطوط).

٣ - ألفية في المنطق (مخطوط).

٤ - نظم في الفرائض (مخطوط).

(١) الأبيات في ديوانه ص ٤٣ - ٤٤ سوى الأخير، وهو في الحلية (١٣١/٩).

القسم الثاني: ما كتبه أو أملاه في طريقه إلى الحج وهو قادم من بلاده:

- ١ - شرح على سلم الأخصري في المنطق (مخطوط).
 - ٢ - الرحلة إلى بيت الله الحرام (مطبوع).
- القسم الثالث: ما كتبه في هذه البلاد:
- ١ - منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز (مطبوع).
 - ٢ - دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب (مطبوع).
- وقد كتبه الشيخ (رحمه الله) في خمس عشرة ليلة، وهي إجازة الامتحانات عام (١٣٧٣هـ).
- ٣ - مذكرة أصول الفقه (مطبوع).
- وقد أملاها على طلابه في كلية الشريعة التي افتتحت في الرياض عام (١٣٧٤هـ) فأملأها في السنوات الأولى من تدريسه في الرياض.
- ٤ - آداب البحث والمناظرة (مطبوع).
- وقد فرغ من الجزء الأول بتاريخ (١٣٨٨/٣/٢٨هـ) كما فرغ من الجزء الثاني بتاريخ (١٣٨٨/٥/١٤هـ).
- ٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بلغ فيه سورة قد سمع) (مطبوع).
 - ٦ - بيان الناسخ والمنسوخ في أي الذكر الحكيم (مطبوع في آخر أضواء البيان).
- وهي رسالة صغيرة تقع في نحو أربع صفحات ونصف، وهي عبارة عن شرح للأبيات العشرة التي ذكرها السيوطي في الآيات المنسوخة.
- ٧ - شرح على مراقي السعود (مطبوع).
- أملاه على أحد تلامذته، وقد فرغ منه بتاريخ (١٣٧٥/٧/٢٢هـ) وكان قد شرح جميع المراقي، لكن قطعة من النظم تقرب من أربعة وستين ومائة بيت لم يدون شرحها.

وقد طُبِعَ هذا الكتاب بعنوان «نثر الورود على مراقبي السعود».

٨ - رسالة في حكم الصلاة في الطائرة (مخطوط).

وهي رسالة صغيرة تقع في ست صفحات، كتبها عام (١٣٨٥هـ).

٩ - حول شبهة الرقيق (مخطوط).

١٠ - رسالة في جواب سؤال ورد إليه من أحد أمراء بلاد شنقيط، يسأله عن العالم

هل هو مخلوق ومرزوق من بركة النبي ﷺ، أو ذلك بأسباب أخرى؟

ويقع الجواب في ست عشرة صفحة، ولا تزال مخطوطة.

١١ - رسالة في جواب سؤالات ثلاثة، مقدمة من الشيخ محمد الأمين بن

الشيخ محمد الخضر، والسؤالات هي:

١ - أين مقر العقل في الإنسان؟

٢ - هل يشمل لفظ (المشركين) أهل الكتاب؟

٣ - هل يجوز للكافر أن يدخل مساجد الله غير المسجد الحرام.

ويقع الجواب في إحدى عشرة صفحة، ولا زالت مخطوطة.

وللشيخ (رحمه الله) العديد من المحاضرات، وقد طُبِعَ بعضها، ومن ذلك:

١ - حكمة التشريع.

٢ - المثل العليا.

٣ - المصالح المرسلّة.

٤ - الإسلام دين كامل.

٥ - آيات الصفات. وقد ألقاها (رحمه الله) في الجامعة الإسلامية

بتاريخ (١٣/٩/١٣٨٢هـ). وقد طُبِعَت بعنوان: (منهج ودراسات

لآيات الأسماء والصفات).

الثاني عشر: تجافيه عن الفتيا في أخريات حياته:

غلب على الشيخ (رحمه الله) في السنوات الأخيرة من حياته التحرز الشديد من الفتيا، والتباعد عنها، وكان إذا اضطره أحد إلى الجواب يقول: «لا أتحمل في ذمتي شيئاً، العلماء يقولون كذا وكذا».

ولما سُئل عن ذلك أجاب بقوله: «إن الإنسان في عافية ما لم يُبْتَلْ، والسؤال ابتلاء؛ لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟ فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وجب التحفظ فيه».

وكان يتمثل بقول الشاعر^(١):

إِذَا مَا قَتَلْتَ الشَّيْءَ عِلْماً فَقُلْ بِهِ وَلَا تَقُلِ الشَّيْءَ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهُ
فَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّراً وَيَكْرَهُ «لَا أَذْرِي» أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ

ولا يخفى أن هذا الصنيع - أعني التحرز من الفتيا - هو حال السلف الصالح، والمنقول عنهم في هذا المجال كثير لا يسع المقام نقله، فليراجع في مظانه^(٢).

الثالث عشر: رجوعه للحق إذا ظهر له ذلك:

لم يكن الشيخ (رحمه الله) ممن يأنف من إعلان رجوعه إلى الحق إذا تبين له ولو كان القول الذي رجع عنه قد أذاعه ونشره وانتصر له سنين متطاولة، وهذا نجده جلياً عند كلام الشيخ (رحمه الله) على الآية رقم (٥) من سورة براءة حين تعرض للكلام على القتال في الأشهر الحرم حيث يقول: «وكنا نرى هذا القول - وهو نسخ تحريم القتال فيها - مكثراً كثيراً من الزمن ونحن ننصر هذا القول ونقرر أنه الأصوب، ثم ظهر لنا بعد ذلك أن أصوب القولين وأولاهما بالصواب أن تحريم الأشهر الحرم باق لم يُنسخ» ١.هـ.

(١) البيت الأول في جامع بيان العلم (٢/٨٤٢)، بلا نسبة.

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه (٢/١٦٥ - ١٧٥)، جامع بيان العلم (٢/٨٢٦ - ٨٤٣).

وقال عند تفسير الآية رقم (٣٤) من السورة نفسها: «وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا وننصره أن تحريم الأشهر الحُرْم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن...»
 ا.هـ.

الرابع عشر: وفاته:

توفي الشيخ (رحمه الله) ضحى يوم الخميس، السابع عشر من شهر ذي الحجة، عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف، في منزله في مكة المكرمة، وقد صلى عليه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، ودُفن بمقبرة المَغَلَّة بريع الحَجُون، فرحمه الله رحمة واسعة.





تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

/﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ١/ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يَبْقَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نَعْمَ الْيَاقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ أَنَّمَا أَنتُم عَلَى فُضْلِكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: الآيات ٤٥ - ٤٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٤٥ - ٤٦].

﴿أَسْتَعِينُوا﴾ استفعال من العون، وياؤه مُبْدَلَةٌ من واو، أصله: (استعينوا) تحركت الواو بعد ساكن صحيح؛ فوجب نقل حركتها إلى الساكن الصحيح^(١)، على حد قوله في الخلاصة^(٢):

لساكنٍ صَحَّ انْقُلَ التحريك مِنْ ذِي لِينٍ اتَّ عَيْنٍ فَعِلَ كَأَسْنٍ والسين والتاء للطلب، فمعنى ﴿أَسْتَعِينُوا﴾ اطلبوا العون على أموركم الدنيوية والأخروية.

﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الصبر: مصدر صبر صبراً، وهذه المادة تتعدى

(١) انظر: الدر المصون (١/٥٩، ٣٢٩).

(٢) الخلاصة ص ٧٨، وراجع شرحه في الأشموني (٢/٦٢٩)، ضياء السالك (٢/٤٠٥).

وتلزم، فمن تعديها في القرآن ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٢٨]، ومن لزومها في القرآن ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ الآية [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: آية ٤٣]. وقال بعض العلماء: هي متعديّة دائماً إلا أنها يكثر حذف مفعولها، ومن تعديتها في كلام العرب قول عنترة^(١)، وقيل أبو ذؤيب:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِدَلِكْ حُرَّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

والصبر خصلة من خصال الخير عظيمة، صرح الله في سورة فصلت أنه لا يعطيها لكل الناس، وإنما يعطيها لصاحب الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يُلْقِئَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِئَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: آية ٣٥].

وهذه الخصلة التي هي الصبر لا يعلم جزاءها إلا الله، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: آية ١٠]، والصائمون من خيار الصابرين، ولذا قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إلا الصوم فهو لي، وأنا أجزي به»^(٢).

والصبر يتناول الصبر على طاعة الله، وإن كنت كالقابض على الجمر، والصبر عن معصية الله، وإن اشتعلت نار الشهوات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب^(٣) عند الصدمة الأولى، والصبر على الموت تحت ظلال السيوف.

(١) شرح ديوان عنترة ص ٨٥ وفي القرطبي (٣٧١/١) ونسبه لعنترة جازماً بذلك.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الصيام، باب: فضل الصوم، حديث رقم (١٨٩٤) (١٠٣/٤)، وقد أخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم (١٩٠٤، ٥٩٢٧، ٧٤٩٢، ٧٥٣٨)، ومسلم في صحيحه - واللفظ له - كتاب الصيام، باب: فضل الصيام، حديث رقم (١١٥١) (٨٠٦/٢).

(٣) انظر هذه الأنواع الثلاثة في مدارج السالكين (١٥٦/٢)، بصائر ذوي التمييز (٣٧٥/٣)، (٣٨١).

وقوله: ﴿وَالصَّلَاةُ﴾ أي: واستعينوا بالصلاة؛ لأن الصلاة نِعَمُ الْمُعِينِ على نوائب الدهر، وعلى خير الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ الآية [العنكبوت: آية ٤٥] ، وقال جل وعلا: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: آية ١٣٢] وكان ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(١)، وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه نُعي له أخوه قُثم، فأناخ راحلته وصلّى، وتلا: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢) [البقرة: آية ٤٥] يستعين بالصلاة على صبر مصيبة أخيه.

ولا شك أن لطالب العلم هنا سؤالاً وهو أن يقول: أما الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة فهي أمر واضح لا إشكال فيه؛ لأن من حبس نفسه على مكروهاها في طاعة الله، كان ذلك أكبر معين على الطاعة، ولكن ما وجه الاستعانة بالصلاة على أمور الدنيا والآخرة؟

الجواب^(٣): أن الصلاة هي أكبر معين على ذلك؛ لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه، يناجي ربه ويتلو كتابه، تذكر ما عند الله من الثواب، وما لديه من العقاب فهان في عينه كل شيء، وهانت عليه مصائب الدنيا، واستحققر لذاتها، رغبة فيما عند الله، ورهبة مما عند الله.

ثم إن الله قال جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: آية

(١) جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه عند أحمد (٣٨٨/٥)، وأبي داود في الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل، حديث رقم: (١٣٠٥) (٢٠٢/٤)، وابن جرير برقم: (٨٤٩، ٨٥٠) (١٢/٢)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة رقم: (٢١٢) (٢٣١/١)، وقد صححه أحمد شاكر في تعليقه على ابن جرير (١٢/٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٥/١).

(٢) أخرجه ابن جرير، انظر: الأثر رقم: (٨٥٢) (١٤/٢)، والبيهقي في الشعب، انظر الأثرين رقم: (٩٦٨٢، ٩٦٨١) (١١٤/٧)، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» ابن جرير (١٤/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١١/٢ - ١٢)، البحر المحيط (١٨٤/١)، أضواء البيان (٧٥/١).

[٤٥] للعلماء في مرجع الضمير في ﴿وَإِنَّمَا﴾ أقوال كثيرة^(١)، منها: أنه راجع إلى الاستعانة، المفهوم من قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾. ومنها: أنه راجع إلى المذكورات في الآية قبل هذا، والتحقيق: أنه راجع إلى الصلاة، والمعنى: ﴿وَإِنَّمَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: عظيمة شاقة على كل أحد ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، والصبر كذلك على المصائب وعلى طاعة الله وعن معاصي الله، كبير جداً إلا على الخاشعين، والظاهر أن الضمير إنما رجع لأحد المتعاطفين اكتفاء به عن الآخر؛ لأن مثل ذلك يفهم في الآخر، وهذا يكثر في القرآن، وفي كلام العرب^(٢)، فمنه في القرآن قوله هنا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّمَا﴾ [البقرة: آية ٤٥]، ونظيره: ﴿وَالَّذِينَ يَكُونُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا﴾ الآية [التوبة: آية ٣٤]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢] ولم يقل: يرضوهما.

وقوله جلا وعلا: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] ولم يقل: عنهما. ونظيره من كلام العرب قول حسان بن ثابت^(٣):

إِنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ وَالشَّعْرَ الْأَسَدَ
وَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا
ولم يقل: «ما لم يعاصيا».
وقول نابغة ذبيان^(٤):

وقد أراني ونُغْمًا لاهيين بها والدهرُ والعيشُ لم يههم بإمرار

(١) انظر: ابن جرير (١٥/٢)، البيهقي في الشعب (١١٣/٧)، القرطبي (٣٧٣/١)، البحر المحيط (١٨٥/١)، الدر المصون (٣٣٠/١).

(٢) للتوسع في هذا الموضوع انظر: ابن جرير (٢٢٨/١٤ - ٢٢٩)، (٢٣/١٥)، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٨٨، الصاحبي ص ٣٦٢، فقه اللغة للشعالبي ص ٢٩٨، المدخل للحدادي ص ٢٧٤، البرهان (١٢٦/٣)، ٢٨/٤، (٣٠)، الإتيقان (٢٨٣/٢)، الكليات ص ٣٨٦، ٥٦٩، قواعد التفسير ص ٤٠٦.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٦.

(٤) ديوان نابغة الذبياني ص ١٩.

وقول الأضبط بن قريع^(١)، وقيل كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعة والمُنْسي والصُّبح لا فلاح معه
ولم يقل: «لا فلاح معهما».

والكبيرة هنا: وصف من (كَبُرَ) بضم الباء، (يكْبُرُ) بضمها، إذا عظم وشق وثقل، ومنه قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾ [الشورى: آية ١٣] وهذا النوع في المعاني من (كَبُرَ الأمر) إذا شق وثقل، أو (كَبُرَ) بمعنى (عَظُمَ)، كقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: آية ٣] يكْبُرُ الأمر فهو كبير، مضموم في الماضي، تقول: كَبُرَ يكْبُرُ فهو كبير. كما بينّا.

أما كَبَرَ السن: ففعله (كَبِرَ) بكسر الباء (يكْبِرُ) بفتحها على القياس، وهو معروف^(٢)، ومن أمثله قول قيس المجنون^(٣):

تعشقتُ ليلي وهي ذاتُ ذوائبٍ ولم يبدُ للعينين من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نَكْبُرْ ولم تَكْبُرِ البهمُ

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] استثناء مفرغ^(٤)، وأصل تقرير المعنى: ﴿وَلَا تَكْبُرُ﴾ أي: ثقيلة عظيمة شاقة على كل أحد ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، والخاشعون جمع: الخاشع، وهو الوصف من: خشع. وأصل الخشوع في لغة العرب: الانخفاض في طمأنينة، كل

(١) انظر: اللسان (مادة: مسا) (٤٨٦/٣)، البيان والتبيين (٣٤١/٣)، الأمالي (١٠٧/١) ونسبوه للأضبط بن قريع، وهو في تفسير القرطبي (٣٧٤/١)، من غير نسبة.

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والباء وما يثلثهما، (مادة: كبر) ص ٩١٥، إكمال الإعلام لابن مالك (٥٤٠/٢)، بصائر ذوي التمييز (٣٢٣/٤).

(٣) البيتان في الخزانة (١٧١/٢)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، إذ المُبْتِ هناك:

تعلقت ليلي وهي غرٌ صغيرة ولم يبدُ للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم

(٤) انظر: الدر المصون (٣٣١/١).

منخفض مطمئن تسميه العرب: خاشعاً^(١)، ومنه قول نابغة ذبيان^(٢):

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لَسِتَ أَعْوَامٌ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ
رَمَادٌ كَكُحْلِ الْعَيْنِ لَأَيًّا أُبَيِّنُهُ وَنَوَيْ كَجَذَمِ الْحَوْضِ أَثْلُمُ خَاشِعُ

أي: منخفض مطمئن، هذا أصل الخشوع في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع^(٣): خشية تداخل القلوب، تظهر آثارها على الجوارح، فتتخفض وتطمئن خوفاً من خالق السماوات والأرض.

والمعنى: أن الصلاة صعبة شاقة على غير من في قلوبهم الخوف من الله، ويدل لذلك شدة عظمها على المنافقين، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: آية ١٤٢] وقال جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: الآيتان ٤، ٥].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] ﴿الَّذِينَ﴾ في محل خفض نعت للخاشعين^(٤) أي: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَشِيِّعِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾. والظن هنا معناه اليقين، على التحقيق^(٥)، خلافاً لمن شذّ فزعم أنه الظن المعروف، وأن المتعلق محذوف، والمعنى: يظنون أنهم ملاقو ربهم بذنوب، فهم وجلون من تلك الذنوب. فهذا غير ظاهر، ولا يجوز حمل القرآن عليه وإن قال به بعض العلماء^(٦). والتحقيق أن معنى ﴿يَظُنُّونَ﴾: يوقنون، وقد تقرر في علم العربية أن الظن يطلق في العربية وفي القرآن إطلاقين^(٧):

(١) المصدر السابق.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٥٢ - ٥٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٧٤/١ - ٣٧٥)، مدارج السالكين (٥٢١/١ - ٥٢٢).

(٤) انظر: القرطبي (٣٧٥/١)، الدر المصون (٣٣٢/١).

(٥) انظر: أضواء البيان (٧٥/١)، دفع إيهام الاضطراب (ملحق بالأضواء ص ٢٠).

(٦) انظر: الدر المصون (٣٣٢/١).

(٧) انظر: المقاييس في اللغة: كتاب الظاء، باب الظاء وما معها في المضاعف والمطابق،

(مادة: ظن) ص ٦٣٩، ابن جرير (١٧/٢ - ١٨).

يطلق الظن بمعنى اليقين، ومنه قوله هنا: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] أي: يوقنون، ومنه بهذا المعنى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: آية ٢٠] أي: أيقنت أنني ملاق حسابيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: آية ٥٣] أي: أيقنوا أنهم موافقوها... إلى غير ذلك من الآيات. ومن أمثلة إطلاق العرب الظن على اليقين قول دُرَيْد بن الصَّمَّة^(١):

فقلت لهم ظنُّوا بِالْفِي مدجج سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ
فقوله: «ظنُّوا» أي: أيقنوا.
وقول عميرة بن طارق^(٢):

بأن تَغْتَرِزُوا قَوْمِي وَأَقْعُدْ فِيكُمْ وَأَجْعَلْ مَنِّي الظَّنَّ غَيْباً مَرَجِّمًا
أي: أجعل مني اليقين غيباً مرجماً، فمعنى ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون.
﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] و ﴿مُلَاقُوا﴾ أصله (مُلاقِيون) (مُفاعِلون) منقوص، والمنقوص تُحذف ياءه عند التصحيح^(٣)، وحُذفت نون (مُلاقون) للإضافة^(٤)، أي: ملاقو ربهم. والمراد بهذه الملاقة: أنهم يُعرضون على ربهم يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْرَسُ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: آية ١٨] وقال (جل وعلا): ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ الآية [العنكبوت: آية ٥].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: آية ٤٦] أي: يوقنون أنهم أيضاً

(١) انظر: ابن جرير (١٨/٢)، اللسان (مادة: ظنن) (٦٥٤/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (١٨/٢).

(٣) قال في معجم مفردات الإبدال والإعلال: ص ٢٣٨، (ملاقوا: اسم فاعل من الثلاثي المزيد «لاقي» جُمع جمعاً سالماً على وزن مُفاعِوا، أصله «مُلاقِيو» استُثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان، فحُذفت الياء، وضم ما قبل الواو للمجانسة، أو: نُقلت ضمة الياء إلى القاف قبل حذف الياء) اهـ ص ٢٣٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز (٢٠٧/١).

إليه راجعون (جل وعلا) يوم القيامة فمجازيهم على أعمالهم، وقدم المعمول الذي هو الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَيْهِ رَجُوعٌ﴾ لأمرين، أحدهما: المحافظة على رؤوس الآي، والثاني: الحصر، وقد تقرر في فن الأصول في مبحث دليل الخطاب - أعني مفهوم المخالفة -^(١): أن تقديم المعمول من أدوات الحصر، وكذلك تقرر في فن المعاني في مبحث القصر^(٢) أن تقديم المعمول من أدوات الحصر، وهذا معنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رِيَهُمْ وَإِنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجُوعٌ﴾ [البقرة: آية ٤٦].

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٧].

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ﴾ معناه: يا أولاد يعقوب، وإسرائيل معناه في العبرية: عبدالله، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام)، وإنما ناداهم بهذا النداء: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ﴾ ونسبهم إلى هذا النبي الكريم ليعثهم بذلك على امتثال الأمر واجتناب النهي، كما تقول العرب لمن يستحثونه للأمر: يا ابن الكرام افعل كذا.

وقوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ المراد بالذكر هنا: ذكرٌ يحمل على الشكر، ومن شكر تلك النعمة المأمور به: تصديق النبي ﷺ واتباعه فيما جاء به. و﴿نِعْمَتِي﴾: اسم جنس مضاف إلى معرفة، واسم الجنس إذا أضيف إلى معرفة فهو من صيغ العموم كما تقرر في الأصول^(٣)، فمعنى نعمتي: أي: نعمي، كقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: آية ١٨] أي: نعم الله لا تحصوها، وكقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: آية

(١) انظر: البرهان للزركشي (٤/١٤٤)، (٣/٢٣٦)، البحر المحيط للزركشي (٤/٥٦)، الكوكب الدرر ص ٤٢٧، الكليات ص ١٠٣٢، ١٠٦٥، أضواء البيان (٣/٢٧٨).

(٢) انظر: التلخيص في علوم البلاغة (وشرحه للبرقوقي) ص ١٤١ - ١٤٢، الإيضاح للقرويني ص ١٢٦.

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٩٧، ١٠٨، ١٤٦)، شرح الكوكب المنير (٣/١٢٩) - (١٣٦)، أضواء البيان (١/٩٢)، (٣/٢٥٣)، (٤/٣٣٢)، (٥/٢٩)، (٧٧٦)، (٧/٧٣٠).

[٦٣] أي: وأوامره، ومن هذه النعم التي ذكرهم بها حملاً على شكرها: إنجاؤهم من عدوهم فرعون، وإغراق عدوهم وهم ينظرون، ومنها: تظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى، وتفجير الماء من الحجر... إلى غير ذلك مما قصَّ الله في كتابه.

وجرت العادة في القرآن أن الله يمتن على الموجودين في زمن النبي ﷺ بالنعم التي أنعمها على أسلافهم الماضين، وكذلك يعيبيهم بالمعائب التي صدرت من أسلافهم الماضين؛ لأنهم أمة واحدة؛ ولأن الأبناء يتشرفون بفضائل الآباء، فكانهم شيء واحد^(١). ولذلك كان (جل وعلا) يمتن على هؤلاء بنعمه على الأسلاف، وكذلك يعيبيهم بما صدر من الأسلاف؛ لأنهم جماعة واحدة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ أَفْعَتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: التي أنعمتها عليكم، كإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، والإنجاؤ من فرعون... إلى غير ذلك.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في محل نصب عطفاً على ﴿نِعْمَتِي﴾، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي إياكم على العالمين^(٢). و «العالمون»: جمع عالم، وهو يطلق على ما سوى الله^(٣). والدليل على أنه يشمل أهل السماء والأرض من المخلوقين: قوله (جل وعلا): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢) ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (١٣) [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] والعالم: اسم جنس يُعَرَّبُ إعراب الجمع المذكر السالم. وقوله هنا: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على عالم زمانكم الذي أنتم فيه. فلا ينافي أن هذه الأمة التي هي أمة محمد ﷺ

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٣/٢)، (٣٨)، (٣٩)، (٤١)، (٦٣)، (١٦٤)، (١٦٥)، (٢٤٥)، (٢٩٩)، (٣٠٢)، (٣٥٣)، (٤٠٩)، (٣٢٠/١٢)، (٣٢١)، (٣٣٤/١)، المزمهر (٣٣٤/١).

تفسير السعدي (٤٢/١).

(٢) انظر: الدر المصون (٣٣٤/١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٤٣/١ - ١٤٦، ١٥١، ١٥٢)، ابن كثير (٢٣/١)، أضواء البيان (٣٩/١).

أفضل منهم^(١)، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: آية ١١٠] وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(٢). ومن الآيات المبينة لفضل أمة محمد ﷺ على أمة موسى أنه قال في أمة موسى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٦] فجعل أعلى مراتبهم الفئة المقتصدة، بخلاف أمة محمد ﷺ فقسّمهم إلى ثلاث طوائف، وجعل فيهم طائفة أكمل من الطائفة المقتصدة، وذلك في قوله في فاطر: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٢] فجعل فيهم سابقاً بالخيرات، وهو أعلى من المقتصد، ووعد الجميع بظالمهم ومقتصدهم وسابقهم بجنات عدن في قوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: آية ٣٣] وقال بعض العلماء: حَقٌّ لهذه الواو أن تُكتب بماء العينين^(٣). يعني: واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ لأنه وَعْدٌ من الله صادق، شامل بظاهرة الظالم والمقتصد والسابق.

وفي الآية سؤال معروف وهو أن يقال: ما الحكمة في تقديم الظالم لنفسه في الوعد بجنات عدن وتأخير السابق^(٤)؟ وللعلماء عن هذا أجوبة معروفة، منها: أنه قدّم الظالم لئلا يقطع، وأخر السابق بالخيرات لئلا يعجب

(١) انظر: ابن جرير (١/١٥١ - ١٥٢)، (٢/٢٤)، المحرر الوجيز (١/٢٠٨)، القرطبي (١/٣٧٦)، دفع إبهام الاضطراب ص ٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٥)، والدارمي في السنن، حديث رقم: (٢٧٦٣) (٢/٢٢١)، والترمذي، كتاب التفسير باب: ومن سورة آل عمران، حديث رقم: (٣٠٠١) (٥/٢٢٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب: صفة أمة محمد ﷺ، حديث رقم: (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) (٢/١٤٣٣)، والحاكم (٤/٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني، انظر: المشكاة حديث رقم: (٦٢٨٥)، (٣/٧٧١)، صحيح الترمذي رقم: (٢٣٩٩)، (٣/٣٢)، صحيح ابن ماجه رقم: (٣٤٦٠، ٣٤٦١)، (٢/٤٢٦).

(٣) انظر: أضواء البيان (٦/١٦٥).

(٤) انظر: القرطبي (١٤/٣٤٩)، الأضواء (٦/١٦٥).

بعمله فيحبط. وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم، فبدأ بهم لأكثرتهم.

ومما يدل على أفضلية أمة محمد ﷺ على بني إسرائيل: أن الابتلاء الذي يظهر به الفضل وعدمه إنما يكون بخوف أو طمع، وقد ابتلى أصحاب النبي ﷺ بخوف، وابتلاهم بطمع، وابتلى بني إسرائيل بخوف، وابتلاهم بطمع، أما الخوف الذي ابتلى الله (جل وعلا) به أصحاب محمد ﷺ: فهو أنهم لما غزوا غزاة بدر، وسَاحَلَ أبو سفيان بالعيبر، واستنفر لهم النفير، وجاءهم الخبر بأن العير سَلِمَتْ، وأن الجيش أقبل إليهم، وأخبرهم النبي ﷺ بذلك، قال له المقداد بن عمرو (رضي الله عنه): والله لو سِرَتْ بنا إلى بَرَكِ الْغِمَادِ^(١) لجالدنا مَنْ دونه معك، ولو خضت بنا هذا البحر لخضناه، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٤]، بل إِنَّا معك مقاتلون^(٢). ولما أعاد الكلام قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه): كأنك تعيننا معاصر الأنصار - لأنهم اشترطوا عليه ليلة العقبة أن يمنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، بشرط أن يكون في داخل المدينة، ولم يشترط عليهم خارج المدينة - فأخبره النبي ﷺ أنه يعينهم فقال كلامه المعروف المأثور، قال: «والله إِنَّا لَقَوْمٌ صَبْرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدِّقَ عِنْدَ الْلِقَاءِ، وَاللَّهُ مَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا

(١) (بَرَكِ) بفتح الباء وإسكان الراء، وهو المشهور في روايات المحدثين. و (الْغِمَادِ) بغين معجمة مكسورة، ومضمومة لغتان مشهورتان، والكسر أفصح، وهو الأشهر عند المحدثين، والضم أشهر في كتب اللغة، وهو موضع من وراء مكة بخمس ليال، بناحية الساحل، وقيل غير ذلك، قال إبراهيم الحربي: «برك الغماد، وسعفات هجر كناية، يُقال فيما تباعد» انظر: النووي على مسلم (٤/٤١١)، معجم البلدان (١/٣٩٩)، فتح الباري (٧/٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري مع شيء من المغايرة في اللفظ، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَخِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾... حديث رقم: (٣٩٥٢)، (٧/٢٨٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٦٠٩)، وقد أخرج مسلم نحوه عن سعد بن عبادة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، حديث رقم: (١٧٧٩)، (٣/١٤٠٤)، وانظر كلام الحافظ على رواية مسلم: الفتح (٧/٢٨٨).

عدوك حتى ترى منّا ما يقر عينك، والله لقد تخلف عنك أقوام لو علموا أنك تلقى كيداً ما تخلف عنك منهم رجل»^(١).

بخلاف بني إسرائيل لما امتحنوا بخوف كهذا صدر منهم ما ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٢] وقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَنذُرُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلُودُ﴾ [المائدة: آية ٢٤].

كذلك ابتلى بني إسرائيل بصيد، وهو صيد السمك المذكور في الأعراف، المشار له في البقرة^(٢): ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] فحداهم القرم^(٣) والطمع في أكل الحوت إلى أن اعتدوا في السبت، فمسخهم الله قردة. وقد امتحن الله (جل وعلا) أصحاب النبي ﷺ في عمرة الحديبية بالصيد وهم محرمون، فهيأ لهم جميع أنواع الصيد، من الوحوش، والطيور، من كبارها وصغارها، ولم يعتد رجل منهم، ولم يصد في الإحرام، كما بينه (جل وعلا) بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْلُغُوا اللَّهَ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَلَاءَهُ أُيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: آية ٩٤]، فما مد رجل منهم يده إلى صيد.

فظهر بهذا أن كلتا الأمتين امتحنن بصيد، وأن هؤلاء اعتدوا على ذلك الصيد فمسخوا قردة، وأن أولئك اتقوا الله.

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٣ - ٢٧٤)، البيهقي في الدلائل (٣/٣٤)، السيرة لابن هشام (٢/٦٥٣)، وذكره ابن كثير في تاريخه (٣/٢٦٢) وعقبه بقوله: «هكذا رواه ابن إسحاق (رحمه الله) وله شواهد من وجوه كثيرة» ١. ه ثم ذكر شواهد عند البخاري والنسائي وأحمد وابن مردويه والأموي في مغازيه. وراجع تعليق الألباني على فقه السيرة ص ٢٣٩، ومرويات غزوة بدر لأحمد باوزير ص ١٤٤ - ١٤٩.

(٢) أي: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: آية ٦٥].

(٣) وهو شدة شهوة اللحم. القاموس (مادة: القرم) (١٤٨١).

كذلك امتحنوا بخوف من عدو فصبر هؤلاء وثبتوا، وخاف هؤلاء وجبنوا، فدل هذا على أنهم أفضل منهم، وهذا مما لا خلاف فيه، وهذا مما يبين أن قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أن المراد: عالم زمانهم^(١). وقال بعض العلماء: هو نوع من التفضيل آخر لا يعارض أشرفية هذه الأمة وأفضليتها عليهم، وهو كثرة الرسل فيهم؛ لأن الأنبياء أكثر فيهم منهم في غيرهم^(٢)، وكثرة الأنبياء فيهم لا تجعلهم أفضل من هذه الأمة، بل هذه الأمة أفضل منهم وإن كانت الأنبياء فيها إنما جاءها نبي واحد ﷺ. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨) وَإِذْ يَجْنَيْنَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ [البقرة: الآيتان ٤٨ - ٤٩].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨) [البقرة: آية ٤٨] معنى الالتقاء في اللغة العربية هو: أن تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية^(٣). وأصل مادته: (وقى) دخلها تاء الافتعال، كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي وقى: اوتقى. والقاعدة المقررة في التصريف: أن تاء الافتعال إذا دخل على مادة واوها فاء وجب إبدال الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال^(٤). فمعنى ﴿وَاتَّقُوا﴾: اجعلوا بينكم وبين ذلك اليوم وقاية تقيكم مما يقع فيه من الأهوال والأوجال. والالتقاء: هو جعل

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: القرطبي (٣٧٦/١)، أبو حيان (١٨٩/١).

(٣) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو باب الواو والقاف وما يثلثهما، ص ١١٠، القرطبي (١٦١/١)، المفردات، (مادة: وقى) ص ٨٨١.

(٤) انظر: القرطبي (١٦١/١)، الدر المصون (٩٠/١)، (١٩١)، (٣٣٥)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٩١ - ٤٩٢.

الوقاية دون ما يضر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان^(١):

سقط النَّصِيفُ ولم تُرْدِ إسقاطُهُ فتناولته واتقتنا باليد

يعني: استقبلتنا بيدها جاعلة إياها وقاية بيننا وبين رؤية وجهها.

والإتقاء في اصطلاح الشرع^(٢): هو جعل الوقاية دون سخط الله وعذابه، تلك الوقاية هي امتثال أمره، واجتناب نهيه (جل وعلا).

والمراد باتقاء اليوم: اتقاء ما يكون فيه من الأهوال والأوجال^(٣)؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين، والعرب تُعَبِّرُ بالأيام عما يقع فيها من الشدائد، ومنه: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] أي: لما فيه من الشدة، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: آية ٤٨] و(اليوم) مفعول به لـ «اتقوا»^(٤). وقيل: المفعول محذوف، واليوم ظرف. أي: اتقوا العذاب يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. وقوله: ﴿لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: آية ٤٨] الجملة نعت لليوم^(٥)، وقد تقرر في العربية: أن الجُمْل تُنْعَتُ بها النكرات؛ كما عقده في الخلاصة بقوله^(٦):

وَنَعَتُوا بِجُمْلَةٍ مُنْكَرًا فَأُعْطِيتَ مَا أُعْطِيَتْهُ خَبْرًا

ولطالب العلم أن يقول: أين الرابط الذي يربط بين الجملة التي هي وصف وبين المنعوت؟

الجواب^(٧): أنه اختلف في تقديره على قولين: أحدهما أن العائد

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ١٠٧.

(٢) انظر: القرطبي (١٦١/١ - ١٦٢)، المفردات (مادة: وقى) ص ٨٨١، الكليات ص ٣٨.

(٣) انظر: ابن عاشور (٤٨٤/١).

(٤) انظر: القرطبي (٣٧٧/١)، البحر المحيط (١٨٩/١).

(٥) انظر: البحر المحيط (١٨٩/١)، الدر المصون (٣٣٥/١).

(٦) الخلاصة ص ٤٥، وانظر شرحه في الأشموني (٦٦/٢ - ٦٧)، النحو الوافي (٤٧٢/٣).

(٧) انظر: البحر المحيط (١٨٩/١ - ١٩٠)، الدر المصون (٣٣٥/١ - ٣٣٦).

(واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً) فالعائد هو: المجرور المحذوف هو وحرف الجر.

وقال بعض العلماء^(١): حُذِفَ حرف الجر فوصلَ العامل إلى الضمير بعد حذف حرف الجر، ثم حُذِفَ، وعليه فالتقدير: (واتقوا يوماً لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً) بحذف الفاء، وعلى كل حال فحذف الضمير الرابط للجملة التي هي وصف للنكرة الموصوفة موجود في كلام العرب، ومن أمثله في كلام العرب قول الشاعر^(٢):

وما أدري أغيّـرهم ثَنَاءٍ وطولُ العهدِ أم مالُ أصابوا

فجملة (أصابوا) نعت للنكرة التي هي (مال) والعائد محذوف، وتقرير المعنى: (أم مال أصابوه). وقوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تقضي عنها حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حقاً عليها، أما تفسير من فسر ﴿تَجْزِي﴾ بـ (تغني) فهو إنما يتمشى على قراءة من قرأ ﴿تُجْزِي﴾^(٣) بصيغة الرباعي؛ لأنها هي التي تأتي بمعنى الإغناء، وتقرير المعنى: (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً) أي: لا تقضي نفس عن نفس حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حقاً عليها، والرابط المحذوف محذوف من الجمل المعطوفة على الجملة النعتية^(٤)، وتقرير المعنى: (لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل فيه شفاعا، ولا يُؤخذ فيه عدل، ولا هم يُنصرون فيه) فالرابط محذوف من الجمل المعطوفة على الجملة التي هي وصف، وتقرير المعنى: (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً)، أي: لا تقضي نفس عن نفس شيئاً أي: حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حقاً عليها، وعلى هذا التقرير فـ ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَجْزِي﴾^(٥)، وقال

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٤٣/١).

(٢) البيت للحرث بن كَلْدَةَ. انظر: الكتاب لسيبويه (٨٨/١)، (١٣٠).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (٢٠٨/١)، القرطبي (٣٧٨/١)، البحر المحيط (١٨٩/١).

(٤) انظر: البحر المحيط (١٩٠/١).

(٥) انظر: البحر المحيط (١٩٠/١).

بعض العلماء: ﴿شَيْئًا﴾ في محل المصدر، أي: لا تجزي عنها شيئاً، أي: جزاء قليلاً ولا كثيراً^(١).

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ فيه قراءتان سبعيتان^(٢): قرأه أكثر السبعة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾^(٣) والتذكير في قوله: ﴿يُقْبَلُ﴾ لأمرين^(٤): أحدهما: أن تأنيث الشفاعة تأنيث غير حقيقي. الثاني: الفصل الذي بين الفعل وفاعله، والفصل يبيح ترك التاء، كما عقده في الخلاصة بقوله^(٥):

وقد يُبيح الفصل ترك التاء في نحو أتى القاضي بنتُ الواقف والشفاعة في الاصطلاح^(٦): هي التوسط للغير في جلب مصلحة أو دفع مضرة، وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر؛ لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته فلما جاءه الشفيع صار شفعاً، أي: اثنين، صاحب الحاجة ومن يتوسط له فيها، هذا [أصل]^(٧) معنى الشفاعة، والشفاعة في الدنيا إذا كانت في حق واجب فللشافع أجر، وإذا كانت في حرام فعليه وزر^(٨)، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾^(٩) [النساء: آية ٨٥]

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: المبسوط في القراءات العشر ص ١٢٩.

(٣) وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿وَلَا تُقْبَلُ﴾ بالتاء. انظر: المبسوط ص ١٢٩، ومن قرأ بالتاء فلنأنيث (الشفاعة). انظر: حجة القراءات ص ٩٥.

(٤) انظر: حجة القراءات ص ٩٥.

(٥) الخلاصة ص ٢٥، وانظر: شرح الأشموني (٣٠٩/١).

(٦) انظر: تفسير ابن جرير (٣١/٢ - ٣٢)، القرطبي (٣٧٨/١).

(٧) في الأصل: (أصله).

(٨) انظر: الفتح (٤٥١/١٠ - ٤٥٢).

(٩) سئل الشيخ رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: آية ٨٥] ما الفرق بين النصيب والكفل في هذه الآية الكريمة؟

فأجاب: قال بعض العلماء: النصيب: نصيب من الخير، والكفل: نصيب من الشر، مستدلّاً بظاهر هذه الآية، والحق أن الكفل نصيب قد يكون من الخير كما في قوله: =

وقال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»^(١). وقد دلّ الكتاب والسنة أن نفي الشفاعة المذكور هنا ليس على عمومته^(٢)، وأن للشفاعة تفصيلاً، منها ما هو ثابت شرعاً، ومنها ما هو منفي شرعاً^(٣). أما المنفي شرعاً الذي أجمع عليه المسلمون فهو الشفاعة للكفار؛ لأن الكفار لا تنفعهم شفاعة ألبتة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدرثر: آية ٤٨] وقال عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٠٠] وقال (جل وعلا): ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: آية ٢٨] مع أنه قال في الكافر: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] فالشفاعة للكفار ممنوعة شرعاً بإجماع المسلمين، ولم يقع في هذا استثناء ألبتة، إلا شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب^(٤)، فإنها نفعته بأن نُقل بسببها من محل من النار إلى محل أسهل منه، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «لعله تنفعه شفاعتي فيجعل في ضحضاح»^(٥) من النار يبلغ كعبيه، له نعلان يغلي منهما دماغه»^(٦). أما

= ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وقد يكون نصيباً من الشر، كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَمْ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: آية ٨٥] والظاهر أن التعبير بالنصيب وبالكفل من التفنن في العبارة؛ لأنه أطرف من تكرير النصيب، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب: التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، حديث رقم: (١٤٣٢)، (٢٩٩/٣)، وقد أخرجه البخاري في مواضع أخرى انظر: الأحاديث رقم: (٦٠٢٧، ٦٠٢٨، ٧٤٧٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، حديث رقم: (٢٦٢٧)، (٢٠٢٦/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٣/٢)، القرطبي (٣٧٩/١)، أضواء البيان (٧٥/١).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٤٤/١ - ١٥٤، ٣٣٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٤٤/١)، أضواء البيان (٧٦/١).

(٥) هو في اللغة: ما رُقّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين. انظر: مجمع بحار الأنوار للفتني (مادة: ضحضاح) (٣٨٦/٣).

(٦) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب مناقب الأنصار، باب: قصة أبي طالب، حديث رقم: (٣٨٨٥)، (١٩٣/٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم: (٢١٠)، (١٩٥/١).

غير هذا من الشفاعة للكفار فهو ممنوع إجماعاً، وإنما نفعت شفاعة النبي ﷺ عمه أبا طالب في نقل من محل من النار إلى محل آخر.

الشفاعة المنفية الأخرى هي الشفاعة بدون إذن رب السماوات والأرض^(١)، فهذه ممنوعة بتاتاً بإجماع المسلمين، وبدلالة القرآن العظيم، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥]. وادعاء هذه الشفاعة شرك بالله وكفر به، كما قال (جل وعلا): ﴿وَيَقُولُونَ هَلْؤَلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: آية ١٨]. ووجه كون هذه الشفاعة من أنواع الشرك - والله المثل الأعلى -: أن ملوك الدنيا قد يتمكنون من مجرم يتقطعون عليه غيظاً، ويريدون أن يقطعوه عضواً عضواً، فيأتي بعض أهل الجاه والشرف ويشفع عندهم له، فيضطرون إلى قبول شفاعته؛ لأنهم لو ردوا شفاعته لصار عدواً لهم، وترقبوا منه بعض الغوائل، فيضطرون إلى أن يشفعوه وهم كارهون، خوفاً من سوته، ورب السماوات والأرض لا يخاف أحداً، ولا يمكن أن يضره أحد، فلا يمكن أن يتجاسر أحد عليه بمثل هذا، وله المثل الأعلى؛ ولذا قال (جل وعلا): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥].

أما الشفاعة للمؤمنين بإذن رب السماوات والأرض فهي جائزة شرعاً وواقعة، كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة^(٢)، كما في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: آية ٢٨]، وقوله (جل وعلا): ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: آية ٢٣]، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث. والشفاعة الكبرى للنبي ﷺ كما يأتي إيضاحه في سورة بني إسرائيل في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: آية ٧٩] وقد يشفع الله من شاء من خلقه، من الأنبياء، والمرسلين، والصالحين^(٣).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣٠/١)، (١٥٠)، (٣٣٢)، (٣٨٠/١٤ - ٤١٥)، شرح الطحاوية ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

(٢) انظر: أضواء البيان (٧٥/١).

(٣) انظر: أنواع الشفاعة المثبتة في شرح الطحاوية ص ٢٨٢ - ٢٩٣، معارج القبول (٢٥١/٢ - ٢٦٥).

وقد تكون الشفاعة بإخراج من دخل النار، وقد تكون الشفاعة بأن يشفع لمن عليه ذنوب فيُنقذ من النار، وقد تكون برفع الدرجات، والشفاعة الكبرى في فصل القضاء بين الخلق، فمعنى قوله إذا: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ هذا إذا كانت كافرة على الإطلاق، ولو كانت مؤمنة لا تُقبل شفاعة إلا بإذن رب السماوات والأرض.

/وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ العَدْلُ: الفداء، وإنما سُمي الفداء عدلاً؛ لأن فداء الشيء كأنه قيمة مُعادلة له ومُماثلة له تكون عوضاً وبدلاً منه. قال بعض علماء العربية^(١): ما يُعادل الشيء ويمثله إن كان من جنسه قيل له (عَدل) بكسر العين، ومنه (عَدلا البعير) أي: عِكمَاهُ^(٢)؛ لأنهما متماثلان. أما إذا كان يماثله ويساويه وليس من جنسه قيل فيه (عَدل) بفتح العين؛ ولذا سُمي الفداء عدلاً؛ لأنه شيء مماثل للمفدي ليس من جنسه. ومن هذا المعنى قوله (جل وعلا): ﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: آية ٩٥]؛ لأن ما يعادل الإطعام من الصيام ليس من جنسه، فإذا كان من جنسه قيل فيه (عَدل)، وهو معروف في كلام العرب، وقد كرره مهلهل بن ربيعة في قصيدته المشهورة في قوله^(٣):

(١) انظر: ابن جرير (٣٥/٢)، القرطبي (٣٨٠/١).

(٢) العِكمَان: عَدْلان يُشَدَّان على جانبي الهودج بثوب، انظر: اللسان (مادة: عكم) (٨٥٥/٢).

(٣) الأمالي (١٣٢/٢)، وقد سقط منها - هنا - أحد الأبيات، كما وقع بين أبياتها شيء من التقديم والتأخير، وهي في الأمالي هكذا:

على أن ليس عدلاً من كليب	إذا طسرة اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا رجف العوضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب	غداة بلايل الأمر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا برزت مخبئة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا غلست نجيات الأمور

على أن ليس عذلاً من كليب إذا طردَ اليتيمَ عن الجُزورِ
 على أن ليس عذلاً من كليب إذا ما ضيمَ جيران المُجيرِ
 على أن ليس عذلاً من كليب غداة بلايلِ الأمرِ الكبيرِ
 على أن ليس عذلاً من كليب إذا برزت مُخبأةُ الخُذورِ
 على أن ليس عذلاً من كليب إذا اضطرب العِصاهُ^(١) من الدُّبورِ^(٢)

يعني أن القتلى التي قتلها بكليب من بني بكر بن وائل لا تُماثلُه في الشرف ولا تساويه، وإنما كسر العين لأنهم من جنس واحد. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أصل النصر في لغة العرب إعانة المظلوم. ومعنى هنا ﴿وَلَا يُنْصَرُونَ﴾ أي: ليس لهم معين يدفع عنهم عذاب الله.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو أن يقول طالب العلم: أفرد الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أفرده مؤنثاً، وجمعه مذكراً في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ مع أن مرجع هذه الضمائر واحد؟^(٣).

الجواب ظاهر؛ لأن قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تعم^(٤)، وعمومها يجعلها شاملة لكثير من أفراد النفوس، فأنت الضمير وأفرده في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ نظراً إلى لفظ النفس، وجمع الضمير المذكر في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ نظراً إلى معنى النكرة في سياق النفي، وأنها شاملة لكثير من الأنفس، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

(١) العِصاه من الشجر: كل شجر له شوك، وقيل: ما عظم من شجر الشوك وطال واشتد شوكة، وقيل غير ذلك، انظر: اللسان (مادة: عضة) (٨٠٨/٢).

(٢) هي ريح تهب من جهة الغرب تقابل الصُّبا. ويقال: تُقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق. انظر: المصباح المنير (مادة: دبر) ص ٧٢.

(٣) انظر: البحر المحيط (١/١٩١).

(٤) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/١١٠، ١١٨)، شرح الكوكب المنير (١٣٦/٣)، أضواء البيان (٥/٣٦٢)، (٦/١٣٠).

وقوله (جل وعلا): ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: آية ٤٩] أي: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، يعني: من فرعون وقومه القبط؛ لأنهم كانوا يهينون بني إسرائيل.

قال بعض العلماء^(١): أصل (الآل): أهل، بدليل تصغيره على (أهيل)، وبعضهم صغره على (أويل)، ولا يطلق (الآل) على الأهل إلا إذا كان مضافاً لمن له شرف وقدر، فلا تقول: آل الحجام، ولا آل الإسكاف^{(٢)(٣)}.

و(فرعون) ملك مصر المعروف، وهو يُطلق على من ملك مصر. وقال بعضهم: كل من ملك العمالقة يُطلق عليه (فرعون)^(٤).

واختلف في لفظ (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي؟^(٥) قيل: هو اسم أعجمي، مُنع من الصرف للعلمية والعجمة. وقال بعض العلماء: هو عربي، من تفرعن الرجل إذا كان ذا مكر ودهاء. والأول أظهر. وعلى أنه عربي فوزنه (فَعْلُول) بلامين لا (فعلون) بالنون.

وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ تقول العرب: سامه خسفاً، إذا أولاه ظلماً، وأذاقه عذاباً، ومن هذا المعنى قول عمرو بن كلثوم في معلقته^(٦):

إذا ما المَلِكُ سامَ الناسَ خسفاً أبيناً أن نُقرَّ الذلَّ فينا

وقوله: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، أي: أصعب العذاب وأشدّه وأفظعه؛ لأنهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب شاقة ذكر الله بعضاً منها هنا حيث قال: ﴿يُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾

(١) انظر: ابن جرير (٣٧/٢)، القرطبي (٣٨٣/١)، الدر المصون (٣٤١/١).

(٢) هو الخزاز، وقيل: كل صانع، انظر: المصباح المنير: (مادة: الإسكاف) ص ١٠٧.

(٣) انظر: المفردات (مادة: آل) ص ٩٨، الدر المصون (٣٤٣/١).

(٤) انظر: ابن جرير (٣٨/٢)، القرطبي (٣٨٣/١)، الدر المصون (٣٤٣/١).

(٥) انظر: الدر المصون (٣٤٤/١)، اللسان (مادة: فرعن) (١٠٨٣/٢).

(٦) شرح القصائد المشهورات (١٢٤/٢).

فالفعل المضارع الذي هو ﴿يَذَيِّحُونَ﴾ بدل من الفعل المضارع الذي قبله^(١) الذي هو ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، على حد قوله في الخلاصة^(٢):

وَيُبَدِّلُ الْفِعْلُ مِنَ الْفِعْلِ كَمَنْ يَصِلُ إِلَيْنَا يَسْتَعِينُ بِنَا يُعْنِ

وإنما عبر بالتشديد في قراءة الجمهور في قوله: ﴿يَذَيِّحُونَ﴾ دلالة على الكثرة؛ لأنهم ذبحوا كثيراً من أبنائهم^(٣). ﴿يَذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: الذكور ﴿وَيَسْتَعِينُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: بناتكم الإناث، يبقوهن حيات، ولم يذبحوهن. والنساء على التحقيق اسم جمع^(٤) لا واحد له من لفظه، واحدته امرأة.

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن الله لما ذكر أنهم ساموهم سوء العذاب فسر قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بالبدل بعده، ويُنَّ أن من ذلك العذاب العظيم السيء: تذيبح الأبناء، واستحياء البنات. وفي هذا سؤال، وهو أن يقول: تذيبح الأبناء ظاهر أنه من ذلك العذاب الذي يسومونهم، أما استحياء البنات، وهو قوله: ﴿وَيَسْتَعِينُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فأين وجه كون هذا من سوء العذاب، مع أن بقاء البعض قد يظهر للناظر أنه أحسن من تذيبح الكل؟ كما قال الهذلي^(٥):

حمدتُ إلهي بعد عروة إذ نجى خراش وبعض الشر أهون من بعض

الجواب عن هذا: أن استحياءهم للنساء استحياء هو من جملة العذاب؛ لأنهم يستحيونهم ليعملوهم في الأعمال الشاقة، وليفعلوا بهم ما لا يليق من العار والشنار^(٦)، وبقاء البنت - وهي عورة - تحت يد عدو لا يشفق عليها، يفعل بها ما لا يليق، ويكلفها ما لا تطيق، هذا من سوء العذاب بلا شك،

(١) انظر: الدر المصون (١/٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) الخلاصة ص ٤٩، وانظر شرحه في الأشموني (١٣٣/٢).

(٣) انظر: القرطبي (١/٣٨٥، ٣٨٦).

(٤) اسم الجمع: ما دل على آحاده دلالة الكل على أجزائه، والغالب أنه لا واحد له من لفظه، نحو: (قوم، رهط، طائفة، جماعة) انظر: حاشية الصبان (١/٢٩).

(٥) البيت لأبي خراش الهذلي، انظر: الخزانة (٢/٤٥٨).

(٦) انظر: ابن عطية (١/٢١٢)، البحر المحيط (١/١٩٤)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢١.

وقد قال جل وعلا: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: آية ٩] والعرب كانوا ربما قتلوا بناتهم شفقةً وخوفاً عليهم مما يلاقونه مما لا يليق بعد موت الآباء، وهو كثير في شعرهم وقد قال رجل منهم في ابنة له تسمى مودة^(١):

مودة تهوى عُمرَ شيخ يسره لها الموت قبل الليل لو أنها تَذري
يخافُ عليها جفوةَ الناسِ بعده ولا حَتَنَ يُرجى أودَ من القَبرِ
ولما خُطبت عند عقيل بن عُلَفة المري ابنته الجرباء أنشد^(٢):

إني وإن سيق إلي المهر عبد وألفان وذود^(٣) عشر
أحب أصهارِي إلي القَبرِ
وقد قال الشاعر^(٤):

تهوى حياتي وأهوى موتها شَفَقاً والموتُ أكرمُ نَزَالٍ على الحُرَمِ
وهذا هو وجه كون استحياء النساء من ذلك العذاب الذي يسومونهم.

وقال جل وعلا: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ في الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وجهان لا يكذب أحدهما الآخر مبنيان على المراد بالبلاء^(٥)؛ لأن البلاء في لغة العرب الاختبار^(٦)، والاختبار قد يقع بالخير

(١) انظر: أضواء البيان (٢٨٦/٣)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٢.

(٢) انظر: القرطبي (١١٨/١٠)، مختصر تاريخ دمشق (١٢٧/١٧)، زهر الآداب (٤٨٤/١)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥. أضواء البيان (٢٨٦/٣) والمثبت في هذه المصادر: «ألف وعبدان».

(٣) في القرطبي (وخور) وهي: جمع خَوَّارة، وهي الناقة الغزيرة اللبن. انظر: القرطبي (١١٨/١٠). وأما الذود من الإبل: فهو من الثلاثة إلى العشرة. المصباح المنير (مادة: ذود) ص ٨٠.

(٤) البيت لأبي إسحاق بن خلف. انظر: القرطبي (٢٧٥/١٩)، الدر المصون (٧٣٦/١٠)، ابن عاشور (٨٧/١٥)، زهر الآداب (٤٨٥/١)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥.

(٥) انظر: ابن عطية (٢١٢/١)، الدر المصون (٣٤٨/١).

(٦) انظر: ابن جرير (٤٩/٢)، المفردات (مادة: بلى) ص ١٤٥.

وقد يقع بالشر، كما قال جل وعلا: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] وقال (جل وعلا): ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] والله ذكر في الآية الماضية أنه ابتلى بني إسرائيل بخير وشر؛ أما الشر الذي ابتلاهم به فهو ما كان يسومهم فرعون من سوء العذاب، وأما الخير الذي ابتلاهم به فهو إنجاؤه إياهم من ذلك العذاب.

قال بعض العلماء: ﴿فِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب الذي كان يسومكم فرعون، ﴿بَلَاءٌ﴾ بالشر ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، وقال بعض العلماء: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ الإنجاء الذي أنجاكم الله به من عذاب فرعون ﴿بَلَاءٌ﴾ بالخير ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، وكلما كان الشر أكبر كان الإنقاذ منه مماثلاً له في الكبر، ولا شك أن العرب تطلق البلاء على الاختبار بالشر والاختبار بالخير، خلافاً لمن منعه في الاختبار بالخير، وهو معروف في كلام العرب، ومن أمثلته في الخير قول زهير^(١):

جَزَىٰ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو
وهذا معنى قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (٥٠) ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَاهُ الْغَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١) ﴿ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢) ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣) [البقرة: الآيات ٥٠ - ٥٣].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَمَجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (٥٠) [البقرة: آية ٥٠] أي: واذكروا إذ فرقنا بكم البحر. ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه، بدليل قوله: ﴿فَأَنفَلَقَ فَمَا كَانَ مِنْ فَرَقٍ فَفُتِحَ الْطُّورُ الْعَظِيمُ﴾ [الشعراء: آية ٦٣] وأصل الفرق: الفصل بين أجزاء الشيء^(٢). فمعنى ﴿فَرَقْنَا

(١) شرح ديوان زهير ص ٩١، وأوله: (رأى الله)، وهي إحدى روايات البيت. والبيت في ابن جرير (٤٩/٢)، معاني القرآن للزجاج (١٣٢/١)، الدر المصون (٣٤٨/١).

(٢) انظر: المفردات (مادة: فرق) ص ٦٣٢، القرطبي (٣٨٧/١).

يَكُمُ الْبَحْرَ ﴿٢٥﴾ أي: فصلنا بين بعضه وبعض حتى كانت بينه مسالك تسلكون فيها. ومن هذا المعنى قوله: ﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَالَسِينَ﴾ [المائدة: آية ٢٥] أي: افصل بيننا وبينهم، ﴿فَالْفَرَقَتْ فَرَقًا﴾ [المرسلات: آية ٤] أي: على القول بأنها الملائكة تنزل بالوحي الذي يفصل بين الحق والباطل. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فصلنا بعض أجزائه عن بعض حتى كانت بينه مسالك تسلكون فيها من طرق يابسة كما قال جل وعلا: ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: آية ٧٧]. و (الباء) في قوله: ﴿يَكُمُ﴾ فيها لعلماء التفسير أوجه^(١)، أظهرها أنها سببية. والمعنى: فصلنا بعض أجزاء البحر عن بعض، بسبب دخولكم فيه؛ ليتمكنكم المرور سالكين بين أجزائه، كما قال تعالى: ﴿فَأَنفَلَقَ فَمَا كَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣]. وقال بعض العلماء: (الباء) بمعنى اللام، فمعنى ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ أي: فرقنا لكم. وهو عائد إلى معنى الأول؛ لأن اللام للتعليل، والباء للسبب، فالمعنى متقارب. وقال بعض العلماء: الجار والمجرور في محل حال، أي: فرقنا البحر في حال كونه متلبساً بكم. وقال بعض العلماء: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: جعلناكم كأنكم حاجز بين بعضه وبعض، كما تقول: فصلت بين أجزاء الشيء بكذا.

و(البحر) معروف، قال بعض العلماء: اشتقاقه من الشق^(٢)؛ لأنه شق في الأرض كبير، ومنه البحيرة؛ لأنها مشقوقة الأذن. وقال بعض العلماء: هو من البحر بمعنى الاتساع لاتساعه.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ أي: أنجيناكم من فرعون وما كان يسومكم من العذاب. وأصل الإنجاء والتنجية أصل اشتقاقه من النجوة، وهي المرتفع من الأرض^(٣). فكان الإنسان إذا سلم من هلاك، ونجا من أمر خطر ارتفع عن هوة الهلاك إلى نجوة السلامة. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنشَرْنَا نَظْرُونَ﴾ [٥٠] الهمزة في ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ للتعدي،

(١) انظر: الدر المصون (٣٤٩/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٩٥/١)، الدر المصون (٣٥٠/١).

(٣) انظر: المفردات (مادة: نجو) ص ٧٩٢.

وأصل الفعل الثلاثي قبل أن تدخل عليه همزة التعدية: (غَرِقَ يَغْرُقُ غَرَقًا)، ومنه قول ذي الرُّمَّة^(١):

وإنسان عيني يَخْسِرُ الماءَ تارَةً فيبدو وتاراتٍ يَجِئُ فَيَغْرُقُ
والعرب تعدّيه بالهمزة والتضعيف فتقول: أغرقه الله، وغرقه، إذا جعله يغرق. ومن هذا المعنى قول الشاعر^(٢):

..... أَلَا لَيْتَ قَيْسًا غَرَّقَتْهُ الْقَوَابِلُ

فألهمزة في (أغرقنا) همزة التعدية، والمعروف أن همزة التعدية إذا دخلت على فعل لازم أكسبته مفعولاً، وإذا دخلت على فعل متعد لمفعول أكسبته مفعولين، وإذا دخلت على فعل متعد لمفعولين أكسبته ثالثاً، كما قال في الخلاصة^(٣):

إلى ثلاثة رَأَى وَعَلِمَا عَدُوا إذا صاروا أرى وَأَعْلَمَا
و ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾^(٤) قدمنا معناه. وقوله: ﴿وَأَشْتَرُ نَنْظُرُونَ﴾ جملة حالية^(٥)، والظاهر أنه نظر بالأبصار^(٦)؛ لأن الله أراهم ما أحل بفرعون وقومه من الغرق في البحر، وهو البحر الأحمر، ليكون ذلك أقرّ لأعينهم؛ لأن هلاك العدو وعدوه ينظر إليه أقرّ لعينه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَأَشْتَرُ نَنْظُرُونَ﴾.

(١) انظر: المحتسب (١/١٥٠)، ضياء السالك (٣/١٨٧)، المعجم المفصل (٢/٥٩٠).

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٥٦، وصدره:

أَطْوَريْن في عام غزاة ورِخْسلَة

(٣) الخلاصة ص ٢٤، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٢٩٥).

(٤) سئل الشيخ رحمه الله عن التعبير هنا بقوله: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مع قوله في حق موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: آية ٥٤]؟.

فأجاب رحمه الله بقوله: عبر به ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يريد فرعون وقومه، كما قال جل وعلا:

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَرَكَنُكُمْ عَلَيْكُمْ أَقْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: آية ٧٣] يدخل فيهم إبراهيم، وكما قال

النبي ﷺ لأبي موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» يعني: داود.

(٥) انظر: الدر المصون (١/٣٥١).

(٦) انظر: القرطبي (١/٣٩٢).

وقوله: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: آية ٥١] (إذ) منصوب بـ(اذكر) مقدراً على أحد الأقوال^(١)، وهو معطوف على المذكورات قبله^(٢)، وقرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا البصري أبو عمرو: ﴿وَعَدْنَا﴾ بصيغة المُفَاعَلَةِ، وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾^(٣) ثلاثياً مجرداً من الوعد.

أما على قراءة أبي عمرو فلا إشكال: صيغة الجمع للتعظيم. والله وعد نبيه موسى أن يُنزل عليه كتاباً فيه الحلال والحرام، وكل ما يحتاجون إليه، بعد أربعين ليلة.

أما على قراءة الجمهور ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ بصيغة المُفَاعَلَةِ، فالمقرر في فن التصريف: أن المُفَاعَلَةَ تقتضي الطرفين. أعني اشتراك الفعل بين فاعلين؛ ولذا استشكل بعض العلماء التعبير بالمواعدة هنا، قال: إن الله يَعِدُ وحده، ولا يَعِدُهُ غيره، والجواب عن هذا^(٤): أن المُفَاعَلَةَ باعتبار أن الله وعد موسى بوحي يبين له فيه الأمور، وموسى وعد ربه بالإتيان للميعات المُعَيَّن لتلقي ذلك الوحي، ومن هنا صارت المُفَاعَلَةُ معقولة.

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال بعض العلماء: هو على حذف مضاف، أي: تمام أربعين ليلة^(٥). وقد بيّن تعالى في سورة الأعراف أن الوعد بهذه الأربعين كان مفرقاً بأن وَعَدَ ثلاثين أولاً ثم أتمها بعشر^(٦)، وذلك في قوله: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] قال بعض العلماء: هذه الأربعون ليلة هي شهر ذي

(١) انظر: البحر المحيط (١٣٩/١)، الدر المصون (٤/٦٩٥).

(٢) المصدر السابق (١/١٩٧).

(٣) المبسوط لابن مهران ص ١٢٩، الإقناع (٢/٥٩٧).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٢/٥٨ - ٦٠)، حجة القراءات ص ٩٦، الكشف لمكي

(١/٢٣٩)، الموضح لابن أبي مريم (١/٢٧٤).

(٥) انظر: القرطبي (١/٣٩٥).

(٦) انظر: أضواء البيان (١/١٥، ٧٧).

القعدة وعشر من ذي الحجة^(١)، واليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وأنجى فيه بني إسرائيل هو يوم عاشوراء، وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم فأخبروه بأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه، وأهلك فيه فرعون وقومه، فقال النبي ﷺ: «نحن أولى بموسى منهم». فكان يصومه حتى نزل صيام رمضان^{(٢)(٣)}. وثبت في الصحيح عن عائشة (رضي الله عنها) أن قريشاً كانوا يصومون^(٤) يوم عاشوراء في

(١) انظر: القرطبي (٣٩٥/١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيام، باب صيام عاشوراء، حديث رقم: (٢٠٠٤)، (٢٤٤/٤)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم: (٣٣٩٧)، (٣٩٤٣)، (٤٦٨٠)، (٤٧٣٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، حديث رقم: (١١٣٠)، (٧٩٥/٢).

(٣) سئل الشيخ رحمه الله: على التعليل لصيامه في الإسلام بأن الرسول ﷺ رأى اليهود يصومونه وسألهم... إلخ. بم يجاب على حديث: «خالفوا اليهود والنصارى» مع وقوع هذا الصيام موافقاً لفعل اليهود في ذلك اليوم؟

فأجاب رحمه الله بقوله: الظاهر - والله تعالى أعلم - أن النبي ﷺ لم يصمه إلا لأوليئته بموسى، لا لمجرد اتفاق اليهود، وقد علل ذلك بقوله في الحديث: «نحن أولى بموسى منهم» والظاهر أنه لم يصدق بني إسرائيل في أن هذا اليوم هو الذي نجى الله فيه موسى وقومه، وأنه قد عرف ذلك من طريق غير إخبارهم، لما تقرر عند العلماء: أن شرع من قبلنا لا يكون شرعاً لنا، ولا يتعبد به نبينا ﷺ إلا بعد ثبوته في شرعنا، فإن ثبت في شرعنا فأصح الأقوال أنه شرع لنا، وأن نبينا ﷺ متعبد به، ومما يدل على ذلك: ما ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة (ص) أن مجاهداً سأل ابن عباس رضي الله عنهما: من أين أخذت السجدة في (ص)؟ فأجابه ابن عباس: «أومأ قرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَ﴾ فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ. فعلى قياس هذا لا يبعد أن يوحي الله إليه أن هذا اليوم أنجى الله (جل وعلا) فيه موسى ويصوموه.

(٤) سئل الشيخ رحمه الله عن علة صيام عاشوراء في الجاهلية.

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: «الله تعالى أعلم، ويمكن أن يكون قريش في الجاهلية تسرب إليهم صومه من بني إسرائيل؛ لأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وأغرق فيه فرعون، والله تعالى أعلم». اهـ جواب الشيخ. وللاستزادة راجع: القرطبي (٣٩١/١)، الفتح (٢٤٦/٤).

الجاهلية، وأن النبي ﷺ كان يصومه^(١). ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأنه لا مانع من أن يكون النبي ﷺ كان يصومه لأن قريشاً في الجاهلية كانوا يصومونه. ولما جاء تمادى على صومه، ووجد اليهود يصومونه، ولا مانع من كون الفعل الواحد أو النص الواحد له سببان فأكثر^(٢). وعلى كل حال فصوم يوم عاشوراء وجوبه منسوخ بإجماع العلماء^(٣).

وقوله جل وعلا: ﴿أَتَبَيَّنَ لَيْلَةً﴾ عبر بالليالي لأنها قبل الأيام^(٤) والمقرر في فن العربية أن التاريخ بالليالي لأنها قبل الأيام^(٥). فلما انتهى هذا الميعاد أنزل الله (جل وعلا) عليه التوراة، وكتبها له في الألواح، كما يأتي تفصيله في سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وقرأه بعضهم: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بالإدغام^(٦).

وأصل (الاتخاذ) على التحقيق عند علماء العربية: افتعال من الأخذ، أصله (أتخاذ)^(٧)، وإبدال الهمزة تاء يُحفظ ولا يقاس عليه، وإنما المقيس إبدال فاء المثال، أعني واوي الفاء، أو يائي الفاء، كالاتجاه، والاتسار، إبدال الواو فيه تاء، أما إبدال الهمزة تاء فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، كاتَّكل، واتَّزر، واتَّخذ، بناء على الصحيح أنها (اُتَّعَلَّ) من الأخذ. وأصل

(١) البخاري في الصحيح، كتاب الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ﴾ حديث رقم: (١٥٩٢)، (٤٥٤/٣)، وقد أخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم: (١٨٩٣)، (٢٠٠١)، (٢٠٠٢)، (٣٨٣١)، (٤٥٠٢)، (٤٥٠٤)، ومسلم في الصحيح، كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، حديث رقم: (١١٢٥)، (٧٩٢/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٣٩١/١)، الفتح (٢٤٨/٤).

(٣) انظر: التمهيد (٢٠٣/٧)، (١٤٨/٢٢).

(٤) انظر: القرطبي (٣٩٦/١).

(٥) انظر: القرطبي (٢٧٦/٧)، البحر المحيط (١٩٩/١).

(٦) أي تُقرأ هكذا: (اتَّخَذْتُمْ)، انظر: الإقناع في القراءات السبع (٢٦٥/١)، النشر (١٥/٢).

(٧) انظر: القرطبي (٣٩٦/١ - ٣٩٧)، الدر المصون (٣٥٤/١ - ٣٥٥).

العجل: ولد البقرة، ويجمع على (عَجَاجِيل، عَجَاجِل) على غير قياس، كما عقد مثله في الخلاصة بقوله^(١):

وحائِذٌ عَنِ الْقِيَاسِ كُلِّ مَا خَالَفَ فِي الْبَابَيْنِ حُكْمًا رُسِمًا

وهذا العجل هو العجل الذي صاغه لهم السامري من حُلِيِّ القبط المذكور في قوله: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: آية ١٤٨]، ويئنه في سورة طه بقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ [طه: آية ٩٦] وحذف مفعول الاتخاذ الثاني، وهو محذوف في جميع القرآن، وتقرير المعنى: ثم اتخذتم العجل من بعده، أي: من بعد موسى لما ذهب إلى الميقات، أي: اتخذتم العجل إلهاً. وهذا المفعول الثاني محذوف في جميع القرآن ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: آية ٥٤] أي: إلهاً. ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: آية ٥٤] أي: إلهاً. فهذا المفعول الثاني الذي تقديره (إلهاً) محذوف في جميع القرآن^(٢).

قال بعض العلماء: النكتة في حذفه التنبيه على أنه لا ينبغي لعاقل أن يتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً من حُلِي أنه إله^(٣).

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة حالية^(٤)، يعني: اتخذتم العجل والحال أنتم ظالمون باتخاذكم العجل إلهاً. وأصل الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فقد ظلم في لغة العرب^(٥). وأكبر أنواع الظلم - أي وضع الشيء في غير محله - وضع

(١) الخلاصة ص ٦٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٤٦٥/٢)، وراجع اللسان (مادة: عجل) (٦٩٦/٢)، القاموس (مادة: العجل) ص ١٣٣١.

(٢) انظر: الأضواء (٧٨/١).

(٣) انظر: الأضواء (١٧/١).

(٤) انظر: القرطبي (٣٩٧/١).

(٥) انظر: ابن جرير (٥٢٣/١)، المفردات (مادة: ظلم) ص ٥٣٧، القرطبي (٣٠٩/١) - (٣١٠).

العبادة في غير من خَلَقَ، فمن عبد غير خالق السماوات والأرض فقد وضع العبادة في غير موضعها؛ ولذا هو ظالم لغة؛ ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله جل وعلا فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسّر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] أي: بشرك^(١). وقال جل وعلا عن العبد الصالح لقمان الحكيم: ﴿يَتَّبِعْ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣]. هذا معنى الظلم في لغة العرب، ومنه قيل لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يضيع زبده. وفي لغز الحريري هل تجوز شهادة الظالم؟ قال: نعم، إذا كان عالماً^(٢). يعني بالظالم: الذي يضرب لبنه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قول الشاعر^(٣):

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَائِهِ ظَلَمْتُ وفي ظُلْمِي له عامِداً أَجْرُ
يعني بصاحب الصدق الذي لم تَرِبْ شَكَائِهِ في ظلمه إياه: سقاء له، ضربه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قول الشاعر^(٤):

وقائلة ظَلَمْتُ لكم سقائي وهل يخفى على الْعَكْدِ الظلِّيمِ
فقولها: (ظلمت لكم سقائي) أي: سقيتكم منه قبل أن يروب؛ ولأجل هذا قيل للأرض التي حُفِرَ فيها ولم تُحْفَرِ قط، إذا لم تكن محلاً للحفر:

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، حديث رقم (٣٣٦٠) (٣٨٩/٦)، وأخرجه في مواضع أخرى من صحيحه، انظر الأحاديث: (٣٤٢٨، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧). ومسلم، كتاب الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه. حديث رقم: (١٩٧) (١١٤/١).

(٢) مقامات الحريري مع شرح الشريشي (١٤٨/٣) في المقامة الثانية والثلاثون.

(٣) انظر: اللسان (مادة: ظلم) (٦٥٠/٢).

(٤) المصدر السابق.

مظلومة؛ لأن الحفر وقع في غير موضعه. ومن هذا المعنى على التحقيق قول نابغة ذبيان^(١):

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لِأَيَّامٍ أَبْيُنُهَا وَالثَّوِيَّ كَالْحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ

خلافاً لمن زعم أن (المظلومة) التي أبطأ عنها المطر. ومن هنا قيل للقبر (ظليم)؛ لأنه حَفَرٌ في محل لم يُحَفَر قبل ذلك. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر^(٢):

فأصبح في غبراء بعد إشاحة على العيشِ مردودٍ عليها ظَلِيمُهَا

هذا أصل معنى الظلم في لغة العرب، وشواهد العربية، وهو يُطلق في القرآن إطلاقين: يطلق بمعناه الأعظم، وهو وضع العبادة في غير من خلق، وهذا أكبر أنواع الظلم، ومنه بهذا المعنى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: آية ١٠٦]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣].

وقد يطلق الظلم في القرآن أيضاً على ظلم الإنسان نفسه ببعض المعاصي التي لا تبلغ به الكفر، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الآية [فاطر: آية ٣٢]، بدليل قوله في الجميع: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: آية ٣٣]، لأن هذا أطاع الشيطان وعصى ربه فقد وضع الطاعة في غير موضعها، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَتَّخِذُهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: آية ٥٢] (عفونا) أصله

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ٩ وسيأتي شرح بعض مفردات البيت عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) اللسان (مادة: ظلم) (٢/٦٥١).

من (العفو)، من عَفَتِ الرياح الأثر، إذا طمسته. فالعفو - مثلاً - هو: طمس الله أثر الذنب يتجاوزته حتى لا يبقى له أثر يتضرر به العبد^(١). والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى اتخاذهم العجل إلهاً، وهو ذلك الذنب العظيم، وأشار إليه إشارة البعيد؛ لأن مثل ذلك الفعل يجب أن يُتباع منه تباعداً كلياً.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال بعض العلماء: يغلب إتيان (لعل) في القرآن مُشَمَّةً معنى التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَافِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْذُونَ﴾^(٢) [الشعراء: آية ١٢٩] وإتيان (لعل) حرف تعليل مسموع في كلام العرب، ومن إتيان (لعل) للتعليل قول الشاعر^(٣):

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوُثِّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ
فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُھُودُكُمْ كَشِبِهِ سَرَابٍ بِالْمَلَا مُتَالِقٍ

فهذه ليست للترجي بتاتاً؛ لأنه قال: «ووثقتم لنا كل موثق». وقوله: «ووثقتم لنا كل موثق» دلٌّ على أن المراد: فقلتم لنا كفوا الحروب لأجل أن نكف، ووثقتم لنا كل موثق في وعدكم بالكف المعلل بكفنا. هذا هو التحقيق.

وقال بعض العلماء^(٤): المراد ب(لعل) يعني: افعلوا ما أمرناكم به مترجين أن يقع ما بعد لعل، وتقريره في هذا المعنى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ﴾. وذلك العفو ينبغي - مثلاً - أن تترجوا، وذلك العفو الذي عفونا عنكم يُرجى من مثلكم فيه أن تشكروا ذلك العفو. فتكون للترجي على

(١) انظر: القرطبي (٣٩٧/١)، الدر المصون (٣٥٦/١).

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٥٧/٤)، الإتيان (٢٣٣/٢)، فتح الباري (٤٩٨/٨)، أضواء البيان (٤١٤/٢) (٢٠٤/٦)، الدر المصون (١٨٩/١).

(٣) انظر: ابن جرير (٣٦٤/١)، القرطبي (٢٢٧/١)، الدر المصون (١٨٩/١) والمثبت في هذه المصادر: «كَلَمَعَ سَرَابٍ فِي الْمَلَا...».

(٤) القرطبي (٢٢٧/١).

بابها. والأول لا ينافي الثاني؛ لأننا لو قلنا: إنها للتعليل، فالمعمل مرجو الحصول عند وجود علته.

وأصل (الشكر) في لغة العرب: الظهور، ومنه (الشكير) وهو الغسلوج الذي يظهر في جذع الشجرة التي قُطعت إذا أصابها الماء فظهر فيها غسلوج يُسمى شكيراً؛ لأنه ظهر بعد أن لم يكن، ومنه: (ناقة شكور) يظهر عليها أثر السمن^(١).

والشكر يطلق في القرآن من الله لعبده، ومن العبد لربه، فمن إطلاق شكر الرب لعبده قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨].

ومعنى شكر الرب لعبده: هو إثابته له الثواب الجزيل من عمله القليل. ويطلق الشكر من العبد، كما في قوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومعنى شكر العبد لربه: هو أن يستعمل نعمه في طاعاته؛ فهذه العين الباصرة التي أنعم عليه بها شكرها أن لا ينظر بها إلا إلى ما يرضي الله، وهذه اليد الباطشة التي أنعم عليه بها شكر نعمتها أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وهذا اللسان الذي يُبين به ويفصح عما في ضميره شكره أن لا ينطق به إلا فيما يرضي الله، وهكذا في جميع سائر النعم والمنح البدنية والمالية إلى غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ [البقرة: آية ٥٣] (إذ) معطوف على ما قبله، وأكثر العلماء على أنه منصوب بـ(أذكر) مقدر^(٢). وقد بيئنا مراراً أن الدليل على عمل هذا العامل الذي هو (أذكر) في (إذ) أنه مفهوم من استقراء القرآن، لكثرة إعمال (أذكر) في (إذ) نحو: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١]، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ

(١) انظر: اللسان (مادة: شكر) (٣٤٤/٢ - ٣٤٥)، المفردات (مادة: شكر) ص ٤٦١، المصباح المنير (مادة: شكر) ص ١٢٢.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿[الأنفال: آية ٢٦]، ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] وهكذا.

و ﴿ءَاتَيْنَا﴾ معناه أعطينا، والألف فيه مبدلة من همزة فاء الفعل، فوزنه: (أَفْعَلْنَا) والأصل (أَاتَيْنَا) فأبدلت همزة فاء الفعل مداً مجانساً لحركة همزة (أَفْعَل) ^(١) على القاعدة التصريفية المجمع عليها المشهورة التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله ^(٢):

وَمَدًّا ابْدِلْ ثَانِيَ الْهَمْزَيْنِ مِنْ كَلِمَةٍ إِنْ يَسْكُنُ كَاثِرٌ وَائْتِمِنْ

وصيغة الجمع للتعظيم. ومعنى (آتينا): أعطينا، وهي تطلب مفعولين، والمفعول الأول هو موسى، والثاني الكتاب، وهذه من باب: (كسا) لا من (ظن). ومعلوم عند علماء العربية أن الفرق الواضح الموضح بين باب (ظن) وباب: (كسا) ^(٣) - مع أن كلا منهما تنصب مفعولين - هو: أن تحذف الفعل من كلا البابين، ثم تجعل المفعولين مبتدأ وخبراً، فإن صدقت القضية فهي من باب (ظن)، وإن كذبت فهي من باب (كسا)، وهذا ضابط مطرد مفيد لطالب العلم، فلو قلت مثلاً: «ظننت زيدا قائماً». فحذفت الفعل الذي هو (ظننت) وجعلت المفعولين مبتدأ وخبراً، فقلت: «زيد قائم» كان كلاماً مستقيماً. فهذا من باب (ظن)، بخلاف «كسوت زيدا ثوباً» و«سقيت عمراً ماء». و ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لو حذفت الفعل منها وقلت: «زيد ثوب»، «عمرو ماء»، «موسى الكتاب»، فهذه القضية كاذبة، فدلّ على أنها من باب (كسا).

والمراد بالكتاب التوراة، بإجماع العلماء ^(٤).

والتحقيق أن المراد بالفرقان هو التوراة أيضاً ^(٥)، وقد تقرر في فن العربية أن

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٠٢.

(٢) الخلاصة ص ٧٦، وانظر شرحه في الأشموني (٦٠٤/٢).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل (٣٨٥/١).

(٤) انظر: القرطبي (٣٩٩/١).

(٥) انظر: ابن جرير (٧١/٢).

الشيء الواحد إذا وُصف بصفات مختلفة يجوز عطفه على نفسه نظراً إلى اختلاف صفاته، وتنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات^(١). ومن أمثلته في القرآن قوله جل وعلا: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أخرجَ الْغَرْنَ (٤)﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤]، فالمتعاطفات بالواو مدلولها واحد، إلا أنها عُطفت بحسب تغاير الصفات، ونظير هذا من كلام العرب قول الشاعر^(٢):

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ وليثِ الكَتِيبَةِ في المُرْدَحَمِ
فعطف هذه بعضها على بعض، مع أن الموصوف بها واحد، نظراً إلى تغاير الصفات. والدليل على أن (الفرقان) كتاب موسى، وأن من زعم أن المعنى: آتينا موسى الكتاب، ومحمداً ﷺ الفرقان، أنه قول باطل، بدليل قوله^(٣) (جل وعلا) في الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْفِقِينَ (٤٨)﴾ [الأنبياء: آية ٤٨].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لأجل أن تهتدوا كما بيئنا. أو على أن إنزال هذا الكتاب يُرجى منه أن تهتدوا؛ لأنه مظنة لذلك، ومحل للرجاء في هداكم بهذا الكتاب العظيم السماوي.

و ﴿تَهْتَدُونَ﴾ معناه تسلكون طريق الهدى، من طاعة الله جل وعلا، بامثال أوامره واجتناب نهيه.

١/٢

/﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَنُتُوْا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْفَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: الآيات ٥٤ - ٥٦].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ

(١) انظر: القرطبي (٣٩٩/١)، المدخل للحدادي ص ٢٣٦، أضواء البيان (٧٧/١)، (١٩٥/٣).

(٢) انظر: الخزانة (٢١٦/١).

(٣) انظر: الدر المصون (٣٥٩/١)، الأضواء (٧٧/١ - ٧٨).

أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجَلَ فُتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ [البقرة: آية ٥٤] أي: واذكروا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ حين قال موسى ﴿لِقَوْمِهِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أصله: (يا قومي) منادى مضاف إلى ياء المتكلم، وحذفت ياء المتكلم اكتفاء عنها بالكسرة^(١). وفي المنادى المضاف إلى ياء المتكلم إن كان صحيح الآخر خمس لغات^(٢)، كلها صحيحة، أكثرها حذف ياء المتكلم كما في هذه الآية. وتلك اللغات عقدها في الخلاصة بقوله^(٣):

وَاجْعَلْ مُنَادَىٰ صَحَّ إِنْ يُضَفَّ لِيَا كَعَبْدِ عَبْدِي عَبْدَ عَبْدًا عَبْدِيَا

أصله: يا قومي. ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قدمنا معنى الظلم^(٤) بشواهد العربية، ومعناه في القرآن، وقد جاء في القرآن في موضع واحد مراداً به النقص في قوله: ﴿كُنَّا الْجَنَّةَيْنِ ءَأَلَّتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً^(٥).

وهذه الآية تدل على أن من خالف أمر الله أنه إنما ظلم بذلك نفسه حيث عرّضها لسخط الله وعذابه، فضرر فعله عائد إليه وحده، وذلك أكبر باعث على الانزجار والكف؛ لأن الإنسان لا يحب أن يضر نفسه، ولا أن يجني عليها، فإذا عرف الإنسان أن ضرر فعله إنما هو عائد إليه حاسب.

والباء في قوله: ﴿بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجَلَ﴾ سببية^(٦)، يعني أن اتخاذهم العجل هو السبب الذي ظلموا به أنفسهم. وقد قدمنا^(٧) أن (الاتخاذ) مصدر اتخذ،

(١) انظر: القرطبي (٤٠٠/١).

(٢) في القرطبي (٤٠٠/١)، والدر المصون (٣٩/١) (ست لغات). وانظر: التوضيح والتكميل (٢١٧/٢ - ٢١٨).

(٣) الخلاصة ص ٥١، وانظر شرحه في الأشموني (١٥٦/٢)، التوضيح والتكميل (٢١٧/٢ - ٢١٨).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.

(٥) انظر: المفردات (مادة: ظلم) ص ٥٣٨.

(٦) انظر: الدر المصون (٣٦١/١).

(٧) مضى عند تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.

وأن الظاهر أن أصله (افتعال) من (الأخذ)، إلا أن الهمزة التي هي في محل فاء الكلمة أبدلت تاءً وأدغمت في تاء الافتعال، وهذا يُحفظ ولا يُقاس عليه، كما عقده في الخلاصة بقوله^(١):

ذُو اللَّيْنِ فَاتَا فِي افْتِعَالٍ أَبْدِلَا وَشَدَّ فِي ذِي الْهَمْزِ نَحْوُ اثْتَكَلَا
و ﴿بَاتَّخَذَكُمْ﴾ مصدر من فعل يطلب مفعولين، والمصدر هنا مضاف إلى فاعله^(٢). والمفعول الأول العجل، والمفعول الثاني محذوف دائماً في القرآن، وتقرير المعنى: باتخاذكم العجل إلهاً.

وقد قدمنا^(٣) أن هذا المفعول الثاني في (اتخاذهم العجل إلهاً) محذوف في جميع القرآن، وأن بعض العلماء قال: النكتة في حذفه دائماً هي التنبيه على أنه لا ينبغي أن يُتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً من حليّ إله.

وقال جل وعلا: ﴿فَتَوُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ الفاء سببية، وقد تقرر في فن الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)^(٤) أن الفاء من حروف التعليل، وأن ما قبلها علة لما بعدها، كقولهم: «سها فسجد»، أي: لعله سهوه، و«سرق فقطعت يده» أي: لعله سرقته، ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بَاتَّخَذَكُمْ الْعِجْلَ فَتَوُوبُوا﴾ أي: لعله ظلمكم. ﴿فَتَوُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ قد قدمنا معنى التوبة واشتقاقها في أول هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ أي: خالقكم ومبرزكم من العدم إلى الوجود. وقد ذكر (جل وعلا) الخالق الباري من صفاته كما قال في أخريات الحشر: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِي﴾ [الحشر: آية ٢٤] والخالق اسم فاعل الخلق، والخلق في اللغة: التقدير. والباري هو الذي يفري ما خلق؛ فمعنى خلق: قَدَّرَ، ومعنى برأ: أنفذ ما قَدَّرَ، وأبرز من العدم إلى الوجود،

(١) الخلاصة ص ٧٩، وانظر: شرحه في الأشموني (٦٤١/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (٣٦١/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٧١/١) شرح الكوكب المنير (٤٧٧/٣) (١٢٥/٤).

والعرب تسمى التقدير خلقاً، ومنه قول زهير بن أبي سلمى^(١):

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَغَضَ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

وكثيراً ما يطلق اسم الخلق على الإبراز من العدم إلى الوجود. وعلى كل حال فمعنى (البارئ): المبدع الذي يبرأ الأشياء، أي: يبرزها من العدم إلى الوجود.

وفي الآية سرٌ لطيف^(٢)، وهو أن من أُنْزِرَ من العدم إلى الوجود هو الذي يستحق أن يُعبد، ويُتاب إليه من الذنوب؛ لأن عنوان استحقاق العبادة إنما هو الخلق، فمن يخلق ويُزِرُّ من العدم إلى الوجود فهو المعبود الذي يعبد وحده، ويُتَّصَلُ إليه من الذنوب، ومن لا يخلق فهو مربوب محتاج إلى خالق يخلقه؛ ولذا كثر في القرآن الإشارة إلى أن ضابط من يستحق العبادة هو الخالق الذي يُبرز من العدم إلى الوجود، كما تقدم في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢١]، وكما في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: آية ١٦] وخالق كل شيء هو المعبود وحده. وقال جل وعلا: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: آية ١٧]، الجواب: لا. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾.

وقرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ وعن أبي عمرو فيه روايتان عنه: قراءة: ﴿إِلَىٰ بَارِكُمْ﴾ بإسكان الهمزة، وعنه قراءة أخرى رواها عنه الدوري باختلاس الهمزة، واختلاس الهمزة: هو تخفيف حركتها حتى يأتي ببعض الحركة ولا يأتي بها كاملة، وهذه الرواية الأخيرة رواية الدوري عن أبي عمرو هي التي بها الأخذ، والمشهورة عند القراء^(٣). وما زعمه بعض علماء العربية من أن الرواية الأخرى عن أبي عمرو بإسكان

(١) القرطبي (٢٢٦/١)، الدر المصون (١٨٨/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٧/١)، تفسير أبي السعود (١٠٢/١).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٢٩.

الهمزة في ﴿بَارِئُكُمْ﴾ أنها لحن، وأن حركة الإعراب لا يجوز تسكينها، فهو غلط^(١)، ولا شك أنها لغة صحيحة، وقراءة ثابتة عن أبي عمرو، وتخفيف الحركة بالإسكان لغة تميم وبني أسد، ويكثر في كلام العرب إسكان الحركة للتخفيف، ولا سيما إذا توالى ثلاث حركات، كما في قراءة الجمهور ﴿بَارِئُكُمْ﴾ بثلاث حركات. ومن تسكين الحركة للتخفيف قول امرئ القيس^(٢):

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَخَفٍ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

وعلى هذا التخفيف قراءة أبي عمرو ﴿أَزْنَا الَّذِينَ﴾^(٣) [فصلت: آية ٢٩]، وقراءة حفص: ﴿وَيَخْشُ اللَّهَ وَيَتَّقُهُ﴾^(٤) [النور: آية ٥٢] فإن هذا السكون إنما هو تخفيف؛ لأن المحل ليس محل سكون؛ لأن الأصل (يتقيه) و ﴿وَأَرْنَا مَنَايِكَ﴾^(٥) [البقرة: آية ١٢٨]. ومنه قول الشاعر^(٦):

أَزْنَا إِذَاوَةَ عَبْدِ اللَّهِ نَمَلَوْهَا مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَمِئُوا
وقول الآخر^(٧):

وَمَنْ يَتَّقْ فَإِنَّ السَّلَةَ مَعَهُ وَرِزْقُ اللَّهِ مُؤْتَابٌ وَعَوَادٍ
وقول الراجز^(٨):

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرَى لَنَا سَوِيْقًا وَهَاتِ خُبْزَ الْبُرِّ أَوْ دَقِيقًا

(١) انظر: الدر المصون (٣٦١/١ - ٣٦٥).

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣٤.

(٣) المبسوط ص ٣٩٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٠.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٦، السبعة لابن مجاهد ص ١٧٠.

(٦) هذا البيت مجهول النسبة، وهو في القرطبي (١٢٨/٢)، الدر المصون (١١٩/٢).

(٧) الخصائص (٣٠٦/١)، المحتسب (٣٦١/١).

(٨) البيت للعذافر الكندي، وقد ورد بروايات متعددة، انظر: المحتسب (٣٦١/١)،

الخصائص (٣٤٠/٢).

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كأنهم قالوا: بم نتوب إلى بارئنا توبة يقبلها منا؟ قيل لهم: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. أو الفاء للتعقيب^(١)؛ لأن هذا القتل عقب الذنب هو الذي حصلت به التوبة.

وأصل القتل في لغة العرب^(٢): إزهاق الروح بشرط أن يكون من فعل فاعل، كالطعن، والضرب، والخنق، وما جرى مجرى ذلك، أما إزهاق الروح بلا سبب من ضرب أو نحوه فهو موت وهلاك لا قتل.

وقال بعض العلماء: القتل إمالة الحركة.

وقد تطلق العرب مادة القاف والتاء واللام على غير إزهاق الروح، فتطلقه على التذليل، فالتقتيل: التذليل، وتطلق القتل أيضاً على إضعاف الشدة، فمن إطلاق التقتيل على التذليل قول امرئ القيس^(٣):

وما ذرفت عيناكِ إلّا لتضربي بسهميك في أعشارِ قلبٍ مُقْتَلِ
أي: مُذلل. وقول زهير^(٤):

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ من النواضِحِ تَسْقِي جَنَّةَ سَحْقًا
أي: مذلة.

وكذلك يطلق القتل على كسر الشدة، ومنه قتل الخمر بالماء، أي: كسر شدتها بالماء، كما قال حسان (رضي الله عنه)^(٥):

إِن الَّتِي نَأَوَّلْتَنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلَتْ قُتِلَتْ فَهَاتِهَا لَمْ تُقْتَلِ
يعني بقتلها: إضعاف شدتها بمزجها بالماء.

(١) انظر: البحر المحيط (٢٠٨/١).

(٢) انظر: المفردات (مادة: قتل) ص ٦٥٥.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١١٤.

(٤) انظر: البحر المحيط (٣٤/٧)، اللسان (مادة: سحق) (١٠٩/٢)، الدر المصون (٥٤١/٨).

(٥) ديوان حسان بن ثابت ص ١٨٥، الخزائن (٢٣٨/٢).

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ جمع قلة؛ لأن (الأفْعُل) من صيغ جموع القلة^(١). وما يزعمه بعض النحويين والمفسرين من أن مثل هذه الآية جيء فيه بجمع القلة موضع جمع الكثرة فهو خلاف التحقيق؛ لأن ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ أضيف إلى معرفة، واسم الجنس مفرداً كان أو جمعاً إذا أضيف إلى معرفة اكتسب العموم^(٢). والشيء الذي يعم جميع الأفراد لا يعقل أن يقال فيه: إنه جمع قلة؛ لأن جمع القلة لا يتعدى العشرة، وهو بعمومه يشمل آلاف الأفراد، فالتحقيق ما حرره علماء الأصول في مبحث التخصيص^(٣) من أن جموع القلة وجموع الكثرة لا يكون الفرق بينها البتة إلا في التنكير، أما في التعريف فإن الألف واللام تفيد العموم، والإضافة إلى المعارف تفيد العموم^(٤)، وما صار عاماً استحال أن يقال هو جمع قلة؛ لأن العموم يستغرق جميع الأفراد. هذا هو التحقيق. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ في مرجع الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ وجهان للعلماء لا يكذب أحدهما الآخر^(٥)، أحدهما: أنه راجع إلى مصدر القتل المفهوم من قوله: ﴿فَاقْتُلُوا﴾ أي: ذلك القتل لأنفسكم خير لكم عند باريكم، وقد قرر علماء العربية أن الفعل الصناعي - أعني فعل الأمر، أو الفعل المضارع، أو الماضي - ينحل عن مصدر وزمن، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً^(٦). قال في الخلاصة^(٧):

المصدر اسم ما سوى الزمان من مَذْلُولِي الْفِعْلِ كَأَمِنْ مِنْ أَمِنْ

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٣٩١/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من هذه السورة.

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٨٤/٣ - ٩٣).

(٤) المصدر السابق (١٠٨/٣).

(٥) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٠٩/١).

(٦) انظر: الكليات ص ٦٨٠.

(٧) الخلاصة ص ٢٩، وانظر: شرحه في الأشموني (٣٦٤/١).

ونحن نرى القرآن يلاحظ المصدر تارة، ويلاحظ الزمن تارة. فمن أمثلة ملاحظته للمصدر: ﴿عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ﴾ [المائدة: آية ٨] أي: العدل الكامن في مفهوم ﴿أَعْدِلُوا﴾، وتارة يلاحظ الزمن، ومن أمثلة ملاحظته لزمان الفعل الصناعي قوله (جل وعلا) في (ق): ﴿وَتُنْفَخُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ﴾ [ق: آية ٢٠] فالإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ لزمن النفخ المفهوم من بناء الفعل في قوله: ﴿وَتُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

وقال بعض العلماء^(١): الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ راجعة إلى شيئين هما: التوبة المفهومة من قوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾، والقتل المفهوم من قوله: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وعلى هذا القول فالمعنى: ذلکم المذكور من التوبة والقتل. ونظير هذا في القرآن - أي: بأن يكون لفظ الإشارة مفرداً ومعناه مثني - قوله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: ذلك المذكور من الفارض والبكر.

وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عبدالله بن الزبيري^(٢):

إِنَّ لِلشَّرِّ وَلِلخَيْرِ مَدًى وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلٌ
أي: كلا ذلك المذكور. ولما قال رؤية بن العجاج في رجزه المشهور^(٣):

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقَ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيْعُ الْبَهَقِ
فقل له: ما معنى قولك: «كأنه» بالتذكير، إن كنت تريد الخطوط لزم أن تقول: (كأنها)، وإن كنت تريد السواد والبلق لزم أن تقول: (كأنهما) فَلِمَ

(١) انظر: البحر المحيط (٢٠٩/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٩/١)، مغني اللبيب (١٧٢/١)، أوضح المسالك (٢٠٣/٢)،
وصدره: «إِنَّ لِلشَّرِّ وَلِلخَيْرِ مَدًى».

(٣) انظر: المحتسب (١٥٤/٢).

قلت: (كأنه)؟ قال: (كأنه) أي: ما ذكر من سواد وبلق.

وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الظاهر أنها هنا صيغة تفضيل، وقد تقرر في فن العربية أن لفظة (خير وشر) حذفت العرب منها الهمزة في صيغة التفضيل لكثرة الاستعمال في الأغلب، كما عقده ابن مالك في الكافية بقوله^(١):

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخيرُ منه وأشر
 ووجه كونها هنا صيغة تفضيل: أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية، ولكنه يكسبهم حياة أخروية، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية^(٢)، وهذا معنى قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ أي: ذلكم المذكور من توبتكم وقتلكم أنفسكم خير لكم عند باريكم من عدمه، أي: عند خالقكم ومبرزكم من العدم إلى الوجود.

وقوله: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على محذوف دل المقام عليه، أي: فامتثلتم ما أمرتم به، وقدمتم أنفسكم للقتل، فتاب عليكم^(٣).

واختلف العلماء في كيفية هذا القتل الذي أمروا به^(٤)، قال بعض العلماء: كيفية هذا القتل الذي أمروا به أن من لم يعبد العجل منهم أمر بأن يقتل من عبد العجل، وقيل: أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، من عبد العجل ومن لم يعبد، وعلى هذا القول فذنب من لم يعبد العجل أنه لم ينهم، ولم يغير المنكر؛ لأن المنكر إذا وقع ولم يغير عمَّ العذاب.

وأظهر القولين: أن البريء منهم أمر بقتل عبد العجل. ذكر المفسرون في قصتهم أنهم لما كان الرجل ينظر إلى قريبه وأخيه لا يقدر أن يتجاسر على قتله، فأنزل الله ضباباً حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضاً، فوضعوا فيهم السيف حتى قتلوا منهم نحو سبعين ألفاً، فدعى موسى

(١) شرح الكافية الشافية (١١٢١/٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٩/١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: ابن جرير (٧٣/٢)، القرطبي (٤٠١/١)، ابن كثير (٩٢/١).

وهارون ربهما، فقبل الله توبتهم، ورفع القتل عن بقيتهم^(١). هذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. قد أوضحنا معنى ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ في قوله: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] بما أغنى عن إعادته هنا.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَقٌّ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] أي: واذكروا أيضاً حين قلتم لنبي الله موسى: ﴿يَمْوِسُ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدقك فيما ذكرت من أن الله كلمك به. قال بعض العلماء^(٢): هم السبعون الذين اختارهم موسى، سمعوا الله يكلم موسى فقالوا: لن نصدقك في أن هذا كلام الله حتى نرى الله جهرة. والقاعدة باستقراء القرآن أن لفظ (الإيمان) إذا عُدي باللام معناه عدم التصديق^{(٣)(٤)} كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: آية ٢٧] أي: بمصدقنا، وقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: يصدق المؤمنين، فالمعنى على هذا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لك أي: لن نصدقك فيما ذكرت من أن الله كلمك وأمرك ونهاك. وهذا - نفهم للتصديق - غيوه بغاية يتمادى إليها هي: ﴿حَقٌّ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: إلى رؤيتنا الله جهرة.

وقوله: ﴿جَهْرَةً﴾ فيه وجهان من التفسير^(٥)، أحدهما: أنه متعلق بـ ﴿نَرَىٰ﴾ والمعنى: ﴿نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، وانتصابه على أنه مصدر مؤكد لعامله مزيل توهم أنها رؤية منام، أو رؤية علم بالقلب، وقال بعض العلماء: هو يتعلق بقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾ أي: قلتم جهاراً - من غير موارد - هذا

(١) انظر: المصادر السابقة.

(٢) انظر: القرطبي (٤٠٣/١).

(٣) أي: في سياق النفي كما في الآية، أما في سياق الإثبات فيكون معناه: التصديق.

(٤) فائدة: لمعرفة الفروقات بين الإيمان والتصديق انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية ص ١١٢ -

١٢٥، ٢٧٤ - ٢٨١، ٣٠٠، الإيمان الأوسط ص ٧١ - ٧٥، ١٧٨ - ١٧٩، شرح

الطحاوية ص ٢٩٠ - ٢٩٢، معارج القبول (٢/٢١ - ٢٥).

(٥) انظر: القرطبي (٤٠٤/١)، الدر المصون (١/٣٦٧).

القول العظيم الشنيع، وعلى هذا فأظهر القولين فيها أنه مصدر مُنْكَرٌ حال، أي قُلْتُم هذا القول جهرة أي: في حال كونكم جاهرين بهذا الأمر العظيم.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ الفاء سببية دلت على أن أخذ الصاعقة إياهم سببه هذا الاجتراء العظيم، وامتناعهم من تصديقهم نبيهم حتى يروا الله عياناً، كما قال جل وعلا: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: آية ١٥٣].

والصاعقة تطلق إطلاقاً^(١): تطلق على النار المحرقة، وعلى الصوت المزعج المهلك، وأكثر إطلاقاتها عليهما معاً، صوت مزعج مشتمل على نار مهلكة، وعلى كل حال فعلى أنهم السبعون المذكورون في الأعراف فقد بين أن هذه الصاعقة رجفة، كما في قوله: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلِئِنِّي أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الآية [الأعراف: آية ١٥٥]. على كل حال فهذه الصاعقة سواء قلنا: إنها نار محرقة، أو صوت مزعج أهلكهم، أو هما معاً صوت مزعج أرجف بهم الأرض، فالتحقيق أنهم ماتوا، وأنه صَغِقَ موت، كما صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ [البقرة: آية ٥٦] أنهم ماتوا، أماتهم الله عقاباً لمقاتلتهم هذه الشنعاء، ثم أحياهم بدعاء نبيهم ﷺ وعلى نبينا ﷺ، خلافاً لمن زعم أن صَغِقَهُمْ هذا صَغِقَ غشية قائلاً: إن الصغق قد يُطلق على [غير]^(٢) الموت، وذكروا منه قول جرير يهجو الفرزدق^(٣):

وَهَلْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ غَيْرَ قَرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَا

فقوله: «أصابته الصواعق» ليس معناه أنه مات. والتحقيق أنه صغق موت؛ لأنه لا أحد أصدق من الله، والله صرح بأنه موت في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ البعث بعد الموت معناه الإحياء بعد الموت، أي:

(١) انظر: ابن جرير (٨٣/٢)، المفردات (مادة: صغق) ص ٤٨٥، القرطبي (٢١٩/١).

(٢) انظر: ابن جرير (٨٣/٢).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

بعد أن مُتِم. أحياهم الله جل وعلا أحياء.

وعامة المفسرين يقولون إنَّ الزمن الذي مَكثوا في هذا الموت أو الغشية - على القول الباطل عند من يزعم أنه صَعَق غشياً لا صَعَق موت، مدة هذا الصَعَق الذي التحقّق أنه موت - يوم وليلة، كما عليه عامة المفسرين^(١) إلا من شذ.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾ جملةٌ حالية، وأصل هذه الجملة فيها إشكال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: كيف ينظرون، وينظر بعضهم إلى بعض، مع إصابة الصاعقة إياهم؟

وللعلماء عن هذا أجوبة^(٢): أظهرها أن الصاعقة أصابتهم غير دفعة، بل تصيب البعض والبعض ينظر إلى إهلاكه؛ لأن ظاهر القرآن يجب الحمل عليه إلا بدليل جازم من كتاب وسنة^(٣)، وظاهر القرآن أن هنالك نظراً لوقوع هذه الصاعقة، أن الصاعقة وقعت في حال نظرهم، وبهذا قال بعض العلماء، وهو الأظهر؛ لأنه يتمشى مع ظاهر القرآن، ولا مانع من أن تصيب الصاعقة بعضهم والبعض الآخر ينظر إليه، ثم تصيب بعضاً والبعض الآخر ينظر إليه، وكذلك قال بعض العلماء^(٤): إن الله أحياهم متفرقين في غير دفعة واحدة، يحيى بعضهم والبعض الآخر ينظر إليه كيف يحييه الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا معنى (لعل) ومعنى (الشكر) في درس البارحة^(٥).

وهذه الآية الكريمة فيها دليل جازم على البعث؛ لأن بني إسرائيل

(١) انظر: البحر المحيط (٢١١/١)، ونقل عليه الإجماع.

(٢) انظر: القرطبي (٤٠٤/١)، البحر المحيط (٢١٢/١).

(٣) في هذه القاعدة انظر: ابن جرير (٣٨٨/١)، ٤٧١، ٤٨٥، ٥٥٠، (١٥/٢)، ٦١، ١٨٠، ٤٥٦، ٤٥٧، ٥٤٥، ٥٦٠ الصواعق المرسلّة (٢٠٤/١)، قواعد التفسير (٨٤٣/٢ - ٨٥٠).

(٤) انظر: البحر المحيط (٢١٢/١).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

هؤلاء، هذه الطائفة منهم التي أماتها الله فأحيها دليل قاطع على أن الله (جل وعلا) قادر على إحياء الموتى. وقد ذكر الله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة خمسة أمثلة من إحيائه للموتى في دار الدنيا^(١) هذا أولها.

الموضع الثاني: قوله في قتل بني إسرائيل: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَصَاكَ كَذَلِكَ يُعْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُيِّعُكُمْ أَيَّتِيهِ﴾ [البقرة: آية ٧٣] وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُعْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ بَيَّنَّ بِهِ أَنَّ إحياءه قتل بني إسرائيل في دار الدنيا دليل على البعث وإحيائه الموتى، وبعثه إياهم بعد أن صاروا عظاماً.

الموضع الثالث: قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣].

الموضع الرابع: قوله في عزيز وحمارة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ [البقرة: آية ٢٥٩]. وفي القراءة الأخرى^(٢) ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الموضع الخامس: طيور إبراهيم المذكور في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْوِيلَهُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ لِيُطْمِئِنَّ قُلُوبُكَ فَخَذَ مِنْهُم مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَفَ إِلَيْكَ أَلَمْ أَعْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: آية ٢٦٠]^(٣).

(١) انظر: ابن كثير (١/١١٢).

(٢) المبسوط لابن مهران ص ١٥١.

(٣) سئل الشيخ (رحمه الله): من أدلة إحياء الله الموتى في الدنيا: الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلُوف حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم، فقال الله: ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣]، هل هذه الإمامة على حقيقتها أو هناك نوع آخر معنوي؟

= فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: الجواب: أنه هذه الإمامة إمامة حقيقية، وإحياء حقيقي؛ لأن القرآن لا يجوز صرفه عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة صحيحة، والقرينة - قرينة الآية - تدل على أنه موت حقيقي، ففي نفس الآية قرينة دالة على ذلك؛ لأن سبب نزول الآية تشجيع المؤمنين على القتال، وأن الله يريد أن يفهمهم أن من رده الجبن عن لقاء العدو سيجد حتفه أمامه، كهذه الألوف من بني إسرائيل، لما وقع الطاعون وفرّوا هاربين حذراً من الموت وجدوا الموت أمامهم، فأماتهم الله، ولهذا أتبع هذه الآية بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْغَالِبِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٤٤] ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: فليس الحذر والجبن والتخلف عن القتال يضمن لكم الحياة، بل قد يفرض الإنسان من الموت فيجد الموت أمامه، كما وقع لهؤلاء الألوف، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: آية ١٦] فقوله بعدها: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرينة على أنه موت حقيقي، وأن الحذر من الموت لا ينجي من الموت! ولقد أجاد من قال:

ففي الجبن عار وفي الإقدام مكرمة والمرء في الجبن لا ينجو من القدر
وسئل الشيخ (رحمه الله): هل يوجد دليل - هو نص - على أن الإمامة إذا كانت معنوية يكون معها قرينة ودليل على المراد؟

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: الموت إذا أطلق في لغة العرب معروف أنه يصدق بمفارقة الروح للجسد، ولا يجوز حمله على غير هذا المعنى المتبادر إلا للدليل، ولا شك أن القرآن جاء فيه إطلاق الموت على الموت المعنوي، كالكفر، كقوله: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] أي: كان كافراً فهديناه إلى الإيمان. وقد أجمع العلماء على أن قوله في الأنعام: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٣٦] أي: الكافرين يبعثهم الله، كما عليه عامة أهل التفسير، إلا أن إطلاق الموت على هذا المعنى كإطلاقه على الكافر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَنْجِيَةُ وَلَا الْأَمْوْتُ﴾ [فاطر: آية ٢٢] وقوله: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢]، هذا لا يحمل عليه إلا بقرينة سياق. أما الآية: ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: آية ٢٤٣] فالموت الذي حذروه لا شك أنه الموت المضاد للحياة القاطع لها. وقوله: ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ من قال له الله: «مات» مات بلا شك؛ لأن الله إذا قال للشيء «كن» كان، وهم إنما خرجوا من ديارهم حذراً الموت الحقيقي الذي يحذره كل إنسان، القاطع للحياة. فقوله: ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ثم قوله بعده: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣] أدلة واضحة على أنه موت حقيقي، وعليه عامة المفسرين، وهو الحق الذي =

﴿وَلَلَّيْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥٩) [البقرة: الآيات ٥٧ - ٥٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَلَّيْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧) [البقرة: آية ٥٧] لما كان بنو إسرائيل في التيه، واشتكوا الحر، دعا نبي الله موسى لهم، فظلل الله عليهم الغمام. والغمام: اسم جنس واحده غمامة، وهو غمام أبيض رقيق يظلمهم من الشمس^(١). وفي قصتهم أنه إذا كان في الليل ارتفع ليستضيئوا بضوء القمر.

وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَلَلَّيْنَا﴾ للتعظيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾ لما اشتكوا في التيه من الجوع، دعا الله نبيهم، فأنزل الله المَنَّاءَ والسَّلَوى. وأكثر علماء التفسير^(٢) على أن المَنَّاءَ: التَّرْتِجِيين، وهو شيء ينزل كالندى ثم يجتمع، أبيض، حلو، يشبه العسل الأبيض، هذا قول أكثر المفسرين في المراد بالمَنَّاءِ.

= لا شك فيه، فادعاء أنه موت معنوي أو غير هذا تلاعب بكتاب الله (جل وعلا)، وحمل له على غير معناه من غير دليل يجب الرجوع إليه. والله الموفق للصواب.

(١) سئل الشيخ (رحمه الله) عن الفرق بين الغمام والسحاب؟

فأجاب بقوله:

السحاب غير المطر بإجماع العلماء، فالسحاب هو الوعاء الذي فيه ماء المطر، ويُسمى الغمام، إلا أن هذا الغمام الذي أنزل الله عليهم يقول العلماء فيه: إنه لم يكن وعاء كالسحاب، وإنما هو غمام أبيض رقيق يشبهه، أنزله الله عليهم، مع أن الغمام يطلق على السحاب.

(٢) انظر: القرطبي (٤٠٦/١)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥.

قال بعض العلماء^(١): ولا يعارض هذا ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من أنه قال: «الكمأة من المنِّ وماؤها شفاء للعين»^(٢). قالوا: فمراده ﷺ بقوله: «من المن» أي: من جنس ما منَّ الله به على بني إسرائيل، حيث إنه طعام يوجد - فضلاً من الله - من غير تعب، وظاهر الحديث أن الكمأة من نفس ما منَّ الله به على بني إسرائيل في التيه.

/وقوله: ﴿وَالسَّلَوَىٰ﴾ جمهور المفسرين، أو عامة المفسرين على أن (السلوى): طير^(٣)، قال بعضهم: هو السَّمَانَى، وقال بعضهم: طائر يشبه السَّمَانَى. وتفسير من فسّر السلوى بأنه (العسل) غير صواب، وكذلك ادعاء أن السلوى لا يُطلق على العسل في لغة العرب غير صواب. والتحقيق: أن السلوى يطلق في لغة العرب على العسل، ومنه قول الهذلي^(٤):

وَقَاسَمْتُهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَتُنْمَ أَلْدُ مِنَ السَّلَوَىٰ إِذَا مَا نَشَوْرُهَا
والشور: استخراج العسل خاصة.

لكن ليس المراد بالسلوى في الآية العسل، وإنما المراد به طائر، كما عليه عامة المفسرين، هو السمانى أو طائر يشبه السمانى.

وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ محكي قول محذوف^(٥)، أي: وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم كهذا المن والسلوى، وهما طيبان

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿وَوَلَلْنَا عَنكُمُ اللَّمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ اللَّعْنَ وَالسَّلَوَىٰ﴾ حديث رقم: (٤٤٧٨)، (١٦٣/٨)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين رقم: (٤٦٣٩، ٥٧٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب: فضل الكمأة، ومداواة العين بها، حديث رقم: (٢٠٤٩)، (١٦١٩/٣).

(٣) انظر: القرطبي (٤٠٧/١)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥.

(٤) اللسان (مادة: سلا)، القرطبي (٤٠٧/١)، الدر المصون (٣٧٠/١).

(٥) انظر: القرطبي (٤٠٨/١)، الدر المصون (٣٧٠/١).

حَسَبًا ومعنى؛ للذاذة طعمهما وحليتهما شرعاً؛ لأنهما من فضل من الله جل وعلا.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ هنا محذوف دلّ المقام عليه^(١)، والمعنى: ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: أنعمنا عليهم هذه النعم فقابلوا نعمنا بعدم الشكر، وارتكاب المعاصي، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بتلك المعاصي التي قابلوا بها نعمنا ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقال بعض العلماء: أمروا أن لا يدخروا من المن والسلوى فخالفوا أمر الله وأدخروا، وما ظلمونا بذلك الادخار المنهي عنه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٢). والقول الأول أشمل، وهو الصواب.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه الدليل الواضح على أن نفي الفعل لا يستلزم إمكانه^(٣)؛ لأن الله نفى عنه أنهم ظلموه، ونفيه (جل وعلا) عن نفسه أنهم ظلموه، لا يدل على أنه يمكن أن يظلموه، بل نفي الفعل لا يدل على إمكانه.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (لكن) واقعة في موقعها، والمعنى: أن هذا الظلم واقع على أنفسهم حيث عرّضوها به لسخط الله (جل وعلا) وعقابه، فضرر فعلهم عائد إليهم، والله (جل وعلا) لا تضره معاصي خلقه، ولا تنفعه طاعاتهم ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦].

وقد بيّن القرآن في آيات كثيرة أن الله (جل وعلا) لا يتضرر بمعاصي خلقه ولا ينتفع بطاعاتهم، كقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِيٍّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، وقوله: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ

(١) انظر القرطبي (٤٠٩/١)، الدر المصون (٣٧١/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٥/١).

(٣) المصدر السابق.

أَلْفَيْهِ الْحَمِيدُ ﴿٥٨﴾ [فاطر: آية ١٥]، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» الحديث^(١).

هذا معنى قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: قابلوا نعمنا بالمعاصي، وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم بذلك.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: آية ٥٨] أي: واذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: حين قلنا. وصيغة الجمع للتعظيم. ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الصواب الذي عليه أكثر المفسرين أن هذه القرية هي (بيت المقدس)^(٢). وقال جماعة من العلماء: (هي أريحا)^(٣). وعن الضحاك أنها (الرّملة)، و(فلسطين)، و(تدمر) ونحو ذلك^(٤).

والتحقيق الذي عليه جمهور المفسرين أنها (بيت المقدس)، ويدل عليه قوله في المائدة: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٢١] هذه القرية. ولما زال عنهم التيه، ومات موسى وهارون، وكان الخليفة بعدهما يوشع بن نون، وجاؤوا وجاهدوهم الجهاد المعروف في التاريخ^(٥)، الذي ردّ الله فيه الشمس ليوشع بن نون، وفتحوا البلد، أمرهم الله (جل وعلا) أن يشكروا هذه النعمة بقول يقولونه، وفعل يفعلونه، فبدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره، وبدلوا - أيضاً - الفعل الذي قيل

(١) مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٧٧)، (٤/١٩٩٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١٠٢/٢)، القرطبي (٤٠٩/١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٠٣/٢)، القرطبي (٤٠٩/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤٠٩/١).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣٢٣/١).

لهم بفعل غيره، وتقرير المعنى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فكلوا من هذه القرية حيث شئتم. (حيث) كلمة تدل على المكان كما تدل (حين) على الزمان، ربما ضُمَّتْ معنى الشرط، وهي تعم، أي: في أي مكان من أمكنة هذه القرية شئتم^(١).

وقوله: ﴿رَعَدًا﴾ نعت لمصدر محذوف^(٢) أي: (أكلاً رَعَدًا) أي: واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب. وهذا الذي أبيع لهم هنا الذي يظهر أنه يدخل فيه ما طلبوه - أي: طلبوا نبيهم موسى أن يدعو الله لهم أن يعطيهم إياه - الآتي في قوله: ﴿لَنْ نَقْصِرَ عَنْ كَيْدِكُمْ فَإِنْ لَبِثْتُمْ فِي النَّارِ فَذُقُوا﴾ [البقرة: آية ٦١] ثَلِثُ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: آية ٦١] الظاهر أن الله لما قال لهم: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً سَائِطًا﴾ [البقرة: الآية ٦١] وفتح عليهم هذه القرية قال لهم: ﴿أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَعَدًا﴾ [البقرة: الآية ٥٨] وأنه يدخل في ذلك ما طلبوه أيام التيه من البقول والفوم والعدس والبصل وما ذكر معها.

ثم إن الله (جل وعلا) أمرهم بفعل وقول شكراً لنعمة الفتح، وهو قوله: ﴿أَدْخُلُوا الْأَبَابَ مُجَدًّا﴾ أي: ادخلوه في حال كونكم سجداً. والسُّجْد جمع ساجد، و (الفاعل) إذا كان وصفاً من جموع تكسيره المعروفة - جموع الكثرة - أن يُجمع على (فَعْل)، كساجد وسُجْد، وراعى ورُكِع^(٣).

قال بعض العلماء: هو سجود على الجبهة، والمعنى: إذا دخلوا الباب سجدوا. أي: ادخلوه في حال كونكم سجداً، أي: عندما تدخلون تتصفون بحالة السجود.

وقال بعض العلماء: هو سجود ركوع وانحناء تواضعاً لله، وشكراً على نعمة الفتح^(٤). وقد يفهم من هذا أن نعمة الفتح ينبغي أن تشكر

(١) انظر: الدر المصون (١/٢٨١ - ٢٨٣)، اللسان (مادة: حيث) (١/٧٦٥).

(٢) انظر: القرطبي (١/٤١٠).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣٩٩).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/١٠٤).

بالسجود لله (جل وعلا). ولما فتح النبي ﷺ مكة صلى الضحى ثمان ركعات^(١). وكان العلماء يرون أنها صلاة شكر على ما أنعم الله عليه به من الفتح، والله (تعالى) أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿أَدْخُلُوا أَبْابَ﴾ الباب: واحد الأبواب، وألفه الكائنة في موضع العين مبدلة من واو، بدليل تصغيره على (بويب)، وجمعه على (أبواب)^(٢).

و ﴿سُجَّدًا﴾ حال من الواو في ﴿أَدْخُلُوا﴾^(٣)، أي: حال كونكم سجداً لله شكراً على نعمة الفتح. وقال بعض العلماء: هو سجود انحناء وتواضع. ومنهم من شذ فزعم أنه مطلق التواضع لله. والسجود وإن كان في لغة العرب قد يطلق على مطلق التواضع فليس هو المراد في الآية.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ هذا القول الذي قيل لهم أيضاً. و ﴿حِطَّةٌ﴾ (فَعْلَةٌ) من (الحطُّ)، و(الحطُّ) معناه الوضغ، وهو خبر مبتدأ محذوف، ومتعلّقها محذوف. وتقرير المعنى بإيضاح: (وقولوا مسألتنا لربنا حطة)^(٤) أي: غفران لذنوبنا وحط، أي: وضع لأوزارنا عن ظهورنا، فهو لفظ عربي فصيح. هذا هو القول الذي قيل لهم، أمرهم الله أن يدخلوا سجوداً متواضعين، وأن يقولوا قولاً هو استغفار وطلب لحطّ الذنوب. وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

وقوله: ﴿تَنْفِزَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعيات^(٥): قرأه نافع المدني: ﴿يُغْفَرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بالياء المضمومة وفتح (الفاء) مبنياً للمفعول. وإنما جاز تذكيره والإتيان بالياء لأن تأنيث الخطايا غير حقيقي؛ ولأنه فصل

(١) البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب: صلاة الضحى في السفر، حديث رقم: (١١٧٦)، (٥١/٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة الضحى، حديث رقم: (٣٣٦)، (٤٩٧/١).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٥٦.

(٣) انظر: الدر المصون (٣٧٣/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤١٠/١)، الدر المصون (٣٧٣/١).

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٣٠.

بينه وبين الفعل فاصل، وهو (لكم)، والفصل يبيح ترك (التاء)^(١) كما تقدم^(٢). وقرأه الشامي ابن عامر: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بضم (التاء) وفتح (الفاء) مبنياً للمفعول. ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ نائب عن الفاعل في كلتا القراءتين. وقرأه غيرهما من القراء: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ في محل نصب على المفعول به، و ﴿تَغْفِرْ﴾ بكسر (الفاء) مبنياً للفاعل. وقراءة الجمهور أشد انسجاماً بالسياق؛ لأن الله قال قبلها: ﴿قُلْنَا﴾، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وقال بعدها: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بصيغة التعظيم، فقراءة الجمهور أشد انسجاماً وملاءمة مع السياق من قراءة نافع وقراءة ابن عامر^(٣).

و(الخطايا): جمع الخطيئة، والخطيئة: الذنب العظيم^(٤) الذي يستحق صاحبه التنكيل، أي: نغفر لكم ذنوبكم العظيمة.

ثم قال (جل وعلا): ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ للعلماء في تفسير المحسنين هنا أقوال^(٥)، والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن لا يُعدل في تفسيرها عن تفسير النبي ﷺ وهو قوله لما سأله جبريل عن الإحسان: «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٦). يعني: الذين كانوا أشد مراقبة لله في أعمالهم سيزيدهم الله إيماناً؛ لأن الإنسان كلما ازداد تقواه لله (جل وعلا) زاده الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: آية ١٧] معناه: وسنزيد المحسنين منكم، أي: الذين هم أشد

(١) انظر: حجة القراءات ص ٩٧، القرطبي (٤١٤/١)، الدر المصون (٣٧٦/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٩٨، القرطبي (٤١٤/١).

(٤) انظر: المفردات (مادة: خطأ) ص ٢٨٨.

(٥) انظر: القرطبي (٤١٥/١)، البحر المحيط (٢١٨/١).

(٦) البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان.. حديث رقم: (٥٠)، (١١٤/١)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٧٧٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان.. حديث رقم: (٣٩/١)، (٩).

مراقبة لله سنزيدهم من الخير والإيمان. وقال بعض العلماء: سنزيد في جزاء أعمال المحسنين؛ لأن العمل الذي يراقب صاحبه الله قد يكون ثوابه أكثر ممن هو أقل منه مراقبة.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٩] وفي الكلام حذف الواو وما عطفقت، وحذف المتعلق. وتقرير المعنى: فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم بقول غيره^(١)، وبدلوا فعلاً غير الذي قيل لهم بفعل غيره. والقول الذي قيل لهم هو (حِطَّة) فبدلوه بقول غيره، وقالوا: (حبة في شعرة). وقال بعض العلماء: قالوا: (حنطة في شعيرة) وثبت في الصحيح^(٢) أن القول الذي بدّلوه: (حبة في شعرة). وفي بعض روايات الحديث (حنطة في شعيرة)^(٣). وعلى كل حال فقد بدّلوا هذا القول الذي قيل لهم بغيره، كما بدلوا الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره؛ لأن الفعل الذي أمروا به هو دخولهم الباب سجداً، فبدلوه بفعل غيره، فدخلوا يزحفون على استأههم، وهذا من كفرهم، عياداً بالله.

وما قاله بعض العلماء^(٤): من أن هذه الآية الكريمة يؤخذ منها عدم نقل الحديث بالمعنى؛ لأن الله ذمّ من بدّل قولاً بقول غيره، فيلزم أن يكون القول هو نفس ما أمر به، لا قولاً غيره، غير صواب. ويجب عنه: بأن القول المأمور به له حالتان: إما أن يكون مُتَعَبِّداً بلفظه ك (الله أكبر) في الصلاة، وما جرى مجرى ذلك من العبادات القولية، فمثل هذا لا يجوز تبديله، ومن بدّله يلحقه من الوعيد ما لحقهم بقدر ما ارتكب في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ ولا يجوز تبديله. أما الذي

(١) انظر: الدر المصون (٣٧٩/١).

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. حديث رقم: (٢٤٠٣)، (٤٣٦/٦)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الأحاديث رقم: (٤٤٧٩، ٤٦٤١)، ومسلم في الصحيح، كتاب التفسير، حديث رقم: (٣٠١٥)، (٢٣١٢/٤).

(٣) انظر: الفتح (٣٠٤/٨).

(٤) انظر: القرطبي (٤١١/١ - ٤١٤).

لم يُتَعَبَّد به بلفظه فلا مانع من أن يُبدل بلفظ يؤدي معناه إذا لم يكن هناك تفاوت في المعنى. وجماهير العلماء من المسلمين قديماً وحديثاً على جواز نقل الحديث بالمعنى إذا كان ناقله بالمعنى عارفاً باللسان، متبحراً فيه، لا تخفى عليه النكت والتفاوت الذي يكون بين الألفاظ، ونقله بحالة ليست أخفى من نص الحديث، ولا أظهر من نص الحديث، فلا يجوز نقله بلفظ أظهر منه. قال بعض العلماء: لأنه قد يعارضه حديث آخر، والظهور من المرجحات بين النصوص المتعارضة، فيظن المجتهد أن لفظ الراوي الظاهر الذي بدّله بلفظ هو أقل منه ظهوراً أنه من لفظ النبي ﷺ، فيرجحه بهذا الظهور على حديث آخر، فيكون استناد هذا الترجيح مستنداً لتصرف الراوي، وهذا مما لا ينبغي. وعلى كل حال فمسألة نقل الحديث بالمعنى مسألة معروفة في الأصول^(١)، وفي علوم الحديث^(٢)، منعها قوم واستدلوا بالحديث: أن النبي ﷺ لما سمع الرجل قال: «آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت». ردّ عليه وقال: «ونبيك الذي أرسلت»^(٣). ولا شك أن اللفظ الذي قاله النبي ﷺ لا يقوم مقامه اللفظ الذي تصرف فيه الراوي؛ لأن «ونبيك الذي أرسلت» واضح بليغ لا تكرير فيه؛ لأن النبي ﷺ قد يكون مُرسلاً وغير مرسل، والرسول مرسل قطعاً، فيكون «رسولك الذي أرسلت» تكرار - يعني - لأن «الذي أرسلت» معناه يؤديه «رسولك» أما «نبيك الذي أرسلت» فيكون كل من الكلمتين عمدة وتأسيساً لا لغواً، والحاصل أنه معروف أن الجمهور من العلماء على جواز نقل الحديث بالمعنى إذا وثق الراوي أنه لم يزد في معناه ولم ينقص، وأن قوماً منعوا ذلك، وأن الآية لا دليل فيها لذلك ألبته؛ لأنهم إنما بدلوا قولاً منافياً للقول الذي قيل لهم في

(١) انظر: البحر المحيط للزركشي (٤/٣٥٥ - ٣٦١)، شرح مختصر الروضة (٢/٢٤٤).

(٢) انظر: الكفاية للخطيب (١٩٨ - ٢١١)، تدريب الراوي (٢/٩٨ - ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب: فضل من بات على الوضوء، حديث رقم: (٢٤٧)، (٣٥٧/١)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٦٣١١)، (٦٣١٣)، (٦٣١٥)، (٧٤٨٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب: ما يقوله عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم: (٢٧١٠)، (٢٠٨١/٤).

المعنى، والتبديل إذا كان منافياً في المعنى ممنوع بإجماع المسلمين، وليس مما فيه الخلاف، إنما الخلاف في تبديل الألفاظ مع بقاء المعنى، وهم بدّلوا اللفظ بلفظ لا يؤدي معناه، أمروا بأن يقولوا (حطة)، فقالوا: (حبة في شعرة)، أو (حنطة في شعيرة)!! فالقول الذي بدّلوا به ليس معناه يؤدي معنى القول الذي أمروا به، فكأنهم رفضوه بتاتاً، وعصوا الله، وجأؤوا بما لم يؤمروا به، لا لفظاً ولا معنى. والفعل الذي بدّلوا به: أنهم أمروا بالسجود فدخلوا يزحفون على استاهم.

وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الفاء سببية، وصيغة الجمع للتعظيم، أي: فبسبب تبديلهم القول الذي قيل لهم بقول غيره، والفعل الذي قيل لهم بفعل غيره أنزلنا عليهم، وإنما أظهر في محل الإضمار قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (فأنزلنا عليهم) لِيَسْجُلَ عليهم موجب هذا العذاب؛ وأنه الظلم؛ ولذا عدل عن الضمير إلى الظاهر قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ليبين أن هذا الرجز منزل عليهم بسبب ظلمهم، والضمير لا يعطي هذا، وإن كان معناه يؤدي المعنى في الجملة^(١). وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ظلموا أنفسهم بتبديل القول بقول غيره، والفعل بفعل غيره.

﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الرجز: العذاب، وهذا العذاب طاعون أنزله الله عليهم. قال العلماء: أهلك الله به منهم سبعين ألفاً^(٢).

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الباء) سببية، و(ما) مصدرية، أي: بسبب كونهم فاسقين^(٣). والفسق^(٤) في لغة العرب الخروج، ومنه قوله جل وعلا: ﴿إِلَّا إِلَٰهَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مِنْ أَلْحَنِ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: فخرج عن طاعة ربه،

(١) انظر: الدر المصون (٣٨١/١).

(٢) انظر: ابن جرير (١١٦/٢ - ١١٨).

(٣) انظر: الدر المصون (٣٨٢/١).

(٤) انظر: ابن جرير (٤٠٩/١)، القرطبي (٢٤٥/١)، المفردات (مادة: فسق) ص ٦٣٦، الدر المصون (٢٣٤/١).

والعرب تقول: (فسقت الرُّطْبَةُ من قشرتها) إذا خرجت، و(فسقت الفأرة). إذا خرجت من جحرها للإفساد. وكون الفسق يطلق على الخروج معروف في كلام العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج^(١):

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَعُوراً غَائِراً فَوَاسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِراً

فقوله: «فواسقاً عن قصدها» أي: خوارج عن طريق القصد إلى طريق آخر. وقال بعض العلماء^(٢): إنما كرر لفظ (الظلم) في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ «فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» لأن هذا الفعل الذي هو ظلمهم ذِكرُهُ له أهمية في السياق؛ لأنهم ظلموا في الوقت الذي أنعم الله عليهم، وعصوا أمر ربهم، ومن عادة العرب إذا كان الأمر له أهمية أن تكرر، سواء كانت أهميته من جهة خير، أو أهميته من جهة شر^(٣)، كما قال الشاعر^(٤):

لَيْتَ الْغُرَابَ غَدَاةً يَنْعَبُ دَائِماً^(٥) كَانَ الْغُرَابُ مُقَطَّعَ الْأَوْدَاجِ

لأن الغراب لما نعب بين أحبته صار الغراب له أهمية عنده فكرر لفظه، ومنه قول الآخر^(٦):

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئاً نَعَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

لما كان الموت له أهمية في قطعه الحياة كره، ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب، وعلماء البلاغة يقولون إن إعادة قوله: ﴿ظَلَمُوا﴾ في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لِيُسَجَّلَ عَلَيْهِمُ الذَّنْبُ الَّذِي بِسَبَبِهِ أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ

(١) انظر: الكتاب لسبويه (٩٤/١)، الخصائص (٤٣٢/٢)، القرطبي (٢٤٥/١)، الدر المصون (٢٣٤/١).

(٢) انظر: القرطبي (٤١٦/١).

(٣) انظر: الإكسير ص ٢١٥، بدائع الفوائد (٤٧/٢ - ٤٨)، الإتيان (٢١٦/٣).

(٤) البيت لجرير، انظر: تفسير ابن جرير (٣٩٦/٢)، القرطبي (٤١٦/١).

(٥) في القرطبي (دائياً) وهكذا في الدر المصون (٣٨١/١).

(٦) البيت لعدي بن زيد، وينسب - أيضاً - لأمية بن أبي الصلت، انظر: الكتاب لسبويه (٦٢/١)، الخصائص (٥٣/٣)، الخزائن (١٨٣/١).

العذاب^(١) كما قدمنا، والله (تعالى) أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَذْبَحُهَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَنَّا حِفْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: الآيات ٦٧ - ٧١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَذْبَحُهَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: الآية ٦٧] قرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿هُزُؤًا﴾ بضم الزاي والهمزة، وقرأه حمزة: ﴿هُزَاءً﴾ وهي لغة تميم، وأسد، وقيس، وقرأه حفص عن عاصم ﴿هُزُؤًا﴾ بإبدال الهمزة واوا^(٢).

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ كما ذكره المفسرون^(٣): أنه قُتِلَ في بني إسرائيل قتيل كما يأتي في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢] يزعمون أن اسم القتيل (عاميل)^(٤). قال بعضهم: كان له أقرباء فقراء، وهو غني، فقتلوه ليرثوه. وقيل: كانت تحته امرأة جميلة فقتله بعض الناس ليتزوجها. والأول أكثر قائلًا. وعلى كل حال فالذين قتلوا القتيل ادَّعَوْهُ على غيرهم، وسألوا من نبي الله موسى أن يسأل الله لهم لبيّن لهم قاتل القتيل، فأمرهم الله (جل وعلا) على لسان نبيه أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها، فيحيا

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٠٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٣٠، الكشف (١/٢٤٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/١٨٣ - ١٨٩)، ابن كثير (١/١٠٨).

(٤) انظر: البحر المحيط (١/٢٤٩)، مفحمت الأقرا ص ٤٣.

القتيل، ويخبرهم بقاتله. وهذا معنى قوله: واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي: حين قال ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما أداروا في القتل وتدافعوه، كُلٌّ يدفع قتله عن نفسه إلى غيره: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي: وتضربوا القتل ببعضها فيحيا، فيخبركم عن قاتله. وقرأ هذا الحرف جماهير القراء: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بضم مشبعة على القياس. وقرأه أبو عمرو: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بإسكان الراء، وزاد عنه الدوري باختلاس الضمة^(١)، وقد قدمنا وجه ذلك في قراءته في ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾^(٢).

وقوله: ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها هو متعلق الأمر، وأصل (أمر) تتعدى بالباء، والأصل: (يأمركم بأن تذبحوا بقرة) أي: بذبح بقرة، وضرب القتل بجزء منها، كما عدى الأمر بالباء في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: آية ٩٠] فالمصدر المنسبك من (أن) وصلتها مجرور بحرف محذوف^(٣)، وحذف هذا الحرف قياس مطرد كما عقده في الخلاصة بقوله^(٤):

وَعَدُّ لَازِمًا بِحَرْفٍ جَرٍّ وَإِنْ حُذِفَ فَالنَّصْبُ لِلْمُتَجَرِّ
نَقْلًا. وَفِي أَنْ وَأَنْ يَطْرُدُ مَعَ أَمْنٍ لَبْسٍ كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُورَ

ولطالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: عرفنا أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها المجرور بالباء المحذوفة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي: (يأمركم بأن تذبحوا بقرة)، فهذا المصدر بعد حذف الباء هل محله الجر بالباء المحذوفة، أو محله النصب لما نزع الخافض؟

الجواب: أن جماهير النحويين أنه في محل نصب^(٥)، وأنه لو عطف

(١) انظر: القرطبي (٤٤٤/١)، البحر المحيط (٢٤٩/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٤٩/١ - ٢٥٠)، الدر المصون (٤١٧/١)، (٦٥٦/٤).

(٤) الخلاصة ص ٢٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٣٤٤/١).

(٥) انظر: القرطبي (٤٤٤/١)، تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد ص ٥١١، الدر المصون

(٢١١/١ - ٢١٢، ٤١٧).

عليه لَنُصِيبَ عَلَى اللِّغَةِ الْفَصْحَى. وخالف في هذا (الأخفش) فقال: إن محله الجر. واستدل على أن محله الجر بأنه سُمع عن العرب خفض المعطوف عليه في قول الشاعر^(١):

وما زُرْتُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ حَبِيبَةً إِلَيَّ وَلَا دَيْنَ بِهَا أَنَا طَالِبُهُ

فخفض قوله: «ولا دين» بالعطف على المصدر المنسبك من (أن) وصلتها المجرور بحرف محذوف. وتقرير المعنى: «فما زُرْتُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ حَبِيبَةً أَي: لكونها حبيبة، ولا لدين بها أنا طالبه. وأجاز سيبويه الوجهين، أن محله الكسر، والعطف عليه بالخفض، وأن محله النصب، والعطف عليه بالنصب^(٢)».

وأجاب الجمهور عن البيت الذي أورده الأخفش بأن الخفض فيه من عطف التوهم، وعطف التوهم يكفي فيه مطلق توهم جواز الخفض. وعطف التوهم مسموع في كلام العرب، ومن أمثله قول زهير^(٣):

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مَدْرِكُ مَا مَضَى وَلَا سَابِقُ شَيْئاً إِذَا كَانَ جَائِئاً

فالرواية نصب «مَدْرِكُ» وخفض «سابق»، والمخفض معطوف على المنصوب، وهو عطف توهم. أعني توهم (الباء) في خبر (ليس)؛ لأن (بدا لي أنني لست مدرك ما مضى) يجوز فيه: لست بمدرك ولا سابق، كما قال^(٤):

وبعد (ما) و (ليس) جر (البا) الخبر

(١) وهو الفرزدق، انظر: الكتاب لسيبويه (٢٩/٣)، تخليص الشواهد ص ٥١١، الدر المصون (٢١٢/١).

(٢) انظر: الكتاب (٢٨/٣ - ٣٠).

(٣) الكتاب لسيبويه (٢٩/٣)، تخليص الشواهد ص ٥١٢.

(٤) هذا الشطر الأول من أحد أبيات الخلاصة، وشطره الثاني:

وبعد لا ونفي كان قد يُجر

انظر: الخلاصة ص ٢٠، وانظر: شرحه في الأشموني (٢٠٥/١).

فتوهموا (الباء) لمطلق الجواز، وعطفوا عليه خفضاً عطف توهم، ونظيره قول الآخر^(١):

مشائيم ليسوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ولا نَاعِبٍ إِلَّا بَبِينٍ غُرَائِهَا
بخفض (ناعب) عطفاً على (مصلحين)، لتوهم جواز دخول الباء.
قالوا: من ذلك:

وما زُرت ليلَى أن تكون حبيبة إِلَهِيَّ ولا دِينِي...
لتوهم اللام.

وقوله جل وعلا: ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الذبح معروف، و (بقرة) قال بعض العلماء: تاؤه للتأنيث، وذكره يُسمى ثوراً^(٢). وقال بعض العلماء: هي تاء الوحدة، والبقر يُطلق على ذكره وأنثاه.

وهذه الآية الكريمة تدلُّ بظاهرها على أنهم لو ذبحوا أي بقرة لأجزأت، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

وقوله جل وعلا: ﴿قَالُوا أَلَنَخِذَنَا هُزُؤًا﴾ أي: قال قوم موسى لموسى لما قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾: ﴿أَلَنَخِذَنَا هُزُؤًا﴾ أي: مهزوءاً منا من قبلك بأن نقول لك: ادع لنا ربك يبين لنا قاتل القاتل، فتجيبنا بقولك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فهذا الجواب غير مطابق للسؤال، فكأنك تستهزئ منا، وتسخر منا، ولم يفهموا أن المراد بذبح البقرة أنه يُضرب القاتل ببعض منها فيحيا - بإذن الله - ويخبرهم بقاتله، فقال نبي الله موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ اعتصم وأتمنع بربي أن أكون من الجاهلين. الجاهلون: جمع الجاهل، وهو الوصف من (جهل). وأحسن تعاريف الجهل عند علماء الأصول: أنه هو انتفاء العلم بما من شأنه أن يُقصد ليُعلم، وللعلماء فيه أقوال متعددة محل ذكرها في فن الأصول^(٣).

(١) البيت للفرزدق، وهو في الكتاب لسيبويه (٢٩/٣)، الخصائص (٣٥٤/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٤٤٥/١)، الدر المصون (٤١٧/١).

(٣) انظر: حاشية البانبي (١٦١/١)، شرح الكوكب (٧٧/١)، الكليات ص ٣٥٠، نثر الورود (٧٤/١).

والمعنى: أن نبي الله موسى استعاذ بربه (جل وعلا) من أن يكون معدوداً، وفي عداد الجاهلين^(١). والآية تدل على أن من يستهزئ من الناس أنه جاهل^(٢)؛ لأن نبي الله موسى استعاذ بالله من أن يكون اتخذهم هزواً كما قالوا؛ ولذا قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فلما علموا أن الأمر من الله جدّ، وأن الجواب مطابق لسؤالهم، وأن المراد بذبح البقرة أن يضرب القتيل بجزء منها فيحيا، فيخبرهم بقاتله، تعنتوا وأكثروا الأسئلة فشددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، قالوا مخاطبين نبيهم: ﴿يَنمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: اسأل لنا ربك ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، المراد بقوله: ﴿مَا هِيَ﴾ هنا يعنون: ما سنّها^(٣)؛ لأن السؤال يوضحه الجواب، حيث قال لهم نبي الله موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: البقرة التي سألتهم عن سنّها ﴿بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، ﴿عَوَانٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف^(٤). والمعنى: لا فارض ولا بكر، هي عوان بين ذلك. الفارض: المُسنّة التي طعنت في السن، وكل طاعن في السنّ تسميه العرب (فارضاً)، وكل قديم تسميه (فارضاً)^(٥)، ومن أمثله في كلام العرب قول خفاف بن ثدبة السلمي يهجو العباس بن مرداس، وقيل: القائل علقمة بن عوف^(٦):

(١) انظر: تفسير السعدي (٥٣/١).

(٢) سئل الشيخ (رحمه الله) عن الفرق بين الجاهل الذي هو ضد العلم، وبين الجاهل الذي هو ضد الحلم.

فأجاب بقوله: «مما يبين ذلك المناظرة التي عقدها بعض الأدباء بين الحلم والعقل حيث قال: حلم الحليم وعقل العاقل اختلفا من ذا الذي منهما قد أكمل الشرفا فالعقل قال أنا أحرزت غايته لأنني بي رب الناس قد عُرِفَا فأفصح الحلم إفصاحاً وقال له بأيّنا الله في تنزيله اتصفا فبان للعقل أن الحلم سيده فقبّل العقل رأس الحلم وانصرفا»

(٣) انظر: أضواء البيان (٧٨/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤٤٩/١)، الدر المصون (٤٢١/١).

(٥) انظر: القرطبي (٤٤٨/١)، الدر المصون (٤٢٠/١).

(٦) القرطبي (٤٤٨/١)، اللسان (مادة: فرض) (١٠٧٨/٢)، البحر المحيط (٢٤٨/١)، الدر المصون (٤٢٠/١).

لَعَمْرِي لَقَدْ أَغْطَيْتَ جَارَكَ فَارِضاً تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ
وَلَمْ تُغْطِهِ بِكَرّاً فَيَرْضَى سَمِينَةً فكيف تُجَارَى بِالْمُودَةِ وَالْفَضْلِ

ومن إطلاق العرب الفارض على ما تقدم عهده قول الراجز^(١):

يَا رَبُّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِض لَهُ قَرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

يعني: بالضغن الفارض: أنه تقدم عهده وطالت سِنُّهُ. قال بعض العلماء: ومنه قول الآخر^(٢):

شَيْبَ أَضْدَاغِي فِرَاسِي أبيضُ محافلٌ فيها رجالٌ فَرَضُ

قال: أي طاعنون في السن، والأظهر أن المراد بقول هذا الراجز «فَرَضَ» أي: ضخام الأبدان؛ لأن العرب تطلق الفارض أيضاً على الضخم عظيم البدن.

وقوله: ﴿وَلَا يَكُرُّ﴾ البكر: هي التي لم يَفْتَحِلْهَا الفحل لصغرها^(٣). وقال بعض العلماء: البكر: التي وَلَدَتْ مَرَّةً^(٤)، ولكن المراد هنا التي لم يَفْتَحِلْهَا الفحل لصغر سنّها، والمعنى: ليست هذه البقرة التي أُمِرْتُم بِذَبْحِهَا بطاعنة في السن فارض، ولا بصغيرة جداً لم يَفْتَحِلْهَا الفحل، بل هي ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ العوان: النّصف، أي: لا طاعنة في السن ولا بكر، أي: لا صغيرة جداً بل هي: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ والعوان: النّصف، وأصل النّصف: التي انتصف عُمرُها^(٥)، وهي وسط في السن، ليست بصغيرة جداً، ولا كبيرة جداً، وكل متوسطة في السن نَصَفٌ تسميها العرب

(١) انظر: الطبري (١٩٠/٢)، اللسان (مادة: فرض) (١٠٧٨/٢)، القرطبي (٤٤٨/١).

(٢) انظر: اللسان (مادة: فرض) (١٠٧٨/٢)، القرطبي (٤٤٨/١)، الدر المصون (٤٢٠/١).

(٣) انظر: القرطبي (٤٤٩/١)، الدر المصون (٤٢١/١).

(٤) نفس المصدرين، أدب الكاتب ص ١٥٩.

(٥) انظر: القرطبي (٤٤٩/١)، الدر المصون (٤٢١/١).

(عواناً)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الطِّرِمَّاح قال^(١):

حَصَانٌ مواضِعِ النَقَبِ الأَعَالِي نَوَاعِمُ بَيْنِ أَبْكَارٍ وَعُؤُنٍ

يعني بالأبكار جمع بَكَر، الصغيرة التي لم تتزوج. والعُؤُن: جمع عوان، وهي النَّصْف، والنَّصْف التي انتصف عُمرها، فهي في وسط سنّها، ليست بكبيرة جداً، ولا بصغيرة جداً، ومنه قول كعب بن زهير^(٢):

شَدَّ النَّهَارُ ذِرَاعاً عَيْنُطَلٍ نَصْفٍ قَامَتْ فَجَاوَيْهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ

وفسر بعض الأدباء في شعره (النَّصْف) بالتي انتصف عمرها، حيث قال^(٣):

وَإِنْ أَتَوَكَ وَقَالُوا إِنَّهَا نَصْفٌ فَإِنَّ أَطْيَبَ نَصْفَيْهَا الَّذِي ذَهَبَا

وقوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فيه سؤال معروف وهو أن (ذلك) إشارة إلى مفرد مذكر، كما قال في الخلاصة^(٤):

بَذَا لِمَفْرَدٍ مَذْكَرٍ أَشْرُ

و (بين) لا تضاف للمفرد إلا إذا أريدت أجزاؤه.

والجواب^(٥): أن ذلك وإن كان لفظه مفرداً فمعناه مثني؛ لأن الإشارة راجعة إلى ما ذكر من الفارض والبكر، أي بين ذلك المذكور من فارض وبكر؛ لأن العوان أصغر من الفارض وأكبر من البكر، ونظير هذا من كلام العرب قول ابن الزُّبَيْرِ كما تقدم^(٦):

(١) انظر: الكشاف (٧٤/١)، تفسير أبي السعود (١١١/١)، الدر المصون (٤٢١/١).

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص ٢٢٩.

(٣) عيون الأخبار (٤٣/٤)، والبيت من شواهد ابن هشام في شرحه لقصيدة كعب بن زهير ص ٢٣٠.

(٤) الخلاصة ص ١٤. وهذا هو الشطر الأول في البيت.

(٥) انظر: الدر المصون (٤٢٢/١)، مغني اللبيب (١٧٢/١).

(٦) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من هذه السورة.

إِنَّ لِلشَّرِّ وَلِلخَيْرِ مَدًى وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ

أي: وكِلَا ذلك المذكور من شر وخير؛ لأن (كِلا) لا تضاف إلا لمثنى لفظاً أو معنى، وهذا معنى قوله: ﴿عَوَانُ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تُمَرُّونَ﴾ الأصل (ما تُمَرُّونَ به) فحُذِفَ الباء، فوصل الفعل إلى الضمير فحُذِفَ^(١).

وهذا الذي يُمَرُّونَ به هو ذبح البقرة ليضربوا القتل بجزء منها فيحيا. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُمَرُّونَ﴾ فزادوا تعنناً وسؤالاً وتشديداً فشَدَّدَ الله عليهم أيضاً قال: ﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾ [البقرة: الآية ٦٩] ﴿أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ﴾ (يبين) في هذه المواضع مجزوم بجزاء الأمر، والفعل المضارع المجزوم في جزاء الطلب يقول المحققون من علماء العربية: إنه مجزوم بشرط مقدر دلَّ عليه الأمر^(٢). وتقرير المعنى: إن تدعُ لنا ربك يبين.

﴿يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾ اللون هو إحدى الكيفيات التي يكون عليها الجرم، كالسواد والبياض. يعني ما اللون الذي هي متلونة به؟

﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ أي: ربكم جل وعلا: ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ أي: متصفة بلون الصُّفْرة، والتحقيق أن المراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة، وما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن المراد بالصفرة (السواد) مردود من وجهين^(٣):

أحدهما: أنه أكَّد الصفرة بقوله: ﴿فَأَفْعُ لَوْثُهَا﴾ والفقوع لا يوصف به إلا الصُّفْرة الخالصة تماماً.

[ثَانِيهِمَا]^(٤): أن العرب لا تُطلق الصفرة وتريد السواد إلا في الإبل

(١) انظر: الدر المصون (١/٤٢٣).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٣٠١/٢)، الدر المصون (٥/٣٦٢).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/١٩٩ - ٢٠١)، القرطبي (١/٤٥٠)، الدر المصون (١/٤٢٥).

(٤) في الأصل: ثانية.

خاصة دون غيرها، كما يأتي في تفسير قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صِفْرٌ (٣٣) [المرسلات: الآيتان ٣٢ - ٣٣] الجمالة جمع الجمل. والمراد بـ (الصفرة) هناك (السود)؛ لأن شرر نار الآخرة أسود^(١)، والعرب إنما تطلق الصفرة على السواد في الإبل خاصة دون غيرها من سائر الحيوانات، ومن إطلاق العرب الصفرة على سواد الإبل قول الأعشى^(٢):

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ
يعني بقوله: (صفرة): سود. فالتحقيق أن المراد بالصفرة هنا: هي الصفرة المعروفة.

وقوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ هذا نعت سببي.

والتحقيق في إعراب ﴿لَّوْنُهَا﴾ أنه فاعل لقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾ وأن ﴿فَاقِعٌ﴾ نعت سببي لقوله: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ﴾ و ﴿لَّوْنُهَا﴾ فاعل به لقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾.

وقال بعض العلماء: (لونها) مبتدأ مؤخر، و(فاقع) خبر مقدّم، وجملة المبتدأ والخبر في محل النعت. أي: بقرة صفراء لونها فاقع. أي: صفرتها خالصة جداً^(٣).

وقوله: ﴿تَسْرُ الْأَنْظِيرَ﴾ أي: يدخل السرور على من نظر إليها لكمال حسنها.ذكروا في قصتها أن الشمس تتوضح في جلد لها لشدة حسنها^(٤). وعادة إذا نظر الإنسان إلى شيء جميل سرّه النظر إلى ذلك الشيء الجميل؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿تَسْرُ الْأَنْظِيرَ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا أَذُعٌ لَنَا رَكَبٌ﴾ [البقرة: الآية ٧٠].

(١) انظر: القرطبي (١٦٤/١٩).

(٢) ابن جرير (٢٠٠/٢)، القرطبي (٤٥٠/١)، (١٦٤/١٩)، اللسان (مادة: خشب) (٨٣٣/١)، (مادة: صفر) (٤٤٨/٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٤٢٤/١).

(٤) انظر: ابن جرير (٢٠٢/٢).

فالسؤال الأول عن سنّها، وهل هي كبيرة، أو صغيرة، أو متوسطة؟
والسؤال الثاني عن لونها، وقد تقدم الجواب فيهما.

والسؤال الثالث عن صفتها، هل هي مذلة مروضة عاملة، أو هي صعبة غير مروضة؟ وهل فيها لون يخالف لون جلدها الآخر؟ ولذا أجابه بما يأتي.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ يعنون [أن] هذه الأوصاف كثيرة في البقر، فيكثر في البقر: الصفرة، والفقوع، والتوسط في السن، فلم تتميز لنا هذه البقرة من غيرها من البقر للاشتراك في الصفات.

وأفرد الضمير في ﴿تَشَبَهَ﴾ وذلك يدل على أن أسماء الأجناس يجوز تذكيرها وتأنيسها^(١). وقراءة الجمهور هنا ﴿تَشَبَهَ﴾ هو. أي: البقر، بصيغة الماضي. وتذكير الضمير لأن (البقر) جنس يجوز تذكيرها وتأنيسها. وفي بعض القراءات: ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وأصله: تشابه هي، أي: البقر، وأدغم التاء في التاء، وهذه قراءة شاذة^(٢). و(البقر) يجوز تذكيره وتأنيسه، وهو اسم جنس يقال فيه: باقر، وبيقر، وفيه لغات غير ذلك^(٣). ومن إطلاقه على (البقر) قول الشاعر^(٤):

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسْلَعَةً ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ
قيل: سمي البقر بقرًا لأنه يَبْقُرُ الأرض، يعني بحيث يشقها للحرث^(٥). وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾.

﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مفعول المشيئة محذوف، وتقرير المعنى: وإنا لمهتدون إن شاء الله هدايتنا^(٦). ففصل بين اسم (إن) وخبرها، وحذف

(١) انظر: الدر المصون (٤٢٦/١).

(٢) انظر: القرطبي (٤٥١/١)، البحر المحيط (٢٥٣/١).

(٣) انظر: الحيوان للجاحظ (٤٦٨/٤)، القرطبي (٤٤٥/١، ٤٥١).

(٤) البيت للورل الطائي، انظر: الحيوان للجاحظ (٤٦٨/٤)، اللسان (مادة: بقر) (٢٤٢/١).

(٥) انظر: الدر المصون (٤١٧/١).

(٦) المصدر السابق (٤٢٧/١).

مفعول (إن شاء) لدلالة المقام عليه. وتقرير المعنى: وإنا لمهتدون إلى نفس البقرة المطلوبة إن شاء الله هدايتنا إليها. ذكر عن ابن عباس أنه قال: لو لم يقولوا إن شاء الله لما اهتدوا إليها أبداً^(١). ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ أي: ربكم جل وعلا ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ [البقرة: الآية ٧١] الذلول: هي التي ذُلَّت بالرياضة حتى صار يُعمل عليها، يُحرث عليها ويُستقى. تقول العرب مثلاً: هذه دابة ذلول، بينة الذَّل (بالكسر)، ورجل ذليل، بين الذَّل (بالضم)^(٢).

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾ أي: لم تذلل بالرياضة، بل هي صعبة متوحشة.

وقوله: ﴿لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ يعني لم تُذلل، ليست بذلول مروضة، ولا تثير الأرض، أي: لا يُحرث عليها؛ لأن البقر تثار عليها الأرض

(١) ورد في هذا المعنى عدة روايات، منها المرفوع ومنها الموقوف؛ أما الروايات المرفوعة - وكلها ضعيفة - فعلى النحو التالي:

١ - من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند ابن أبي حاتم في التفسير (١٤١/١)، والبخار (كشف الاستار ٤٠/٣)، وأورده ابن كثير في التفسير (١١١/١) من طريق ابن أبي حاتم، ومن طرق ابن مردويه. كما ذكره الهيثمي في المجمع (٣١٤/٦)، والسيوطي في الدر (٧٧/١)، والشوكاني في التفسير (١٦٢/٦) وعزواه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

٢ - عن عكرمة - مراسلاً - عند سعيد بن منصور (٥٦٥/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٧٧/١)، والشوكاني في التفسير (١٦٢/١) وعزواه للفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر.

٣ - عن ابن جريج - مراسلاً - عند ابن جرير (٢٠٥/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٧٧/١)، والشوكاني في التفسير (١٦٢/١) وعزواه لابن جرير.

٤ - عن قتادة - مراسلاً - عند ابن جرير (٢٠٦/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٧٧/١)، والشوكاني في التفسير (١٦٢/١) وعزواه لابن جرير.

وأما الروايات الموقوفة فهي:

١ - عن عكرمة، عند ابن جرير (٢٠٤/٢ - ٢٠٥).

٢ - عن أبي العالية، عند ابن جرير (٢٠٥/٢ - ٢٠٦).

(*) وقال الشوكاني بعد أن أورد حديث أبي هريرة - السابق -: «وأخرج نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس» ١. هـ (فتح القدير ١/١٦٢). قلت: ولم أقف على هذه الجملة - من كلام ابن عباس - في الكتابين المذكورين، فالله أعلم.

(٢) انظر: الدر المصون (٤٢٩/١).

للحرث، وهذه البقرة لم تُدلل بالرياضة، ولم تُثر أرض الحرث لصعوبتها وتوحشها، فليست مروضة.

﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا سَقَى الْحَرْثَ﴾ يعني: ليست مما يُحرث عليه، ولا يُستنى عليه لسقي الزرع؛ لأنها صعبة متوحشة. وهذا هو التحقيق: أن ﴿تُثِيرُ﴾ و ﴿سَقَى﴾ كلها معطوفات على النفي فهي منفية^(١). والمعنى: ﴿لَا دَلُولٌ﴾ ليست مذلة مروضة، وليست ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ للحرث و ﴿وَلَا سَقَى الْحَرْثَ﴾ أيضاً؛ لأنها صعبة متوحشة. خلافاً لمن زعم أن ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ مؤنث.

والذين قالوا: «تثير الأرض»^(٢) يردُّ قولهم أنه قال: ﴿لَا دَلُولٌ﴾ والمروضة للحرث دلول.

وأجاب بعضهم^(٣): أن المراد بـ ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أي: تثيرها بشدة وطء أظلافها لنشاطها وقوتها. وهذا خلاف الظاهر، بل معنى الآية: أن من صفات هذه البقرة أنها غير مروضة، وغير مذلة، فليست تثير الأرض؛ لأنها لم تُدلل لذلك، ولا تسقى الحرث، ولا يُستنى عليها؛ لأنها لم تُرض، ولم تدلل لذلك. وهذا هو معنى الآية.

وقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: من جميع العيوب، ليس فيها عرج، ولا عور، ولا كسر قرن، ولا أي عيب. أي: مسلمة من جميع العيوب.

وقوله: ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ وزن الشِيَةِ: (عِلَّة)، وأصل مادتها: (وشى)، ومعروف أن المثال - أعني واوي الفاء - يطرّد حذف فائه في المصدر - مثلاً - إذا كان على (عِلَّة)^(٤)، وكذلك في المضارع والأمر، كما عقده في الخلاصة بقوله^(٥):

(١) انظر: القرطبي (٤٥٢/١)، الدر المصون (٤٢٨/١).

(٢) أي: على الإثبات.

(٣) انظر: القرطبي (٤٥٣/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤٥٤/١)، الدر المصون (٤٣١/١).

(٥) الخلاصة ص ٧٩، وانظر شرحه في الأشموني (٦٥٣/٢).

فَا أَمْرٍ أَوْ مُضَارِعٍ مِنْ كَوَعَدَ اخْذِفْ وَفِي كَعِدَةٍ ذَاكَ أَطْرَدَ
فَأَصْلُ الشَّيْءِ: (وشية) من الوشي، والوشي: هو - مثلاً - أن يكون في
الشيء لونان مختلفان، فكل - مثلاً - شيء فيه لونان مختلفان تقول العرب:
فيه وشي^(١). وإذا كان - مثلاً - حمار الوحش أو الثور فيه خطوط - يعني
تُخالف لونه في أرجله - يقولون له: مَوْشِي. أي: فيه وشي. ومن هذا
المعنى قول نابغة ذبيان^(٢):

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا بِذِي^(٣) الْجَلِيلِ^(٤) عَلَى مُسْتَأْنَسٍ وَحَدٍ
مِنْ وَخْشٍ وَجَرَّةٍ^(٥) مَوْشِي أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ^(٦) كَسِيفِ الصَّبَاقِ الْفَرْدِ
(مَوْشِي أَكَارِعُهُ) يعني [أَن]^(٧) فيها وشياً. أي: خطوطاً تخالف لونه،
فمعنى ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي: لا وشي من خطوط مخالفة للونها، بل لونها
كله أصفر فاقع على وتيرة واحدة، حتى قال بعض العلماء^(٨): إن أظلافها
وقرونها صفر. وهذا معنى قوله: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾.

﴿قَالُوا أَلَفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الألف واللام زائدتان لزوماً في ﴿أَلَفَنَ﴾^(٩).
وهي يُعَبَّرُ عنها بالوقت الحاضر. وبعض العلماء يقول: هو مبني على
الفتح؛ لأنه حُوْلِفَتْ به نظائره. وعلى كل حال فالمراد بـ ﴿أَلَفَنَ﴾: الوقت
الحاضر، في هذا الوقت الحاضر ﴿جِئْتَ﴾ - يعني في صفات هذه البقرة

(١) انظر: القرطبي (٤٥٤/١)، الدر المصون (٤٣١/١).

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ١٠ - ١١.

(٣) في الديوان: (يوم).

(٤) واد قرب مكة، وقد جاوزه البنيان في هذا الوقت.

(٥) وجرة: اسم مكان معروف بين مكة والبصرة، بينها وبين مكة نحو أربعين ميلاً، ليس
فيها منزل، فهي مرتع للوحش. انظر: معجم البلدان (٣٦٢/٥).

(٦) أي: ضامر البطن.

(٧) في الأصل: أنها.

(٨) انظر: ما نقله ابن جرير عن بعض السلف في هذا المعنى في التفسير (١٩٩/٢ - ٢٠٠).

(٩) انظر: الدر المصون (٤٣٣/١).

المطلوبة - ﴿بِالْحَقِّ﴾، ويتعين هنا حذف الصفة؛ لأنه لو لم تقدر الصفة لكانوا كفاراً؛ لأنهم لو قالوا: لم يأت بالحق إلا في هذا الوقت، فقبل هذا الوقت لم يكن آتياً بالحق!! كانوا مكذبين لنبي كريم، ومن كذب نبياً كريماً فهو كافر؛ ولذلك يتعين تقدير النعت هنا^(١)، والمعنى: جئت بالحق الذي لا يترك في هذه البقرة لبساً لإيضاحها بصفات الكاشفة تماماً، وقد تقرر في علم العربية: أن حذف الصفة إذا دلَّ المقام عليه موجود في القرآن، وفي كلام العرب^(٢)، فمن أمثلته في القرآن ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: آية ٧٩] حذف نعتها، أي: كل سفينة صحيحة. إذ لو كان يأخذ المعيبة لما كان في خرق الخضر للسفينة فائدة، ولما قال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: آية ٧٩].

قال بعض العلماء^(٣): ومنه ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: آية ٥٨] قالوا: حذف وصفه. أي: وإن من قرية ظالمة. بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: آية ٥٩]. ومن شواهد حذف النعت في لغة العرب قول الشاعر، وهو المرقش الأكبر^(٤):

وَرُبَّ أَسِيلَةٍ الْحَدِيثِ بِكَرٍ مُهْفَهَفَةٍ لَهَا فَرْغٌ وَجِيدٌ
أي: لها فرع فاحم، وجيد طويل. ومن هذا القبيل قول عبيد بن الأبرص الأسدي^(٥):

مَنْ قَوْلُهُ قَوْلٌ وَمَنْ فِعْلُهُ فِعْلٌ وَمَنْ نَائِلُهُ نَائِلٌ
يعني: من قوله قول فصل، ومن فعله فعل جميل، ومن نائله نائل جزل. فحذف النعت للدلالة المقام عليها، وهذا كثير في كلام العرب، وإن

(١) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/١).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٥٣/٢). أضواء البيان (٦٠٠/٣)، (١٨٠/٤).

(٣) راجع الهامش السابق.

(٤) ضياء السالك (١٨/٣)، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية (٢٢٧/١).

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٠٠.

ذكر ابن مالك في الخلاصة أن حذف النعت قليل حيث قال^(١):

وَمَا مِنَ الْمَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلَ يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلُّ

وهذا معنى قوله: «قَالُوا أَفَتَنَجِيئُكَ بِالْحَقِّ» أي: جئت في الوقت الأخير بالحق الذي لا يترك في هذه البقرة لبساً، ولا يتركها تشابه مع غيرها من البقر؛ لأنه مُيِّزٌ بصفاتها الكاشفة التي تفصلها وتميزها عن غيرها.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة جواز السَّلم في الحيوانات^(٢)، وأنها تنضبط بصفاتها الكاشفة حتى تصير كالمرثية؛ لأن هؤلاء الناس لا يوجد ناس أشد منهم تعنتاً، فاضطرتهم الصفات الكاشفة إلى أن اعترفوا بأن هذه البقرة ظهرت صفاتها وتميزت عن غيرها، ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «لا تصف المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها»^(٣). فبين ﷺ أن الصفات الكاشفة تقوم مقام النظر؛ لأنها تعين الموصوف. وهذا دليل واضح لما ذهب إليه جمهور العلماء من السلف في الحيوانات إذا بُيِّنَت صفاتها؛ لأن الوصف يجعلها كالمرثية ويضبطها. خلافاً للإمام أبي حنيفة (رحمه الله) الذي منع السَّلم في الحيوانات بناءً على أنها لا تنضبط بصفاتها^(٤). ومما يؤيد السَّلم فيها - خلافاً للإمام أبي حنيفة (رحمه الله): ما ثبت عن النبي ﷺ أنه استسلف بكراً وردَّ رباعياً^(٥)، وكما دلت عليه هذه النصوص.

قال بعض العلماء: ويؤخذ من هذه القصة أيضاً جواز النسخ قبل

(١) الخلاصة ص ٤٥، وانظر: شرحه في الأشموني (٧٤/٢).

(٢) انظر: الأم للشافعي (١١٧/٣)، أحكام القرآن لابن العربي (٢٦/١)، الإنصاف (٨٥/٥).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب: لا تبأش المرأة المرأة فتنتعها لزوجها، حديث رقم: (٥٢٤٠ - ٥٢٤١)، (٣٣٨/٩)، بلفظ: «لا تبأش المرأة المرأة فتنتعها لزوجها كأنه ينظر إليها». واللفظ الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) وهو لفظ الحديث عند الطبراني في الكبير، رقم: (١٠٢٤٧)، (١٧٣/١٠) مع اختلاف يسير.

(٤) انظر: بدائع الصنائع (٢٠٩/٥)، القرطبي (٤٥٣/١).

(٥) مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه، حديث رقم: (١٦٠٠)، (١٢٢٤/٣).

التمكن من الفعل؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات إطلاق، فلو ذبحوا أي بقرة كانت لصدقت باسم تلك البقرة المطلقة، ولأجزأتهم، ولما شددوا نَسَخَ الله الاكتفاء ببقرة مجردة أية كانت إلى بقرة موصوفة بصفات منعوتة بنعوت كثيرة شديدة. ومن هنا قال بعض العلماء^(١): هذه من الأدلة على النسخ قبل التمكن من الفعل. وقال بعض العلماء: هذا لا يصلح مثلاً للنسخ قبل التمكن من الفعل؛ لأن هذا حكم زيدت فيه صفات، ولم ينسخ ذبح البقرة بالكلية، بل بقي محكماً، وإنما زيدت في البقرة صفات.

وأجاب القائلون بأنه نسخ قالوا: زيادة هذه الصفات تضمن نسخاً في الجملة؛ لأن مضمون النص الأول يدل على أن كل بقرة ذبحت كائنة ما كانت ولو مجردة عن تلك الصفات [أجزأت]^(٢)، فَوَضَّفَهَا بالصفات الآتية الجديدة نَسَخَ الاختِزَاءُ بأي بقرة كانت. وعلى كل حال فهذه مسألة أصولية هي - مثلاً -: هل يجوز النسخ قبل التمكن من الفعل أو لا يجوز^(٣)؟ والجماهير من العلماء على أنه جائز، وواقع، ومن أمثله: نَسَخَ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء بعد أن فرضت خمسين، ونُسَخَ منها خمس [وأربعون]^(٤)، ثم أقرت خمساً. ومن أمثله قوله (جل وعلا) في إبراهيم في قصة ذبح إبراهيم لولده: ﴿وَقَدَرْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: آية ١٠٧]. لأنه أمره أن يذبح ولده، ونسخ عنه هذا الأمر قبل التمكن من الفعل.

والتحقيق أن هذا جائز وواقع. ولا شك أن فيه سؤالاً معروفاً، وهو أن يقول طالب العلم: إذا كان الحكم يشترع وينسخ قبل العمل فما الحكمة في تشريعه الأول إذا كان يُنسخ قبل أن يُعمل به؟

(١) انظر: القرطبي (٤٤٨/١)، البحر المحيط (٢٥٨/١).

(٢) في الأصل: لأجزأت.

(٣) انظر: المستصفى (١١٢/١)، البحر المحيط للزركشي (٨١/٤)، شرح الكوكب

(٥٣١/٣)، شرح مختصر الروضة (٢٨١/٢)، (٣٠٩)، مجموع الفتاوى (١٤٦/١٤)،

(١٤٧)، نثر الورد (٣٤٨/١)، المذكرة ص ٧٣.

(٤) في الأصل: وأربعين.

الجواب: أن التحقيق أن حكمة التشريع منقسمة قسمة ثنائية، وهي دائرة بين الامتثال والابتلاء^(١). فإذا نُسخ الحكم بعد العمل به فحكمته الامتثال وقد امْتِثِلْ، وإذا نُسخ قبل العمل به فحكمته تشريعه الأول الابتلاء، وهو اختبار الخلق هل يتهيئون للامتثال؟ وقد وقع الابتلاء، وقد نصَّ الله (جل وعلا) في قصة إبراهيم على أن الحكمة في أمره بذبح ولده - مع أن الله يعلم أنه لا يُمكنه من ذلك - هو الابتلاء هل يتهيأ ويطيع ربه في أن يذبح ثمرة قلبه؟ كما قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [١٠٣] [الصافات: آية ١٠٣] يعني: تله للجبين لينفذ فيه الذبح حتى - مثلاً - قال له ربه: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [١٠٤] ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: الآيتان ١٠٤ - ١٠٥] وقال: ﴿وَقَدَرْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: آية ١٠٧] ثم إن الله نصَّ على أن الحكمة الابتلاء في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَتِّوَا الْمَيِّنُ﴾ [الصافات: آية ١٠٦].

وقوله جل وعلا: ﴿فَذَبِّحْهُمَا﴾ أي: فذبحوا البقرة، وضربوه بجزء منها فحيي، وأخبرهم بقاتله كما يأتي.

وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: ما كادوا يذبحونها إلا بعد جهد جهيد؛ لما جاؤوا به دون ذبحها من السؤالات والتعنتات.

وقول بعض العلماء: إِنَّ (كاد) إذا كانت في الإثبات دلت على النفي، وإذا كانت في النفي دلت على الإثبات، وأن هذا يُلغز به: هو في الواقع غير صحيح^(٢)، وأن (كاد) فعل مقارنة تدل على مقارنة حصول الخبر للمبتدأ، وإذا نُفِيت نُفِيت المقاربة. يعني: ما قاربوا أن يذبحوا. يعني في

(١) انظر: نثر الورود (٣٤٨/١)، المذكرة (٧٣ - ٧٤).

(٢) في الكلام على (كاد) راجع: تفسير ابن جرير (١٥١/١٨)، تهذيب اللغة للأزهري (٣٢٩/١٠)، شرح الكافية لابن مالك (٤٦٦/١)، المساعد على تسهيل الفوائد (٣٠٣/١)، البحر المحيط (٢٥٨/١)، الكليات ص ٧٤٩، القاموس (مادة: الكود) ص ٤٠٣، الدر المصون (١٧٦/١)، الأشباه والنظائر للسيوطي (٢٦/٣)، التحرير والتنوير (٥٥٧/١ - ٥٥٩)، تفسير سورة النور للشيخ (رحمه الله) ص ١٥٥، النحو الوافي (٦١٨/١).

زمن التعنت والأسئلة، حتى انقضى زمن التعنت والأسئلة، في آخر الأمر ذبحوها، والقرينة على أن هذا المراد: أنه صرح بأنهم ذبحوها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني: في الآونة الأخيرة ﴿وَمَا كَادُوا﴾ قبل ذلك في الأزمان التي قبله ﴿يَفْعَلُونَ﴾ لتعنتهم وكثرة سؤالاتهم وعدم امتثالهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْنُبُونَ﴾ (٧٢) ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتِ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) [البقرة: الآيات ٧٢ - ٧٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْنُبُونَ﴾ (٧٢) [البقرة: آية ٧٢] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: الآية ٦٧] وقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ هو أول القصة في الوقوع، ولكنه متأخر في النزول^(١) وترتيب القرآن على الظاهر، أي: واذكروا ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هو القتل المتقدم، قيل اسمه: (عاميل)^(٢). والعرب تعبر عن الشخص بالنفس، تقول: (قتل نفساً) أي: شخصاً ذكراً كان أو أنثى، والظاهر أن هذا القتل ذكر، بدليل تذكير الضمير العائد عليه في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: الآية ٧٣] أي: القتل الذي فيه النزاع^(٣).

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما المسوغ لإسناد قتل هذا القتل إلى جميعهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾؟

الجواب^(٤): أن القرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية إسناد

(١) انظر: القرطبي (٤٤٥/١، ٤٥٥)، البحر المحيط (٢٥٨/١ - ٢٥٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الأضواء (٢٤/١، ٧٩).

(٤) انظر: البحر المحيط (٢٥٩/١)، الدر المصون (٤٣٤/١) وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية

(٣٣) من سورة الأنعام.

الأمر إلى جميع القبيلة إذا فعله واحد منها. ونظيره في القرآن قراءة حمزة والكسائي^(١): ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ أَفْثَرُ﴾ [البقرة: آية ١٩١]؛ لأنه ليس من المعقول أمر من قُتِلَ بالفعل أن يقتل قاتله، ولكن: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الآخر. فأسند الفعل إلى الجميع وهو واقع من البعض. وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، ومنه قول الشاعر^(٢):

فَإِنْ تَقْتُلُونَا عِنْدَ^(٣) حَرَّةٍ وَاقِمٍ فَلَسْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ أَوَّلَ مَنْ قُتِلَ
يعني: تقتلوا بعضنا.

وقوله: ﴿فَأَذَرَتْهُمُ فِيهَا﴾ أصله: فَتَدَارَأْتُمْ فِيهَا. وهو (تَفَاعُل) من الدَّزء، بمعنى الدفع، والقاعدة المقررة في علم العربية: أن (تفاعل) و(تفعّل) - مثلاً - إذا أريد فيهما الإدغام استُجْلِيَتْ همزة الوصل ليُمكن النطق بالساكن؛ إذ العرب لا تبتدئ بساكن. أصله: (تدارأتم) فأريد إدغام تاء التفاعل في الدال التي هي فاء الكلمة فسكن لأجل الإدغام، فاستُجْلِيَتْ همزة الوصل توصلاً للنطق بالساكن^(٤). وهذا كثير في القرآن في (تفاعل) و (تفعّل) نحو ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفَلْتُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٨] أصله: تشاقلتم ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: تطيرنا ﴿وَأَزَيَّنْتَ وَظَرْتَ أَهْلَهَا﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: تزينت، إلى غير ذلك من الآيات. ونظير هذا الإدغام في (تفاعل) ونحوها من كلام العرب قول الشاعر^(٥):

تُولِي الضَّجِيعَ إِذَا مَا التَّذْهَأُ^(٦) خَصِرًا عَذَبَ الْمَذَاقِ إِذَا مَا اتَّبَعَ الْقَبْلُ
يعني: إذا ما تتابع القبل.

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٤٤.

(٢) المحتسب (١٢٨/٢).

(٣) في المحتسب: (يوم).

(٤) انظر: الدر المصون (٤٣٤/١).

(٥) انظر: ابن جرير (٢٢٤/٢)، القرطبي (١٤٠/٨).

(٦) في ابن جرير: (استافها).

ومعنى ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾: تدارأتم من الدرء، والدرء معناه: الدفع. والمعنى: تدافعتم قتل القتل. أي: كل منكم يدفع قتله عن نفسه إلى صاحبه، بأن يقول هؤلاء: قتله غيرنا، أنتم قتلتموه، وهؤلاء يقولون: بل أنتم الذين قتلتموه، ونحن لم نقتله. واختلاف العلماء فيه^(١) - بمعنى قول بعضهم: ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾ أي: تنازعتم. وقول بعضهم: ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾ اختلفتم - كله عائد إلى ما ذكرنا.

وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أنث الضمير، يعني: راجعاً إلى النفس. يعني: (فيها) أي: في النفس المقتولة، كلكم يدفع قتلها عن نفسه إلى صاحبه.

﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿يُخْرِجُ﴾ اسم فاعل (أخرج) أي: مُظهر ما كنتم تكتُمون. و (ما) موصولة، والعائد محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، على حد قوله في الخلاصة^(٢):

والْحَذْفُ عندهم كثيرٌ مُنْجَلِي
في عَائِدٍ مُتَّصِلٍ إِنْ انْتَصَبَ بِفَعْلٍ أَوْ وَضِفَ كَمَنْ تَرْجُو يَهَبُ

وتقريره: (والله مخرج الذي كنتم تكتُمونه من أمر القتل) وكذلك أسند الکتَم هنا للجميع، والکاتم هو القاتل.

وقال بعض العلماء: القَتْلَةُ جماعة تمالؤوا على عمهم فقتلوه ليرثوه.

ومعنى قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مخرج الذي كنتم تكتُمونه. أسند الکتَم إلى الكل وأراد بعضهم، سواء قلنا: إن القاتل واحد أو جماعة.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي وهو: أن (ما) مفعول به لاسم الفاعل الذي هو: (مُخرج)، والقصة - التي هي هذه - قصة ماضية قبل نزول الآية الكريمة؛ لأنها واقعة في زمن موسى، فهي في وقت نزول الآية ماضية، مَضَتْ لها أزمان كثيرة، والمقرر في علم العربية: أن اسم الفاعل

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٢٢، ٢٢٤).

(٢) الخلاصة ص ١٦، وانظر: شرحه في الأشموني (١/١٢٨).

إذا لم يُحَلَّ بالألف واللام لا يعمل إلا إذا كان مقترناً بالحال أو المستقبل، فلا يعمل مقترناً بالماضي^(١)، وهنا أُعْمِل وهو واقع في زمن الماضي؟ هذا وجه السؤال.

الجواب^(٢): أنه إنما أُعْمِل اسم الفاعل في هذا المفعول؛ لأن هذه حكاية حال ماضية في وقتها، فإنما حُكيت الحال في وقتها؛ فكأنها في وقتها؛ لأن الحكاية تُحكى فيها الأحوال في حال وقتها. ونظير هذا يُجاب به عن قوله جل وعلا: ﴿وَكَلَّبَهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ لأنها أيضاً حكاية حال ماضية، وهي في وقتها مطابقة للزمن الحالي.

والآية تدل على أن من فعل سوءاً وكتمه أن الله يظهره، غالباً لا يُسر الإنسان سريرة إلا ألبسه الله رداءها^(٣). وكان بعض العلماء يقول: لو عَمِل الإنسان الشر في غاية الخفاء لا بد أن يظهره الله، كما يفهم من قوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: الآية ٧٣] صيغة الجمع للتعظيم، و(الفاء) عاطفة للجملة على ما قبلها، يعني: تدارأتم في القتل، فقلنا لكم: اضربوه ببعض البقرة؛ لِيُبَيِّنَ لكم الواقع، وتعرفون القاتل، وينتهي النزاع ﴿فَقُلْنَا﴾ صيغة الجمع للتعظيم، ﴿أَضْرِبُوهُ﴾ أي: القتل. فالضمير عائد إلى القتل. المفهوم من النفس في قوله: ﴿نَفْسًا﴾، فأنث الضمير باعتبار لفظ النفس، وذَكَرَهُ باعتبار معناها؛ لأن القتل ذكر، وقد يكون الذكر يُعبر عنه بلفظ مؤنث، فيجوز التأنيث مراعاة للفظ، والتذكير مراعاة للمعنى^(٤). ومنه في كلام العرب قول الشاعر^(٥):

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٥٨/٢، ٦١).

(٢) انظر: الدر المصون (٤٣٥/١).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٩/١)، شرح الطحاوية ص ١٤٤، تفسير ابن كثير (١١٢/١)، (١٨٠/٤).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤٣٥/١).

(٥) البيت لُصِّب بن رياح الأموي، انظر: اللسان (مادة: خلف) (٨٨٣/١)، (مادة: فلح) (١١٢٦/٢).

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَمَالِ
فَأَنْتَ (الخليفة) وأطلق عليه لفظ (الأخرى) نظراً إلى تأنيث لفظه، مع
أنه يجوز تذكيره؛ لأنه رجل. فقلنا لهم: اضربوا القتل ببعض هذه البقرة،
فضربوه ببعضها فحيي.

وهذا البعض الذي ضربوه به منها اختلف فيه المفسرون^(١)، فمنهم من
يقول: هو لسانها. ومنهم من يقول: فخذها. ومنهم من يقول: عجب
ذنبها. ومنهم من يقول: الغضروف، غضروف الأذن.

والحق أن هذا البعض الذي ضربوه به منها لا دليل عليه، ولا جدوى
في تعيينه. وكثيراً ما يولع المفسرون بالتعيين في أشياء لم يرد فيها دليل من
كتاب ولا سُنَّة، ولا جدوى تحت تعيينها، فيتعبون بما لا طائل تحته،
كاختلافهم في خشب سفينة نوح من أي شجر هو؟ وكم كان عرض
السفينة؟ وطولها؟ وكم فيها من الطبقات؟ وكاختلافهم في الشجرة التي نُهي
عنها آدم وحواء، أي شجرة هي؟ وكاختلافهم في كلب أصحاب الكهف ما
لونه، هل هو أسود أو أصفر؟ وكثير من هذه الأمور التي يُولعون بها ولا
طائل تحتها، ولا دليل عليها من كتاب وسنة^(٢). غاية ما دلَّ عليه القرآن:
أنهم ضربوه ببعض من تلك البقرة غير مُعين، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي:
فضربوه ببعض منها فحيي بإذن الله، فأخبرهم بقاتله، ثم عاد ميتاً، ولم يرثه
قاتله الذي قتله. قال بعض العلماء: ومن ذلك اليوم لم يرث قاتل عمداً^(٣).

وعامة العلماء على أن القاتل لا يرث، سواء كان القتل عمداً أو
خطأ، لا من المال ولا من الدية. وعن مالك بن أنس (رحمه الله) التفصيل
بين الدية والمال في خصوص القتل خطأ، قال: إن القاتل خطأ يرث من
المال، ولا يرث من الدية. والجمهور على خلافه، وشذ قوم فورثوه من

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٢٩ - ٢٣١).

(٢) انظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٩.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/٢١٥)، تفسير ابن كثير (١/١٠٨).

المال والدية في القتل خطأ^(١).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يعني: كما أحيا الله هذا القاتل وهذا الجرم الغفير من الناس ينظرون، كذلك الإحياء المُشاهد يحيي الله الموتى يوم القيامة، فهو دليل قرآني على البعث؛ لأن من أحيا نفساً واحدة فهو قادر على إحياء جميع النفوس؛ لأن ما جاز على المثل يجوز على مماثله، والله (جل وعلا) يقول: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: آية ٢٨].

وهذه الآية الكريمة تؤخذ منها فوائد، من الفوائد التي تؤخذ منها: أن الخالق الفاعل كيف يشاء هو رب السماوات والأرض. وأن الأسباب لا تأثير لها إلا بمشيئة الله. وأن الله يُسبِّب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو لم تكن بين السبب والمُسبَّب مناسبة، فهذا القاتل لو ضُرب بالبقرة وهي حيّة لقال قاتل جاهل: اكتسب الحياة من حياتها فالله (جل وعلا) أمرهم أن يذبحوها حتى تكون ميتة، وأن يأخذوا قطعة ميتة منها لا حياة فيها فيضربوا بها هذا القاتل فيحيا. فَضْرَبُهُ بهذه القطعة الميتة من هذه البقرة المذبوحة كان سبباً لوجود الحياة فيه. وهذا السبب لا مناسبة بينه وبين المُسبَّب^(٢)، فدلّ على أن خالق السماوات والأرض يفعل ما يشاء كيف يشاء، ويرتب ما شاء من المُسبِّبَات على ما شاء من الأسباب باختياره وقدرته ومشيئته، ولو لم تكن هناك مناسبة بين السبب ومُسبِّبه.

(١) انظر: العذب الفائض (١/٢٨ - ٢٩).

(٢) سئل الشيخ (رحمه الله) عن مدى تعلق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَشْفَىٰ مُوتَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: آية ٦٠] بما ذُكر من أن الله (تعالى) يُسبِّب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو لم تكن بين السبب والمُسبَّب مناسبة.

فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: ضُرب الحجر بالعصا في هذا المقام شبيه بضرب القاتل بالجزء من هذه البقرة؛ لأن ضرب الحجر بالعصا لا يجعل الماء في الحجر، بل الماء إنما يخلقه الله بقدرته، كما أن ضُرب القاتل بالجزء من البقرة لا يجعله يحيا، ولكن الله أحياه، ورتب ما شاء من الأسباب على ما شاء، وقد أجاد من قال:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ولكن كل شيء له سبب

أخذ مالك (رحمه الله) دون عامة العلماء من هذه الآية حكماً، وهو أنه يُثبت القَسَامَةُ^(١). بقول المقتول: «دمي عند فلان»^(٢)؛ لأن هذا القَتِيل لما حيي أخبرهم أن قاتله فلان، وعملوا بقوله، قال مالك: فعملهم بقوله الذي دلّ عليه القرآن دليل على أن من قال: «قتلني فلان». أنه يُعمل بقوله، ومن هنا جعل قول المقتول إذا أدرك وبه رمق وقيل له: مَنْ ضَرَبَكَ؟ فقال لهم: «قتلني فلان، أو دمي عند فلان». فهذا لَوْتُ^(٣) عند مالك^(٤) تُحلف معه أيمان القَسَامَةِ، ويُستحق به الدم أو الدية، على التفصيل المعروف فيما تُستحق به القَسَامَةُ من عمد أو خطأ.

وخالف مالكاً في هذا الفرع عامة العلماء، وقالوا: قول القَتِيل: «دمي عند فلان» هذا لا يمكن أن يُسوِّغ القَسَامَةَ؛ لأنه لو قال: «لي درهم على فلان، أو أطالب فلاناً بكذا» لا يثبت من ذلك شيء، فكيف يثبت به القتل ودم المعصوم؟ ومالك استدل بهذه القصة، واستدل أيضاً بأن الإنسان إذا كان في آخر عهد من الدنيا زال غرضه من الكذب، وصار منتقلاً إلى دار الآخرة، وصارت الدواعي إلى الكذب بعيدة جداً في حقه، فالذي يغلب على الظن أنه لا يخبر إلا بواقع.

وأجاب الجمهور عن القصة قالوا^(٥): هذه القصة لا يقاس عليها غيرها؛ لأن هذا قتيل أحياءه الله معجزة لنبي، وأخبرهم - مثلاً - أنه يحييه، وأنه يخبرهم بمن قُتل وهذا الإخبار مستند إلى دليل قطعي، فليس كإخبار قتيل آخر.

(١) هي حلف مُعَيَّن عند التهمة بالقتل على الإثبات أو النفي. انظر: القاموس الفقهي ص ٣٠٣.

(٢) انظر: القرطبي (٤٥٧/١)، أضواء البيان (٥٦٣/٣).

(٣) اللَّوْتُ: يطلق عند المالكية على الأمانة التي تغلب على الظن صدق مدعي القتل، كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يرى المقتول يتشخط في دمه والمتهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل، انظر: القرطبي (٤٥٩/١)، القاموس الفقهي ص ٣٣٤، أضواء البيان (٥٦٣/٣).

(٤) انظر: القرطبي (٤٥٩/١)، أضواء البيان (٥٦٣/٣).

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢٤/١)، القرطبي (٤٥٧/١).

وأجاب ابن العربي في أحكامه عن هذا قال: المعجزة إنما هي في إحياء القتيل، أما كلام القتيل، فهو كسائر كلام الناس، يجوز في حقه أن يكون حقاً، وأن يكون كذباً.

وعلى كل حال فهذا الفرع خالف فيه مالكا جمهور العلماء.

وقوله جل وعلا: ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فيه دليل على أن قصة إحياء هذا القتيل من الأدلة على البعث، وقد بينا فيما مضى خمسة أمثلة منها في هذه السورة الكريمة^(١).

وقوله: ﴿وَرُيِّكُمْ ءَايَتِهِ﴾ ﴿وَرُيِّكُمْ﴾ مضارع (أراه)، أصلها يُرِيكم آياته. أي: يبينها لكم حتى ترونها. ﴿ءَايَتِهِ﴾ الآية: تطلق في اللغة إطلاقين، وتطلق في القرآن إطلاقين، وجمهور علماء العربية أن أصل وزن الآية (أَيَّة) فهي وزنها: (فَعْلَة) فأؤها همز، وعينها ياء، ولامها ياء، اجتمع فيها موجبا إعلال، على القاعدة المقررة في التصريف، التي عقدها في الخلاصة بقوله^(٢):

مِنْ [واوٍ أو ياءٍ]^(٣) بتحريكٍ أَصِلْ أَلِفًا ابْدِلْ بَغْدَ فَتْحٍ مُتَّصِلِ

والأصل المشهور أن يكون الإعلال في الأخير، فالجاري على القياس أن يقال: آية، وتُبدل الياء الأخيرة ألفاً، إلا أنه أُبدلت هنا الياء الأولى^(٤). وإعلال الأول من الحرفين اللذين اجتمع فيهما موجبا إعلال موجود في القرآن، وفي كلام العرب، كآية، وغاية.

والآية تطلق في لغة العرب إطلاقين^(٥): تطلق الآية بمعنى: (العلامة).

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٢) الخلاصة ص ٧٧، وانظر: شرحه في الأشموني (٦٢٢/٢).

(٣) في الأصل: ياء أو واو.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٢.

(٥) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الهمزة، باب: الهمزة والياء وما يثلاثهما في الثلاثي، (مادة: أي) (١/١٠٢)، القاموس (مادة: أي) (١٦٢٨)، الأصواء (٣٨/٤ - ٣٩).

وهذا إطلاقها المشهور. ومنه قول نابغة ذبيان^(١):

تَوَهَّمْتُ آيَاتِهَا فَعَرَفْتُهَا لَسْتُ أَغْوَامِ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ

ثم صرح بأن مراده بالآيات علامات الدار في قوله:

رَمَادٌ كَكُخْلِ الْعَيْنِ لَا يَأْ أَبْيَنُهُ وَنُؤْيُ كَجَدَمِ الْحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

ومن هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي: علامة ملكه ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ﴾ الآية [البقرة: الآية ٢٤٨].

وتطلق الآية على: (الجماعة)، تقول العرب: جاء القوم بأيّهم، أي: بجماعتهم، ومنه قول بُرج بن مُسهر^(٢):

خَرَجْنَا مِنَ النَّقَبِينَ لَا حَيٍّ مِثْلُنَا بَايْتَنَا نُزْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا
أي: بجماعتنا.

والآية تطلق في القرآن إطلاقين: آية كونية قدرية، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠] وهذه الآية الكونية القدرية من (الآية) بمعنى (العلامة) باتفاق، أي: لعلامات على كمال قدرة من وضعها، وأنه الرب وحده، المعبود وحده.

وتطلق الآية في القرآن بمعناها الشرعي الديني، كقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] أي: آياته الدينية الشرعية.

والآية الدينية الشرعية قيل: من (العلامة)؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها، لما فيها من الإعجاز. أو لأن لها مبادئ ومقاطع علامات على انتهاء هذه الآية وابتداء الآية الأخرى.

وقال بعض العلماء: هي من (الآية) بمعنى (الجماعة)؛ لأن الآية كأنها

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) القرطبي (١/٦٦)، اللسان (مادة: أبا) (١/١٤٠).

نبذة وجماعة من كلمات القرآن، تتضمن بعض ما في القرآن من الإعجاز، والأحكام، والعقائد، والحلال، والحرام^(١).

هذا معنى: ﴿وَيُزَيِّنُكُمْ﴾ يعني: يجعلكم ترونها واضحة. أي: علاماته الواضحة على كمال قدرته وإحيائه للموتى، وأنه يبعث الناس بعد أن يموتوا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لأجل أن تدركوا بعقولكم أنه (جل وعلا) يحيي الناس بعد الموت، ويبعثهم من قبورهم، وأنه قادر على كل شيء، وأنه المعبود وحده، و ﴿تَعْقِلُونَ﴾ معناه: تدركون بعقولكم.

/ يقول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: الآية ٧٤).

قال بعض العلماء^(٢): (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ للاستبعاد؛ لأن هذا الذي نظروه من آيات الله، وعبره، وإحيائه للقتيل سبب عظيم للين القلوب، فقسوة القلوب بعد مشاهدته من الأمر المستبعد؛ ولذا قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من بعد ذلك الأمر الذي عاينتموه، وهو إحياء القتيل، الذي هو أعظم سبب للين القلوب، ف (ثم) هنا للاستبعاد، كما قاله بعض العلماء. ونظيره من إتيان (ثم) للاستبعاد قوله تعالى في أول سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) [الأنعام: آية ١]؛ لأن من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور يُستبعد جداً أن يُجعل له عديل ونظير. ونظير (ثم) للاستبعاد من كلام العرب قول الشاعر^(٣):

(١) في تعريف الآية اصطلاحاً انظر: ابن جرير (١٠٦/١)، ابن كثير (٧/١)، القرطبي (٦٦/١) قواعد التفسير (١٠٠/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٦١/١ - ٢٦٢).

(٣) البيت لجعفر بن عُبلة الحارثي. انظر: الدر المصون (٨٩/٩)، (٦٤٢).

ولا يكشف الغمَاء إلا ابن حُرّة يرى غمرات الموت ثم يزورها
لأن من رأى غمرات الموت تُستبعد منه زيارتها.

والإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ عائدة إلى ما ذكر من إحياء القَتِيل لَمَّا ضُرِب
بالجزء من البقرة الميتة، ومعنى قسوة القلوب: شدتها وصلابتها حتى لا يدخل
فيها خير؛ لأن ذا الشيء القاسي ليس بقابل لدخول شيء فيه، فقلوبهم صلبة
شديدة نائية عن الخير لا يدخلها وعظ ولا ينجع فيها خير. والسبب الذي قست به
قلوبهم نهى الله عن ارتكابه المسلمين في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: آية ١٦].

وقوله: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ أي: في شدة القسوة والصلابة، فكما أنك
لو أردت أن تدخل ماءً أو دهنًا في جوف حجر صلب أصم لا يمكن لك
ذلك، فلا يمكن أن تدخل في قلوبهم خيراً، ولا موعظةً، ولا شيئاً ينفعهم؛
لقساوتها - عياداً بالله -.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾؛ ﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ مرفوع عطفاً على الكاف من
قوله: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ أي: فهي مثل الحجارة أو أشد قسوة؛ لأن الكاف
في معنى (مثل). وقيل: عطف على محل الجار والمجرور؛ لأنه في محل
رفع خبر المبتدأ، أي: فهي كالحجارة، أو فهي أشد قسوة^(١).

و ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز مُحَوَّل عن الفاعل؛ لأنه بعد صيغة التفضيل، على
حد قوله في الخلاصة^(٢):

وَالْفَاعِلُ الْمَعْنَى انْصَبَنَ بِأَفْعَلَا مُفْضَلًا كَأَنَّ أَعْلَى مَنْزِلًا
لأن ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز فاعل في المعنى، فنُصِبَ بِأَفْعَلٍ مُفْضَلًا تمييزاً
محولاً عن الفاعل.

(١) انظر: البحر المحيط (١/٢٦٣).

(٢) الخلاصة ص ٣٤، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٤٤٥).

ثم إن الله (جل وعلا) بيّن أن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ يعني: إن بعض الحجارة ربما [تفجر منه الأنهار]^(١)، وبعضها ربما لَأَنْ فَتَشَقُّ فخرج منه ماء، وقلوبهم لا تلين ولا ينفجر منها خير، لا قليل ولا كثير.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: ما معنى (أو) في قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ والمُخْبِر بهذا الكلام (جل وعلا) يستحيل في حقه الشك، فما معنى (أو) في قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾؟

للعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة^(٢)، أظهرها: أن «أو» للتنويع، و«أو» التي هي للتنويع تدل على نوع. والمعنى: أن منهم نوعاً قلوبهم كالحجارة، وهنالك نوع آخر دلّت عليه (أو) التنويعية أقسى قلوباً من هذه^(٣) (...).

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشَرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: الآيات: ٧٥ - ٧٩].

(١) في الأصل: (لَأَنْ تَفْجَرُ مِنْهُ ماء)؛ وذلك لأنه وقع للشيخ (رحمه الله) سهو في الآية السابقة حيث نطق بها هكذا: (لما يتفجر منه الماء) فجاء التفسير هنا كما ترى.

(٢) انظر: ابن جرير (٢/٢٣٥)، القرطبي (١/٤٦٣)، البحر المحيط (١/٢٦٢)، الدر المنصور (١/٤٣٦)، وراجع أيضاً منه ص ١٦٧.

(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل وكلام الشيخ (رحمه الله) على هذا المعنى الذي استظهره تام، وللوقوف على المعاني الأخرى راجع المصادر السابقة.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَنْظِمُوهُنَّ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان اليهود وغيرهم من أهل الكتاب؛ لأن عندهم علماً من الكتب السماوية المتقدمة. ولو آمنوا لكان ذلك داعياً إلى إيمان غيرهم لما عندهم من العلم، فقَطَّطَ الله في هذه الآية الكريمة من إيمان اليهود وأنكر عليه أن يعلق طمعه بشيء لا مطمع فيه، قال: ﴿أَنْظِمُوهُنَّ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٧٥] يعني: أتعلقون الطمع بما لا طمع فيه فتطمعون أن يؤمنوا لكم أي: يتصفوا بالإيمان لكم. أي: لأجل دعوتكم وطلبكم منهم الإيمان.

والعادة في القرآن أن الإيمان إذا كان تصديقاً بالله (جل وعلا) عُدِّي بالباء، فتقول: «ويؤمنون بالله»، «آمنت بالله»^(١). وإذا كان تصديقاً ببشر عُدِّي باللام. وهذا معروف من استقراء القرآن، كقوله هنا: ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: يصدقوكم ويتبعوكم في هذا الدين الحنيف، ومنه قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدقنا في أن يوسف أكله الذئب ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وقوله: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦]، وجمع المثاليين قوله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦١] والمعنى: أن الله أنكر عليهم الطمع بإيمانهم؛ لأنهم لا مطمع في إيمانهم.

ثم بيّن صعوبة الإيمان عليهم وبعدهم منه قال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) يعني: أطمعون بإيمان قوم وهم بهذه المثابة من العناد واللجاج وعدم امتثال الأوامر، والحال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ الفريق: الطائفة من الناس، ويجوز انقسام الناس إلى جماعات متعددة، ولا يلزم أن يكونوا فريقين فقط، بل يجوز أن يكونوا فريقين وأكثر، ومن هذا المعنى قول نُصَيْب^(٢):

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.

(٢) البيت في الكتاب لسبويه (٥٠٣/٣)، ولفظه:

فقال فريق القوم لما نشدناهم نَعَمْ، وفريق لَيُؤْمِنَنَّ الله ما ندرى

فقال فريق القوم: لا، وفريقهم: نعم، [وقال فريق^(١)]: ويحك ما ندرى واختلف العلماء في المراد بهذا الفريق الذين سمعوا كلام الله وحرفوه بعد أن عقلوه^(٢):

قال جماعة من العلماء: هذا الفريق هم علماؤهم، ومعنى ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يسمعون كلام الله يُتلى في كتابه التوراة ويفهمونه ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما أدركوه بعقولهم، فيجدون فيه صفات النبي ﷺ: (أبيض)، فيحرفونها إلى (أسمر)، ويجدون من صفاته: (رُبْعَة)، فيحرفونها إلى أنه طويل مُشَدَّب، ونحو ذلك من تغيير الصفات.

فعلى هذا الوجه فالفريق الذين يسمعون كلام الله: العلماء يسمعون كتاب الله التوراة يتلى ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ يعني يبدلونه ويحرفونه، ويجعلون فيه ما ليس فيه، بأن يحلوا حرامه، ويحرموا حلاله، ويغيروا فيه صفات النبي ﷺ، وينكروا بعض آياته كآية الرجم، وما جرى مجرى ذلك من التحريف.

وعلى هذا القول فالفريق: العلماء منهم بالتوراة، وتحريفهم له معروف.

فإذا كان خيارهم وعلماؤهم يعقلون عن الله كلامه في كتابه ثم يغيرونه ويحرفونه ويحملونه على غير محمله، فما بالكم تظمعون في أن مثل هؤلاء يؤمنون لكم ويهتدون إلى خير.

الوجه الثاني: أن هذا الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى، المذكورون في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ الآية [الأعراف: آية ١٥٥] ومن قال هذا القول قال: إنهم لما خرجوا مع موسى إلى الميقات سأله أن يسأل الله أن يُسمعهم كلامه. فسأل

(١) في الأصل: وفريق قال.

(٢) انظر: ابن كثير (١/١١٥).

لهم نبيهم ذلك. وأن الله أمرهم أن يصوموا. ولما أراد الله أن يكلم موسى، وألقى عليه الضباب، سمعوا كلام الله يأمر موسى وينهاه، فبعد أن سمعوا كلام الله وعقلوه حرفوه. قالوا: سمعناه يقول في آخر الكلام: إن شئتم فافعلوا، وإن شئتم لا تفعلوا.

فإذا كانوا يسمعون من الله كلامه، هذه السبعون المختارة منهم تسمع كلام الله وتحرفه وتغيره، فما بالكم تطمعون في إيمان من هذه صفتهم؟

هذان الوجهان في قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

وقد بينا مراراً أن همزة استفهام الإنكار إذا جاء بعدها حرف عطف كالفاء، كما في قوله هنا: ﴿أَنْظَمُوْنَ﴾ و (الواو) أو (ثم) أن فيها للعلماء وجهين معروفين^(١):

أحدهما: أن همزة الاستفهام تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، و (الفاء) تعطف الجملة التي بعدها على الجملة المحذوفة التي دل المقام عليها. والمعنى: أنطمعون بما لا طمع فيه، فتطمعون أن يؤمنوا لكم؟ ونحو هذا. أو: ألا تعرفون الحقائق فتطمعون بما لا طمع فيه؟ والأحوال متقاربة، وإلى هذا الوجه ميل ابن مالك في الخلاصة في قوله^(٢):

وَحَذَفَ مَتَّبِعُ بَدَا هُنَا اسْتَبِيحَ وَعَظْفُكَ الْفِعْلَ عَلَى الْفِعْلِ يَصِحُّ

والوجه الثاني: أن همزة الاستفهام مزحلقة عن محلها، وأنها متأخرة بعد الفاء، إلا أنها قُدمت عن محلها؛ لأن للاستفهام صدر الكلام، وعلى هذا فالمعنى: فأنطمعون. فتكون الجملة معطوفة بالفاء على ما قبلها، كأن المعنى: فأعطف على ذلك إنكار طمعكم بما لا طمع فيه، فيكون المعنى: فأنطمعون أن يؤمنوا لكم والحال ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾.

(١) انظر: البحر المحيط (٢٧١/١).

(٢) الخلاصة ص ٤٨، وانظر: شرحه في الأشموني (١٢٠/٢).

التحريف: يعني: وضع الشيء في غير موضعه، يصدق بأن يبدلوه بما ليس منه وأن يغيروه، وأن يحملوه على غير محمله، إلى غير ذلك من أنواع التحريف.

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي أدركوه بعقولهم. العرب تقول: عقلت الأمر أعقله، إذا أدركته بعقلي.

والعقل نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية^(١)، ومحله القلب، كما نص عليه الكتاب والسنة. لا الدماغ كما يزعمه الفلاسفة.

وبحوث العقل بحوث فلسفيه لا طائل تحتها.

للفلاسفة في بحث العقل ما يزيد على مائة طريق، من جهة البحث في العقل هل هو جوهر أو عَرَض؟ والكلام على العقول العشرة، والعقل الفياض. كله بحث فلسفي لا طائل تحته^(٢).

وإنما قال جل وعلا: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أي: تدركون بعقولكم؛ لأن العقل نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد دل القرآن على أن محله القلب لا الدماغ؛ لأن الله يقول: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل: أدمغة يعقلون بها. ويقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: آية ٣٧] ولم يقل: لمن كان له دماغ. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٣) ولم يقل: ألا وهي الدماغ.

(١) انظر: الكليات ص ٦٧.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي (٢/٨٤ - ٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم: (٥٢)، (١٢٦/١)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٢٠٥١)، ومسلم في الصحيح، كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: (١٥٩٩)، (١٢١٩/٣).

وجمع بعض العلماء بين قول أهل السنة وقول الفلاسفة بأن قال: إن أصل العقل في القلب كما في الكتاب والسنة، إلا أن نوره يتصل شعاعه بالدماع. واستدلوا على هذا بدليل استقرائي عادي، قالوا: بالعادة المطردة والاستقراء أنك لا تجد رجلاً طويل العنق طويلاً مُفْرِطاً إلا كان في عقله بعض الدخل؛ لُبْعِد ما بين طرفي شعاع نور عقله.

والتحقيق: أن العقل في القلب^(١) كما دلَّ عليه الوحي^(٢) [والذين قالوا: إن العقل في] الدماغ استدلوا: بأن كل ما يؤثر على الدماغ يؤثر على العقل. وهذا لا دليل فيه؛ لإمكان أن يكون العقل في القلب - كما هو الحق - وسلامته مشروطة بسلامة الدماغ، وهذا لا إشكال فيه.

والعقل الصحيح هو الذي يغفل صاحبه عن الوقوع فيما لا ينبغي، كما قال (جل وعلا) عن الكفار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: آية ١٠] أما العقل الذي لا يزجر عما لا ينبغي فهو عقل دنيوي يعيش به صاحبه، وليس هو العقل بمعنى الكلمة.

وقوله جل وعلا: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية يعني: أنهم سمعوا كلام الله فحرفوه بعد أن أدركوه بعقولهم وفهموه، والحال أنهم يعلمون أنهم حرفوه وافترؤا على الله، فمن^(٣) [كان] بهذه المثابة لا يطمع أحد في إيمانه.

ثم إن الله (جل وعلا) ذكر طائفة أخرى من اليهود هم منافقون، وهذه الطائفة المنافقة ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٧٦] أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [البقرة: ٧٧]

- (١) في هذه المسألة راجع: مجموع الفتاوى (٣٠٣/٩)، أقسام القرآن لابن القيم (٤٠٤) - (٤٠٥)، أضواء البيان (٧١٥/٥)، وللشيخ (رحمه الله) رسالة لا تزال مخطوطة، وهي تقع في إحدى عشرة صفحة، وهي متضمنة أجوبة لسؤالات ثلاثة بعث بها إليه الشيخ محمد الأمين ابن الشيخ محمد الخضر، والأول من تلك السؤالات: مقر العقل من الإنسان.
- (٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.
- (٣) في الأصل كلمة ممسوحة وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

الآيتان ٧٦ - ٧٧] (إذا): ظرف فيه معنى الشرط، العامل فيه دائماً جزاء الشرط لا فعل الشرط، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة إلى جُمْل الأفعال خاصة، كما قال في الخلاصة^(١):

وَأَلْزَمُوا إِذَا إِضَافَةً إِلَى جُمْلِ الْأَفْعَالِ كَهُنْ إِذَا اغْتَلَى

و (لقوا) أصله: لَقِيُوا (فَعِلُوا)^(٢)، والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل ناقص - أعني معتل اللام - سواء كان واوي اللام، أو يائي اللام، إذا أسند إلى واو جماعة، أو ياء مؤنثة مخاطبة، وجب حذف لامه المعتلة بقياس مطرد. فحُذِفَت هذه الياء التي هي لام الكلمة، وأبدلت كسرة القاف ضمة لمجانسة الواو. فأصله: (لَقِيُوا) على وزن (فَعِلُوا)، ووزنه الحالي ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ (فَعُوا)؛ لأن الياء التي في موضع اللام حُذِفَت لإسناد الفعل الناقص إلى واو الجماعة، كما هو مقرر في التصريف^(٣).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في محل نصب مفعول به لـ ﴿لَقُوا﴾، والمعنى: أن هؤلاء الطائفة من المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين - النبي ﷺ وأصحابه - ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾. ذكروا لهم أنهم آمنوا نفاقاً، وبينوا لهم أن النبي المنتظر المبشر به أن صفاته الموجودة في كتبهم مُتَطَبِّقَةٌ على هذا النبي الكريم ﷺ. هذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾.

﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يعني: رجعوا إلى أصحابهم وكان الموضوع خالياً من المؤمنين، بأن كان الموجود فيه هم فيما بينهم.

﴿قَالُوا﴾ يعني: أصحابهم الذين لم ينافقوا. قالوا منكبين على الذين نافقوا وموبخين لهم: ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ﴾ أي: أتحدثون المؤمنين - النبي ﷺ، وأصحابه - ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما فتح عليكم علمه في التوراة من أن هذا هو النبي المنتظر، وأن هذه صفاته، أنها متطبقة، وأنه هو لا

(١) الخلاصة ص ٣٧، وانظر: شرحه في الأشموني (٥١١/١).

(٢) انظر: القرطبي (٢٠٦/١).

(٣) انظر: الدر المصون (١٤٤/١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٦٤.

شك فيه، وأنكم مؤمنون به لما علمتم من أنه هو النبي الموعود به المنتظر.
﴿إِحَاجُّوكُمْ﴾ بهذا الإقرار ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أنكم أقررتم بأنكم تعرفون أنه الحق، وأن صفاته مطبقة على صفات النبي المنتظر، فإن هذا يحاجونكم به يوم القيامة، أنكم عرفتم الحق وتركتموه.

وهذا يدل على أنهم في غاية الجهل؛ لأنهم لو كتموه أليس الله عالماً بما في ضمائرهم؟ وما الفرق بين ما لو أقروا بأنهم عرفوا الحق وكتموه، أو كتموه ولم يقولوا؟ ولذا وبخهم الله بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٧] أيقولون مثل هذا ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ ﴿يُرْسُونَ﴾ هو المضارع من الإسرار، و﴿يُغْلِبُونَ﴾ المضارع من الإعلان، والفعل إذا كان ماضيه على وزن (أَفْعَل) تُحذف همزته في المضارع، واسم الفاعل، واسم المفعول، بقياس مطرد.

فالأصل: (يُؤَسِّرُونَ) و (يُؤَغْلِبُونَ) إلا أن حذَفَ همزة (أَفْعَل) يَطْرُد في المضارع وفي اسم الفاعل واسم المفعول، كما عقده في الخلاصة بقوله^(١):

وَحَذَفُ هَمْزِ أَفْعَلٍ اسْتَمَرَ فِي مَضَارِعٍ وَبِئْسَ مَصِيفٌ

والمعنى: أن إسرارهم وإعلانهم عند الله (جل وعلا) سواء؛ لأن الله يعلم السر وأخفى، السر عنده علانية، يعلم ما تخفيه الضمائر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: آية ١٦].

وعلى هذا الذي قررنا فمعنى: ﴿فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: علمكم إياه وأزال عنكم الحجاب دونه من العلم مما في التوراة.

وقوله: ﴿إِحَاجُّوكُمْ﴾ أصله (يُحَاجُّوكُمْ) (يُفَاعِلُونَ) من المُحَاجَّة يقتضي الطرفين، والحجة: كل ما أدلى به الخصم باطلاً كان أو حقاً^(٢).

(١) الخلاصة ص ٧٩، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٦٥٧).

(٢) انظر: المفردات (مادة: حَجَّ) ٢١٨، الكليات ٤٠٦.

بدليل قوله: ﴿جُحَّتْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: آية ١٥].

وقال بعض العلماء: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم. وذلك أن النبي ﷺ يوم خير ذكر لهم اسم القردة. قال بعضهم: ما علموا أن أوائلكم وقع مسح بعضهم قردة إلا منكم، بعضكم أخبرهم بهذا^(١)!! وعلى هذا فالمراد ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حكم عليكم به من المسخ، والعرب تطلق الفتح على الحكم^(٢)، وقد جاء في القرآن العظيم، ومنه على التحقيق: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: آية ١٩] يعني: إن تطلبوا الحكم من الله على الظالم بالهلاك فقد جاءكم ذلك، وهلك الظالم، أبو جهل وأصحابه، ومن هذا المعنى قوله (جل وعلا) عن شعيب: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٩] أي: احكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين، وهذه لغة حميرية، يسمون الحاكم: فَتَّاحًا، والحكم فَتَاخَةً^(٣)، ومن هذا المعنى قول الشاعر^(٤):

أَلَا أَبْلِغُ بَنِي عَمْرٍو رَسُولًا بِأَنِّي عَنْ فُتَّاحَتِكُمْ غَنِيٌّ

أي: عن حكمكم غني.

هذا قيل به في الآية، ولكنه قول مرجوح غير ظاهر، والتحقيق - إن شاء الله - هو الأول، ثم إنهم قالوا لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أتقولون قول من لا يعقل؟ فلا تعقلون أنه لا ينبغي لكم أن تخبروهم وتحدثوهم بما فتح الله

(١) أخرجه ابن جرير (٢/٢٥٢)، وابن أبي حاتم (١/٢٣٨)، عن مجاهد مرسلًا.

(٢) انظر: ابن جرير (٢/٢٥٤).

(٣) انظر: القرطبي (٢/٤).

(٤) تفسير ابن جرير (٢/٢٥٤)، الأمالي (٢/٢٨١)، اللسان (مادة: فتح) (٢/١٠٤٥)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، فهو في اللسان هكذا:

أَلَا مَنْ مَبْلَغَ عَمْرٍو رَسُولًا فَإِنِّي عَنْ فُتَّاحَتِكُمْ غَنِيٌّ
وفي ابن جرير والأمالي:

أَلَا أَبْلَغُ بَنِي عُصَمٍ رَسُولًا فَإِنِّي عَنْ فُتَّاحَتِكُمْ غَنِيٌّ

عليكم من علم التوراة مما خفي عليهم؛ ليكون حجة لهم عليكم عند الله يوم القيامة، أنكم أقررتم بأنهم على حق، وخالفتموهم ولم تتبعوهم.

ثم إن الله ذكر طائفة ثالثة، وهي الطائفة الجاهلة التي لا تدري، وإنما تسمع كلاماً فتقلّد فيه تقليداً أعمى، قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٨] الأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. أي: طائفة جاهلة لا يكتبون الكتب ولا يقرؤون ما في الكتب. ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ الذي هو التوراة ولا غيره من الكتب.

وقوله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ في قوله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ وجهان معروفان من التفسير عند العلماء^(١): أحدهما تبعه قرينة في نفس الآية.

أما القولان المعروفان: أن المراد بالأمني هنا: جمع (أمنيّة) بمعنى (القراءة). والعرب تطلق (الأمنيّة) على (القراءة)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: (تمنّى) إذا قرأ، ومنه قول حسان^(٢):

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ آخِرَ لَيْلِهِ
تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِشْلِ
وقول كعب بن مالك أو حسان^(٣):

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ^(٤) وَآخِرَهَا^(٥) لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

فمعنى (تمنى): قرأ، وعلى هذا فلاستثناء متصل. وتقرير المعنى: لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ ليس معها تفهم وتدبر لما تحويه الألفاظ من المعاني، ومن لم يكن عنده من علم الكتاب إلا قراءة ألفاظ لا يفهم ما

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٥٩)، القرطبي (٢/٦)، أضواء البيان (١/٧٩).

(٢) لم أفد على من نسب البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في القرطبي (٢/٦)، الدر المصون (١/٤٤٧).

(٣) البيت لكعب بن مالك (رضي الله عنه)، انظر: القرطبي (٢/٦)، الدر المصون (١/٤٤٧).

(٤) في المصادر السابقة: (ليله).

(٥) في المصادر السابقة: (وآخره).

تحتها من المعاني فهذا جاهل لا علم عنده. هذا وجه في الآية، وهو الذي قلنا: إن في الآية قرينة تبعده؛ لأن هذا يدل على أنهم يقرؤون التوراة قراءة ألفاظ لا يفهمون ما تحتها من المعاني، والعبر، والحكم. وقوله في أول الآية: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ يدل على أنهم لا يقرؤون. فكان حمل الأمانى على القراءة فيه شبه مناقضة مع قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾.

الوجه الثاني في الآية الكريمة: أن الاستثناء منقطع، وأن (الأمانى) جمع (أُمنِيَّة)، وهي الأمنية المعروفة، وهي أن يتمنى الإنسان حصول ما ليس بحاصل. وعلى هذا القول فتقرير المعنى: لا يعلمون الكتاب، لكن يتمنون أمانى باطلة صادرة عن جهل لا مبدأ لها من علم، كأن يقولوا: ما عليه محمد وأصحابه ليس بحق، و ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ﴾، ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾، ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تَهْتَدُوا﴾، والدليل على أن هذا من أمانيتهم الباطلة، وأن خير ما يُفسر به القرآن القرآن: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١١١] فصرح (جل وعلا) بأن أمانيتهم من هذا القبيل، كما قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ الآية [النساء: آية ١٢٣] وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا﴾.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (إن) هي النافية. والمعنى: ما هم إلا يظنون، يسمعون عند علمائهم قولاً فيقولونه تقليداً وظناً وجهلاً.

والظن قد قدمنا أنه يُطلق إطلاقين^(١): يطلق على الشك. وهو المراد هنا، وهو المراد في قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: آية ٣٦] وقول النبي ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٢). ومنه

(١) انظر: المفردات (مادة: ظن) ص ٥٣٩، القرطبي (٦/٢)، البحر المحيط (٢٧٦/١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم: (٥١٤٣)، (١٩٨/٩)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم: (٦٠٦٤)، (٦٠٦٦)، (٦٧٢٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، حديث رقم: (٢٥٦٣)، (١٩٨٥/٤).

قوله عن الكفار: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: آية ٣٢] واصطلاح الأصوليين: أن الظن لا يُطلق على الشك؛ لأن الشك نصف الاعتقاد. والظن عندهم جُلُّ الاعتقاد، وما بقي عن الظن من الاعتقاد يسمونه وهماً، هذا اصطلاح أصولي^(١).

أما أهل اللغة العربية فإنهم يطلقون اسم الظن على الشك.

قوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٩] (ويل): كلمة عذاب، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، معناه: هلاك عظيم هائل كائن لهم^(٢).

وقال بعض العلماء: (ويل): وادٍ في جهنم تستعيز جهنم من حرّه.

ولو فرضنا صحّة هذا القول لكان راجعاً إلى الأول.

ولفظه (ويل) تتعدّى باللام ولذا عداه بقوله: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ﴾ وهو مبتدأ خبره جملة: (للذين)، وإنما سَوَّغَ الابتداء بهذه النكرة لأنها مُشَمَّةٌ معنى الدعاء، وقد تقرر في علم العربية: أن النكرة إذا كانت مُشَمَّةٌ معنى الدعاء بخير أو بشر كان ذلك مسوغاً للابتداء بها^(٣)، ومثاله في الدعاء بالخير: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: آية ٦٩] (سلام عليكم) مبتدأ، سوغ الابتداء به أنه في معرض الدعاء، والدعاء بالشر كقوله هنا: ﴿قَوِيلٌ﴾ أي: هلاك عظيم لا خلاص منه للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، فهؤلاء اليهود - قبحهم الله - كانوا يأخذون أوراقاً وقراطيس ينقلون فيها من التوراة، يقولون مثلاً: في المحل الفلاني من التوراة كذا وكذا، ويكتبون أموراً باطلة ليست في كتاب الله، كما يأتي في قوله: ﴿تَجْمَلُونَهُمْ قَرَاتِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: آية ٩١] وهذا

(١) انظر: نشر البنود (٦٢/١ - ٦٣)، نشر الورود (٧٢/١ - ٧٣).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٦٧/٢)، القرطبي (٧/٢)، البحر المحيط (٢٧٦/١).

(٣) انظر: الأشموني (١٥٨/١)، الدر المصون (٤٤٩/١).

الذي يكتبونه بأيديهم في هذه القراطيس كذب مُخْتَلَق على الله (جل وعلا). وهذا الاختلاق والتحريف إنما فعلوه ليتعوضوا به عرضاً من عرض الدنيا، ذلك أنهم لو أخبروا بالواقع لآمن كل الناس، وصاروا تبعاً لا متبوعين، وضاعت عليهم رئاسة الدين، والأموال التي يأخذونها عن طريق الرئاسة الدينية، فصاروا يكتبون أموراً محرّفة مزورة، منها تغيير صفات النبي ﷺ، وغير ذلك. فقال الله فيهم: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ يكتبون الكتاب في تلك القراطيس بأيديهم.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ هذا نوع من التأكيد جرى على ألسنة العرب، فنزل به القرآن؛ لأنه بلسان عربي مبين^(١). نحو: ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ٣٨]، ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] ومعلوم أنهم إنما يقولون بأفواههم. ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٢) (ثم) هذه - كما^(٣) - تدل على الاستبعاد؛ لأن الكتاب إذا كان مُخْتَلَقاً على الله يبعد كل البعد أن يقول الإنسان إنه من عند الله.

ثم بيّن علة افتراءهم وتزويرهم، ودعواهم أن الكتاب من عند الله، وهو ليس من عند الله، بيّن علة ذلك وعلة الغائية المقصودة عندهم بقوله: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ الاشتراء في لغة العرب: الاستبدال، فكل شيء استبدلته بشيء فقد اشتريته، ومن هذا المعنى قول علقمة بن

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٧٢)، القرطبي (٩/٢)، البحر المحيط (١/٢٧٧)، الدر المصون (١/٤٥١)، وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) سئل الشيخ (رحمه الله): هل هناك علة أخرى غير التأكيد يحتملها مثل هذا الاستعمال؟ فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: نعم، ذكر بعض العلماء فيه نكتة غير هذا، وأن المراد بذكر الأيدي التسجيل عليهم حيث اختلقوه وكتبوه بأيديهم ثم نسبوا هذا الذي اختلقوه وكتبوه بأيديهم إلى الله (جل وعلا)، فلو وجدوه مكتوباً قبل هذا لكان الافتراء أخف، فالذي يكتب الشيء بيده ثم ينسبه إلى الله (جل وعلا)، فهذا أبعد؛ فيكون فيه شبه تسجيل زيادة في تقييح فعلهم.

(٣) أي: (أيضاً) كما في اللهجة الدارجة.

عَبْدَةُ التَّمِيمِي (١):

وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ مِمَّا تَضِنُّ بِهِ النَّفُوسُ مَعْلُومٌ (٢)
وقول الراجز (٣):

بُدِلَتْ (٤) بِالْجَمَةِ رَأْساً أَزْعَرَا
وَبِالْثَّنَايَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَرَا (٥)
كما اشترى المسلم إذ تنصرا (٦).....

أي: كما استبدل.

و (الثنى) تطلقه العرب على كل عوض مبدول في شيء تسميه العرب
ثمنًا، ومنه بيت علقمة المذكور آنفًا في قوله:

وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ
وقول عمر بن أبي ربيعة (٧):

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَاً أَوْ أَقَمْتَ لَهَا مَاذَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ الْحَمْدِ مِنْ ثَمَنٍ

ومعنى الآية الكريمة: أنهم يغيرون كلام الله، ويكتبون على الله ما لم
يقُل، ويقولون: إنه من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله

(١) المفضليات ص ٤٠١.

(٢) في المفضليات: (مما يضمن به الأقوام معلوم). وبه يستقيم الوزن.

(٣) انظر: مشاهد الإنصاف (ملحق في آخر الكشف) (٤/٤٠).

(٤) في شواهد الإنصاف: (أخذت).

(٥) في شواهد الإنصاف: (دردرا).

(٦) لم يذكر الشيخ (رحمه الله) صدر هذا البيت وهو في شواهد الإنصاف، ونصه:
(وبالطويل العمر عمرًا حيدرًا).

وهو في الدر المصون (٣/١٧٧)، (٧/٦٧)، (٩/٢٢٩).

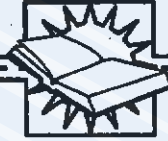
(٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢١٧، ورواية الديوان:

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَاً أَوْ نَعِمْتَ بِهَا فَمَاذَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ الْحَجِّ مِنْ ثَمَنٍ
وهو في السير للذهبي (٦/٣٣٦) مع مغايرة في بعض الألفاظ.

الكذب وهم يعلمون؛ لأجل أن يعتاضوا بذلك ثمنًا قليلًا من عرض الدنيا، وهو ما ينالونه من المال على رئاستهم الدينية.

ثم إن الله قال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك عظيم لا خلاص منه كائن لهم، مبدؤه وسببه مما كتبت أيديهم مُزوراً على الله أنه من عند الله وليس من عند الله، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الرُشا والأموال عوضاً عن ذلك التزوير والافتراء على رب السماوات والأرض، وهذا غاية التهديد والوعيد العظيم حيث قال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: وتقولوه على الله كذباً، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من المال عوضاً عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.





تفسير سورة الأنعام

١/ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
يَتَأْتِيَ اللَّهُ بِمُحَدِّثِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا
وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنزَلَهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كِبَارُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْلَغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي
السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَاطِلِينَ
﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾
[الأنعام: الآيات ٣٣ - ٣٦].

يقول الله جل وعلا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَأْتِيَ اللَّهُ بِمُحَدِّثُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٣].

قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرأه عامة القراء،
ما عدا نافعاً: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ مضارع حَزَنَهُ الأمر - بالثلاثي - يَحْزُنُهُ،
وقرأه نافع وحده: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك﴾ من أحزنه الأمر - بصيغة الرباعي
- يُحْزِنُهُ (بضم الياء)^(١).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ قرأه عامة القراء
ما عدا نافعاً والكسائي: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ بصيغة (التفعيل). وقرأه
نافع والكسائي من بين القراء ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ بصيغة (الإفعال) لا

بصيغة (التفعيل)^(١).

وسبب نزول هذه الآية كما ثبت عن علي (رضي الله عنه) أن الكفار - كفار مكة - كأبي جهل ونظرائه قالوا للنبي ﷺ: نحن لا نكذبك، ونعلم أنك صادق أمين، ولكن هذا الذي جئت به هو الذي نكذبه، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُتَابِعُ اللَّهُ بِحَدُّونَ﴾^(٢).

و(قد) في قوله: ﴿قَدْ تَعْلَمُ﴾ هي للتحقيق^(٣)، أي: لتحقيق علم الله جلّ وعلا.

وما جاء على السنة علماء العربية^(٤) من أن (قد) إذا دخلت على المضارع أنها تكون للتقليل، وأنها تارة تكون للتكثير كـ «ربما»، واستدلوا بأنها تكون تارة للتكثير بقول الشاعر^(٥):

(١) المصدر السابق ص(١٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب تفسير القرآن، باب (٧)، حديث رقم: (٣٠٦٤) (٢٦١/٥)، والحاكم (٣١٥/٢) عن علي رضي الله عنه. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ١. هـ وعقبه الذهبي بقوله: «قلت: ما خرجا لناجية شيئاً» ١. هـ. كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٢/٤)، والدارقطني في العلل (١٤٣/٤)، وأورده السيوطي في الدر (٩/٣) وعزاه للترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والضياء. وأخرجه الترمذي (٢٦١/٥)، وابن جرير (٣٣٤/١١)، والواحدي في أسباب النزول (٢١٦) وابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٢/٤)، والدارقطني في العلل (١٤٣/٤). عن ناجية بن كعب مرسلًا. قال الترمذي: (وهذا أصح) ١. هـ.

وجميع طرق هذا الحديث - بالوصل والإرسال - تدور على أبي إسحاق السبيعي الذي يرويه عن ناجية بن كعب. وأبو إسحاق السبيعي (رحمه الله) قد رُمي بالاختلاط والتدليس كما في التهذيب (٥٧/٨ - ٥٩) وقد عنّعه عن ناجية. وقد ضعف الألباني هذا الحديث (موصولاً ومرسلًا) انظر ضعيف سنن الترمذي ص(٣٧٤) وصححه أحمد شاكر والأرنؤوط. انظر عمدة التفسير (٢٤/٥ - ٢٥)، جامع الأصول (١٣٢/٢).

(٣) انظر الدر المصون (٦٠١/٤).

(٤) في هذه المسألة انظر: البحر المحيط (١١٠/٤)، الدر المصون (٤١٢/١)، (٦٠٢/٤)،

الخزانة (٥٠٢/٤)، البرهان للزركشي (٤١٧/٢)، قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى ص ٤٥.

(٥) البيت لعبيد بن الأبرص وهو في الكتاب لسبويه (٢٢٤/٤)، البحر المحيط (١١٠/٤)،

الخزانة (٥٠٢/٤)، الدر المصون (٤١٢/١).

قد أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُضْفَرًا أَنَامِلُهُ كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفُرْصَادٍ
وقول الآخر^(١):

أخي ثقة لا تُثْلِفُ الخمرُ ماله ولكنه قد يُثْلِفُ المالَ نائلُهُ
قالوا: «قد يُثْلِفُ المالَ» أي يَكْثُرُ من نائله إتلاف المال، وكذلك يكثر
في هذا المفتخر بقتل الأقران: قتل الأقران. كل هذا خلاف التحقيق في
هذه الآية؛ لأن (قد) فيها للتحقيق، يَبَيِّنُ الله لخلقه مُحَقَّقًا لَهُمْ أَنَّ عِلْمَهُ
مُحِيطٌ بِمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُهُ، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ١٨] ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾
[البقرة: آية ١٤٤] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: آية ٩٧] كل هذه
الآيات (قد) فيها قبل الفعل المضارع للتحقيق كما هنا.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ﴾ الضمير في قوله: «إنه» هو ضمير الشأن^(٢)، ﴿قَدْ نَعْلَمُ
إِنَّهُمْ﴾ أي الأمر والشأن، والله ﴿لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾.

وهذا الذي يقولونه، الذي يحزنه، أشارت له آيات أخر، كما بيّن
تعالى أن هذا الذي يقولونه له يحزنه، وأنه يضيق به صدره كما قال: ﴿وَلَقَدْ
نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: آية ٩٧] وبين في سورة هود
أن هذا الذي يضيق صدره مما يقولون له إنه من نوع التكذيب والتعنت كما
قال: ﴿فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ كُتْرٌ﴾ [هود: آية ١٢] يعني: ضائق صدرك؛ لأجل أن يقولوا تكديبا
وتعنتا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه.

وقال بعض العلماء^(٣): هذا الذي يحزنه من كلامهم قولهم له: «أنت

= واصفرار الأنامل هنا كناية عن الموت. والفرصاد: ماء التوت، أي من الدم.

(١) البيت لزهير. وهو في البحر المحيط (١١٠/٤) الدر المصون (٦٠١/٤، ٦٠٢) والمثبت
فيهما: «ولكنه قد يَهْلِكُ».

(٢) انظر الدر المصون (٦٠٣/٤).

(٣) انظر البحر المحيط (١١١/٤).

شاعر، ساحر، كاهن، هذا الذي جئت به أساطير الأولين، لا نقبل دينك»، هذا التكذيب ونسبته إلى أنه ساحر، مجنون، كاهن، هذا الذي يؤذيه ويضيق به صدره، ويحزنه. وقد بين له الله (جلّ وعلا) في آخر سورة الحجر علاج هذا الداء من هذا الذي يقولون له فيحزنه، وبين له أنه إذا أحزنه ذلك القول الذي يقولون أنه يُبادر إلى الصلاة؛ فإن الصلاة يعينه الله بها ويُذهب عنه ذلك الحزن، كما قال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: آية ٤٥].

وقال له في آخر سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: آية ٩٧] فرتب على ضيق صدره بما يقولون - بالفاء - قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: آية ٩٨].

عرفنا أن هذا التسبيح، والصلاة، والإنابة إلى الله هو دواء ذلك الحزن والأذى الذي يناله منهم؛ ولذا كان ﷺ - كما في حديث نعيم بن عمار كان - إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة^(١)، صلوات الله وسلامه عليه، كما دلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٧، ٩٨] أي فدواء ذلك هو ما أمرك ربك به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: آية ٩٨] وقال هنا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هذا الذي يقولونه لك نحن نعلم أنه يحزنك، أي: يورثك الحزن لما يلقونك به من التكذيب، ونسبتهم إياك إلى السحر، والشعر، والكهانة، والجنون، هذا يؤذيه ﷺ، فيضيق به صدره، ومن أشد ما يؤذيه: امتناعهم من الإيمان؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه مجبول على الشفقة، وقد وصفه الله بالرفقة والرحمة بالمؤمنين في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: آية ١٢٨] فمعنى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعزّ عليه ويعظم، ويكبر عليه كل ما يصيبكم منه العنت، وهو المشقة والأذى^(٢) ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ إلى أن قال: ﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كان إذا امتنعوا من الإيمان أسف، وحزن حزناً شديداً، كما قال له الله: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ فَنَسَكَ آلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) انظر تذكرة الأريب لابن الجوزي (٢٢٩/١).

٣] أي: لأجل أن لا يكونوا مؤمنين. و(الباحع) معناه: المهلك^(١)، أي: فلعلك مهلك نفسك أسفاً لأجل أنهم لم يؤمنوا ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: آية ٦] أي حزناً شديداً عليهم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات^(٢)، ولذا قال له الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الَّذِي] موصول، وجملة الموصول ﴿يَقُولُونَ﴾ والضمير العائد إلى الصلة محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، وتقديره: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولونه) فالحاء المحذوفة التي في محل المفعول هي الرابط بين الصلة والموصول.

ثم إن الله قال لنبيه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾^(٣) قال بعض العلماء: معنى القراءتين واحد^(٤)، والعرب تُعْذِي الثلاثي بالتضعيف كما تُعْذِيه بالهمزة؛ كما يقال: «كثرت الشيء» و«أكثرته». وجماهير العلماء على أن بينهما في المعنى فرقاً^(٥)، أن معنى (كذب) ليس معنى (أكذب)، والمقرر في علوم القراءات: أن القراءتين حكمهما حكم الآيتين المختلفتين، فكل منهما تفيد ما تضمنته من الأحكام والمعاني^(٦). أما على قراءة الجمهور: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فالتحقيق أن المعنى: أن الكفار لا يكذبونك.

واعلم أنه معروف في القرآن وفي لغة العرب أن الفعل يُسْتَد إلى المجموع والمراد بعض المجموع لا جميعهم^(٧)، ومما يوضح هذا المعنى

(١) انظر تفسير المشكل من غريب القرآن ص (١٤١)، الدر المصون (٤٤٢/٧).

(٢) راجع الأضواء (١٨٩/٢).

(٣) انظر المبسوط ص (١٩٣).

(٤) انظر حجة القراءات (٢٤٨).

(٥) انظر المصدر السابق (٢٤٧).

(٦) في هذه القاعدة انظر مجموع الفتاوى (٣٩١/١٣ - ٣٩٨، ٢٤٨/١٥، ٣٨١/١٧ - ٣٨٢)، شفاء العليل (٩٦)، البرهان للزركشي (٣٢٦/١)، الإتيان (٢٢٧/١)، أضواء البيان (٨/٢، ١٢٠، ٢٢٦/٦، ٦٨٠).

(٧) في هذا المعنى انظر ابن جرير (٥٠١/١)، (٤٨٥/٢ - ٤٨٧، ٥٠٠)، (٩١/١٦) وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

غاية الإيضاح من القرآن قراءة حمزة والكسائي^(١): ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩١] بصيغة (القَتْل) في الفعلين؛ لأنه لا يُعقل أن الذي قُتل بالفعل يُؤمر بقتل قاتله، ولكن المعنى: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الذي لم يُقتل^(٢). وهذا أسلوب معروف في القرآن وفي غيره. وإذا عرفت هذا فاعلم أن بعض الكفار علموا صدق النبي ﷺ في الباطن، وقلوبهم مُوقنة أنه صادق^(٣)، كما قال أبو جهل - لعنه الله - لما قال له الأخنس بن شريق قال له: أنا وأنت في خلوة، ليس معنا أحد من قريش، فأخبرني عن صحة ما يقوله محمد (صلوات الله وسلامه عليه). فقال له أبو جهل: والله إنني لأعلم أنه صادق، وأنه نبي، والله ما كذب محمد قط ولا يكذب، ولكن كنا نحن وبنو هاشم فرسي رهان، طعموا فأطعمنا، وفعلوا ففعلنا، واليوم يقولون: مِثَا نبي! فمن لنا بهذه؟ والله لا نعترف بنبوته أبداً^(٤)!! ولا شك أن هنالك قوماً من الجهلة يسمعون كلام الرؤساء فيظنون أنه كاذب، ويعتقدون كذبه. إذا عرفتم هذا فقولوه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ راجع إلى الذين علموا صدقه. وكثير من عقلائهم عالم في قرارة نفسه أن النبي ﷺ نبي، وأنه رسول، وهم يجحدون ذلك ظلماً. وعليه فالمعنى: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الحقيقة، فيما بينهم وبين أنفسهم، ولكن الظالمين يجحدون آيات الله التي أنزلت عليه، فلم يعترفوا بأنها من الله، كما قال له أبو جهل: أنت عندنا صادق، ولا نكذبك، ولكن نكذب هذا الذي جئت به^(٥).

أما على قراءة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ف (أَكْذَبَ) بصيغة (الإفعال)

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٢) انظر حجة القراءات ص (١٢٨).

(٣) انظر ابن جرير (٣٣١/١١)، الدر المصون (٦٠٤/٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٣٣/١١)، والواحد في أسباب النزول ص (٢١٦) عن السدي مرسلًا. على أن ذلك كان في يوم بدر.

وروى ابن إسحاق نحوه عن الزهري مرسلًا. على أن ذلك كان في مكة قبل الهجرة.

انظر السيرة لابن هشام (٣٢٨/١ - ٣٢٩)، تفسير ابن كثير (١٢٩/٢).

(٥) مضى قريباً.

تفترق مع (كَذَبَ) بمعنيين^(١)، أحدهما: أن الفرق بين (كَذَبَ) و(أَكْذَبَ): أنك إذا كَذَبْتَ إنساناً، معناه قلت له: كذبت، ونسبته إلى افتراء الكذب. وإذا قيل: أكذب إنساناً إنساناً، معناه: أن كلامه يعتقد أنه كذب، ولا ينسب ذلك الإنسان إلى الكذب، بل يقول: لعله أخطأ، أو نسي، أو سها وهو لا يقصد الكذب أو تخيل له غير الحق. فمعنى «أَكْذَبَ» على هذا: أنه لا يعتمد الكذب، وأنه لا يُنسب إلى الاختلاق والافتراء، ولكن القول الذي جاء به غير مطابق للحق.

الوجه الثاني في قراءة «يَكْذِبُونَكَ»: - وهو الذي عليه الأكثر -: أنه تقرر في فن التصريف أن من معاني «أَفْعَلَ» إذا قلت: أَفْعَلْتُ الرجل، إذا وجدته كذا، تقول: أَحْمَدْتُهُ إذا وجدته حميداً، وَأَبْخَلْتُهُ إذا وجدته في نفس الأمر بخيلاً، وَأَكْذَبْتُهُ إذا وجدته في نفس الأمر كاذباً، وعلى هذه القراءة: إن ظنت نفوسهم أنك كاذب، وكذبوك، وقالوا: إنك كاذب، ساحر، كاهن، فإنهم لا يصادفونك في نفس الأمر كاذباً، فأنت على حق فيما بينك وبين الله، فهوَنَ عليك، ولا تثقل عليك افتراءاتهم.

هذان الوجهان من التفسير في قراءة «يَكْذِبُونَكَ» وقد قدمنا معنى «يَكْذِبُونَكَ».

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ قد قدمنا معنى الظلم^(٢).

﴿يَايَنِّي اللَّهُ﴾ أي الشرعية الدينية ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يجحدونها وينكرون أنها حق.

﴿وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٣٤].

هذه الآية تسلية للنبي ﷺ وتهوين عليه؛ لأنك إذا وجدت إنساناً وقع في مصيبة وبليّة وقلت له: هذه المصيبة التي نزلت بك قد نزلت بإخوان لك

(١) انظر حجة القراءات ص (٢٤٧)، القرطبي (٤١٦/٦)، البحر المحيط (١١١/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

كرام أفاضل، وصبروا عليها، وكان لهم في عاقبة الأمر الظفر والنجاح،
والعاقبة المحموده؛ فإن هذا يهون ويسهل المصيبة على ذلك المبتلي. وقد
نص الله في أخريات سورة هود على أنه يقصص على النبي أخبار الرسل؛
ليهون عليه ويثبت قلبه، وذلك في قوله: ﴿وَكَلَّا تَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا
نُثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: آية ١٢٠] يقول له: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: آية ٤٣] هذا الذي لفيك به قومك لقي الرسل من
قيل قومهم بمثله وأشد، فاصبر كما صبروا، فستكون لك العاقبة الحميدة
كما كانت لهم. وفي هذا أعظم بشارة وأكرم تسلية له ﷺ. واللام في (لقد)
موطئة قسم محذوف. والله لقد كذبت رسل من قبلك، هؤلاء الرسل الذين
كذبوا من قبلك منهم من جاء مفصلاً في هذا القرآن العظيم، كقول قوم نوح
لنوح: ﴿مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ
يَنْتُوخُوا قَدْ جَدَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأُنَادِيكُمُ أَنْ اتَّبِعُوا آلَنا أَمْ تَبْتُغُونَ
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: آية ٣٢]، وقد سخرُوا منه كما قال: ﴿إِنْ
تَسْحَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْحَرُكُمْ﴾ [هود: آية ٣٨]، والمفسرون يقولون^(١):
سُخِّرْتَهُمْ مِنْهُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ السَّفِينَةَ [وتعلم]^(٢) النجارة
صاروا يضحكون، ويقولون: بعد أن كنت نبياً صرت [نجاراً]، وهكذا عاد
قالوا لهود، وثمود^(٣) قالوا لصالح!! قالوا لنبي الله هود: ﴿يَبْهُوتُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيْنَتِنَا وَمَا تَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: آية ٥٣]، وقالوا لصالح:
﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: آية ٦٢] يعني: وأما إذا ادعيت
النبوة، ودعوت إلى عبادة الله فلا رجاء لنا فيك. وهذا جاء مفصلاً عن
الرسل في القرآن العظيم، كتكذيبهم لنوح، وهود، وصالح، ولوط،
وشعيب، وتكذيب فرعون وقومه لموسى وهارون، وما جرى مجرى ذلك،
وهنالكَ رسل لم تُقصص عليه أخبارهم، كما نص الله عليه في سورة

(١) انظر القرطبي (٣١/٩).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة وما بين المعقوفين زيادة ينتظم بها الكلام.

(٣) في هذا الموضع وقع مسح وانقطاع. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها المعنى.

النساء^(١)، وفي سورة المؤمن: ﴿مَنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: آية ٧٨].

وإنما قال: ﴿كَذَبْتَ رَسُولٌ﴾ بقاء التأنيث لما تقرر في علم العربية: أن ثلاثة من الجموع - أعني الجمع المَكْسَرُ مذكراً كان أو مؤنثاً، والجمع السالم المؤنث، كلها تجري مجرى الواحدة المؤنثة مجازية التأنيث^(٢)؛ ولذلك أنث الفعل هنا وقيل فيه: ﴿كَذَبْتَ﴾ وأنث الإشارة إليه لهذا كما قال: ﴿تِلْكَ أَرْسُلٌ﴾ [البقرة: آية ٢٥٣] ونحو ذلك ﴿وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ حذف الفاعل هنا وأنبأ المفعول به منابه؛ لأنه يوضحه. أي كذبهم قومهم فصبروا على ذلك التكذيب والأذى.

﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا﴾ (ما) هنا مصدرية. فصبروا على التكذيب.

وقوله: ﴿وَأُودُوا﴾ فيما يُعْطَفُ عليه وجهان^(٣): أظهرهما أنه معطوف على: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا﴾ أي: فصبروا على التكذيب، وعلى الإيذاء الذي ينالهم من قومهم، حتى جاءهم نصرنا.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأُودُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ فصبروا على ما كذبوا، وصبروا على ما أودوا. و(ما) مصدرية، أي: صبروا على التكذيب والإيذاء حتى جاءهم نصرنا، وهنالك قوم قالوا: الإيذاء لم يتقدم له ذكر حتى يكون الصبر عليه مذكوراً؛ ولذا قالوا: ﴿وَأُودُوا﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: لقد كذب الرسل وأودوا، فصبروا على ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: أن الله من كلماته (جل وعلا) نصره لرسله، وأن العاقبة الحميدة كائنة لهم^(٤)، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: آية ١٦٤].

(٢) انظر: ضياء السالك (٢٥/٢).

(٣) انظر: البحر المحيط (١١٢/٤)، الدر المصون (٦٠٥/٤).

(٤) انظر: القرطبي (٤١٧/٦)، البحر المحيط (١١٢/٤ - ١١٣).

لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمَمَّ الْمَتَّصُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾
 [الصافات: الآيات ١٧١ - ١٧٣] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾
 [المجادلة: آية ٢١] وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: آية ٥١] مثل هذه الكلمات من الوعد الصادق بنصر الرسل، وأن العاقبة لهم، كما قال عن مجموع الرسل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَنَسْجَنَنَّهُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٣، ١٤]
 هذه الكلمات - وغيرها من سائر كلمات الله التي لا نهاية لها كما قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: آية ١٠٩] - لا مبدل لها. والمعنى قال الله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَمَمَّ الْمَتَّصُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾ [الصافات: الآيات ١٧١ - ١٧٣] فليس يمكن لأحد أن يُبدل هذا الخبر ويجعل إيجابه سلباً، فيجعل الرسل مقهورين غير منصورين، لا أبداً، وقس على ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ ومعنى التبديل هو إذهاب هذا والإتيان ببديل غيرها.

﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وعده رُسله بالنصر والعاقبة المحمودة، فتبديل هذا أن ينزع النصر عنهم، ويجعل مكانه غلبتهم وإذلالهم. لا أحد يستطيع هذا التبديل لكلمات الله.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فاعل (جاء) هنا محذوف دل عليه المقام^(١). و(من) في قوله: ﴿مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ تبعيضية، أي: ولقد جاءك بعض أنباء المرسلين؛ لأن الله يقول: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: آية ٧٨] وفي هذا البعض الذي جاءك من أنبيائهم تسليية لك، وتشبيت لك، كما قال: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: آية ١٢٠] ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: آية ٤٣] ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٥].

(١) انظر: القرطبي (٤١٧/٦)، البحر المحيط (١١٣/٤)، الدر المصون (٦٠٦/٤).

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: آية ٣٥].

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ كان النبي ﷺ إذا دعا قومه إلى الإسلام، وعرض عليهم هذا القرآن العظيم بما فيه من الآيات البينات التي لا تترك في الحق لبساً، قابلوه بالرد القبيح والإعراض، أي: التولي والصمود عن دين الله (جل وعلا) وآذوه ﷺ، فبين في هذه الآية أن من أسوأ ما يسوؤه، وأحزن ما يحزنه، ويضيق به صدره إعراضهم وتوليهم عن الحق؛ لما جُبل عليه من الشفقة والرحمة؛ ولذا نهاه الله مراراً عن شدة أسفه وحزنه عليهم^(١)، قال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ [فاطر: آية ٨] لأجل أن لم يؤمنوا فهوّن عليك، وقال له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: آية ٣] ومعنى ﴿بَنِيعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مهلك نفسك بالأسف والحزن؛ لأجل عدم إيمانهم.

و(الباع) في لغة العرب: المهلك^(٢)، ومنه قول غيلان ذي الرمة^(٣):

ألا أيُّ هذا الباعُ الوجدُ نفسَه لشيءٍ نَحَثَه عن يديه المقاديرُ

«الباع الوجد نفسه» أي: المهلك الوجد نفسه.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ﴾ أي: مهلكها.

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأجل عدم إيمانهم، فَهَوّن عليك، وقال له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: آية ٦] وهو شدة الحزن، أي: لشدة الحزن عليهم أن لم يؤمنوا، وقال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ [فاطر: آية ٨] من شدة التأسف على عدم إيمانهم، فَهَوّن عليك. والله يعني بهذا: يعني أنت رسول مهمتك

(١) انظر: الأضواء (١٨٩/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.

(٣) البيت في معاني القرآن للزجاج (٢٦٨/٣)، الدر المصون (٤٤٢/٧).

الرسالة، وقد بلغت، ونصحت، وأدبت كما ينبغي، فهداهم ليس عليك، وحسابهم ليس عليك، فربهم أعلم بهم، هو الذي يُشقي ويهدي، وهو الذي إليه مرجعهم وحسابهم، فَهَوْنٌ عَلَيْكَ، فقد قمت بما عليك: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾؛ ولذا شدد عليه هنا في هذه الآية، قال له: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي شق وعظم عليك ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: صدودهم وتوليهم عما جئت به، وقد أمرتك مراراً أن تترك عنك هذا الحزن، وتعلم أن ما عليك قد أدبته، بلغت ونصحت، وأن هداهم ليس بيدك ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: آية ٤١] ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] قال له هنا: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: شق وعظم عليك وأحزنك^(١) ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: صدودهم عما جئت به. و(الإعراض) مصدر أعرض يعرض إعراضاً، إذا صد وتولى عن الشيء. فكأن الله يقول له: إن عظم وشق عليك وأحزنك صدودهم وتوليهم، وقد نهيتك مراراً عن هذا الحزن، فإن كانت لك طاقة أو قدرة فأت بها، وإن عجزت عن ذلك فاعلم أن ذلك بيد الله، فكل الأمر إليه، وهون عليك؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ﴾ الاستطاعة على الشيء: القدرة عليه.

﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ تطلب.

﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ النفق السَّرْب في بطن الأرض، الذي يكون له وجه من جهة أخرى ينفذ منه الإنسان^(٢)، أن تبتغي سرباً في الأرض [فتغوص]^(٣) به في بطن الأرض؛ لتخرج آية تقهرهم بها، ﴿أَوْ سُلُمًا﴾ أو مصعداً تصعد به إلى السماء^(٤)، حتى تحصل من الأسفل أو من الأعلى آية تقهرهم بها؛ إن قدرت على هذا فافعل. فجواب ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ﴾ محذوف، وتقديره:

(١) انظر: القرطبي (٤١٧/٦).

(٢) انظر: القرطبي (٤١٧/٦)، الدر المصون (٦٠٩/٤).

(٣) في الأصل: فتغوص.

(٤) انظر: القرطبي (٤١٧/٦)، الدر المصون (٦١٠/٤).

فافعل. إن قدرت على ذلك فافعل^(١)، وإن كنت عاجزاً عن ذلك - كما هو الحق - فهون عليك، واعلم أن أمرهم إلى الله، ومصيرهم إلى الله، فهون عليك.

وقوله في صدر هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ المعروف في فن العربية: أن مادة (الكاف والباء والراء) تستعمل في القرآن العظيم، وفي لغة العرب استعمالين، ويتغير شكلها بحسب الاستعمالين^(٢)، إن كانت (كَبُرَ) معناه: أنه عظم وكبر، فهي مضمومة الباء في مضارعها وماضيتها، تقول: «كَبُرَ عليه الأمر»، إذا عظم وشق. ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: آية ٥] ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٣] ومضارع هذه أيضاً: (يكبر) بضم الباء على القياس، كما في قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: آية ٥١] فهذه كَبُرَ يكبر. أما معناها الآخر، وهو (الكِبَرُ في السن)، بأن تقول: «كَبُرَ هذا الغلام في سنه»، فهي مكسورة الباء في الماضي، تقول: (كبر)، بكسر الباء. ولا تقول: (كُبر)، وتقول في مضارعها: (يكبر) بفتح الباء، ولا تقول: (يكبر)، على القياس، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهُمْ إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: آية ٦] لأنه هنا مضارع (كبر) بكسر الباء، (يكبر) بفتحها على القياس، ومنه بهذا المعنى الأخير قول مجنون بني عامر^(٣):

تَعَشَّقْتُ لَيْلَى وَهِيَ ذَاتُ ذَوَائِبَ ولم يبدُ للعَيْنَيْنِ مِنْ ثَدْيِهَا حِجَمَ
صَغِيرِينَ نَرَعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَا إِلَى الْيَوْمِ لَمْ تُكْبَرْ وَلَمْ تُكْبَرْ الْبَهْمَ

هذان معنى (كُبر) و(كبر)؛ لأنهما معنيان مختلفان يتغير المعنى بهما. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

(١) انظر: الدر المصون (٦٠٧/٤)، ضياء السالك (٥١/٤ - ٥٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

الْأَرْضِ ﴿النَّفَق: السرب في داخل الأرض^(١)، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(٢):

ولا لكما مَنجى من الأرض فابغيا بها نَفَقاً أو في السموات سُلماً
ويُجمع النفق على أنفاق، ومنه قول امرئ القيس^(٣):

خَفَاهَنْ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهَنْ وَدَقَّ مِنْ عَشْيٍ مَجْلَبٍ
يعني أخرجهن من جحورهن؛ لأن جحور الحشرات تسمى أنفاقاً، واحدها نفق. والسُّلم: هو المصعد إلى الشيء، معروف في كلام العرب. والسُّلم إلى السماء: المصعد الذي يصعد فيه إلى السماء^(٤). ومنه قول زهير في معلقته^(٥):

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَتَايَا يَنْلُئُهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ
وكل مصعد يصعد فيه الإنسان تسميه العرب سُلماً، ولو كان معنوياً، فالشيء الذي يُرْتَقَى به إلى الأمر - ولو معنوياً غير محسوس - تقول له العرب: سُلِم، ومنه قول الحطيئة^(٦):

الشعر صعب وطويل سُلْمُهُ إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُهُ
زلت به إلى الحضيض قدَمُهُ

(١) مضى قريباً.

(٢) البيت لكعب بن زهير. وهو في البحر المحيط (٤/١١٤)، الدر المصون (٤/٦١٠).

(٣) ديوان امرئ القيس ص (٣٦). وقبله:

ترى الفأر في مستنقع القاع لاجباً على جدد الصحراء من شد ملهب
والمعنى: خفاهن: أظهرهن، يعني الفئران. أنفاقهن: أجحارهن. الودق: المطر. فهو يقول: إن شدة وقع حوافر هذا الجواد على الأرض أوهم الفئران في أجحارهن بأنه وقع مطر شديد فتركت أنفاقها، وخرجت ناجية بأرواحها إلى مرتفعات الأرض.

(٤) مضى قريباً.

(٥) انظر: شرح القصائد المشهورات (١/١٢٢).

(٦) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ص (٢٩١).

وقوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ﴾ هذا الفعل المضارع منصوب؛ لأنه معطوف على فعل منصوب، والمضارع المعطوف على منصوب يُنصب. والأول المنصوب قوله: ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ﴾ فقوله: ﴿تَبْلُغَ﴾ منصوب به (أن). وقوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِتَابَةٍ﴾ قاهرة تقهرهم بها فافعل إن قدرت، وإن لم تقدر على ذلك فهوّن عليك، واعلم أن أمرهم بيد الله، هُذَاهُمْ بيده وحسابهم عليه، فهوّن عليك.

ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ هذا الهدى الذي يؤسفك أن لم يهتدوا هو بيد الله، لو شاء ربك ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ لفعل. والقاعدة المقررة في علم العربية: أن فعل المشيئة إذا قرن بشرط أنه يُحذف مفعوله دائماً^(١)؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه. والمفعول محذوف تقديره: (ولو شاء الله جَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى لجمعهم على الهدى) فغالباً إذا عُلق فعل المشيئة بالشرط حُذف مفعوله لدلالة جواب الشرط عليه، ولم نجده موجوداً في القرآن، ولا في كلام العرب، إلا إذا كان المفعول مصدراً منسباً من (أن) وصلتها، كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ﴾ [الأنبياء: آية ١٧] ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى﴾ [الزمر: آية ٤] لأن الأسلوب الشائع في القرآن هو حذف هذا المفعول، أن يقول: (لو أراد الله لاصطفى ولداً، لو أراد لاتخذ لهواً)، ولكنه هنا أثبت المفعول، وهو مصدر منسب من (أن) وصلتها. ونظيره في إثبات المفعول - وهو مصدر منسب من (أن) وصلتها - قول الشاعر^(٢):

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُهُ عليك ولكن ساحة الصبر أوسعُ

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾ جميعاً ﴿عَلَى الْهُدَى﴾، والهدى هنا بمعناه الخاص؛ لأننا قدمنا في هذه الدروس - في

(١) انظر: الإتقان (١٧٢/٣ - ١٧٣)، الدر المصون (١٨٣/١، ٦١٤/٤).

(٢) البيت للخرمي، وهو في الكامل للمبرد (١٣٦٢/٣)، تاريخ دمشق (٢٠٢/٨).

الكلام على سورة الفاتحة - أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقين: يطلق إطلاقاً عاماً، ويطلق إطلاقاً خاصاً، أما الهدى بمعناه العام: فهو إبانة الطريق، وإيضاحها، وتوضيح الخير من الشر. ومنه بهذا المعنى في القرآن: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فِهْدَيْتَهُمْ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: أوضحنا لهم طريق الخير والشر بيّنة على لسان نبينا صالح. وليس هذا الهدى (هدى توفيق)، وإنما هو (هدى بيان) فقط بدليل قوله: ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: آية ١٧] فتبين أن قوله: ﴿فِهْدَيْتَهُمْ﴾ ليس (هدى توفيق)، وإنما هو (هدى بيان) وإيضاح للحق من الباطل، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: آية ٣] لأن معنى قوله: ﴿هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له طريق الخير والشر، وأوضحنا له ما يتقى وما يفعل، بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ [الإنسان: آية ٣] لأنه لو كان (هدى توفيق) لما فصله بقوله: ﴿وإِنَّمَا كَفُورًا﴾ ومن إطلاق الهدى بمعناه الخاص قوله في النبيين الذين ذكرهم في الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهْدَتُهُمْ اقْتَدَوْهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وهو بمعناه الخاص: التوفيق إلى ما يرضي الله.

وإذا علمتم أن للهدى إطلاقين: إطلاقاً عاماً، وإطلاقاً خاصاً^(١)، وأن إطلاقه العام معناه الهدى بمعنى البيان، والإرشاد، وبيان الحق وإيضاحه، وأن معناه الخاص هو تفضل الله بالتوفيق على عبده، وأن يهديه إلى طريق الخير، كما قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٢٥] أي: بهذا الهدى الخاص ﴿يَنْشَرْحَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

بهذا التفصيل تزول عنكم إشكالات في كتاب الله؛ لأن الله مثلاً قال لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] وقال له في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: آية ٥٢] فيقع فيه لطالب العلم أن يقول: كيف قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] وقال

(١) انظر: شفاء العليل ص (٦٥)، دفع إيهام الاضطراب ص (٧ - ٨) (ملحق بآخر الجزء التاسع من أضواء البيان).

له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: آية ٥٢]؟

والجواب عن الآيتين: هو ما بينا الآن أن للهدى إطلاقاً عاماً، وإطلاقاً خاصاً، فالهدى المثبت له في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: آية ٥٢] هو الهدى العام، وهو بيان الطريق وإيضاحها. وقد بين ﷺ الطريق حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما الهدى المنفي عنه في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] فهو التفضل بالتوفيق؛ لأن التوفيق بيد الله وحده ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ الآية [المائدة: آية ٤١]. وقوله: ﴿إِنْ نَحَرَصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] وفي القراءة الأخرى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾^(١) أي: من يضلّه الله لا يهدي، لا هادي له أبداً. إذا عرفتم هذا فقولوه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: آية ٣٥] يعني به الهدى الخاص والتوفيق، أما الهدى العام فقد بين لهم النبي ﷺ، وهداهم، وأرشدهم إلى طريق الخير.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٣٥] والجاهلون: جمع الجاهل، فهو اسم فاعل الجهل، وكلام العلماء في (الجهل) وفي تفسيره معروف^(٢)، أشهر تفسيراته: أن الجهل عدمي، وأن المراد به عدم العلم بما من شأنه أن يُعلم.

وهذه الآية وأمثالها في القرآن يخاطب الله بها نبيه ﷺ ليُشرع على لسانه لخلقه؛ لأن النبي ﷺ مُشرع، يخاطبه الله خطاب السيد لعبده؛ ليُشرع على لسانه لخلقه.

(١) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب. انظر: المسبوط لابن مهران ص (٢٦٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

ثم إن الله بيّن لنبيه ﷺ أن عدم هداهم الذي كان يحزنه ويؤسفه/ أنه لا يهتدي إلا من جعله الله قابلاً لذلك الهدى، لا من أضله الله وأمات قلبه - والعياذ بالله - ولذا قال بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٦] أي: لا يجيبك إلى ما تطلب وتدعو من الهدى، إلا الذين يسمعون، أي: جعل الله لهم سماع حق وتفهم يسمعون به عن الله، أما الذين [أعمى] ^(١) الله أبصارهم، وختم على آذانهم فلا يجيبونك أبداً، فلا تحزن عليهم، فليس فيهم حيلة؛ لأن ربهم قضى عليهم بالشقاء الأزلي؛ ولذا قال هنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ أي: يستجيب لك، ويجيبك فيما تدعوه إليه من الإسلام ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم بأن وفقهم الله، وأعطاهم سماع تفهم يفهمون به ويقبلون، أما الذين لم يعطهم الله سماع تفهم فهم صم وإن كانوا يسمعون، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيٌّ﴾ [البقرة: آية ١٨] صرح بأنهم (صم) وأنهم (بكم) وأنهم (عمي)، ومع ذا يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ لَخْوَفُ سَلْقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: آية ١٩] كيف يسلق بالأسنة حداد من هو أبكم؟ وقال: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٤] أي: لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ومعنى هذا: أن الله أصمهم عن سماع الحق، وعن الدين، وعمّا ينفعهم عند ربهم، وإن كانوا يسمعون غيره، وكذلك جعل ألسنتهم بكماً عن النطق بالقول فيما يرضي الله، وبما ينفعهم عنده، وإن نطقوا بغيره.

ومن أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: أن الشيء إذا كان قليل الجدوى أطلق عليه: لا شيء ^(٢). فأسماعهم لما لم يفهموا بها عن الله، وأبصارهم لما لم يبصروا بها ما يرضي الله، وقلوبهم لما لم يعقلوا بها بما يرضي الله، صارت كلها كأنها عدم؛ ولذا أطلق عليهم اسم الصمم؛ لأن

(١) في الأصل: أصم.

(٢) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص (٣١٠)، مجموع الفتاوى (١٥٥/٢٥ - ١٦٠)، البرهان (٣٩٥/٣)، فتح الباري (٦١/٢، ٢٤١)، (٢٠٨/٩)، الإتيقان (٢٣١/٣)، الكلبيات (٨٩٠)، القواعد الحسان ص (١٣٤).

سمعهم لم ينفعهم^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] فمعلوم في لغة العرب أن السماع الذي لا جدوى له تُطلق العرب عليه: لا شيء، وتسمي صاحبه أصم^(٢). وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول قعنب بن أم صاحب^(٣):

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
فسماهم (صمًا) وهو يقول: (إذا سمعوا خيراً) فأطلق عليهم الصمم مع أنه صرح بأنهم يسمعون. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر^(٤):

قل ما بدا لك من زُورٍ ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء
يعني: حلمي لا يبالي بما تقول، وإن كانت أذني تسمعه؛ ولذا قال هنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم أحياء يسمعون عن الله سماع تفهم.
ثم قال: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الموتى جمع (المَيِّت) ومثل (مَيِّت) يُجمع على (موتى)، وقد يطرد الجمع على (فَعْلَى) في كل (فَعِيل) إذا كان يُرثى له. وكذلك (فَعِيل)^(٥) و(فَعِل) ك(مَيِّت وموتى) و(زَمِن وزمى)، هذا

(١) انظر: الأضواء (٤٩/١)، دفع إيهام الاضطراب ص (١٢) (ملحق في آخر ج (٩) من الأضواء).

(٢) انظر: المفردات (مادة: صمم) ص (٤٩٢)، دفع إيهام الاضطراب ص (١٢).

(٣) البيت في معاني القرآن للزجاج (٣٠٣/٥)، القرطبي (٢٦٩/١٩)، الدر المنصور (٧٣٢/١٠).

(٤) أنشده ثعلب في مجالسه (٣٧٨/٢)، وهو في كتاب الحيوان للجاحظ (٣٩٠/٤)، واللسان (مادة: صمم) (٤٧٦/٢).

(٥) قال ابن هشام في تعداد أبنية الكثرة: «السابع»: «فَعْلَى» بفتح أوله وسكون ثانيه. وهو لما دل على آفة من (فَعِيل) وصفاً للمفعول، كجريح وأسير. وحِيل عليه ستة أوزان مما دل على آفة من (فَعِيل) وصفاً للفاعل، كمرىض، و(فَعِل) كزَمِن، و(فَاعِل) كهالك، و(فَعِيل) كمَيِّت، و(فَاعِل) كأحمق، و(فَعْلان) كسكران. اهـ أوضح المسالك (٢٦٠/٣).

على الأكثر، أما في (فَعِيل) بمعنى (مفعول) إذا كان يُرثى لصاحبه فتطرد فيه: (فَعَلَى).

وأطبق العلماء على أن المراد بالموتى هنا: الكفار. لا يكاد يختلف في هذا اثنان من علماء التفسير^(١). كأنه يقول: إنما يستجيب الأحياء الذين يسمعون، كما قال له: ﴿لَتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآية ٧٠] وفي القراءة الأخرى: ﴿لَتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾^(٢) أي: الذي له حياة، أما الميت: الذي أَمَاتَ الله قلبه.

وكثيراً ما يطلق القرآن اسم (الميت) على (الكفر)، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] وكقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: آية ٢٢] يعني بالأحياء: المؤمنين، وبالأَمْوَات: الكفرة؛ لأن الكافر - والعياذ بالله - كأنه ميت؛ لأن حركات حياته لم تكن في شيء ينفعه عند ربه - جل وعلا - في حياته الأخرى، فصار ميت القلب كأنه ميت بالكلية؛ ولذا قال: ﴿وَالْمُوتَى﴾، أي: الكفار الذين ختم الله على قلوبهم، وأَمَاتَ قلوبهم، لا حيلة في إيمانهم، فلا تحزن عليهم، ولكن هُوْنٌ عليك، فحسابهم إلى الله، وهداهم عليه، الله هو الذي أضلهم في الدنيا، ويوم القيامة يبعثهم، ثم إليه يرجعون، فيجازيهم على أعمالهم. فهداهم بيده، وشقاؤهم بيده، وحسابهم إليه. وأنت إنما أنت نذير، وقد بلغت ونصحت، وأدبت الأمانة، فقمتم بما عليك، وهُوْنٌ عليك. ولذا قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٦].

والعرب تطلق (استجاب) بمعنى: (أجاب). والمعنى: ﴿يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يجيبونك إلى ما تدعوهم إليه. ولا شك عند العلماء في

(١) انظر: ابن جرير (٣٤١/١١)، القرطبي (٤١٨/٦)، الأضواء (١٨٩/٢).

(٢) الأولى قرأ بها نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب.

والثانية قرأ بها أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. انظر: المبسوط لابن مهران (٣٧٢).

إطلاق (استجاب) بمعنى (أجاب)^(١). ومن الدليل عليه أن العرب الفصحاء نطقوا بما يدل على ذلك، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي^(٢):

وداع دعا يا مَنْ يُجِيبُ إلى الندى فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبٌ

فجاء به (المجيب) اسم فاعل (لم يستجبه)، فعرّفنا أنه أراد به (لم يستجبه): لم يجبه مجيب. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ الذي يجيبك إلى ما تدعو إليه، ويؤمن بك الإيمان الذي تطلب ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الأحياء الذين لهم سمع يفهمون به عنك ﴿وَالْمَوْتَى﴾ أي: الكفار الذين ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، فإنك لا يمكن أن تُسمعهم؛ لأنهم موتى، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الْكَلْبَ إِذَا وَلَّىٰ مَدْبِرِينَ﴾ [النحل: آية ٨٠] ولذا قال: ﴿يَعْبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: من قبورهم يوم القيامة إلى الجزاء.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ قد تقرر في فن المعاني في مبحث القصر، وفي فن الأصول في مبحث دليل الخطاب - أعني مفهوم المخالفة - أن من الصيغ الدالة على الحصر: تقديم المعمول^(٣). وقد قدّم المعمول هنا، وهو الجار والمجرور إيداناً بالحصر. ثم يرجعون إليه وحده؛ لأنه ليس هناك عدة ملوك يرجع بعض الناس إلى واحد ليحاسبه، وبعض إلى واحد ليحاسبه. بل هو الملك الواحد القهار، الذي إليه مرجع الجميع؛ ولذا قدّم المعمول فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَائِدَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ مَائِدَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٧].

﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار - كفار مكة - هم الذين قالوا هذا القول^(٤).

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ اعلم أولاً: أن (لولا) جاءت في القرآن العظيم لثلاثة

(١) انظر: الدر المصون (١/١٥٩)، (٢/٢٩١)، (٤/٥٠٠).

(٢) البيت في المصدر السابق (١/١٥٩).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/١١٨).

معان معروفة في القرآن العظيم، وفي كلام العرب^(١):

الأول: من هذه المعاني الثلاثة: (لولا) المعروفة بأنها تأتي لامتناع لوجود، وهي التي تدل على امتناع شيء لوجود شيء، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧) انتفى ميسر العذاب العظيم لوجود فضل الله ورحمته.

هذه التي يقال فيها إنها تدل على امتناع لوجود، وخبر مبتدئها محذوف دائماً في الأغلب^(٢).

الثانية: هي (لولا) التي بمعنى التحضيض^(٣)، وهذه تنقسم قسمين. ومنها كانت (لولا) مشتركة بين ثلاثة معانٍ. لولا التحضيضية إنما تدل على التحضيض، والتحضيض معناه الطلب بحثٌ وحضٌ، ومنه هذه التي عندنا. (لولا) أي: نطلب منك بعض وحث أن تنزل عليك آية مثل آية موسى التي جاءت، صارت عصاه ثعباناً مبيناً، وكآية صالح التي خرجت له ناقة عشراء جوفاء، وبراء، من صخرة، وما جرى مجرى ذلك، وكآية عيسى الذي يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ، والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وما جرى مجرى ذلك، وهذا طلب منهم وتحضيض، وهو طلب بحثٌ وحضٌ، إلا أنه طلب عناد وتعنّت.

الثالث من معاني (لولا)، لم نتكلم عليه الآن، وهو أن (لولا) التحضيضية - ومعنى التحضيضية: أنها دالة على تحضيض، والتحضيض: هو طلب الفعل بحثٌ وحضٌ - لها حالتان: تارة يكون فعلها المطلوب بها ممكن الفعل لم تَضِعْ فرصته، فهذه هي التحضيضية، كالتي عندنا. وتارة

(١) وذكر لها ابن هشام معنى رابعاً في (مغني اللبيب ٢/١٦٦) وهو: الاستفهام. وعقبه بقوله: «وأكثرهم لا يذكره» أ.هـ.

(٢) انظر: المفردات (مادة: لولا) (٧٥٣)، الكليات ص (٧٨٧ - ٧٩٠)، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٥٨)، مغني اللبيب (١/٢١٥).

(٣) انظر: المفردات (مادة: لولا)، وانظر الكليات ص (٧٧٧، ٧٨٨ - ٧٩٠)، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٥٨) مغني اللبيب (١/٢١٦).

يكون فعلها المطلوب فيها بأداة الطلب التي هي حرف التحضيض - أعني (لولا) - فات ولم يمكن تداركه؛ لأن فرصته ضاعت ولم يمكن تداركه. فإن التحضيضية في هذه الحالة ينقلب معنى تحضيضها إلى توبيخ وتنديم على التفريط فيما مضى^(١)، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا ءَامَنُوا﴾ [يونس: آية ٩٨] فتلك القرى الماضية هلكت ومضت، إلا أن توبيخ الله لها، وتنديمه لها بعد أن ماتت ليعتبر به غيرها، وكما قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ [النور: آية ١٦] لأن الفرصة فاتت عليهم؛ لأنهم تكلموا بما لا يليق، فصارت (لولا) التحضيضية في شأنهم يُراد بها التوبيخ والتنديم على التفريط فيما مضى.

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْ زَيِّفٍ﴾ يعنون: يكون مبدأ إنزالها وابتدأه من ربه، ينزل عليه آية لا لبس في الحق معها، كعصا موسى، وناقة صالح، وما جرى مجرى ذلك. فالله أمر نبيه أن يقول، قل لهم يا نبي الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ ءَايَةً﴾.

ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن طلبهم للآية بأداة التحضيض التي هي ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ أنه نشأ عن جهل لا عن علم، ولو كانوا عالمين لما تعنتوا، ولما اقترحوا هذا الاقتراح، وذلك من أوجه^(٢):

منها أن الله (جل وعلا) أجرى العادة بأن القوم إذا اقترحوا آية، وأنزلها الله لهم، وكفروا بعد ذلك أن الله يهلكهم هلاك الاستئصال، كما يأتي في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَايَاتُنَا مَوْدُ الْتَأَفَّةٍ مُّبِينَةٍ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] أي: وهي الآيات التي اقترحوها فكفروا بها، فكان ذلك سبب هلاك مستأصل، وتدمير عام أهلهم الله به، وجعلهم أثراً

(١) انظر: الكليات ص (٧٨٨ - ٧٩٠، ٩٥٨)، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٥٨)، مغني اللبيب (٢/١٦٦).

(٢) انظر: الأضواء (٢/١٩٠).

بعد عين. فقد يقترحون آية، ويأتهم الله بها، فيكفرون بها فيمحقهم كما محق
ثمود، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا
الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] اقترحوها عناداً وتعتناً، فلما أتوا بها كفروا بها،
فكانت سبباً لهلاك مستأصل. وقد ذكروا في بعض المواضع من القرآن أن
الكفار قالوا للنبي: «سل ربك يجعل لنا الصفا ذهباً». وتعتنوا بأمور كثيرة،
وأنه جاءه التخيير من ربه إن شاء فعل لهم ما اقترحوا، وإن كفروا أهلكتهم،
وإن شاء تركهم، وهدى من يهدي منهم ومن أصلابهم؛ ولذا قال: ﴿قُلْ إِنْ
اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ واعلموا أن الله تبارك وتعالى أنزل على عبده آيات
ومعجزات عظيمة، لا لبس في الحق معها، فلو كان طلبهم للآية طلب
مسترشد يريد الهدى غير متعنت لأعطاهم الآية، ولكن الله أعطاهم من الآيات
ما لا يبقى في الحق معه لبس، فتركوه وسألوا ذلك عناداً.

وأعظم الآيات وأكبر المعجزات هو هذا القرآن العظيم الذي تحداهم الله
به، وكان عجز الخلق عن معارضته أكبر آية عظمى؛ ولذا أنكر الله على من
لم يكتف بمعجزة القرآن وطلب آية غيرها حيث قال منكرأ عليه: ﴿أَوَلَمْ
يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ٥١] فقلوه:
﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ صيغة إنكار، ينكر الله به على من لم يكتف بهذا القرآن؛
لأنه آية أعظم آية.

ومما امتازت به عن الآيات: أن آيات الرسل ومعجزاتهم تنقضي،
وتكون أخباراً لا وجود لها في العيان، وآيته ﷺ الكبرى وهي هذا القرآن
العظيم باقية تتردد في أذان الناس إلى يوم القيامة؛ ولذلك أشار النبي ﷺ في
الحديث الصحيح [إلى] (١) حصر معجزاته في هذا القرآن، وإن كانت
معجزاته كثيرة لا تحصر لكثرتها، حيث قال في الحديث الصحيح: «ما من
نبي من الأنبياء إلا أوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته
وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (٢) ولذا قال

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول=

هنا لما اقترحوا هذه الآية، اقترحوها عناداً لا استرشاداً وطلباً للهدى، مع أنهم جاءهم من الآيات ما يكفي، والناس عاينوا من معجزاته ﷺ أشياء تبهر العقول، كشق القمر^(١). وتسبيح الحصى في يده^(٢)، وكحنين الجذع في هذا المسجد لما تحول عنه إلى المنبر، سمعوه يحن حنين العشار، ولم يسكت حتى جاءه ﷺ يسكته كما تسكت الأم ولدها^(٣). ومعجزاته صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جداً، ولكن أعظمها القرآن؛ ولذا حصرها فيه بقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً

= ما نزل. حديث (٤٩٨١) (٣/٩)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث رقم: (٧٢٧٤) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. حديث (١٥٢) (١٣٤/١).

(١) قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقَّ الْقَمَرِ﴾ [القمر: آية ١] وقد روى واقعة انشقاق القمر جماعة من الصحابة منهم:

١ - ابن مسعود عند البخاري، الأحاديث: (٣٦٣٦، ٣٨٦٩، ٣٨٧١، ٤٨٦٤، ٤٨٦٥)، ومسلم، حديث (٢٨٠٠).

٢ - أنس بن مالك. عند البخاري، الأحاديث (٣٦٣٧، ٣٨٦٨، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨)، ومسلم، حديث (٢٨٠٢).

٣ - ابن عباس. عند البخاري، الأحاديث (٣٦٣٨، ٣٨٧٠، ٤٨٦٦)، ومسلم، حديث (٢٨٠٣).

٤ - ابن عمر. عند مسلم، حديث (٢٨٠١).

(٢) ذكره البخاري في التاريخ الكبير (١٤٤/٨) في ترجمة الوليد بن سويد. وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٣٥/٣ - ١٣٦) حديث (٢٤١٣، ٢٤١٤)، وساق له الدارقطني في العلل (٢٤٢/٦) عدة طرق، وعقبه بقوله: «والحديث مضطرب» أ. هـ كما أخرجه البيهقي في الدلائل (٦٤/٦ - ٦٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨٠٦/٤ - ٨٠٧). والحديث ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٠١/١ - ٢٠٣)، والهيتمي في المجمع (١٧٩/٥، ٢٩٩/٨).

قال الحافظ في الفتح (٥٩٢/٦): «وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها» أ. هـ.

(٣) أخرجه البخاري من حديث جابر، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، حديث (٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، (٣٩٧/٢).

كما أخرجه أيضاً من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) حديث (٣٥٨٣).

يوم القيامة». ولذا أنكر الله على من لم يكتف بهذا القرآن العظيم حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ٥١] وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: آية ٣٧] ولأجل تعنتهم وعدم علمهم بأن الآيات إذا أتت بها من اقترحها ثم كفر جاءه العذاب المستأصل، كان طلبهم للآية طلب جهلة متعنتين لا يتأملون في العواقب؛ ولذا قال الله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أكثرهم الذين لا يعلمون هم الذين تعنتوا واقترحوا وطلبوا هذه الآيات؛ لأن عندهم تعنتات كثيرة، كما ذكره الله عنهم في آيات كثيرة من كتابه، كقوله في أخريات سورة بني إسرائيل: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ﴾ [٩٠] ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ - ٩٢] يعنون قوله: ﴿إِن شَأْنًا فَخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: آية ٩] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ سَائِلًا أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّهِ﴾ يعنون بالزخرف الذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِزُفْرِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ﴾ [الإسراء: الآيتان ٩٢، ٩٣] هذه تعنتاتهم، ومن هذه التعنتات: اقترحهم للآيات، فأخبرهم أن ربه قادر على أن ينزلها، ولكن إنزالها لا خير لهم فيه، أولاً هو تعنت لا يُراد به الحق، ولو أنزلها لكفروا فأهلكهم كما أهلك من كفر قبلهم، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] وقد أتاهم من المعجزات بما فيه الكفاية، ولا يبقى في الحق معه لبس. أما التعنتات فلا داعي للإجابة فيها؛ ولذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٧].

(١) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: (تَفْجُر) بضم التاء، وفتح الفاء، وتشديد الجيم مكسورة.

وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، ويعقوب، وخلف (تَفْجُر) بفتح التاء، وسكون الفاء، وضم الجيم خفيفة. انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٧١).

/ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلِك رَّبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا عَنْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسْئَلِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَآهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا فَتَرُكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٣٨ - ٤١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلِك رَّبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٨].

قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أصله: وما دابة في الأرض. وإنما زيدت قبله (من) في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لتثقلها زيادة (من) من الظهور في العموم، إلى التنصيص الصريح في العموم. فقد تقرر في الأصول: أن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم^(١). إلا أنها تكون ظاهرة في العموم، فإذا زيدت قبل النكرة لفظة (من) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم^(٢). فلو قيل: «وما دابة في الأرض» كانت الصيغة ظاهرة في العموم. ولما أكد شمول النفي بـ(من) وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ نقلتها زيادة (من) من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم. والمراد بالعموم: شمول النفي لكل دابة^(٣). أنه ما دابة في الأرض، ولا طائر يطير إلا أُمَمٌ أمثالكم.

واعلم أن زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي لتثقلها من الظهور في العموم، إلى التنصيص الصريح في العموم، تطرد في القرآن وفي اللغة

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: شرح تنقيح الفصول (١٨٢، ١٩٤)، شرح الكوكب المنير (١٣٨/٣)، البرهان للزركشي (٤٢١/٤)، الكليات (٨٤٠)، المحلي على الجمع (٤١٤/١)، الفتح (٨٨/١)، الأضواء (١٠/١)، (٣٦/٢)، (٢٨٩/٣)، (١٧٢/٤)، (٢٧٨)، (٦٦٠/٦)، (٦٥١/٧).

(٣) انظر: البحر المحيط (١١٩/٤).

العربية في ثلاثة مواضع^(١):

الأول: أن تُزاد قبل المبتدأ، كما هنا؛ لأن الأصل: وما دابةٌ. و(دابة) مبتدأ سوَّغ الابتداء فيه بالنكرة اعتمادها على النفي قبله.

الثاني: زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي إذا كانت النكرة فاعلاً. نحو: ﴿مَّا أَنتَهُم مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ [القصص: آية ٤٦] أصله: (ما أتاهاهم نذير) فاعل زيدت قبله (من).

الثالث: أن تزداد قبل المفعول، نحو: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥] الأصل: ما أرسلنا من قبلك رسولاً.

فزيدت (من) فتحصَّل أن (من) إذا زيدت قبل النكرة في سياق النفي نقلتها من الظهور في العموم إلى التنقيص الصريح في العموم. وأنها تُزاد قبل النكرة باطراد في ثلاثة مواضع: قبل المبتدأ، وقبل الفاعل، وقبل المفعول.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: إنما خض دواب الأرض دون دواب السماء - مع أن في السماء دواباً أيضاً، كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: آية ٢٩] - لتهوين أمرهم؛ لأنه أراد أن يُبين - لما قال الكفار: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ - أنه لا يُهمَل شيئاً، وهو قائم بمصالح دواب الأرض التي هي من أحقر الأشياء، فكيف يهمل مصالح آدميين^(٢)!! ولو كان لكم في الآية المقترحة فائدة لأتاكم بها.

وقال بعض العلماء: عُبرَ لهم بما عرفوا في الأرض، وترك غيره؛ لأنهم لم يعرفوه، فأريد مخاطبتهم بما علموا^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قال بعض

(١) انظر: ضياء السالك (٢/٢٨٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٣٤٤)، البحر المحيط (٤/١١٩).

(٣) انظر: القرطبي (٦/٤٢٠).

العلماء: إذا كان الطير نازلاً يمشي في الأرض فقد يصدق عليه اسم (الدابة) لدبيته في الأرض، وإذا طار في جو السماء قابضاً وصافاً لم يصدق عليه في ذلك الوصف اسم الديب، وإنما يصدق عليه أنه يطير بجناحيه لا يدب برجله.

وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: ما الفائدة وما الحكمة في قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ ومعلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه؟

الجواب عن هذا السؤال عند العلماء من أوجه منها^(١): أن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادة العرب هذا النوع من التوكيد، نحو: (قال لي هذا بفيه)، و(مشى إلي برجله)، ومنه في القرآن: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، وكقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١١] ومعلوم أن القول بالفم واللسان وما جرى مجرى ذلك.

القول الثاني: أن مادة (الطاء والياء والراء) - مادة (الطيران) - قد تطلقها العرب على الإسراع بالرجلين، لا بالجناحين. وقد تقول لعبدك: «طر يا غلام في حاجتي». تعني: أسرع، وفي الحديث في مدح المجاهد: «إذ سمع هبة طار إليها»، أي: أسرع إليها^(٢). وفي شعر الحماسي، بيته المعروف^(٣):

(١) انظر: ابن جرير (٣٤٩/١١)، القرطبي (٤١٩/٦)، البحر المحيط (١١٩/٤)، الدر المصون (٦١١/٤) وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط حديث (١٨٨٩)، (١٥٠٣/٣).

(٣) البيت لقريط بن أنيف. وهذا هو الشطر الثاني من البيت، وشطره الأول قوله:

قوم إذا الشر أبدى نأجذيه لهم
وهو في المفردات (مادة: طير) ص (٥٢٩)، اللسان (مادة: طير) (٦٣٥/٢)، الدر المصون (٦١٢/٤).

..... طاروا إليه زرافات ووحدانا

وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول قعنب بن أم صاحب^(١):

صُمْ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا
إِنْ يَسْمَعُوا سُبَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مَنِ وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

ولما كان يكثر في لغة العرب [إطلاق]^(٢) الطيران على الإسراع بالرجلين، قد يكون لقوله: ﴿يَجْنَحِيوْا﴾ فائدة؛ لتُخْرَجَ من الإسراع بغير الجناحين كما ذكرنا. وكان بعض العلماء يقول: قد يكون بعض ما يطير يطير بأكثر من جناحين، كما قال في الملائكة: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةَ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحٌ مَّثْنَىٰ وَثُلَّةٌ ۖ وَرُبُّكُمْ﴾ [فاطر: آية ١] قالوا: هنالك من الملائكة من يطير بأربعة أجنحة؛ ولذا احتُزَّ عن ذلك بقوله: ﴿يَجْنَحِيوْا﴾.

وأظهر الأقوال هو ما صَدَّرنا به: أن هذا الأسلوب معروف في كلام العرب، كقوله: «قاله لي بفيه»، و«مشى إلي برجله»، و«كتبْتُ له بيدي»، و«طار الطائر بجناحيه»، ومنه: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] وما جرى مجرى ذلك و﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَسْأَلُكُمْ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا أُمٌّ﴾ سؤال، وهو أن يُقال: أفرد الله هنا الدابة، قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ بلفظ (دابة) واحدة و﴿وَلَا طَائِرٌ﴾ بلفظ (طائر) واحد. فكيف يجمعهم على أم ويقول: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَسْأَلُكُمْ؟﴾

والجواب^(٣): في هذا واضح؛ لأن قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا طَائِرٌ﴾ كلاهما نكرة في سياق النفي، تعم كل دابة، كائنة ما كانت، وكل

(١) البيت الأول تقدم عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام، والبيت الثاني ذكره ابن جني في المحتسب (٢٠٦/١) وهو أيضاً في الدر المصون (٢٤٤/٤).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: البحر المحيط (١٢٠/٤)، الدر المصون (٦١٢/٤).

طائر يطير بجناحيه كائناً ما كان، فالمعنى عام؛ ولذا قال في مثل هذا: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: آية ٢٧] أفرد اسم الضامر وقال: ﴿يَأْتِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بمعنى: ضوامر كثيرة، وكذلك ﴿مِمَّا مِنْ دَابَّةٍ﴾ بمعنى: دواب كثيرة ﴿وَلَا طَلِيرٍ﴾ يعم طيراً كثيراً؛ ولذا قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ اختلف العلماء في مثلية هذه الأمم للآدميين على أقوال متعددة^(١)، بعضها حق. وحاصل هذا أن الله صرح بأن الدواب بأنواعها: بأنواع الوحوش، وأنواع السباع، وأنواع الطيور، كل نوع من هذه الأنواع أمة من الأمم التي خلق الله، أمثال الآدميين؛ لمشابهات بينها وبين الآدميين؛ لأن كلاً من الجميع مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه، مرزوق يحتاج إلى خالق يرزقه ويدبر شؤونه. والكل مضبوط في كتاب: أوصاف الجميع، وآداب الجميع، وصفات الجميع، ومقاديرهم، وألوانهم، إلى غير ذلك. ومما يكون من تلك المماثلة: أن الجميع يحشرون إلى الله، كما قال هنا: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ونص على ذلك في التكوير في قوله: ﴿وَلَا أَلْوَحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: آية ٥] فلما كانوا أمماً وأجناساً يعرف بعضها بعضاً، وتُسافِدُ ذكورها إناثها فيتناسلون، وهذا أب، وهذا أم، والكل مرزوق، يرزقه رازق، يدبر شؤونه، وقَدَّرَ أرزاقه، وقَدَّرَ آجاله، القَدْر الذي يرزقهم الله محدد، والقَدْر الذي يعيشون في الدنيا محدد، وأوصافهم، وألوانهم، وغير ذلك، وكل هذا في كتاب، والآدميون كذلك يحتاجون إلى رازق يرزقهم، ويدبر شؤونهم، يضبط آجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم. من هذه الحيشة صارت هذه أمماً أمثالنا.

وقد كان لسفيان بن عيينة (رحمه الله) في هذه الآية تفسير مشهور^(٢) ارتضاه بعض العلماء، ولا يظهر عندنا كل الظهور، كان ابن عيينة (رحمه الله) يقول في هذه الآية الكريمة: إن الله تبارك وتعالى جعل في الآدميين شبيهاً من أنواع البهائم، فجعل في بعضهم جراءة الأسد، وجعل في بعضهم سرعة

(١) انظر: ابن جرير (٣٤٥/١١)، القرطبي (٤٢٠/٦)، البحر المحيط (١٢٠/٤).

(٢) انظر: القرطبي (٤٢٠/٦)، البحر المحيط (١٢٠/٤)، شفاء العليل لابن القيم ص ٧٧.

عدو الذيب، وجعل في بعضهم فخر الطاووس وزهوه، وجعل في بعضهم شره الخنزير، وهكذا، وأن بينهما مشابهات من هذا النوع.

وأكثر العلماء على أنهم إنما كانوا أمماً أمثالنا؛ لأن كلنا مخلوق، مسكين، مرزوق، يدبر شؤون خالق رازق، وأن ذلك الخالق الرازق قَدَّر الأوقات الذي يوجدنا فيها، والأوقات التي يميّتنا فيها، والأرزاق التي يرزقنا فيها، وقَدَّر لكل منا قدر حياته، ورزقه، وأجله، وقدر صفته التي يكون عليها، ومقداره الذي يكون عليه، ونحو ذلك.

وبهذه الآية يتفكر المسلم ويعتبر، ويعلم أنه بالنسبة إلى ضعفه وافتقاره؛ وعظمة الله (جل وعلا) وجلاله، أنه كالحوانات والبهائم.

وكان بعض العلماء يقول: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ كما أنكم تعرفون الله، وتسبحون الله، وتوحدونه، فهم أمم أمثالكم كذلك^(١). ويدل لهذا أن الله (جل وعلا) قال: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرُ صَفَقَتِ كُلُّ فَعْلَمٍ صَلَاتُ لَّهِمْ وَتَسْبِيحُهُمْ﴾ [النور: آية ٤١].

ومما يقدح في هذا القول أن هذا النوع تستوي فيه الجمادات مع البهائم؛ [لأنه]^(٢) دل الكتاب والسنة على أن الجمادات تشارك البهائم في هذا، والله في آية الأنعام هذه خص الحيوانات حيث قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أما ذلك الإدراك، وتسبيح الله، فالجمادات تشارك فيه البهائم، ويشملها عموم قوله: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وقد سبَّح الحصى بيد النبي ﷺ^(٣). وقد ثبت في صحيح البخاري في قصة الجذع - وهي متواترة^(٤) - أن الجذع الذي كان يخطب

(١) المصدران السابقان.

(٢) في الأصل: «لأن الله بين» والكلام غير منتظم.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٥٦٣/٢)، شمائل الرسول ﷺ لابن كثير ص ٢٤٣، فتح الباري (٦٠٣/٦)، شرح الشفا (٦٢٢/١).

عليه النبي ﷺ لما تحول عنه إلى المنبر فقد النبي ﷺ فحنَّ العِشَارُ، والمسجد غاصَّ بالناس، والصحابة يسمعون حنينه، حتى جاءه النبي ﷺ يُسَكِّتُهُ كما تُسَكِّتُ الأم ولدها^(١). وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يُسَلِّمُ عليَّ بمكة»^(٢). وقد قال الله (جل وعلا) في كتابه: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْكَمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَنْسِفُ الْجِبَالَ إِذْ لَوْ أَنَّهُمْ لَمَسَوْهُ لَوُغُوا بِهِمْ فِي شِقَاقِ الْوَأْدِ أَوْ لَاقُوا فِي مَقَاوِلِ الْعَبَاثِ ذَلَّلْتُمُ النَّارَ بِالنَّارِ لَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [البقرة: آية ٧٤] لما يصعق من أعلى الجبل إلى أسفله نازلاً خوفاً من رب العالمين (جل وعلا)، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّذَصَّدَعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: آية ٢١] وقد قال جل وعلا: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: آية ١٨] فصريح بتسبيح الجبال، وقد قال جل وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٧٢] والإشفاق: الخوف. معناه: أن هذه الجمادات، من السموات والأرض والجبال، عندها إدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه، حيث أبت من التزام التكليف وأشفقت، وهذه حقائق دلَّ عليها الكتاب والسنة. والملحدون الذين يقولون: «هذه أمثلة، وتخيل، وتصوير بما ليس بواقع». كل ذلك من صرف كتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل، وذلك لا يجوز؛ إذ لا مانع عقلاً أن يخلق الله للجمادات إدراكات يعلمها هو ونحن لا نعلمها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وكذلك يخلق للبهائم إدراكات، وقد نص القرآن على كثير من ذلك، نص على قضية النملة وخطبتها العظيمة التي قال فيها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: آية ١٨] وذكر قصة الهدد ومحاботه لسليمان، ونسبته الإحاطة لنفسه ونفيها عن سليمان ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَخِشِيَكَ مِنْ سُلَيْمَانَ بَنِي إِفْرَاقٍ﴾ [النمل: آية ٢٢] وبين

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة. حديث (٢٢٧٧) (٤/١٧٨٢).

أنه يفهم أن يذهب بالكتاب إلى بلقيس وجماعتها ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَأَنْظَرْ مَاذَا﴾ [النمل: آية ٢٨].

وقوله (جلّ وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿مَا قَوَّضْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٣٨] في المراد بالكتاب هنا وجهان معروفان^(١):

أولاً: الكتاب (فعال) بمعنى (مفعول)، بمعنى المكتوب، قال بعض العلماء: هو هذا القرآن العظيم؛ لأنه مكتوب عند الملائكة في صحف، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ ١٣﴾ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴿١٤﴾ [عبس: الآيات ١٣ - ١٥] ومكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ ١٣﴾ قَالَتْ ﴿١٤﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢].

الوجه الثاني: أن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ؛ لأنه مكتوب فيه جميع وقائع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأصل مادة (الكتابة) - مادة (الكاف والتاء والباء) (كتب) - معناها في لغة العرب: الضم والجمع^(٢)، فكل شيء ضمنت بعضه إلى بعض، وجمعت بعضه مع بعض، فقد كتبه؛ ولذا قيل للخياطة: كتابة. وفي أَلْغَازِ الْحَرِيرِيِّ في مقاماته^(٣):

وكاتبين وما خَطَّتْ أُنَامِلُهُمْ حرفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكتب

يعني بهم: الخياطين؛ ولأجل أن الخياطة تسمى كتابة؛ لأنها تضم طرفي الثوب، وتجمع بعضها إلى بعض، أو طرفي الأديم، وتضم بعضها إلى بعض؛ لأجل ذلك سَمَتِ الْعَرَبُ الرِّقْعَةَ الَّتِي فِي السَّقَاءِ، سَمُوهَا: (كُتْبَةً). وسموا الثوب الذي تُخَاطُ بِهِ الرِّقْعَةُ فِي السَّقَاءِ: (كُتْبَةً)، وجمعها: (كُتَبٌ). وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة^(٤):

(١) انظر: القرطبي (٤٢٠/٦)، البحر المحيط (١٢٠/٤).

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما (مادة: كتب) ص (٩١٧)، المفردات (مادة: كتب) ص (٦٩٩).

(٣) مقامات الحريري ص (٣٤٧).

(٤) البيت في اللسان (مادة: سرب) (١٢٧/٢)، (مادة: كتب) (٢١٧/٣) والوفراء: الوافرة. =

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرئة سرب
وفراء عرفية أئأى خوارزها مُشَلَّشَل ضيَعته بينها الكتُب

يعني بالكتُب: الثغور التي تكون في الكتبة يسيل منها الماء. يُشبه ذلك الماء السائل بدمعه؛ ولأجل هذا كانت العرب تسمي الخياطة: كتابة. ومنه قول عمرو بن دارة^(١) يهجو فزارة، يهجوهم ويُعيرهم بأنهم يفعلون الفاحشة مع إناث الإبل، قال^(٢):

لا تأمنن فزاريأ خلوت به على قلوصك واكتنبا بأسيار

يعني: خط فرجها بأسيار لثلا يفعل بها؛ ولأجل هذا المعنى قيل للكتيبة: (كتيبة)؛ لأنها جماعة من الجند ينضم بعضها إلى البعض حتى تكون كتلة مُجمعة.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قِرَاعِ الكَتَائِبِ^(٣)
هذا أصل مادة (الكاف والتاء والباء) في لغة العرب.

ومعنى الكتابة^(٤): هي مصدر سيال، أنك تضم نفس حرف إلى حرف إلى حرف، حتى يجتمع من ذلك نقوش دالة على ألفاظ ومعاني.

و(الكتاب) في قوله هنا: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾ أكثر المحققين على أنه اللوح المحفوظ^(٥)، أي ما فرطنا فيما كتبنا في اللوح المحفوظ، ما ضيعنا فيه شيئاً.

= والغرفة: المذبوغة بالعُرف، وهو شجر يُدبغ به. وأئأى: أفسد. والخوارز: جمع خارزة. (١) نسبه في الشعر والشعراء ص ٢٥٨ لسالم بن دارة.

(٢) البيت في المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما، (مادة: كتب) ص (٩١٨)، الشعر والشعراء ص ٢٥٨، اللسان (مادة: كتب) (٢١٧/٣)، تفسير الماوردي (٢٤/١)، القرطبي (١٥٨/١)، والدر المصون (٨٥/١).

(٣) البيت للنابعة، وهو في ديوانه ص (٣٢).

(٤) انظر: الكليات ص (٧٦٧).

(٥) انظر: ابن جرير (٣٤٤/١١ - ٣٤٦:)، البغوي (٩٥/٢)، القرطبي (٤٢٠/٦)، شفاء

العليل لابن القيم ص ٤٠، البحر المحيط (١٢٠/٤).

و(مِنْ) هنا هي التي تُزاد قبل النكرة التي تكلمنا عليها الآن^(١)، وهي هنا مزيدة قبل المفعول؛ لأن التفريط: التضييع. أي: ما ضيعنا شيئاً في الكتاب، بل كتبنا فيه كل شيء، ومن ذلك: آجال الطيور، وأعمارها، وأرزاقها، وأقذارها، وألوانها، والوقت الذي تولد فيه، والوقت الذي تموت، كما فعلنا ذلك ببني آدم.

الوجه الثاني: أن المراد بالكتاب: القرآن، والمعنى: ما ضيعنا في هذا الكتاب من شيء، بل جمعنا فيه كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقد نصّ الله على هذا المعنى صريحاً في سورة النحل، ليس فيه خلاف، وهو قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فهذه في القرآن بلا خلاف تدل على أنه يُبين كل شيء؛ لأن في القرآن كل شيء، والناس إنما يأخذون بقدر استعداد أذهانهم، كل يغرف بحسب فهمه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي جحيفة أنه لما سأل علياً (رضي الله عنه): «هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء؟» قال علي (رضي الله عنه) فيما ثبت عنه في صحيح البخاري: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة». قال: «وما في هذه الصحيفة؟» قال: «العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر»^(٢) فقول علي (رضي الله عنه) في هذا الحديث الصحيح جواباً لـ: «هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء؟»: «لا، إلا فهماً يُعطيه الله...» يُفهم منه أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله يُخصّ بخصائص من العلوم لم يُخصّ بها غيره، وما ذلك إلا أن القرآن جمع كل شيء، منه ما يطلع عليه كل الناس، ومنه ما يطلع عليه الراسخون في العلم، ومنه ما يعلمه النبي، ومنه ما لا يعلمه إلا الله (جل وعلا).

وكلّ ما في السنة جميعاً، فهو في كتاب الله؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: آية ٧]. فالسنة كلها

(١) مضى قريباً.

(٢) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

تشمّلها كلمة من بحر القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ التفريط في الشيء: هو تضييعه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الضمير عائد إلى الأمم المذكورة ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ويشكل عليه: أنه رد عليه الضمير بصيغة ضمير العقلاء، والطيور والدواب ليست من العقلاء؟

والجواب^(١): أنه لما شبههم بالعقلاء وقال: ﴿أَمْ أَمَّا لَكُمْ﴾ فعند هذا التشبيه بالعقلاء يُسوَّغ ذلك أن يبنى عليهم ضمير العقلاء.

وقد تقرر في فن العربية: أن غير العاقل كلما شُبّه بالعاقل جرى عليه في الضمائر ونوع الصيغ ما يجري على العاقل^(٢). ونظيره في القرآن قوله تعالى في رؤيا يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: آية ٤] فجمع جمع المذكر السالم المختص بالعقلاء؛ لأنها لما اتصفت بالسجود أشبهت العقلاء من هذه الحيشة، فجرت عليها صيغة العقلاء. وكذلك قوله: ﴿قَالَتَا أَئِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: آية ١١] لأنه لما خاطب السماوات والأرض خطاب العقلاء، وصرّحت بالإطاعة كما يطيع العاقل، أجرى عليها جمع المذكر السالم المختص بالعاقل كما هنا.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يحشرهم الله يوم القيامة أحياء.

وقد جاء في حديث عن أبي هريرة^(٣)،

(١) انظر: البحر المحيط (١٢١/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٥٦/٣)، (٥٥٦/١٥)، فقه اللغة للثعالبي (٢٩٧)، البرهان للزركشي (٢٤٦/٢)، البحر المحيط (١٩٩/٤)، الدر المصون (١٠٠/٥)، قواعد التفسير (٣٠٧).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣٢٢٢)، (٣٤٧/١١)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٦/٤)، وكذا الحاكم (٣١٦/٢) وقال: (صحيح على شرطه - أي مسلم - ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي. وأورده ابن كثير في التفسير (١٣١/٢)، والسيوطي في الدر المنثور (١١/٣) وعزه لعبد الرزاق، وأبي عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم. وهو موقوف على أبي هريرة (رضي الله عنه) لكن له حكم الرفع.

وأبي ذر^(١) - وحديث أبي هريرة صححه الحاكم وغيره - أن الله يحشرهم هذا الحشر، ويعدل بينهم، حتى إنه ليقبض للجَمَاء من القرناء التي كانت تنطحها في دار الدنيا. هكذا جاء في حديث صححه بعض العلماء، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية صرحت بأن الحيوانات، والطيور، كلها يحشرها الله بعد الموت، وظاهر هذا أنه حشر إحياء بعد الموت، وتدل عليه آية التكوير: ﴿وَإِذَا أَلُوْهُشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥] في معرض يوم القيامة.

فالقول المروي عن ابن عباس: أن حشر الطيور والدواب: موتها. هذا القول روي عن ابن عباس من طرق^(٢)، والظاهر أنه خلاف الصحيح، وأن الصحيح ما عليه الجمهور، ودل عليه ظاهر القرآن: أنه حشر بعد الموت، كما قال: ﴿وَإِذَا أَلُوْهُشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥].

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُفٍّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشِئُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾ [الأنعام: آية ٣٩].

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُفٍّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ المعنى أن الذين كذبوا بآيات الله - كالذين جحدوا هذا الوحي المنزل (القرآن العظيم)، وزعموا أنه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، ونحو ذلك - قال الله فيهم: إنهم صم بكم.

= وأصله عند مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تخريم الظلم) حديث: (٢٥٨٢) (١٩٩٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(١) أخرجه أحمد بالفاظ مختلفة (١٥٣/٥، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٣)، وابن جرير. انظر: الأثرين رقم: (١٣٢٢٣، ١٣٢٢٤) (٣٤٧/١١ - ٣٤٨)، والطبراني في الأوسط (١٧٣/٦). وأورده ابن كثير في التفسير (١٣١/٢)، والهيتمي في المجمع (٣٥٢/١٠) وألمح إلى ضعفه. والسيوطي في الدر (١١/٣). وقال أحمد شاكر معلقاً على أحد طرقه عند أحمد (١٧٣/٥): «وهذا إسناد حسن متصل» ١. هـ. وانظر تعليقه على تفسير ابن جرير (٣٤٨/١١)، كما صحح الألباني (رحمه الله) بعض طرقه. انظر السلسلة الصحيحة (٦٠/٤).

(٢) أخرجه ابن جرير من طريقين. انظر الأثرين رقم (١٣٢١٩، ١٣٢٢٠) (٣٤٦/١١) وابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٦/٤). وأورده ابن كثير (١٣١/٢) من طريق ابن أبي حاتم.

الصم: جمع الأصم. وقد تقرر في فن التصريف: أن صيغة (أفعل) إذا كانت صفة مشبهة، وكذلك أفعالها (فَعْلَاء) ينقاس جمع كل منهما تفسيراً على (فَعْل) ^(١)، كالأصم والصُّم، والأعمى والعُمي، والأبكم والبُكم، والأحمر والحُمَر، إلى غير ذلك.

ومعنى صم: أنهم صم عن سماع الحق وإن كانوا يسمعون غيره. كما بينا أنه قال عن المنافقين: ﴿صُمُّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: آية ١٨] فحكم عليهم بالبكم مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْقَوْفُ سَلَقُواكُمْ يَأْتِينَهُ حَدَادٌ﴾ [الأحزاب: آية ١٩] ومن أين للبكم أن تكون لهم الألسنة الحداد؟ وقال في المنافقين: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٤] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، مع أنه يحكم بأنهم بُكْم.

وهذا (الصُّم) وهذا (البكم) المراد به: أنهم صم عن سماع ما يقربهم إلى الله ويدخلهم الجنة، وإن سمعوا غيره، بُكْمٌ عن النطق بالحق وإن تكلموا بغيره.

والعادة المعروفة في العربية: أنهم يطلقون على قليل الجدوى اسم (لا شيء). وأنهم يطلقون على السماع الذي لا فائدة فيه، اسم: (الصمم) ^(٢). ومنه قول قعنب ابن أم صاحب ^(٣):

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا

ومعنى (أذنوا): أنصتوا بأذان صاغية. فهو يقول: (صم إذا سمعوا) يُصرح بأنهم صم في الوقت الذي يصرح بأنهم يسمعون، كما في الآيات؛ لأن السماع الذي لا فائدة فيه يطلق عليه اسم (الصمم) وقد قال النبي ﷺ

(١) انظر: ضياء السالك (١٩١/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

لما سُئِلَ عن الكهان، قال في الكهان: «ليسوا بشيء»^(١). نفى عنهم اسم (الشيء) لخساستهم وقلة فائدتهم، وهذا معروف في كلام العرب.

والذي عليه الجمهور: أن هذا الصمم والعمى في الدنيا، كما قال الله: ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: آية ٢٣] وقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: آية ٧] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهِهُ هَوًى وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ [الجاثية: آية ٤٥].

وقد قدمنا أن هذا الصمم والعمى إنما هو من ذلك الختم الذي يضع الله على قلوبهم، الذي عُبِّرَ عنه تارة بـ(الختم) في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧] وتارة بـ(الطبع): ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: آية ٧٤] وعنهما تارة بـ(الران): ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] ومرة بـ(الأكنة): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: آية ٥٧].

قد بينا في الدروس الماضية وجه الجواب منه عن حُجَّة الجبرية^(٢)؛ لأنهم يقولون: «إذا كان الله جعل على قلبه الختم، وعلى عيونه [الغشاوة]^(٣)، وجعل عليه الطبع والأكنة، ومنعه من الفهم والسماع إذن هو مجبور!!» وقد أجبنا عن هذا: أن الآيات القرآنية دلت بكثرة: أن ذلك الختم والطبع إنما يجعله الله عليهم بعد أن بادروا إلى الكفر، وتمردوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الكهانة، حديث (٥٧٦٢)، (٢١٦/١٠) وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين رقم: (٦٢١٣، ٧٥٦١)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة، وإتيان الكهان، حديث: (٢٢٢٨) (١٧٥٠/٤).

(٢) في هذا الموضوع راجع الباب الخامس عشر (في الطبع والختم والغل والسد والغشاوة، والحائل بين الكافر وبين الإيمان، وأن ذلك مجعول للرب تعالى) من كتاب شفاء العليل ص (٨٥).

(٣) في الأصل «وقر» وهو سبق لسان.

على الله، وكذبوا رسله، وعاندوا، ولجّوا في الباطل، فعند هذا يطمس الله بصائرهم جزاءً وفاقاً، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] بأن ختم عليها وطبع، ومنعها من الخير، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] أي: بسبب كفرهم، فالباء سببية، بينت أن سبب ذلك الطبع هو كفر سابق. وقال تعالى: ﴿وَنَقَلِبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَنْصُرُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] أي: نقلبها كي لا تسمع الحق أو تبصره ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لَمَّا سارعوا وبادروا إلى الكفر طمسنا على قلوبهم، كما بينه في قوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] فبين أن ذلك (الران) الذي غطى القلوب ومنعها من الفهم سببه ما كانوا يكسبونه من الشر، والكفر، والمعاصي - والعياذ بالله - ولذا قال تعالى هنا: ﴿صُتُّ وَبُكِّمُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ كأنه يقول: (عمي)، (صم بكم عمي)، إلا أنه عبر عن عماهم بكونهم ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ لأن الذي هو في الظلمات لا يبصر شيئاً، و﴿الظُّلُمَاتِ﴾: جمع ظلمة.

وقد بينّا في هذه الدروس مراراً: أن من أصعب المسائل شبهة الجبر والقدر^(١)، هي من أصعب المسائل، وأن القرآن أشار إليها في آيات؛ لأن كثيراً من الجهالة والملحدين يقولون: «إن كان الله هو الذي يشاء أفعال العبد، وهو الخالق لكل شيء - ومنه أفعال العبد - وأفعال العبد بمشيئته، فكيف يعاقب العبد المسكين على شيء شاء الله، وخلق الله؟ فالعبد إذن لا يؤاخذ بشيء!! فلاجل هذه الشبهة، ضلت القدرية - والعياذ بالله - فقالوا: إن العبد يستقل بأعمال نفسه. زاعمين أن قدرة العبد مستقلة بأعماله بلا تأثير لقدرة الله فيها، ففروا من شيء ووقعوا فيما هو أعظم منه - والعياذ بالله -.

وقد قدمنا في الدروس الماضية: أنه لو تناظر جبري وسني فقال الجبري مثلاً: هذه الذنوب والمعاصي التي صدرت من البعيد أن الله كتبها عليه، وقدرها عليه في الأزل، وطويت الصحف، وجفت الصحف، وكان ما كان، ولا مبدل لما سبق في علم الله.

(١) انظر ما استدلل به كل فريق والجواب عنها في (القضاء والقدر) للمحمود (٢١٧ - ٢٤٣).

يقول البعيد: لو أردت التخلص مما سبق به العلم الأزلي لا يمكنني ذلك بحال. فيقول البعيد: أنا إذاً مجبور، فكيف نُعاقب؟ وهذا فعل الله وتقديره في أزله قبل أن أُولد، وما سبق في العلم فهو حتم واقع لا محالة!!

والصحابة سألوا النبي ﷺ عن هذه المسألة، وقالوا: «أهو أمر مُؤْتَنَف، أو كان ما كان فيما مضى؟» أخبرهم أنه كان ما كان. فقالوا له: إذا لَمْ لا نترك ونتكل على الكتاب السابق، ونترك العمل حيث فُرغ من كل شيء، ومضى ما مضى؟ فبين لهم بنكتة من جوامع الكلم، قال: «كل مُيسَّر لما خُلِقَ له»^(١). فهي كلمة مجملة تدل على معاني هذا بالتفصيل، فالمؤمن - مثلاً - إذا ناظر الجبري يقول له: اعلم يا جبري أن جميع الأسباب الذي اهتدى بها المهتدون، وأعطاهها الله لهم: أعطاك مثلها: العيون التي أبصروا بها آيات الله وغرائبه وعجائبه فأمنوا: أعطاك عينين صحيحتين مثلها، والقلوب التي فهموا بها عن الله: أعطاك عقلاً صحيحاً

(١) في هذا المعنى وردت عدة أحاديث رواها جمع من الصحابة منهم:

١ - علي (رضي الله عنه)، عند البخاري، كتاب الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر وعود أصحابه حوله. حديث رقم: (١٣٦٢) (٢٢٥/٣)، وأخرجه أيضاً في عدة مواضع، انظر الأحاديث رقم: (٤٩٤٥)، (٤٩٤٦)، (٤٩٤٧)، (٤٩٤٨)، (٤٩٤٩)، (٦٢١٧)، (٧٥٥٢) ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه...، حديث رقم: (٢٦٤٧) (٢٠٣٩/٤).

٢ - جابر بن عبدالله (رضي الله عنه)، عند مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي...، حديث (٢٦٤٨) (٢٠٤٠/٤).

٣ - عمران بن حصين (رضي الله عنه)، عند البخاري، كتاب القدر، باب: جف القلم على علم الله. حديث (٦٥٩٦) (٤٩١/١١)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث (٧٥٥١)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه...، حديث (٢٦٤٩)، (٢٠٤١/٤).

٤ - عبدالله بن عمر (رضي الله عنه)، عند الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة، حديث (٢١٣٥)، (٤٤٥/٤)، وذكره في موضع آخر، انظر حديث (٣١١١).

٥ - عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه)، عند أحمد (١٦٧/٢)، والترمذي، كتاب القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، حديث: (٢١٤٢)، (٤٤٩/٤).

مثلها، والرسول النذير الذي أنذر الكل وخوفه وبين له: أعطاك مثله، فجميع ما أعطاهم أعطاك إياه، إلا أن الفرق بينك وبينهم في شيء واحد هو: أن الله تفضل عليهم بالتوفيق إلى ما بين لهم وأمرهم به، وأنت لم تفضل عليك، وتفضلته بالتوفيق مُلكه المحض، من تفضل عليه ففضل، ومن منعه من التوفيق فعدل، كما قال جل وعلا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكُلَّةُ فَلََوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مُلكه للتوفيق بمشيئته: حجته البالغة على خلقه، من أعطاه ففضل، ومن منعه فعدل.

وقد بينا في الدروس الماضية مناظرة عبد الجبار مع أبي إسحاق الإسفراييني في هذه المسألة^(١)؛ لأن أبا إسحاق فهم مضمون هذه الآية، وحاج به هذا المبتدع المفترى. فجاء عبد الجبار يتقرب بمذهبهم الخسيس أن السرقة والزنى لا تكون بمشيئة الله؛ لأن السرقة والزنى من القبائح والردائل، وأن الله - في زعمهم - أنزه وأكرم وأجل من أن تكون هذه الخسائس والقبائح بمشيئته، فجاء عبد الجبار يتقرب إلى الله ويعبده بهذا المذهب الباطل، فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء!! يعني: أن فحش السرقة والزنى ليس بمشيئة الله.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل!! ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أترأه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أترأه تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبد الجبار: أرايت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي بالردى، دعاني وسد الباب دوني، أترأه أحسن إلي أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: أرى أن الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، إن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. وبُهِت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!!

(١) انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٢٦١/٤)، شرح الطحاوية (٣٢٣)، فتح الباري

(٤٥١/١٣) منهج الجدل والمناظرة (١٠٧٤/٢).

وقد بينا فيما مضى القصة التي ذكروها عن عمرو بن عبيد - مع أنه من عظمائهم الأجلاء عندهم - أنه جاءه ذلك البدوي، وقال له إن حمارته أو دابته سُرقت، وأنه [يطلب منه أن]^(١) يدعو الله له أن يردّها عليه. فقام يدعو ويتقرب بهذا المذهب الباطل: اللهم إن دابته سُرقت ولم تُردّ سرقته؛ لأنك أكرم وأنزه وأجل من أن تُريد هذه الرذيلة القبيحة - يعني السرقة!! - فالبدوي قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كفت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُردّ سرقته فقد يريد ردها ولا تُرد، ولا ثقة لي برب يُفعل في ملكه أشياء ليست في مشيئته، فهذا ليس برب، ولا ثقة لي به، فاكفف عني من دعائك الخبيث^(٢)!!

فحقيقة هذا الأمر أن الله (جل وعلا) غني عن الخلائق،/ ولكنه خلق ٢/ب الخلق، وجبل بعضهم في الأزل على القُبْح والسوء، وجبل بعضهم في الأزل على الطيب والطهارة، ويسر كُلاً لما خلقه له، والحكمة في ذلك: أن يكون فيهم مطيعون يظهر فيهم مظاهر بعض أسماء الله وصفاته، يظهر فيهم من مظهر اسمه: الرحيم، الكريم، الغفور الجواد، إلى غير ذلك من صفات الجود، والرحمة، والمغفرة، والكرم، كما أنه شاء أن يخذل قوماً آخرين، فتكون أعمالهم غير طيبة؛ ليظهر فيهم أيضاً بعض مظاهر أسمائه وصفاته من شدة البطش وقوة الانتقام، وعظمة النكال والعقاب، إلى غير ذلك. والله (جل وعلا) إذا خلقهم وأوجدهم يصرف قُدْرَهُم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتونه طائعين ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الذهر: آية ٣٠].

وقوله جل وعلا: ﴿صُودُّ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: آية ٣٩] جمهور العلماء على أن المراد بصممهم وعماهم وكونهم في الظلمات: أنه في دار الدنيا^(٣)، والمراد به عمى أبصارهم عن الحق، وصمم أسماعهم عن الحق،

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٧٤٠)، شرح الطحاوية (٣٢٣).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٣٥٠)، القرطبي (٦/٤٢٢)، البحر المحيط (٤/١٢٢)، ابن كثير (٢/١٣٢).

وعمى عيونهم عن الحق؛ لأنها في الظلمات - والعياذ بالله - لا تبصر شيئاً، كما في قوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾ [البقرة: آية ١٨] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] خلافاً لبعض العلماء القائل: الذين كفروا في دار الدنيا ﴿صُمُّ وَبَكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في الآخرة؛ لأجل تكذيبهم في الدنيا^(١)، واستدل بأن الله قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَنِيَ وَبَكْمًا وَصُمًّا مَّا أُولَٰئِهِمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] وذكر بأنهم في الظلمات، بدليل قوله: ﴿أَنظُرُونَا نَقْضِ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا تُورَا﴾ [الحديد: آية ١٣].

والقول الأول هو الذي عليه الجمهور.

ثم قال: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: آية ٣٩].

قد بينا فيما مضى^(٢) أن فعل المشيئة إذا قرن بأداة شرط حُذف مفعوله باتفاق؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه. وتقرير المعنى: (من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ جعله على صراط مستقيم يجعله على صراط مستقيم).

وهذه الآية الكريمة تدل على رد مذهب القدرية رداً واضحاً لا شك فيه؛ لأنه بين أن الضلال بمشيئته، والهدى بمشيئته، فلا يقع في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته جل وعلا ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الدھر: آية ٣٠] يعني من شاء أن يضلّه، أي: يُزيغّه عن طريق الصواب.

وقد قدمنا فيما مضى أن الضلال جاء إطلاقه في القرآن وفي لغة العرب على ثلاثة أنحاء متقاربة^(٣).

(١) انظر: القرطبي (٤٢٢/٦)، البحر المحيط (١٢٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المفردات (مادة: ضل) (٥٠٩)، نزهة الأعين النواظر (٤٠٦)، إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني (٢٩٢)، بصائر ذوي التمييز (٤٨١/٣)، أضواء البيان (٥٣/٣).

وبعض العلماء يحاول أن يجعل مرجعها في الأصل إلى شيء واحد.

أشهرها: هو الذهاب عن طريق الجنة إلى طريق النار، وعن طريق الهدى - التي جاء بها النبي - إلى طريق الكفر والمعاصي التي سنها الشيطان. وهذا الإطلاق هو أشهر إطلاق أنواع الضلال، ومنه هذه الآية: ﴿مَنْ يَشْكُلْ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٣٩] أي: يضلله عن طريق الحق التي تدخله الجنة إلى طريق الضلال التي تدخله النار.

الإطلاق الثاني من إطلاقات الضلال أن معناه: الغيبوبة والاضمحلال، وكل شيء غاب وانعدم واضمحل تقول العرب: (ضل). تقول العرب: «ضل السمن في الطعام» إذا غاب واضمحل فيه، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه بهذا المعنى الآية المتقدمة: ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب واضمحل وزال، ومنه قوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون أنهم اختلطت عظامهم بالأرض فأكلتها، فانعدمت واضمحلت فيها كما يضمحل السمن في الطعام. ومن الضلال بهذا المعنى قول الأخطل^(١):

كُنْتُ الْقَذَى فِي مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الْأَتِيُّ بِهِ، فَضَلَّ ضَلَالًا
وقول الآخر^(٢):

أَلَسْمَ تَسْأَلُ فَتُخْبِرُكَ الدِّيَارُ عَنِ الْحَيِّ الْمُضِلِّ أَيْنَ سَارُوا
فقوله: «الحي المضلل» أي: الذي ذهب به الأيام، وانقضى ذكره فغاب واضمحل.

(١) ديوان الأخطل (٢٥٠).

والقذى: الأوساخ التي تطفو على الموج.

والأكدر: الذي تغير لونه من الأوساخ.

والأتي: السيل الذي يأتي من كل مكان.

(٢) البيت في القرطبي (١/١٥٠)، الدر المصون (١/٧٦).

الإطلاق الثالث من إطلاقات الضلال: هو الذهاب عن معرفة الشيء، لا عن طريق الصواب، ولا جنة ولا نار، بل كل شيء ذهب عن حقيقة معرفة الواقع فيه تقول العرب: «ضل عنه»، ومنه بهذا المعنى على أصح التفسيرات: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) [الضحى: آية ٧] يعني: ذاهباً عما تعرفه الآن من العلوم فهداك إلى تلك العلوم بالوحي؛ لأنها علوم لا تُعرف بالعقل، ولا تُعرف بالفطرة، ومن الضلال بهذا المعنى قوله تعالى في الدين: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رِضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] أي: تذهب عن معرفة المشهود به فتذكرها الأخرى، ومنه بهذا المعنى ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء، بل جميع الأشياء يحيط بها علمه.

ومنه بهذا المعنى قول أولاد يعقوب ليعقوب: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] ذهابك عن معرفة حقيقة يوسف، وما جرى مجرى ذلك، ومن أمثلة هذا النوع في كلام العرب قول الشاعر^(١):

وتظنُّ سلمى أنني أبغي بها بدلاً، أراها في الضلال تهيم
يعني: أنها ظنت أنه يبغي بها بدلاً، والأمر بخلاف ذلك.

ولأجل أن الضلال يطلق على العينية والاضمحلال (من إطلاقه الثاني): سمت العرب الدفن (إضلالاً)، تقول: «ذهبوا بالميت فأضلوه» إذا دفنوه في قبره، ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان^(٢):

فآبَ مُضِلُّوهُ بَعِينَ جَلِيَّةٍ وَغُودَرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَنَائِلُ
وهذه الآية الكريمة تردّ مذهب المعتزلة، وتوضح أن الهدى والضلال

(١) البيت في الإيضاح للقزويني ص (١٥٨) والتلخيص في علوم البلاغة ص (١٨٥) للمؤلف نفسه، جواهر البلاغة ص (١٦٥)، بلا نسبة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص (١٥٥).

كل ذلك بمشيئة الله، يفضل قوماً وله بذلك الحكمة البالغة، ويهدي آخرين وله في ذلك الحكمة البالغة.

اعملوا فكل مُيسَّر لما خُلق له، فمن خلقه الله للخير هداه إلى ما يرضيه، ومن خلقه للشر - والعياذ بالله - بعكس ذلك؛ ولذا قال: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الصراط) في لغة العرب: هو الطريق الواضح^(١). فكل طريق واضح تُسميه العرب: (صراطاً). و(المستقيم): هو الذي لا اعوجاج فيه^(٢). ووزنه بالميزان الصرفي^(٣): (مُسْتَفْعِل) وياؤه مُبدلة من واو، أصله: (مُسْتَقْوِم) على وزن (مُسْتَفْعِل)؛ لأن مادة (الاستقامة) واوية العين، وهذا معروف في كلام العرب؛ وذلك أن دين الإسلام طريق واضح، محجة بيضاء، تركها نبينا ﷺ بما أوضح به وبينها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله: ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق دين الإسلام في غاية الاستقامة، ليس فيه اعوجاج. ومعنى استقامته: أن طرفه بيد المسلمين، وطرفه الآخر في الجنة، إذا ثبتوا عليه استقام بهم إلى الجنة، فأدخلهم إياها من غير أن يعدل بهم عنها يميناً ولا شمالاً، وإذا تركوه ذهبوا إلى بُنَيَات الطرق.

وقد ضرب النبي ﷺ لهذا مثلاً^(٤)، فخط ذلك الخط المستقيم، وخط حوله خطوطاً كثيرة؛ ليبين أن دين الله مستقيم، وأن حوله بدع، وبنَيَات طرق، من سلكها ضل وهلك ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

(١) انظر: القاموس (مادة: سراط) (٨٦٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١٧٠/١)، المحتسب (٤٣/١)، الدر المصون (٦٤/١).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص (٢٢٧).

(٤) جاء هذا في حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم: (٤١٤٢، ٤٤٣٧) (٨٩/٦)،

(١٩٩) (تحقيق أحمد شاكر)، والحاكم (٣١٨/٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد

ولم يخرجاه» ١. هـ، وابن جرير في التفسير، رقم: (١٤١٦٨، ١٤١٧٠) (٢٣٠/١٢).

وقد أطلال ابن كثير في تخرجه وذكر طرقه، انظر: تفسير ابن كثير (١٩٠/٢)، والحديث

صححه أحمد شاكر (رحمه الله) في تعليقه على المسند، وتفسير ابن جرير، والألباني

في تعليقه على كتاب السنة لابن أبي عاصم (١٣/١).

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: آية ١٥٣].
 ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا
 تُشْرِكُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٠، ٤١].

هذه الآية الكريمة عاب الله فيها الكفار بسخافة العقول^(١)، وأنهم إذا
 نزلت بهم شدة من عظام الشدة أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله،
 وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر، فإذا نجاهم الله من
 تلك الكربة، وأمِنُوا: رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله. وهذه
 سخافة عقول؛ لأنهم في وقت الشدائد يُخلصون إلى الله، ثم إذا كان في
 غير ذلك الوقت رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر! وهذا ذم من الله
 للكفار، ذمهم به في آيات كثيرة من كتابه؛ ذلك أن الإنسان إذا نزلت به
 عزيمة من عظام الشدة - في الدنيا - والأهوال، فإن الالتجاء في ذلك
 الوقت إلى من ينقذه. هذا من خصوص خالق الكون (جل وعلا)، هذا
 أمر من خصائص الله، ليس فيه شرك لأحد. فالله (جل وعلا) إذا نزلت
 بالناس الشدة، والبلايا، والفظائع العظام فملجؤهم الذي يلجؤون إليه هو
 خالقهم (جل وعلا). وسيدهم في ذلك وقائدهم فيه: هو سيدنا
 محمد ﷺ، كان إذا نزل به المكروه والشدائد أخلص الالتجاء في ذلك
 الوقت لمن له ذلك الحق الخالص، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ
 فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٩].

وهذا المستغيث هو محمد ﷺ يلتجئ إلى الله عند الشدة ليشرع ذلك
 [لأمته]^(٢)، ويبين لهم أن هذا حق ربهم الخالص له وحده.

وقد أوضح الله هذا المعنى بالسورة الكريمة - سورة النمل - حيث
 قال: ﴿قُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ وَسَلَامٍ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(١) سيأتي عند تفسير الآية (١٥١) من هذه السورة.

(٢) في الأصل: لخلقهم.

[النمل: آية ٥٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) الجواب: الله خير من كل شيء. ثم^(٢) قال: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بُدٌّ أَكْتَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: آية ٦١] ذكر في هذه الآيات خلقه البحر، والجبال، وما فعل من عظام ربوبيته (جل وعلا)، وهذه خصائصه وحقوقه الخالصة. ثم قال في الأثناء: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: آية ٦٢] ثم قال: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ تُنشِأُ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل: آية ٦٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^(٣) ثم قال: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [النمل: آية ٦٤] هذه حقوق الله الخالصة له، فنحن معاشر المؤمنين نخلصها لله، إرضاء لله ولرسوله ﷺ، واقتداء برسوله؛ ولئلا نتعدى حدود الله، ونصرف حقوقه لغيره، والكفار يعلمون هذا، ويعلمون أن هذه حقوق الله الخالصة له، فإذا كان وقت الجد، ورأوا الشدائد^(٤)، كأن يهيج عليهم البحر بأمواله وأهواله فيظنوا الموت، عند هذا يخلصون العبادة والدعاء لله وحده، فإذا أنجاهم الله رجعوا إلى ما كانوا عليه، كما عابهم فيه في آية الأنعام هذه - التي نحن بصددنا - وأمثالها في القرآن كثيرة، كقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني: بمسيس الضر: إن هاجت عليهم الأمواج، وعصفت الرياح، وكادت السفينة تغرق بما فيها ﴿وَإِذَا

(١) قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب بالياء، وقرأ الباقر بالتاء. انظر: المبسوط في القراءات العشر (٣٣٤).

(٢) قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية [النمل: آية ٦٠].

(٣) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: (نُشْرًا) بضم النون والشين. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (نُشْرًا).

وقرأ ابن عامر: (نُشْرًا) بضم النون وسكون الشين.

وقرأ عاصم: (بُشْرًا) بالباء وسكون الشين.

انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٠٩).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/ ١٩٠ - ١٩٢).

مَسَّكُمْ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ ﴿٦٦﴾ أَي: غاب عنكم كل ما كنتم تدعونه واضمحل ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وأنقذكم من ذلك الكرب في البحر ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أَي: ورجعتم إلى كفركم، ثم قال: ﴿أَفَأَمْسَرَ أَنْ يَخَيِّفَ بَيْكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٦٧﴾ أَمْ أَمْسَرَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿٦٨﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ - ٦٩] وقال جل وعلا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَاقٍ وَفُوحًا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ في هذا الوقت ﴿لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: آية ٣٢] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: آية ٦٥] وأمثال هذا في القرآن كثيرة جداً.

وكان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل - رضي الله عن عكرمة وأرضاه -: كان شديد العداوة للنبي هو وأبوه، فلما فتح النبي ﷺ مكة في عام ثمان من الهجرة هرب عكرمة، وركب في سفينة من البحر الأحمر راثحاً إلى الحبشة، فلما لججت بهم السفينة في البحر هاجت عليهم الرياح، وأيقنوا بالهلاك، وطغت عليهم الأمواج، فإذا جميع من في السفينة يتنادون، وينادي بعضهم بعضاً: احذروا في هذا الوقت أن تدعوا غير الله؛ لأنه لا يخلصكم من هذا إلا الله وحده. فلما سمعهم يقولون قال: والله إن كان لا يُنْجِي من كربات البحر إلا هو، فلا يُنْجِي من كربات البر إلا هو، ثم قال: اللهم لك علي العهد إن أنجيتني من هذه لأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلا جدنه رؤوفاً رحيماً، فأنجاهم الله، فرجع وأسلم، وصار من خيار أصحاب النبي ﷺ^(١).

(١) أخرج قصة عكرمة (رضي الله عنه) هذه: الحاكم (٢٤١/٣) وابن عساكر في تاريخه، انظر: (مختصر تاريخ دمشق) (١٣٤/١٧، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨) وأوردها الحافظ في الإصابة (٤٩٧/٢) وعزاها للدارقطني، والحاكم، وابن مردويه. والذي في سنن الدارقطني (١٦٧/٤ - ١٦٨) طرف الخبر في أمر النبي ﷺ - حينما فتح مكة - بقتل أربعة، ثم قال الدارقطني: «وذكر باقي الحديث» ١. هـ.

فنحن معاشر المؤمنين، إذا نزلت بنا البلايا، كأن يهيج علينا البحر في سفينة، أو تقع أمور لا يقدر على دفعها إلا الله، فاقتداءً بنبينا، وعملاً بكتابنا، وتوحيداً لربنا، نعطي الله حقه الخالص، ولا نفعل كما يفعل الكفار؛ لأن الله عاب الكفار؛ لأنهم وقت الشدائد يخلصون العبادة لمن خلقهم، وفي وقت الرخاء يرجعون لشركهم؛ ولذا قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ [الأنعام: آية ٤٠] هذه الكلمة المشهور فيها عند علماء العربية^(١) وعلماء التفسير: أنها كلمة أطلقتها العرب بهذه (التاء) مفتوحة، سواء كان المخاطب ذكراً أو أنثى، أو جماعة أو اثنين، إلا أن (الكاف) بعدها حرف خطاب يَتَلَوْنَ يَتَلَوْنَ المخاطبين، ككاف الخطاب في الإشارة في (ذلكم)، و(ذلك) و(ذلكن)، ومعناها عند الجمهور: أخبرني. والتحقيق: أن الكاف فيها لا محل له من الإعراب؛ لأنه حرف خطاب؛ وأنها كلمة وضعتها العرب بمعنى: أخبرني.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني، أخبروني أيها الكفار الذين تعدلون بالله غيره، وتصرفون حقوقه لغيره، وتدعون معه غيره، أخبروني إن جاءكم بليّة من البلايا ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ﴾ بأن هاج عليكم البحر ورأيتم الموت عياناً ﴿أَوْ أَنْتُمْ أَسَافَةٌ﴾ من بلاء عظيم وداهية عظيمة، ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ؟؟﴾ أَدْعُونَ في ذلك الوقت غير الله من هذه الأصنام التي تعبدون دونه؟ والمعنى: كلاً لا تدعون في ذلك الوقت إلا إياه وحده، كما صرح به في قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤١] وقدم المفعول للحصر، أي: لا تدعون وقت الشدائد إلا إياه وحده؛ لأنكم تعلمون أنه هو الذي بيده إزالتها، وأن غيره لا يقدر على رفع الكربات عنكم، ثم قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ استشكل بعض العلماء (إلى) بعد (تدعون) وقد قال بعض المحققين^(٢): إن [دعا] قد تُضْمَنُ مادة (لَجَأَ) كما قد تتعدى بـ^(٣) (إلى) كما في قوله: ﴿وَلِذَا

(١) انظر: ابن جرير (٣٥١/١١)، القرطبي (٤٢٣/٦)، البحر المحيط (١٢٤/٤ - ١٢٨)، الدر المصون (٦١٥/٤ - ٦٢٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٢٩/٤)، الدر المصون (٦٣١/٤).

(٣) في الأصل: «(تدعون) قد تُضْمَنُ مادة (دعا) قد تتعدى إلى». ولا يخفى أن الكلام بهذا السياق مُخْتَل؛ وذلك أن مادة: (دعا) تتعدى بنفسها إلى المفعول إذا كانت بمعنى=

دُعُوا إِلَى اللَّهِ ﴿١﴾ وكما قال الشاعر^(١):

وإن دعوتِ إلى جُلَى ومكرمةٍ يوماً سَرَاةِ كرامِ الناسِ فادعينا
الشاهد: أن (دعا) تعدى بـ(إلى).

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ هذا الذي تدعون الله إليه، أي: إلى أن يكشفه عنكم، ويزيله عنكم، قد يكشفه إن شاء، وإن شاء لم يكشفه، فهذه قُيِّدَت بالمشيئة.

قال بعض العلماء^(٢): هذه قُيِّدَت بالمشيئة، وآية البقرة أُطلقت، لم تقيد، وهي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: آية ١٨٦] ولم يقل: إن شئت، وهنا قيد بالمشيئة.

قال بعض العلماء: يُحمل المطلق على المقيد، ويُقيد بالمشيئة.

وأظهر القولين: ما قاله بعض العلماء: أن آية البقرة مطلقة، وأن دعاء المؤمن لا يُرد إلا إذا كان بإثم أو قطيعة، وما جرى مجرى ذلك، وهذه التي قُيِّدَت بالمشيئة: في دعاء الكفار، أما دعاء المؤمنين فلم يُقيد بالمشيئة.

وعلى كل حال لا شيء إلا بـمشيئة الله، إلا أن وعد الله صادق، وقد وعد المؤمنين بالإجابة، ولم يقيده بشيء، وإنما جاء بقيد المشيئة في دعاء الكفار.

= السؤال والاستغاثة والطلب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: آية ٨]. وقد تأتى بمعنى الحث على فعل شيء أو تركه، وحينها تعدى بـ(إلى) كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: آية ٣٣]. وهنا في آية الأنعام المراد بالدعاء: سؤال الله واللجأ إليه، وقد استشكل بعض العلماء تعدية (تدعون) بـ(إلى)، وبناء على ذلك وقع الخلاف في توجيه ذلك، فقيل: معنى الآية: «يكشف ما تدعون - أي: تطلبون وتحثون - إلى كشفه». وبهذا يصح تعدية (تدعون) بـ(إلى). وقيل: بل هي على معنى سؤال الله وطلبه، ولكنها قد ضُمَّتْ معنى (تلجؤون) فصح تعديتها بـ(إلى). والله أعلم.

(١) البيت لبشامة بن حزن النهشلي. وهو في البحر المحيط (٤/١٢٩)، الدر المصون (٤٦٨/١).

(٢) انظر: أضواء البيان (١/١٢١).

ثم قال: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه للعلماء وجهان^(١): أن معنى ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ تتركونه عمداً، تنسون الشركاء، أي: تتركون دعاءها وقت الشدة عمداً؛ لعلكم بأن الكربات والشدائد لا يكشفها إلا الله (جل وعلا)، فتركونها عمداً.

والنسيان يُطلق على ترك الشيء عمداً، كما قال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] معناه: نتركهم عمداً كما تركوا العمل للقاء يوم القيامة عمداً. وهذا معروف في كلام العرب، أنها تُطلق النسيان على ترك الفعل عمداً، وتطلقه على تركه نسياناً.

الوجه الثاني: أنه من شدة الهول نسوا غير الله (جل وعلا)، ولم يخطر في أذهانهم إلا الله؛ لأنهم عارفون أنه لا يكشف الكربات إلا هو؛ ولذا قال: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١/٣ / ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بِأُسْنَىٰ تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْأَيْدِي ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ ٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنُكِّمُ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ٤٧﴾ [الأنعام: الآيات ٤٢ - ٤٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بِأُسْنَىٰ تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: الآيات ٤٢ - ٤٥].

(١) انظر: القرطبي (٤٢٣/٦)، البحر المحيط (١٢٩/٤)، الدر المصون (٦٣٢/٤).

يقول الله (جل وعلا) لنبيه: لست أول نبي كذبه قومه، فقد أرسلنا قبلك رسلاً كراماً، وجاؤوا بالبينات والمعجزات الواضحات، فكذبتهم أمهم كما كذبتك أمتك. وكل هذا من تسلية النبي ﷺ.

واللام في (لقد) توطئة لقسم محذوف (والله لقد أرسلنا) وصيغة الجمع في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للتعظيم.

وفي هذه الآية الكريمة حذفان، كلاهما دلّ المقام عليه^(١):

الحذف الأول: حذف المفعول به، وتقديره: (ولقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك) فحذف المفعول لدلالة المقام عليه، وحذف الفضلة إذا دل المقام عليها سائغ مطرد.

الحذف الثاني الذي دلّ المقام عليه: هو حذف (الفاء) وما عَطَفَتْ. وحذف (الفاء) وما عَطَفَتْ إن دلّ المقام عليه: فهو مطرد في لغة العرب، كثير في القرآن، أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله^(٢):

وَالْفَاءُ قَدْ تُحْذَفُ مَعَ مَا عَطَفَتْ

وتقديره هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: (أرسلنا رسلاً) ﴿إِلَّا أَمْرًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكذبت تلك الأمم ﴿فَاخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْأَةِ وَالْأَلْزَامَةِ﴾ ابتلاء لما كذبوا. هذان الحذفان.

والأمر هنا: جمع أمة. والمعروف عند علماء العربية: أن لفظ (الأمة) أطلق في القرآن العظيم أربعة إطلاقات مشهورة، ولو قيل إن هنالك إطلاقاً خامساً لكان غير بعيد.

أما إطلاقات لفظ (الأمة) في اللغة وفي القرآن فمن أشهرها^(٣):

(١) انظر: القرطبي (٤٢٤/٦)، البحر المحيط (١٣٠/٤)، الدر المصون (٦٣٢/٤).

(٢) الخلاصة ص (٤٨)، وانظر شرحه في الأشموني (١١٩/٢).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص (٤٤٥)، نزهة الأعين النواظر ص (١٤٢)، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٢).

إطلاق (الأمة) على الطائفة المتفقة في الدين. أي: في نحلة كائنة ما كانت. وهذا أكثر إطلاقاتها ﴿وَلَنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: آية ٢٤] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ [يونس: آية ٤٧] ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٣٨].

الإطلاق الثاني: إطلاق (الأمة) على الرجل العظيم المقتدى به، وقد أطلق الله (الأمة) بهذا المعنى على نبيه إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّا إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠].

الإطلاق الثالث: إطلاق الأمة على البرهة والقطعة من الزمن، ومنه بهذا المعنى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ نَجَّاهُمْ مِنْهُمْ أَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد برهة من الزمان، ومن هذا الإطلاق قوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَلَكِنَّ أَخْرَانَا عَنْهُمْ آلْعَذَابِ إِلَى أُمَّةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى برهة معينة في علمنا من الزمن.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة، والدين، والملة.

العرب تقول: «هذه أمتنا». أي: ديننا، وشريعتنا، ومِلَّتُنَا. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: آية ٥٢] أي: شريعتكم، وطريقتكم، ودينكم.

ومنه بهذا المعنى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] أي: على شرع، وملة، ودين. ومنه بهذا المعنى قول نابغة ذبيان^(١):

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِبَّةً وهل يَأْتَمُنْ ذُو أُمَّةٍ وهو طائع؟
يعني: أن صاحب الدين والشرع لا يَأْتَم ويخالف دينه وشرعه وهو طائع.

(١) ديوان النابغة الذبياني ص (٥٥).

والإطلاق الخامس: - الذي قلنا إنه لو زاده إنسان لكان غير بعيد^(١) - هو ما جاء في الآية الماضية بالأمس من إطلاق (الامة) على الجنس من الحيوانات والطيور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَّمٌ مُّثَالَكُمْ﴾ [الأنعام: آية ٣٨] فقد أطلق تعالى على كل نوع من أجناس الدواب والطيور اسم (الامة).

وقوله هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] هذه الأمم هي أمم بني آدم، كما جاء مفصلاً في بعض الآيات: أرسل نوحاً إلى قومه، وبين لنا ما قابلوه به، وكذلك فصل لنا سير جماعة منهم، كقضية نوح مع قومه، وهود مع قومه، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى وهارون مع فرعون، ونحو ذلك مما بينه القرآن.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: أرسلنا رسلاً ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: من الناس الذين مضوا من قبلك، في الزمن الماضي، يعني: فكذبوا رسلهم؛ لأن الله ما أرسل رسولاً إلى قوم إلا كذبوه وأهلكهم الله، ولم يُستثن من هذا أمة إلا أمة يونس، كما سيأتي في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: آية ٩٨] أما غيرهم من الأمم فكل أمة تكذب رسولها فيهلكها الله، كما قال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَلٍ لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٤٤].

وقال هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] أصل (الأخذ) في لغة العرب: هو التناول بقوة وشدة^(٢).

- (١) وهو موجود في نزهة الأعين النواظر ص (١٤٤)، إصلاح الوجوه والنظائر (٤٤).
- (٢) لم أقف على من اعتبر ذلك أصلاً لمعنى (الأخذ) في كلام العرب. وإنما يُفسرون (الأخذ) بالتناول وما في معناه. وفسره الراغب في المفردات بأنه حوْز الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول، وتارة بالقهر. (انظر المفردات، مادة: أخذ ص ٦٧) وسيأتي قول الشيخ (رحمه الله): «قدمنا أن (الأخذ) إذا أسند إلى الله هو الأخذ بقوة وشدة...» هـ. ١. عند تفسير الآية رقم (٤٤) من هذه السورة. والذي يظهر أن هذا مراد الشيخ (رحمه الله) هنا لكن سبق لسانه إلى غيره، والله أعلم.

فكل ما تناولته بقوة وشدة فقد أخذته. وأخذ الله عظيم، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه)، أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [هود: آية ١٠٢]^(١) و﴿الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ في هذه الآية: ﴿فَأَخَذْتَهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ كلاهما مصدر أنث بألف التانيث الممدودة تانيثاً لفظياً، وأكثر العلماء^(٢) على أن (البأساء): هي ما كان من جهة الفقر، والفاقة، والجوع، وضياح الأموال. وأن (الضراء): هي ما كان من قبيل أمراض الجسوم وآلامها، وما يقع فيها. والمعنى: أنا ابتليناهم بالضر في أموالهم وفي أبدانهم فأفقرناهم، وأعدنا أموالهم، حتى صاروا في جوع، وفي فقر، وفي فاقة، اختبرناهم بهذا لينيبوا إلى الله، ويبتهلوا إليه، فلم ينفع فيهم هذا الاختبار بالشر، فلما لم ينجح فيهم هذا الاختبار بالشر ابتليناهم بالخير، وبدلنا عنهم السيئة بالحسنة، فجعلنا لهم مكان المرض صحة وعافية، ومكان الفقر غنى، ومكان الجوع شبعاً، فلم ينفع فيهم هذا أيضاً. والله (جل وعلا) يتلي خلقه بالشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] ﴿وَيَكُونَتُهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

وهذه الآية الكريمة - من سورة الأنعام - بينت أن الله إذا أرسل رسولا إلى قوم ابتلاهم أولاً بالشدائد، فسلط عليهم الفقر، والجوع، والفاقة، فإذا لم ينفع فيهم هذا أزال عنهم ذلك، وأغناهم، وصححهم، وأغدق عليهم نعم الدنيا، حتى يهلكهم وهم في غفلة، في أشد وقت غفلة وبطراً - والعباد بالله - وقد صرح تعالى في سورة الأعراف أن هذا النوع من الابتلاء - المبدوء بالابتلاء بالشر ثم الابتلاء بالخير - عام في جميع الأمم التي أرسلت إليها الرسل، وهنا - في الأنعام - لم يأت بصيغة عامة، وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ...﴾ حديث (٤٦٨٦) (٣٥٤/٨)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث (٢٥٨٣) (١٩٩٧/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٤٩/٣ - ٣٥٠)، (٢٨٨/٤)، (٣٥٤/١١)، القرطبي (٤٢٤/٦).

أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴿[الأنعام: آية ٤٢] وقوله: ﴿أُمَمٍ﴾ جمع مُنْكَر. والتحقيق: أن الجموع المنكرة إذا كانت في سياق الإثبات ليست من صيغ العموم^(١)، [ومن]^(٢) زعم من علماء الأصول: «أن الجمع المُنْكَر من صيغ العموم» فهو قول مردود، كما هو معروف في الأصول، أما في الأعراف فقد بين أن هذه السنة من سنن الله، أنها عامة حيث قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴿[الأعراف: الآيتان ٩٤، ٩٥] يعني: بدلنا مكان الجوع شبعاً، ومكان الفقر غنى، ومكان المرض صحة وعافية؛ ﴿حَتَّىٰ عَمَّوُا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هـ هذه سنة الله في خلقه، ذكرها هنا في الأنعام، وبين الشمول والعموم في الأعراف.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿فَأَخَذْتَهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (التضرع): التذلل والخضوع لله^(٣)، وكثيراً ما يظهر أثر ذلك في الدعاء بأن يبتهل ذلك الذليل الخائف من الله يبتهل متضرعاً يناجي ربه (جلّ وعلا). و(الضارع): هو الذليل الخائف، و(الضراعة): الذل والخشوع والخوف، وهو معنى معروف في كلام العرب، مشهور في كلامهم، ومنه قول الشاعر^(٤):

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِّخُصُومَةٍ

(١) في هذه المسألة راجع: شرح الكوكب المنير (١٣٩/٣)، شرح مختصر الروضة (٤٧٣/٢)، أضواء البيان (٢١٨/١)، (٣٢١/٣)، (١٧٤/٤).

(٢) في الأصل: «وما».

(٣) انظر: المفردات (مادة: ضرع) (٥٠٦).

(٤) البيت لنهشل بن حري، أو ضرار بن نهشل، وقيل غير ذلك. وعجزه:

وَمُخْتَلِطٌ بِمِثْلٍ طَيِّحِ الطَّوَائِفِ

وهو في الكتاب لسيبويه (٢٨٨/١، ٣٦٦، ٣٩٨)، المحتسب (٢٣٠/١)، الخصائص (٣٥٣/٢)، الخزانة (١٤٧/١).

أي: (ذليل) يبكيه ذليل؛ لأنه ملجأ له.

وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: المعروف في لغة العرب، أن حرف (لعل) أنه للترجي والتوقع، والله عالم محيط علمه بعواقب الأمور، فكيف يُصرّح بلفظ هو يدلّ على الترجي والتوقع، وكيف يصح في كلام الله الترجي والتوقع، وهو القادر على كل شيء، المحيط علمه بعواقب الأمور؟ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عن هذا جوابان^(١):

أحدهما: أن (لعل) هنا للتعليل. والمعنى: أخذناهم بالبأساء والضراء لأجل أن يتضرعوا. ولا شك أن (لعل) أنها من حروف التعليل. وقد سُمع في لغة العرب من كلام العرب الفصحاء التعليل بـ(لعل). ومن إتيان «لعل» للتعليل في كلام العرب قول الشاعر^(٢):

فَقُلْنُم لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوُثِّقْتُم لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ
فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهْدُكُمْ كَشِبَهُ سَرَابٍ بِالْمَلَا مُتَأَلِّقٍ

فقوله: «كفّوا الحروب لعلنا نكف» يعني: كفّوا الحروب لأجل أن نكف عنكم.

ومن هنا قال بعض العلماء: كل (لعل) في القرآن فهي للتعليل، إلا التي في سورة الشعراء ﴿وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا بمعنى: كأنكم تخلدون^(٣).

الوجه الثاني: أن (لعل) على بابها من أنها للترجي والتوقع، إلا أن معنى الترجي والتوقع فيها هو بحسب ما يظهر للناس، أمّا الله (جل وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون. ومما يؤيد هذا: أن الله عالم في أزلّه بأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

فرعون شقي يموت كافراً - والعياذ بالله - وهو يقول لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: آية ٤٤] على ترجيكما وتوقعكما بحسب ما يظهر لكما. أما عاقبة الأمر وما يؤول إليه فهي عند الله جل وعلا.

وهذا معنى قوله: ﴿فَاخَذْنَاهُمْ بِآبَاسٍ وَالضَّرَاقِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] لأجل أن يتضرعوا. أي: لترجي تضرعهم بحسب ما يظهر للناس الجاهلين بعواقب الأمور.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٣] قد قدمنا بالأمس^(١) أن لفظة (لولا) أصلها تأتي في اللغة العربية وفي القرآن مشتركة بين معنيين، إلا أن أحد المعنيين ينقسم إلى قسمين، فتكون أقسام (لولا) ثلاثة في القرآن وفي كلام العرب. (لولا) في القرآن إذن ترد على ثلاثة أقسام، بثلاثة معان معروفة:

الأول: هي (لولا) المعروفة عند العلماء بأنها حرف امتناع لوجود، والمعنى: أنها تدل على امتناع شيء لوجود شيء نحو: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: آية ٢١] يعني: أنه هنا انتفى عدم الزكاة والطهارة لوجود فضل الله. وهذا معروف مشهور.

الثاني: هو (لولا) التحضيضية. ومعنى (لولا) التحضيضية: أن (لولا) حرف يدل على طلب الفعل بحث وحض؛ ولذا سُميت حرف تحضيض. وهذه هي التي تنقسم قسمين؛ لأن لها حالتين: تارة يكون الفعل المطلوب فيها بحرف التحضيض - الذي هو (لولا) - تارة يكون ممكناً تداركه ممكناً فعله، وتارة يكون ذلك الفعل لم يبق فعله ممكناً؛ لأن فرصته ضاعت ومضت، ولم يمكن تداركه. وإذا كان فعله ممكناً فهي المعروفة بالتحضيضية نحو: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِكَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ [المنافقون: آية ١٠] (لولا) هنا معناه: أطلب منك يا رب بطلب شديد مُحضض عليه،

(١) مضى عند تفسير الآية رقم (٣٧) من هذه السورة.

بَحْثٌ وَحُضٌّ أَنْ تُؤْخِرُنِي ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَفَ...﴾ الآية.

النوع الثاني: - ومنه الآية التي بين أيدينا - هي أن يكون الفعل المطلوب بأداة الطلب التي هي حرف التحضيض - أعني (لولا) التحضيضية - يكون الفعل فات تداركه ولم يبق ممكناً أبداً. فهي في هذا المعنى ينقلب تحضيضها إلى التوبيخ والتنديد، تارة يُؤْبَخُ بها موجود، كقوله للذين تكلموا في عائشة وصفوان: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: آية ١٦] هذا العمل المطلوب بـ(لولا) ضاعت فرصته عليهم؛ لأنهم قد تكلموا بما لا يليق، فهي في هذا المعنى ينقلب تحضيضها إلى التوبيخ والتنديد. فكأنه يوبخهم ويندمهم على ما فرط منهم. وتارة يكون المؤبَخُ بها قد مات ولم يكن موجوداً، كقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٣] لأن وقت نزول الآية هؤلاء الأمم قد ماتوا وانقضوا في أزمان متناهية، قد مضوا في الزمان الماضي، فلا يمكن حصول الفعل منهم، وليسوا موجودين حتى يسمعوا التوبيخ. ولكن المقصود من توبيخ هذا الذي غاب ومات ليعتبر به غيره، فيعلم بأن قصص القرآن إنما قُصَّتْ علينا لنعبر بها ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: آية ١١١] ولذا كان من الحسن أن يُؤْبَخَ أولئك لنعبر بتوبيخهم فنجنب ذلك الأمر الذي استحقوا التوبيخ من أجله، هذا معناه؛ ومن هذا المعنى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ [هود: آية ١٦] لأن القرون مضت، فهو توبيخ لغائبين، وتنديد لهم؛ ليعتبر به المخاطبون؛ ولذا قال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٣] كان المطلوب منهم وقت وجودهم - بحثٌ وشدة - أن يتضرعوا، واختبرهم الله بالبأس أن يتضرعوا.

ويُفهم من الآية أن المسلم إذا ابتلاه ربه بمصائب الدنيا، من أمراض، أو مصائب في الأموال، أو جوع، أو نحو ذلك: أن عليه أن يتضرع إلى ربه (جل وعلا) ليزيل عنه ذلك؛ لأنه وبخ هؤلاء وذمهم على عدم التضرع إليه عند نزول الشدائد بهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ثم قال: ولكنهم لم يتضرعوا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لأن القلوب القاسية تشد

كما تشتد الحجارة، فكما أن الحجر الصلب القوي إذا أردت أن تدخل في جوفه ماء لا يدخل، فكذلك قلب الكافر لصلابته وقسوته إذا أردت أن تدخل فيه الموعظة والفهم عن الله لا يدخل؛ لشدة قسوة القلب - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اعلم أن الشيطان في لغة العرب^(١) يُطلق على كل عاتٍ متمرّد كائنًا ما كان. فكل عاتٍ متمرّد فهو (شيطان) في لغة العرب التي نزل بها القرآن، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما. إلا أن (الشيطان) كان بالحقيقة العُرفية يسبق إلى إبليس وذرية إبليس. أما في الوضع اللغوي فكل متمرّد عاتٍ تسميه العرب (شيطانا)، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما، ومن إطلاق (الشيطان) على المتمرّد العاتِي من بني آدم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: عُتَاتِهِم المتمرّدين من رؤساء الكفرة، وقوله تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] وقد جاء حديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ: أن من الإنس شياطين^(٢). وكل عاتٍ متمرّد من الإنس فهو

(١) في معنى (الشيطان) انظر: تفسير ابن جرير (١١/١)، المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما، (مادة: شطن) ص ٥٢٤، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢)، القرطبي (٩٠/١)، الدر المصون (١٠/١)، الأضواء (٢٠٨/٢).

(٢) ولفظ الحديث المشار إليه عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل». فقامت فصليت ثم جلست، فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قلت يا رسول الله: وللإنس شياطين؟ قال: «نعم..» الحديث.

وقد أخرجه أحمد (١٧٨/٥، ١٧٩)، والنسائي، كتاب الاستعاذة «الاستعاذة من شر شياطين الإنس» حديث: رقم (٥٥٠٧)، (٢٧٥/٨)، وابن جرير في التفسير (٥٣/١١) - (٥٥)، وابن حبان (الإحسان) (٢٨٧/١)، والطيالسي ص ٦٥، والبيهقي في الشعب (١٧٨/٧)، كلهم من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وللحديث طرق متعددة لا تخلو من ضعف إلا أن بعضها قد يتقوى ببعض والله أعلم. وهذا الحديث له شاهد من حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٦٥/٥ - ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٢٥٨/٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٧١/٤).

(شيطان)، كما دلّ عليه: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ ومنه بهذا المعنى قول جرير - وهو عربي فُح - قال^(١):

أَيَّامٌ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانُ مِنْ غَزَلٍ وَكُنَّ يَهْوِنَنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانًا

ومن إطلاق (الشيطان) على غير الإنس والجن حديث: «الكلب الأسود شيطان»^(٢). وما جرى مجرى ذلك. هذا إطلاق (الشيطان) في لغة العرب، وهو حقيقة عُرفية في إبليس وذريته؛ لأن ذرية إبليس شياطين، يفعلون كما يفعل، كما يأتي في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠].

واعلم أن المادة التي اشتق منها (الشيطان) اختلف فيها علماء العربية على قولين^(٣)، أشار لكل واحد منهما الشيخ عمرو - أعني سيبويه - في كتابه^(٤). وباختلاف القولين يختلف وزن (الشيطان) بالميزان الصرفي، فجماعة من العلماء - وهو أصح القولين - قالوا: إن مادة (الشيطان) أصلها من (شَطَنَ)، ففاء المادة شين، وعينها طاء، ولامها نون، (شطن). ومعنى

= قال ابن كثير بعد أن ساق بعض طرق الحديث: «فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته. والله أعلم» اهـ من التفسير (١٦٦/٢) وانظر في الكلام على سنه: مجمع الزوائد (١٥٩/١ - ١٦٠)، الفتح الرباني (٢٩/١٩)، تعليق شاعر على ابن جرير (٥٣/١١ - ٥٤)، ضعيف سنن النسائي ص ٢٤٢، الجامع لشعب الإيمان (هامش) (١٧٨/٧).

(١) البيت في المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما ص ٥٢٤، القرطبي (٩٠/١)، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢) والمثبت في هذه المصادر: «وهن يهوينني».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يستر المصلي حديث (٥١٠)، (٣٦٥/١).

(٣) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما. (مادة: شطن) ص ٥٢٤، وباب الشين والياء وما يثلثهما. (مادة: شيط) ص ٥٤٥، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢)، (مادة: شيط) (٣٨٩/٢)، الدر المصون (١٠/١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٥٣.

(٤) الكتاب (٢١٧/٣ - ٢١٨).

هذه المادة في لغة العرب معناها: البعد، فكل شيء شطن فهو بعيد جداً. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(١):

نأت بسعادَ عنكَ نوى شَطُون فبانَتْ والفؤادُ بها حزين

«نوى شطون» أي: بعيدة. ومما يدل على أن (الشیطان) أصله من (شطن) قول أمية بن أبي الصلت الثقفي - وهو عربي فُح - يمدح سليمان بن داود (عليهما الصلاة والسلام وعلى نبينا)، قال في مدحه^(٢):

أي شاطِن عصاء عكاه ثم يُلْقَى في السَّجْن والأكبال

عُبر عن (الشیطان) بالشاطن، والشاطن: اسم فاعل (شَطَنَ) أصله من (شطن) ومعنى بُعد. وهذا مما يؤيد أن مادة (الشیطان) من (شَطَنَ) بمعنى بُعد. ومناسبتها للتسمية هي بُعدُه عن رحمة الله - والعياذ بالله (جل وعلا) - وعلى هذا القول أن (الشیطان) من مادة (شَطَنَ) فوزنه بالميزان الصرفي (فِعال).

القول الثاني: أن (الشیطان) أصله من مادة (شاط يشيط) إذا هلك، والعرب تقول: (شاط يشيط) إذا هلك، وعليه فإنما سُمي شيطاناً لهلاكه - والعياذ بالله - لأنه هالك مخلص يوم القيامة في عذاب الله. والعرب تقول: (شاط يشيط). إذا هلك، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس^(٣):

قد نَحْضِبُ العيرَ من مكنونِ فائِلِه^(٤) وقد يَشِيطُ على أرماحنا البطلُ

(١) البيت للنابعة، وهو في ديوانه ص ٧٢ والمثبت في الديوان وغيره من المصادر التي وقفت عليها: «رهين» بدلاً من: «حزين».

(٢) البيت في المقاييس في اللغة ص ٥٢٥، ابن جرير (١/١١٢)، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢)، القرطبي (١/٩٠)، الدر المصون (١/١٠).

ومعنى (عكاه) أي: شدّه.

(٣) البيت في القرطبي (١/٩٠)، اللسان (مادة: شيط)، (٢/٣٩٣).

(٤) الفائل: عرق في الفخذين يكون في خربة الورك.

يعني بقوله: (يشيط) أي: يموت ويهلك. وعلى هذا فوزن (الشيطان) بالميزان الصرفي: (فَعْلَان) فعلى أنه من (شاط) فوزنه: (فَعْلَان)، وعلى أنه من (شَطَن) فوزنه: (فَيْعَال)، هذا وزنه بالميزان الصرفي، واختلاف العلماء في اشتقاقه ومعناه.

والمراد بالشيطان هنا: جنس الشيطان، وهو إبليس وذريته، والعياذ بالله من تضليلهم.

﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الشيطان يزين للكفرة والعصاة أعمالهم الخبيثة، وذلك التزيين إنما هو بالوسوسة، يوسوس لهم، وينفث في قلوبهم ما يزين لهم به المعاصي والكفر - والعياذ بالله - وهذا معنى قوله: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٤].

﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ النسيان هنا معناه: الترك عمداً.

وقد بينا أن مادة (النسيان) تطلق في القرآن وفي اللغة العربية إطلاقين^(١):

يطلق (النسيان) على ترك الفعل عمداً نحو قوله: ﴿سَأَوْا اللَّهَ فَاَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: آية ١٩] وكقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: آية ١٤] والله لا ينسى أبداً النسيان الذي هو زوال العلم؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يَعْصِلُ رِيقِي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: آية ٥٢] ويقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٤] فهذا الاصطلاح تقول العرب: «أمرت زيداً فنسي أمرى». يعنون تركه عمداً.

الثاني: هو (النسيان) بمعنى زوال العلم. كالنسيان الاصطلاحي المعروف. ومنه قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنعام.

أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: آية ٦٣] وقوله: ﴿وَمَا يُسَيِّنُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ [الأنعام: آية ٦٨] ﴿اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَالْأَنفُسُ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: آية ١٩] هذا (النسيان) بمعنى زوال العلم، والمراد في الآية: النسيان بمعنى الترك عمداً، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا سُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٤] أي: تركو عمداً ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكرهم الله به من البأساء والضراء، فلم يتضرعوا في حالة الضر، ولم يشكروا في حالة النعيم؛ لأن الله بين أن الكافر عند حالة النعماء أنه فخور أشير بطر، وعند حالة الضراء يؤوس قنوط، لا يدعو الله، ولا يضرع إليه، كما قال: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا ۗ وَلَئِنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ۚ﴾ [هود: الآيتان ٩ - ١٠] هو فخور فرح أشير بطر وقت العافية، يؤوس قنوط وقت الشدة. وهذا قد استثنى الله منه عباده المؤمنين، حيث قال في سورة هود، لما ذكر هذه الصفات الذميمة عن الإنسان، استثنى منها المؤمنين الطيبين، قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ [هود: آية ١١] وقد بين النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن المؤمن الطيب مخالف لهذه الصفات الخبيثة حيث قال ﷺ: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس هذا إلا للمؤمن»^(١). المؤمن عندما يأتيه البأساء والضراء يضرع إلى رب العالمين صابراً محتسباً فيثبته الله، ويعظم له الأجور، وإذا كان وقت السراء، وأنعم الله عليه، كان شاكراً نعم الله، مراعيّاً بذلك حقوق الله (جل وعلا)، ويكون ذلك خيراً له. وهذا أيضاً خير له، كما في الحديث الصحيح.

ومعنى قوله: ﴿فَلَمَّا سُوا﴾ أي: تركوا وأعرضوا عما ذكروا به من البأساء والضراء، حولنا لهم البؤس إلى نعمة ﴿فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ أَبَوَابُ كُلِّ

(١) أخرجه - بنحوه - مسلم في صحيحه، من حديث صهيب (رضي الله عنه)، كتاب الزهد

والرقاق، باب: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم (٢٩٩٩)، (٤/٢٢٩٥).

﴿شَيْءٍ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا الشامي - أعني ابن عامر -:
﴿فَتَحَّنَا﴾ بتخفيف التاء. وقرأه ابن عامر من السبعة ﴿فَتَحَّنَا﴾ بتشديد
التاء^(١).

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ أَتَوَبَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ في هذه الآية الكريمة سؤال
معروف، وهو أن يقول طالب العلم: كيف قال الله: ﴿فَتَحَّنَا عَلَيْهِمْ أَتَوَبَ
كُلُّ شَيْءٍ﴾ وهو أصدق من يقول، مع أن كثيراً من الأشياء لم تفتح
عليهم أبوابه، لم تفتح عليهم أبواب الهدى، ولا أبواب التوفيق، ولا أبواب
طاعة الله، ولا أبواب خيرات الجنة. ويصدق عليها اسم (الشيء)؟

وللعلماء عن هذا جوابان^(٢):

أحدهما: ما قاله بعض العلماء أن المعنى: فتحنا عليهم أبواب كل
شيء مما كنا أغلقناه عليهم أيام الابتلاء بالشر. يعني فتحنا لهم أبواب
الصحة وقد كانت مغلقة أيام المرض، وفتحنا لهم أبواب الغنى بعد أن كانت
مغلقة أيام الامتحان بالشر وهكذا.

الوجه الثاني: أن هذا من العام المخصوص، وجرت العادة في القرآن
بأن يذكر الله (كل شيء) وهو يُراد به أنه عام مخصوص. كقوله في بلقيس:
﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: آية ٢٣] مع أن بعض الأشياء لم تُؤتَ
بلقيس. وكقوله في مكة المكرمة حرسها الله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ تُمَرَّتُ
كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: آية ٥٧] مع أن بعض الثمار لا يُجبي إليها. فهذا من
العام المخصوص، وهو أسلوب عربي معروف، وتذكر العرب مثل هذا
تقصد به الأغلبية. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَحَّنَا عَلَيْهِمْ أَتَوَبَ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٤] يعني ولم يزل ذلك الفتح
ممتداً إلى غاية، هي كونهم فرحوا بما أُوتوا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٤.

(٢) انظر: ابن جرير (٣٥٨/١١)، القرطبي (٤٢٦/٦)، الموافقات (٢٦٨/٣ - ٢٨٦)، قواعد
التفسير ص ٦٠٨.

أي: ما أعطوا من الصحة بدل المرض، ومن الغنى بدل الفقر، ومن الري والشبع بدل الجوع، فرحوا بهذا فَرَحٍ أَشْرٍ وَبَطَرٍ، لأنه ما كل فرح مذموم؛ لأن الفرح المذموم: هو الفرح بالدنيا المحضه، والأشْر والبَطَر، لا من حيث أنها تُقرب إلى الله ولا ترضيه. هذا الفرح المذموم المصحوب بالأشْر والبَطَر، وعندما فعلوه أهلكهم الله. وهذا هو الذي ذم الله به الإنسان بقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] أما الفرح بالخير، والفرح بالدين، ومعرفة القرآن فهذا أمر مطلوب من كل مسلم، كما نص الله على ذلك أمراً به بالسورة الكريمة - سورة يونس - حيث قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] ولام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ تدل على أن ذلك النوع من الفرح مأمور به من الله. والأمر إن تجرد من القرائن اقتضى الوجوب، كما هو معروف في فن الأصول^(١).

وقوله هنا: ﴿فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: بما أعطوا من الصحة، والعافية، والغنى، والأموال، والدعة، والراحة، فرح بَطَرٍ وَأَشْرٍ، حتى إذا حصل فيهم ذلك: ﴿أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً﴾ قَدَمْنَا أَنْ (الأخذ) إذا أسند إلى الله هو الأخذ بقوة وشدة^(٢). كما قال: ﴿إِنْ أَخَذَهُ إِلَهِمْ سَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مصدر مُنْكَرٌ بمعنى الحال^(٣). ومعنى البغته: الفجأة. وذلك أشد ما يُؤخذ به الإنسان؛ لأنه إذا علم بالعذاب قبل نزوله يكون مُتَجَلِّداً مستعداً. أما إذا بغته قبل استعداد له فهذا أشد وأنكى؛ ولأجل هذا بعينه أخبر الله المؤمنين بالبلايا التي تَرِدُ عليهم قبل أن تقع؛ ليكونوا مستعدين لها، ولئلا تفاجئهم. حيث قال لهم: ﴿وَلَسَنُؤْتِكُمْ شَيْئاً مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] أخبرهم بأن

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣٩/٣)، أضواء البيان (٢٦٠/١)، (٢٢٢/٣)، ٣٥٧، (٤٤٢)، (٥٠٥/٤)، (١١٣/٥)، (١١٤)، (٢٤٥)، (٢١٦/٦)، (٢٣١)، (٢٥٣)، قواعد التفسير ص ٤٧٩.

(٢) مضى قريباً عند تفسير الآية (٤٢).

(٣) انظر: القرطبي (٤٢٦/٦).

الابتلاء سيأتيهم؛ لئلا يباغتهم، ويكونوا مستعدين له قبل نزوله، ولذا قال: ﴿أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الفاء) فاء السببية، و(إذا) هي الفجائية^(١)، و(المبلسون): جمع المبلّس، والمبّلس: اسم فاعل الإبلّاس. و(الإبلّاس) في لغة العرب يطلق على معانٍ متقاربة، هو في الحقيقة يرادف الوجوم، والوجوم هو: أن يكون الإنسان ساكناً منقطعاً لا يقدر أن يتكلم؛ لشدة اليأس من الخلاص من البلايا والدواهي التي وقع فيها. ومعنى ﴿مُبْلِسُونَ﴾: آيسون قانطون مما وقعوا فيه من عذاب الله - والعياذ بالله - إياساً وقنوطاً يمنعهم من أن يتكلموا. فمعناه: ساكتون لا يُحिरّون جواباً من شدة اليأس والقنوط مما نزل بهم - والعياذ بالله - وكل من دهاه أمر فتحيّر غير قادر أن يتكلم لشدة الأمر الذي دهاه تقول له العرب: (أُبْلَسَ)^(٢). وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول رؤية بن العجاج^(٣) في رجزه:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسَماً مُكْرَساً^(٤) قال: نعم أعرفه وأبلسا
أي: تحير مندهشاً لا يقدر أن يتكلم. وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

قال بعض العلماء: اشتقاق (إبليس) من (الإبلّاس)^(٥)، وهو اليأس الشديد، والقنوط من الخير، حتى يبقى صاحبه ساكناً لا يُحير جواباً.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: آية ٤٥] (الدابر): اسم فاعل دَبَرَ القومَ يَذْبُرُهُم، العرب تقول: «دَبَرَهُ يَذْبُرُهُ» إذا كان يمشي خلفه؛ لأنه يمشي عند دُبْرِهِ^(٦). كما تقول العرب: «قَفَاهُ». إذا كان

(١) انظر: البحر المحيط (١٣١/٤)، الدر المصون (٦٣٤/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٦٠/١١ - ٣٦٣)، القرطبي (٤٢٦/٦)، البحر المحيط (١٣١/٤)، الدر المصون (٦٣٥/٤).

(٣) البيت في: ابن جرير (٥٠٩/١)، (٣٦٣/١١)، القرطبي (٤٢٧/٦).

(٤) المكرس: الذي صار فيه الكرس، وهو أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار.

(٥) انظر: ابن جرير (٥٠٩/١)، القرطبي (٤٢٧/٦).

(٦) انظر: ابن جرير (٣٦٤/١١)، القرطبي (٤٢٧/٦)، البحر المحيط (١٣١/٤).

يمشي عند قفاه ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة: آية ٨٧] وأولاد الناس كأنها دابر لهم يدبرهم ويتبعهم، كلما انقضى قرن دبره قرن. أي: كان ذلك القرن تابعاً له، كأنه يمشي عند دبره كما يمشي التابع عند دبر المتبوع، فالدابر يُقال للخلف، وآخر القوم، كأولادهم. ومعنى (قُطِعَ دابرهم): استؤصلوا ولم يبق منهم تابع؛ لإهلاك الأولاد مع الآباء، حتى ينقرضوا كلاً - والعياذ بالله جل وعلا - وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقفي^(١):

فأهلكوا بعدابٍ حصَّ دابرهم فما استطاعوا له صَرْفاً ولا انتصروا

(حصص دابرهم): يعني قطع دابرهم، وأهلك البقية، فلم يبق منهم تابع؛ لأن الولد كأنه دابر للوالد، أي: تابع له يقفوه من بعده ويحيي ذكره بعد موته. ومعنى: (قُطِعَ الدابر) أنه هلك الأولاد والآباء، وانقضى الجميع، فلم يبق منهم تابع. وهذا معنى قوله: ﴿نَقَطَ دَابِرَ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

و(الظلم) هنا معناه: الشرك. كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: آية ١٠٦].

ثم قال: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٤٥] أثنى الله (جل وعلا) على نفسه الكريمة بهذا الثناء العظيم؛ ليُعَلِّمَ خلقه أن يحمداوا الله (جل وعلا) ويشنوا عليه عند إهلاكه الظلمة الذين ليس فيهم خير، وليس فيهم إلا الشر للبلاد والعباد، فإراحة المسلمين من الظلمة الذين ليس فيهم إلا الضرر، من غير أن يكون هنالك نفع، نعمة من نعم الله، علَّم الله خلقه أن يحمده عليها.

(١) البيت في ابن جرير (٣٦٤/١١)، القرطبي (٤٢٧/٦)، الدر المصون (٦٣٥/٤).

و(الحمد) في لغة العرب^(١): هو الثناء^(٢) باللسان على المحمود بجميل صفاته، سواء كان من باب الإحسان، أو من باب الاستحقاق. وهو معنى معروف في كلام العرب.

و(الشكر) في لغة العرب^(٣): فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه مُنعمًا. إلا أن الشكر اصطلاحاً هو الحمد لغة، والحمد لغة هو الشكر اصطلاحاً^(٤).

والمعنى: كل ثناء جميل ثابت لخالق/ السماوات والأرض. فمعنى: ٣/ب ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه سيد الخلائق ومُدبّر شؤونهم الذي لا يستغنون عنه طرفة عين، وكل من يُدبّر الأمور ويسوسها تقول العرب له (رباً)، و(الرّبّابة): سياسة الأمور وتدبيرها، تقول العرب: «فلان رب هذا الحي». يعنون: أنه هو المدبّر شؤونهم. وهو معنى معروف في كلام العرب^(٥)، ومنه قول علقمة بن عبدة التميمي^(٦):

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رَبَابَتِي وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي فَضِغْتُ رُبُوبُ

معنى: (ربتني ربوب) أي: ساستني ساسة، وملكتني ملوك قبلك.

وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: «رَبَّهُ يَرْبُهُ»، إذا ساسه ودبّر شأنه. وقد عرفت في السيرة أن صفوان بن أمية بن خلف طلب من النبي ﷺ مهلة ينظر في نفسه، واستعار النبي ﷺ منه بعض السلاح

- (١) انظر: المفردات (مادة: حمد)، ص ٢٥٦، المصباح المنير (مادة: حمد) (٥٧ - ٥٨).
- (٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الحمد: الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها» ١. هـ (الفتاوى ٣٧٨/٨، وانظر ٢٥٩/٦، ٢٦٦)، واللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ص ٢١٣.
- (٣) راجع ما مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.
- (٤) انظر: الكليات ص ٣٦٦، ٥٢٣، ٥٣٤، ٥٣٥، وفي الفرق بينهما راجع (اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ص ٢١٤).
- (٥) انظر: المفردات (مادة: رب) ص ٣٣٦ - ٣٣٧.
- (٦) البيت في المجمل ص ٢٧٩، المفضليات ص ٣٩٤، المفردات (مادة: رب) ص ٣٣٧.

والدروع، وحضر مع النبي ﷺ غزوة حنين، وكان معه رجل آخر، فلما وقع بالمسلمين ما وقع، حيث صلوا الصبح في غلس الصبح، تبقى بقية من الظلام، وانحدروا في وادي حنين، ووجدوا مالك بن عوف النصري ألبس لهم هوازن في مضيق من مضايق وادي حنين، وشدوا عليهم شدة رجل واحد، وهم في غفلة، حتى كانت الرماح والسهام كأنها مطر ترعزه الريح، ووقع بالمسلمين ما وقع حيث قال الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَرِّبِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] فعند هذا قال ذلك الرجل الذي مع صفوان^(١): الآن بطل سحر محمد ﷺ. وظنوا أن الهزيمة ستستمر، وأن هوازن يغلبونه ويملكون. فقال له صفوان بن أمية - وهو عدو في ذلك الوقت للنبي ﷺ - قال لذلك الرجل: اسكت فض فوك، لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن^(٢). قوله: «يربني» يعني: يسودني فيسوسني ويدبر شؤوني. هذا أصله معنى (الرب). والرب الحقيقي الذي يدبر خلائق الكون هو خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، لا تقع في الدنيا تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته وتدبيره.

و ﴿الْعَالَمِينَ﴾: يطلق على أهل السماوات وأهل الأرض وما بينهما^(٣)، فالعالم اسم لما سوى الله، وقد دلت آية من سورة الشعراء أن (العالمين) شامل لأهل السماوات والأرض وما بينهما، حيث قال الله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ﴿١٢٣﴾

- (١) وهو كلداء بن حنبل، ويقال: ابن عبدالله بن الحنبل، وسماه ابن إسحاق: جبلة بن الحنبل. انظر السيرة لابن هشام ص ١٢٩٠، وفي الإصابة (٣/٣٠٥): «كلدة بن حسل. ويقال: ابن عبدالله بن الحسل. وعند ابن قانع: كلدة بن قيس بن حسل» أ.هـ.
- (٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٢٨/٥)، والطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٢٨٦، ١٢٩٠، والهيثمي في المجمع (٦/١٧٩ - ١٨٠) وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٧) وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص ٤٢٢، وانظر: مرويّات غزوة حنين (١/١٤٣، ١٦٣).
- (٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

[الشعراء: الآيتان ٢٣ - ٢٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنِ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٦].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ «أَرَأَيْتُمْ»: معناه أخبروني. وقد قدمنا^(١) أن العرب تطلق (أرأيت) بمعنى: أخبرني، وتستعملها استعمالين، إذا جعلت معها الكاف، كقوله: «أرأيتك» أو: «أرأيتكم» لزمت التاء الفتح، وكانت الكاف تتغير بحسب تغير المخاطب، وإذا حذفوا منها الكاف، كانت التاء تتغير بحسب تغير المخاطب، وهي معناها: أخبرني.

والمحققون من علماء العربية: أنها مع تحويل معناها إلى (أخبرني) أنها تطلب مفعولين، وهي ومفعولاها بمعنى: أخبرني عن كذا. وعليه فقوله هنا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني. المفعول الأول: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله من هو الذي يأتيكم بها؟ فالمفعول الأول في قوله: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله، من هو الذي يأتيكم [بها]^(٢)؟ والمفعول الثاني: الجملة^(٣).

أولاً: هذه الآية تهديد للخلائق، وهو أن الله (جل وعلا) أعطاهم هذه العيون التي يبصرون بها، وهذه الأذان التي يسمعون بها، وهذه القلوب المشتملة على العقول التي يفهمون بها، وهذا أعطاهم لهم لأجل أن يعتبروا هذه النعم فيشكروا لمن من بها فيطيعوه، كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: لأجل أن تشكروا له هذه النعم فتطيعوه، كأنه يقول لهم هنا: هذه النعم الجلائل التي أنعمت بها عليكم من

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ - ٤١) من هذه السورة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قال في الدر المصون (٦٣٥/٤): «المفعول الأول محذوف تقديره: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله. والجملة الاستفهامية في موضع الثاني» ١. هـ ولأبي حيان نحوه في البحر المحيط (١٣٢/٤).

هذا البصر الذي تبصرون به، والسمع الذي تسمعون به، والقلب الذي تفهمون به، منحتكم إياها لتشكروني ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٧٨] لما كفرتم نعمي أخبروني إن أخذت نعمي، وسلبتها منكم، فتركتكم عمياً بعد الإبصار، وتركتكم صُمّاً بعد السماع، وتركتكم لا عقول لكم بعد الإدراك، فصرتم لا بصر عندكم تبصرون به، ولا سمع تسمعون به، ولا عقل تفهمون به، من هو الذي يقدر أن يرّد عليكم هذه المنافع، ويجعلكم تسمعون وتبصرون وتفهمون؟! المعنى: لا أحد يقدر أبداً على ذلك إلا الله وحده. يعني: لما كان إنعام الله عليكم بهذه المثابة، وقدرته على سلب إنعامه عنكم بهذه المثابة، ما كان ينبغي لكم أن تتمردوا، وتكفروا، وتصرفوا نعمه (جل وعلا) فيما يسخطه. وهذا في الحقيقة أمرٌ يعرق منه الجبين، ويخجل منه من له عقل، أن الله مع عظمته، وجلاله، وكماله يمنّ على الواحد منا مع ضعف المسكين وحقارته، ويمنّ عليه بهذه النعم، ويفتح له هاتين العينين في هذا الوجه، على هذا الأسلوب الجميل الغريب، ويعطيه هذا السماع، ويعطيه هذا العقل، ثم يصرف هذه النعم فيما يسخط خالقه (جل وعلا)، فهذا أمر فظيع، يعرق منه جبين العاقل، ويستحي منه من له عقل.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أرأيتم - أخبروني - أيها الناس ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ في أخذه السمع وجهان^(١):

أحدهما: أنه يأخذ الأذن بحاستها، ولا يترك لها أثراً، ويأخذ العين حتى يترك الوجه مطموساً، كما قال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: آية ٤٧].

الوجه الثاني: أن المعنى أنه يأخذ حاسة الإبصار، والسمع، والعقل، وإن كانت الجوارح باقية؛ لأن صورة العين إذا نزع منها الإبصار لا فائدة فيها، وجرم الأذن إذا نزع منه السماع لا فائدة فيه. هذان الوجهان معروفان.

(١) انظر: القرطبي (٤٢٨/٦)، البحر المحيط (١٣٢/٤).

وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و ﴿إِلَهٌ﴾ خبره، و ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ نعت للإله. والفعل في قوله: ﴿يَأْتِيَكُم بِهِ﴾ في محل النعت أيضاً. مَنْ إله غير الله يردده عليكم^(١)؟

في هذه الآية الكريمة سؤالان عربيان معروفان:

أحدهما: أن الله هنا أفرد السمع، وجمع الأبصار والقلوب، حيث قال: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فجمع الأبصار، وجمع القلوب، وأفرد السمع ولم يجمعه، وهكذا في سائر القرآن، يجمع ما ذكر مع السمع، ويُفرد السمع، ولا يجمعه في القرآن؟

السؤال الثاني: أن الله ذكر أشياء متعددة في قوله: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ ثم ردّ عليها ضمير اسمه الواحد في قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِهِ﴾ بضمير مذكر مفرد؟

هذان السؤالان العربيان في هذه الآية الكريمة. والجواب عنهما معروف من لغة العرب.

أما الجواب عن الأول - وهو إفراد السمع في سائر القرآن - فلعلماء العربية فيه وجهان معروفان:

أحدهما^(٢): أن أصل (السمع) مصدر، وأنه مصدر: سمعه، يسمعه، سمعاً، والعرب إذا نعت بالمصدر ألزمته الإفراد والتذكير، كما قال ابن مالك في الخلاصة^(٣):

وَنَعَتْوَا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ
وقالوا لأجل هذا: لم يُجمع السمع في القرآن أبداً.

(١) انظر: القرطبي (٤٢٨/٦)، الدر المصون (٦٣٦/٤).

(٢) انظر: القرطبي (١٩٠/١)، (٤٢٧/٦)، البحر المحيط (٤٩/١)، الدر المصون (١١٤/١).

(٣) الخلاصة ص ٤٥، وانظر شرحه في الأشموني (٦٨/٢).

الوجه الثاني^(١): هو ما تقرر في علوم العربية: أن كل مفرد هو اسم جنس فمن أساليب اللغة العربية أن يُطلق مفرده مُراداً به الجمع، نظراً إلى أن أصله اسم شامل للجنس. وهذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب في حالاته الثلاث، أعني بقولي: «في حالاته الثلاث» أن يكون مُتَكْرَراً، وأن يكون مُعَرَّفاً بالألف واللام، وأن يكون مضافاً.

فمن أمثله في القرآن واللفظ مُتَكْرَر: ﴿إِنَّ الْتَّائِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۝٥٤﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار، بدليل قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية. [محمد: آية ١٥] وكقوله: ﴿وَأَجْعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٤] يعني: أئمة، وكقوله: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج: آية ٥] يعني: أطفالاً، وكقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] يعني: سامرين تهجرون، وكقوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ حُبًّا فَاطْهَرُوا﴾ [المائدة: آية ٦] ويعني: إن كنتم جنبيين أو أجنبياً. وقوله: ﴿وَحَسِّنْ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: آية ٦٩] أي: رفقاء ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ قَسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفساً. ﴿وَالْمَلِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: آية ٤] مظاهرون. وهو كثير جداً.

ومن أمثله في القرآن واللفظ مُعَرَّف قوله جل وعلا: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: آية ١١٩] يعني: بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥] ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: آية ١٥] وقوله: ﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر: آية ٢٢] يعني: الملائكة، بدليل قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ لأن الملك الواحد لا يكون صفّاً صفّاً، وكما يدل عليه قوله في البقرة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلِكَةُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وكقوله: ﴿سَيَهْرُمُ لَجَعٌ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: آية ٤٥] يعني: الأدبار، بدليل قوله: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١٢٩/٣ - ١٣٦)، البحر المحيط للزركشي (٩٧/٣)، ١٠٨،

١٤٦، أضواء البيان (٩٢/١، ٢٥٣/٣)، (٣٣٢/٤)، (٢٩/٥)، (٧٧٦)، (٧٣٠/٧)،

[الأنفال: آية ١٥] وكقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] يعني: الغرف، بدليل قوله: ﴿لَكُمْ عُورٌ مِّنْ قَوْفِهَا عُورٌ مَّيْنَةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠] ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ يعني: الأعداء. وهو كثير جداً.

ومن أمثله واللفظ مضاف قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله، وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحِجَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: آية ٦١] أي: أصدقاؤكم. وهو كثير في القرآن.

والشيخ سيبويه في كتابه^(١) يقول: «إن اسم الجنس إذا كان مفرداً: يوجد قصد الجمع به بقلة»، ونحن نقول: بتتبع القرآن واللغة العربية فهو بكثرة، عكس ما قاله الشيخ عمرو سيبويه - رحمه الله - وهو كثير في كلام العرب، ومن أمثله في كلام العرب: ما أنشده سيبويه في كتابه من قول علقمة بن عبدة التيمي^(٢):

بِهَا جِيفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ، وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ
يعني: وأما جلودها فضليبة. وأنشد له أيضاً سيبويه قول الآخر^(٣):

كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعْفُوا فَإِنْ رَمَائِكُمْ زَمَنْ خَمِيسٌ
أنشد له هذين البيتين فقط، وهو في كلام العرب كثير، ومنه قول عقيل بن علفة المري^(٤):

وَكُنْ بَنُو فَزَارَةَ شَرٌّ عَمَّ وَكُنْتُ لَهُمْ كَشَرُ بَنِي الْأَخِينَا
يعني بقوله: «شر عم» شر أعمام. ومنه قول العباس بن مرداس السلمي^(٥):

(١) الكتاب (٢٠٩/١ - ٢١٠).

(٢) البيت في المصدر السابق، المفضليات ص ٣٩٤، الدر المصون (١١٤/١).

(٣) البيت في الكتاب (٢٠٩/١)، المحتسب (٨٧/٢).

(٤) البيت في الخزنة (٢٧٦/٢)، اللسان (مادة: أخوا) (٣١/١).

(٥) البيت في ديوانه ص ٧١، الخصائص (٤٢٢/٢)، الخزنة (٢٧٧/٢)، اللسان (مادة: أخوا) (٣١/١).

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخَوَكُم وقد سَلِمَتْ من الإخْن الصدور
يعني: إِنَّا إِخْوَانُكُمْ. ومنه قول جرير^(١):

إِذَا أَبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُذُّوا أَبَانَ الْمُقْرِفَاتِ مِنَ الْعِرَابِ
يعني: وَأَبَاؤُكَ. ومنه قول قعنب بن أم صاحب^(٢):

مَا بَالُ قَوْمٍ صَدِيقٍ ثُمَّ لَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ وَلَيْسَ لَهُمْ دِينٌ إِذَا اثْتَمِنُوا
قال: «ما بال قوم صديق» يعني: أصدقاء. ومن هذا المعنى - بنفسه -
قول جرير قال^(٣):

تَصَبَّنَ الْهَوَىٰ ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا بِأَعْيُنٍ أَعْدَاءٍ وَهَنَّ صَدِيقُ
يعني: وهن صديقات. ومن هذا المعنى قول الآخر^(٤):

يَا عَاذِلَاتِي لَا تَزِدْنَ مَلَامَةً إِنْ الْعَوَاذِلَ لَيْسَ لِي بِأَمِيرٍ
وهو كثير جداً. والقصد التمثيل، وعلى هذا خرَج بعضهم [إفراد]^(٥)
(السمع)؛ لأنه اسم جنس أطلق وأريد به الجمع، كما بيَّنا نظائره في القرآن،
وفي لغة العرب.

الجواب الثاني: عن رجوع ضمير مذكر مفرد إلى أشياء متعاطفة حيث
قال: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾

(١) ديوان جرير ص ٢٩.

(٢) البيت في اللسان (مادة: صدق) (٤٢١/٢)، أضواء البيان (٣٠/٥) ولفظ شطره الثاني
فيهما:

دين وليس لهم عقل إذا اثتمنوا
(٣) ديوان جرير ص ٣١٥.

(٤) البيت في الخصائص (١٧٤/٣)، مغني اللبيب (١٧٧/١) ولفظه فيهما:
يَا عَاذِلَاتِي لَا تَرْدَنَ مَلَامَتِي إِنْ الْعَوَاذِلَ لَسَنَ لِي بِأَمِيرٍ
وأما اللفظ الذي ذكره الشيخ هنا فهو المثبت في الأضواء (٣٠/٥).
(٥) ما بين المعقوفين [] زيادة يقتضيها السياق.

يُجَاب عنه بجوابين^(١):

أحدهما: أن قوله: (به) أي: بما ذكر، أي: بذلك الشيء المأخوذ، وهذا معروف في كلام العرب، ولما قال رؤبة بن العجاج في رجزه القافية المشهورة، قال فيها^(٢):

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبلق كأنه في الجلدِ تُولِيعُ البَهَقِ
فقال له واحد: لِمَ قلت: كأنه بالإنفراد؟ إذا كنت تعني (الخطوط) لا بد أن تقول: «كأنها»، وإذا كنت تعني (السواد والبلق) لا بد أن تقول: «كأنهما»، فمن أين قلت «كأنه» بالإنفراد؟

قال له: (كأنه) أي: ما ذكر.

الوجه الثاني: هو ما عُرف في القرآن، وفي لغة العرب، أنه قد تأتي المتعاطفات سواء كانت متعاطفات بـ(واو)، أو متعاطفات بـ(أو)، أو متعاطفات بـ(فاء)، ويرجع الضمير على واحد منها، وتكون الآخر مفهومة من ذلك^(٣)؛ لأنه لما رجع على واحد فهم أن الباقي مثله، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب. فمن أمثله في القرآن في العطف بـ(أو): ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ [البقرة: آية ٢٧٠] وقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾ [النساء: آية ١١٢] بالإنفراد، وقال (جل وعلا) في مثل هذا: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] فرده إلى التجارة دون اللهو. وفهم منه أن اللهو كذلك انفضوا إليه أيضاً. مع أنه ربما رجع لهما معاً، كقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] وهو في العطف بـ(الواو) - كما هنا - كثير جداً، ومنه قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ﴾

(١) انظر: ابن جرير (٣٦٦/١١ - ٣٦٧)، القرطبي (٤٢٨/٦)، البحر المحيط (١٣٢/٤)، الدر المصون (٦٣٦/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٥] وقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] وقوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢] وقول جل وعلا: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وهو كثير في القرآن، ومن أمثله في كلام العرب قول نابغة ذبيان^(١):

وقد أراني ونُعماً لاهيين بها والدهر والعيش لم يههم بإمرار
ولم يقل: «يهما».
وقول الآخر^(٢):

إن شرخ الشباب والشعر الأسد ود ما لم يُعاص كان جثونا
ولم يقل: (ما لم يُعاصيا). هذا كثير في كلام العرب.
ومن أمثله في المتعاطفات بالفاء: قول امرئ القيس في معلقته^(٣):
فَتُوضَحَ فَاَلْمِقْرَاةَ لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا
.....

فرد الضمير على أحدهما، وهذا كثير في كلام العرب.
وأظهر الوجهين: الأول، أن المعنى ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي:
بما ذكر مما أخذه الله منكم. كقوله جل وعلا: ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكُ عَوَانُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في الموضع السابق.

(٣) هذا هو الشطر الأول من البيت، وأما شطره الثاني فقوله:

لَمَّا نَسَجْتَهَا مِنْ جُثُوبٍ وَشَمَائِلَ
وقبله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وسقط اللوى: منقطع الرمل، والدخول وحومل: قيل إنهما موضعان في شرق اليمامة.
وتوضح والمقراة: قيل إنهما موضعان قريبان من الدخول وحومل.

يَبْرِكْ ذَلِكَ ﴿البقرة: آية ٦٨﴾ أي: ذلك المذكور، ولم يقل: «ذلكما»، ونظيره قول ابن الزبيري^(١):

إن للشر وللخير مدى وكلا ذلك وَجْهٌ وَقَبَلٌ

هذا معروف في كلام العرب، وهذا معنى قوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ وهذه الآية الكريمة ينبغي لكل مسلم أن يعتبر بها، فيعلم أن الله شَقَّ له في وجهه عَيْنَيْنِ، وصَبَغَ له بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، وأَعْطَاهُ لهما سَلَكاً من جفونه، وجعل لعينه شحماً لئلا يجففها الهواء، وجعل ماء عينه مِلْحاً لئلا تُتَنِّ الشحمة، وجعل له عقلاً، وهو هذا العقل الذي يميز به بين الأشياء، ويفعل^(٢) به هذه الأفعال الغريبة العجيبة، وأعطاه حاسة السماع، كل هذا أعطاه له ليذلل هذه النعم فيما يرضي ربه (جل وعلا)، فلا ينبغي منه ولا يَجْمَلُ به أن يستعين بنعم ربه على معصية خالقه (جل وعلا)، فهذا عمل لا يليق بعاقل. ثم إنه يُلاحِظ قدرة الله، وعظمته، وجلاله، وأنه قادر على أن ينزع منه السمع، والبصر، والعقل، فيتركه كالجماد لا يسمع شيئاً، ولا يبصر شيئاً، ولا يعقل شيئاً، فلا ملجأ له غير الله يزيل ذلك عنه؛ ولذا قال: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾.

ثم إن الله عَجَبَ نبيه من جرأة الإنسان، وجهله، وإعراضه عن الحق، مع فقره، وحاجته، وفاقته إلى ربه (جل وعلا)، فقال له: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ﴾ معنى تصريف الآيات: هو نقلها من حال إلى حال بأساليب واضحة بيّنة، تارة - يعني - بالوعيد، وتارة بالابتلاء بالسراء، وتارة بالضراء، بأنواع مختلفة من جهات مختلفة، ومع هذا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ بعض المحققين من العلماء يقول: إن (ثم) في هذا المكان^(٣) للاستبعاد^(٤)، وأن التراخي المفهوم بـ (ثم) أنها للاستبعاد؛ لأنه

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٣) في الأصل زيادة: (إنها).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (١٣٤/٣).

يستبعد عند العقول السليمة أن يكون الله مع عظمته وجلاله، ومع ما يُحسن به إلى الإنسان يُصَرَّف له الآيات، ومع هذا هو يصدف، أي: يُعرض. فمعنى قوله: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون، ويصدون، والعرب تقول: «صَدَفَ عنه، يَصْدِفُ، صَدَفًا وَصُدُوفًا»، إذا أعرض عنه ومال^(١).

و (صَدَفَ) تُستعمل استعمالين^(٢): تستعمل مُتعدية للمفعول، تقول: «صَدَفْتُهُ عن قوله». أي: صددته عنه حتى أعرض عنه. وتستعمل لازمة، صدف فلان عن كذا: إذا أعرض عنه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول ابن رواحة^(٣):

عجبتُ للطف الله فينا وقد بدأ له صَدَفْنَا عن كل وحي مُنْزَلٍ
صَدَفْنَا) أي: إعراضًا. ومن هذا المعنى قول ابن الرقاق يمدح نسوة، قال^(٤):

إذا ذكرنَ حَدِيثًا قُلْنَ أَحْسَنَهُ وَهَرْنَ عن كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صَدَفُ
جمع صادفة، أي: مُعرضات صادات عنه، وهذا يُستبعد؛ لأن (ثم) هنا للاستبعاد كما حققه بعض العلماء؛ لأنه يُستبعد ممن صَرَفَ له خالقه الآيات، ويَبَيِّن له هذا من البيان، يستبعد منه بعد هذا: الإعراض والصدود عن الله جل وعلا.

ومن إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر^(٥):

(١) انظر: ابن جرير (٣٦٥/١١ - ٣٦٦)، القرطبي (٤٢٨/٦)، الدر المصون (٦٣٦/٤).

(٢) انظر ما سيأتي عند تفسير الآية (١٥٧) من سورة الأنعام.

(٣) البيت في الدر المنثور (١٢/٣)، والأضواء (٢٨٣/٢)، وعزاه لأبي سفيان بن الحارث، ولفظ الشطر الثاني فيهما:

له صَدَفْنَا عن كل حق مُنْزَلٍ

(٤) البيت في ابن جرير (٣٦٦/١١)، القرطبي (٤٢٨/٦)، البحر المحيط (١١٧/٤)، الدر المصون (٦٣٦/٤)، الأضواء (٢٨٣/٢).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

ولا يكشف الغمَاء إلا ابن حُرّة يرى غَمَرَاتِ الموتِ ثم يزورها
لأن من عاين غمرات الموت يُستبعد منه اقتحامها والوقوع فيها. وهذا
معنى قوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧) [الأنعام: آية ٤٧] ﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾
أخبروني ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ كان الحسن البصري يقول:
﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ليلاً أو نهاراً^(١)، وهذا التفسير ليس كما ينبغي، بل
التحقيق أن معنى بغتة: أي: أتاكم العذاب في حال كونه باغتاً. أي:
مُفاجئاً^(٢) من أن تعلمونه بأسباب، ولا علم لكم به.

وقوله: ﴿جَهْرَةً﴾ أن يأتاكم العذاب بعد أن تُعاينوا أسبابه، وتروا
أوائله، حتى يقع بكم ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً وأنتم تنظرون إليه^(٣).

هذا التحقيق في الفرق بين البغته والجهرة هنا. إن أتاكم عذاب الله
مفاجئاً من غير أن يتقدم لكم به علم، أو جهرة بأن عاينتم مبادئه، ورأيتم
أول نزوله، حتى وقع جهاراً وأنتم تنظرون. ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾
هذا الاستفهام بمعنى النفي؛ ولذا جاء مُقابلاً بـ (إلا) التي تُقابل النفي^(٤).
والمعنى: ما يُهلك إلا القوم الظالمون الكافرون.

وفي الآية سؤال معروف: جاء في الأحاديث الصحيحة^(٥) أن العذاب
إذا نزل بقوم كفار شمل من فيهم من المسلمين، وهذه الآية بيّنت أنه لا
يُهلك إلا القوم الظالمون؟

(١) انظر: القرطبي (٤٢٩/٦).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٨٦/١١)، القرطبي (٤٢٩/٦).

(٣) انظر: ابن جرير (٣٨٦/١١).

(٤) انظر: الدر المصون (٦٣٧/٤).

(٥) ورد في هذا المعنى من حديث أم سلمة، وعائشة، وزينب بنت جحش (رضي الله
عنهن). انظر: جامع الأصول (٢٣١/٢)، (٤١٥/١٠)، (٧٢٦/١١).

أجيب عن هذا: بأن العذاب لو شمل وأهلك من هو معهم، أن هذا الهلاك تمحيص له، وأنه يبعث يوم القيامة في نعمة من الله ورحمة وأجور.

وقال بعض العلماء: لا يتعين هذا كما دلت عليه قصص الرسل؛ لأن الغالب أن الكلام في الأمم والرسل، والقرآن قد قص علينا أن كل أمة علم الله أن الهلاك سيأتيها أمر نبيها ومن معه فخرجوا منها ونجوا، كما ذكر أنه نَجَّى هُودًا بقوله: ﴿بَحَّتْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: آية ٥٨] ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِحَقِّنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: آية ٩٤] ﴿بَحَّتْنَا صَالِحًا﴾ [هود: آية ٦٦] إلى غير ذلك مما جاء مفصلاً في الآيات، وهذا يبين معنى قوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٧].

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَحْفَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٢) [الأنعام: الآيات ٤٨ - ٥٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩) [الأنعام: الآيتان ٤٨ - ٤٩].

كان كفار مكة يكثرون الاقتراحات على النبي ﷺ^(١) ومما يقترحون عليه أن يقولوا له: سل ربك أن ينزل علينا كثيراً من الأرزاق من خزائن رزقه، وأن يعلمنا بالغيب لنتقي ما يضر ونجتلب ما ينفع. ومما اقترحوا إنزال الآيات كما في قوله في هذه الآية السابقة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من هذه السورة.

ءَايَتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴿٩٠﴾ وقد بين الله بعض اقتراحاتهم في سُور من كتابه، كقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿وَقَالُوا لَن تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَحِيلٍ وَعَسَىٰ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ شَقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ لِزُفْيِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾، قال الله له: قل لهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ - ٩٣] وبين في آية الأنعام هذه أن الله ما أرسل المرسلين لتكون بيدهم خزائن السماوات والأرض، أو يكونوا ملائكة، أو يقترح عليهم من شاء كل ما شاء من التعتات، لا ليس الأمر كذلك ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ لا لأن تكون بأيديهم الخزائن، ولا ليكونوا ملائكة، ولا ليقترح عليهم كل متعت ما شاء أن يقترح عليهم، لا.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ صيغة الجمع في قوله: ﴿تُرْسِلُ﴾ للتعظيم، والمرسلون جمع (المُرْسَل)، والمراد بهم هنا: المرسلون من بني آدم، مع أن المرسلين يكونون من الآدميين ومن غيرهم كالملائكة، كما يأتي في قوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: آية ٧٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ حال^(١)، وقوله: ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ حال معطوفة على حال^(٢). والمعنى: ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين، وقد حُذِفَ هنا معمول البشارة ومعمول الإنذار، وتقديره: إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة وما عند الله من الخير، ومنذرين من عصاهم بالنار وما عند الله من النكال. فحذف المفعول والمُتَعَلِّقُ لدلالة الكلام عليهما.

وقد قدمنا غير ما مرة: أن (المُبَشِّر) اسم فاعل (التبشير). والتبشير والبشارة: هو الإخبار بما يسر، قال بعض العلماء: سُمي الإخبار بما يسر (بشارة): لأن الإنسان إذا سمع خبراً يسره أثر ذلك في دمه فجرى دمه

جرياناً من البشارة فظهر أثر ذلك على بشرته، ومنها - قالوا - سموها (بشارة).

والبشارة أغلب ما تُطلق على الإخبار بما يسر خاصة، وجاء في القرآن العظيم إطلاقها على الإخبار بما يسوء كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١].

والعلماء الذين يقولون بالمجاز في القرآن، معلوم أنهم يُسمّون مثل قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يجعلون هذا من نوع (الاستعارة العنادية)، و(الاستعارة العنادية) عندهم يقسمونها إلى: تهكمية، وتعليحية، كما هو معلوم في فن البيان^(١).

ومن منع المجاز في القرآن من العلماء - وهو الذي نرى أنه الأصوب - يقول: هذا أسلوب من أساليب اللغة العربية، فالعرب يستعملون البشارة غالباً فيما يسُر، وربما استعملوها فيما يسوء، إذا دلت على ذلك قرائن تفهمه، والكل أسلوب من أساليب اللغة العربية^(٢). ومعلوم عن العرب أنهم يطلقون البشارة نادراً على الخبر بما يسوء، ومن إطلاق البشارة على الخبر السيئ قول الشاعر^(٣):

وَبَشَّرْتَنِي يَا سَعْدُ أَنْ أَحْبَبْتِي جَفَوْنِي وَقَالُوا الْوَدَّ مَوْعِدُهُ الْحَشْرُ
فجفاء الأحبة أمر يسوء، والبشارة به بشارة بسوء، ومنه قول الآخر^(٤):

(١) انظر: جواهر البلاغة ص ٢٥١.

(٢) انظر: القرطبي (٢٣٨/١)، المفردات (مادة: بشر) (١٢٤ - ١٢٥)، البحر المحيط (١١١/١)، الدر المصون (٢٠٩/١ - ٢١٠).

(٣) البيت في البحر المحيط (١١١/١)، الدر المصون (٢١٠/١)، ولفظه الشطر الثاني هكذا:

جَفَوْنِي وَإِنْ الْوَدَّ مَوْعِدُهُ الْحَشْرُ

(٤) البيت في البحر المحيط (١١١/١)، الدر المصون (٢٠٩/١).

يُبَشِّرُنِي الْغُرَابُ بِبَيْنِ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلُّتُكَ مِنْ بَشِيرِ
هذا أسلوب عربي معروف، وعلماء البيان يسمونه نوعاً من أنواع
المجاز، ونوعاً من أنواع الاستعارة، يسمونه (الاستعارة العنادية)، كما بينا
أقسامها عندهم.

والقصر في قوله: ﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ هو الذي يسميه
البلاغيون: قصراً إضافياً^(١)؛ لأنه يرسلهم بأعمالٍ آخر طيبة من تعليم
الأدب، والمكارم، وغير ذلك مما هو زائد على البشارة والإنذار.

والبشارة: الإخبار بما يسر، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد
خاصة^(٢). والإنذار أخص من مطلق الإعلام؛ لأن الإنذار لا يطلق إلا على
إعلام مقترن بتهديد. فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، وهذا معنى
قوله: ﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاعنا بالجنة، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من
عصانا بالنار، ثم بين من هم المُبَشِّرُونَ، وما صفاتهم، ومن هم المُنْذِرُونَ
وما صفاتهم، فقال مبيناً صفات المُبَشِّرِينَ على ما يسمونه: (اللف و النشر
المرتب)، فمن آمن وعمل صالحاً فلهم البشارة العظمى؛ بأنهم لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون، مع ما ينالون من النعيم.

وقوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ أصل الإيمان في لغة العرب: التصديق^(٣). وهو
في اصطلاح الشرع: التصديق التام، أعني: التصديق من الجهات الثلاث،
وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل.
فالإيمان: قول وعمل^(٤)، كما عليه مذهب أهل السنة والجماعة، والآيات

(١) انظر: جواهر البلاغة ص ١٥٠.

(٢) انظر: المفردات (مادة: نذر) ص ٧٩٧.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

(٤) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨٣٠/٤ - ٨٥١)، (٨٨٥/٥ - ٨٨٩)، تعظيم قدر
الصلاة (٢٩٢/١ - ٤٣٧)، الإيمان لابن تيمية (١١٢ - ١٢٥، ١٣٥ - ١٤١، ١٥٢،
١٦٢، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٨ - ١٨١، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٤٥، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١ -
٢٨٧، ٣٠٠).

والأحاديث الدالة عليه لا تكاد تُحصى. في الحديث: «من صام رمضان إيماناً»^(١) فسمي الصوم: إيماناً. «من قام ليلة القدر إيماناً»^(٢) فسمي الصلاة: إيماناً ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَتَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل أن تُنسخ. وفي الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وستون» وفي بعض رواياته: «وسبعون بضعاً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»^(٣) وفي هذا الحديث الصحيح أن هذا الفعل - الذي هو إماطة الأذى عن الطريق - يُسمى: إيماناً كما هو معروف.

والعادة المقررة عند العلماء: أن الإيمان إذا جاء مطلقاً ولم يُعطف عليه العمل الصالح فهو يشمل الإيمان من الجهات الثلاث: يشمل إيمان القلب بالاعتقاد، وإيمان اللسان بالإقرار، وإيمان الجوارح بالعمل. وإذا عُطف عليه العمل الصالح، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [يونس: آية ٩] وقوله هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨] انصرف الإيمان إلى ركنه الأكبر، وهو الاعتقاد القلبي^(٤)، وصار الإصلاح بعده يُراد به الأعمال، كما قال تعالى هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبه، وأذعن، واعتقد ما يجب اعتقاده إثباتاً ونفياً، وأصلح - مع ذلك الإيمان القلبي عمَله - بجوارحه ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبه، وأصلح عمَل جوارحه، بأن امتثل الأوامر، واجتنب النواهي، هذا القسم من الناس هم المُبَشَّرُونَ الذين فيهم ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ وقال الله فيهم: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يوم القيامة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(١)(٢) كلاهما من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وقد أخرجهما الشيخان. انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥)، (٩١/١)، تطوع قيام رمضان من الإيمان (٣٧)، (٩٢/١)، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان (٣٨)، (٩٢/١)، وقد أخرجهما في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (١٩٠١، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٥٩، ٧٦٠)، (٥٢٣/١ - ٥٢٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أمور الإيمان. حديث رقم (٩)، (٥٩/١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان. حديث رقم (٣٥)، (٦٣/١) وقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «بضعاً» سبق لسان، وإنما الرواية: «شعبة».

(٤) انظر: الإيمان الكبير لابن تيمية (١ - ١١).

و(الخوف) في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل خاصة.

و(الحزن) في لغة العرب: هو الغم من أمر قد فات ومضى. تقول: «فلان أصيب بالأمس، فهو اليوم حزين»، وتقول: «فلان خائف»، أي: يغتم من أمر مستقبل. هذا أصله معنى (الخوف)، ومعنى (الحزن)^(١) - أعادنا الله والمسلمين منهما - وربما وُضع أحدهما موضع الآخر، وربما أطلقت العرب (الخوف) على غير (الحزن)، ومن إطلاقات العرب الخوف: إطلاقها الخوف على العلم^(٢)، تقول العرب: «إني أخاف أن يقع كذا» بمعنى: أعلم أن يقع كذا، وقد بينا هذا المعنى في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُعِيبَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيبَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا أَفَدَّتْ بِهِ﴾ [البقرة: آية ٣٢] قال بعض العلماء معنى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيبَا﴾ أي: فإن علمتم ألا يقيما حدود الله. ومن إطلاق (الخوف) لا بمعنى (الحزن)، بل بمعنى العلم اليقيني: قول أبي محجن الثقفي في بيتيه المشهورين^(٣):

إذا مُتُّ فادفني إلى جنبِ كَرَمَةٍ تُرَوِّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مُتُّ ألا أذوقها

لأنه هو عالم بأنه إذا مات لا يشرب الخمر في قبره أبداً، فقله: «أخاف» أطلق الخوف في شيء هو عالم به علماً يقيناً؛ ولذا قال هنا: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لا يغتمون من أمر مستقبل؛ لأن مستقبلهم كله طيب، ليس يُترقب فيه شيء فيه أذية، وإنما فيه الفرح والسرور، ولا يحزنون على شيء فائت؛ لأنهم لم يفتهم شيء إلا وعندهم أضعاف أضعافه من أنواع النعيم، فلا يفوتهم مطلب يحزنون عليه، ولا يخافون من ضرر ولا غم مستقبل يخافون منه.

(١) في الفرق بين الخوف والحزن انظر: القرطبي (٣٢٩/١)، الكليات ص ٤٢٨.

(٢) الكليات ص ٤٢٩، الخزانة (٥٥٠/٣ - ٥٥١)، الدر المصون (٢٦٤/٢ - ٢٦٥).

(٣) البيتان في الخزانة (٥٥٠/٣)، الدر المصون (٢٦٥/٢)، الكامل لابن الأثير (٣٣١/٢)، الإصابة (١٧٥/٤).

وفي هذه الآية الكريمة سؤال نحوي، وهو أن يقول طالب العلم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أهملت (لا) هنا ولم تعمل، فَلِمَ لا يقول: «لا خوف عليهم»، كما قال: ﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٧]؟

والجواب عن هذا^(١): أن (لا) لا تعمل إلا في النكرات، سواء قلنا إنها التي لنفي الجنس، أو قلنا إنها العاملة عمل (ليس)، والجملة الأخيرة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المبتدأ فيها ضمير، والضمائر معارف، فلا يجوز أن تعمل فيها (لا) بكل حال، فلما مُنِعَ عملها في الجملة الثانية لمكان الضمير وهو مُعْرِفٌ، وامتنع عملها فيها، ألغى عملها في الأولى لتنسجم الجملتان وتنفقا في الإهمال دون الإعمال.

/ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٩].

هذا هو القسم الثاني الذي فيه الإنذار ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا آيات هذا القرآن العظيم، وزعموا أنه أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو شعر، أو من كهانة الكهان. الذين كفروا هذا الكفر، وهم أظلم الناس، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: آية ٢١].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ والمسيس معناه: وقوع الشيء على الشيء مباشرة من غير أن يحول بينهما حائل. وعبر بالمسيس ليبين أن حر ذلك العذاب وألمه يباشرهم مباشرة عظيمة شديدة من غير حائل، كما يأتي في قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: آية ٧] لأنها تباشر الأجسام، وتغوص فيها حتى تحرق سويداء القلب، وداخل جسم الإنسان؛ ولذا قال: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] أي: عذاب الله، وعذاب الله (جل وعلا) لا يماثله عذاب ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ [٢٥] وَلَا يُؤْتِقُ وَكَافَّةً أَحَدًا﴾ [٢٦] [الفجر: الآيتان ٢٥ - ٢٦].

وقوله: ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الباء) سببية، و(ما) مصدرية. والمعنى: يمسه العذاب بسبب كونهم كانوا فاسقين في دار الدنيا.

و(الفسق) في لغة العرب: الخروج. وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله^(١). والعرب كل ما خرج إنسان عن شيء سمّته (فاسقاً). ومنه قول رؤية بن العجاج^(٢):

يَهْوَيْنَ فِي نَجْدٍ وَعُورًا غَائِرًا فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا
لأنه يذكر مراكب ضلت طريقها التي كانت تمشي عليها، فقال:
«فواسقاً عن قصدها» أي: خوارج عن الطريق التي كانت تقصدها. هذا أصل (الفسق) في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله. والخروج عن طاعة الله جنس تحته نوعان:

أحدهما: الخروج الذي هو أكبر أنواع الخروج وأعظمها، وهو: الخروج عن طاعة الله بالكفر الصراح. هذا أكبر أنواع الفسق. وكثيراً ما يطلق في القرآن اسم (الفسق) على هذا؛ لأنه صرح بأنهم كذبوا بآيات الله، وهذا أعظم الكفر، ثم سمى هذا الكفر فسقاً بقوله: ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لأنه أعظم أنواع الخروج عن طاعة الله. ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: آية ٢٠] هذا الفسق بمعنى الخروج الأكبر، أي: الخروج عن طاعة الله بالكفر والعياذ بالله.

النوع الثاني من أنواع الفسق: هو خروج دون خروج، وفسق دون فسق، بأن يخرج الإنسان عن طاعة الله إلى المعصية، خروجاً لا ينقله من اسم الإسلام إلى الكفر، كارتكاب الكبيرة. ومنه بهذا المعنى قوله في

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

القاذفين: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: آية ٤] فهذا القذف خروج عن طاعة الله، ولم يبلغ بصاحبه الكفر، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: آية ١١] ولم ينقلهم عن اسم المسلمين بسبب قذفهم. ولا يُقال: إن عبدالله بن أبي منهم،، وإنه منافق كافر؛ لأن دين الإسلام يحكم له بشهادة أن لا إله إلا الله في الظاهر، فكان يحضر جُمُعات المسلمين وجماعاتهم باسم الإسلام، فالله (جل وعلا) يقبل من المنافقين كلمة (لا إله إلا الله) ظاهراً، كما أرادوا أن يخدعوه فهو يخدعهم حيث يقبلها منهم ظاهراً في الدنيا، وهو يُعَدُّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار، كما في قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: آية ١٤٢].

ومن هذا النوع من الفسق الذي لم يُخرج عن دين الإسلام: قوله في قصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما كذب على بني المصطلق^(١): ﴿يَتَأْتِيَا

(١) القصة مشهورة، وقد رواها عدد من الصحابة والتابعين، إلا أن جميع طرقها لا تخلو من ضعف. وإليك من نُقلت عنهم هذه القصة على سبيل الاختصار:

١ - الحارث بن ضرار: عند أحمد (٢٧٩/٤)، والطبراني في الكبير (٢٧٤/٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٣٣٠٣/١٠)، والواحدي في أسباب النزول ص ٣٩١، وابن عساکر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور) (٣٣٧/٢٦)، وانظر: الهيثمي في المجمع (١٠٨/٧)، تفسير ابن كثير (٢٠٨/٤ - ٢٠٩)، الكافي الشاف ص ١٥٦، (وعزاه لأحمد وابن مردويه)، الإصابة (٢٨١/١)، (٦٣٨/٣)، الدر المنثور (٨٧/٦)، (وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه) تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣٣٣/٣).

٢ - علقمة بن ناجية. عند الطبراني في الكبير (٦/١٨ - ٧)، وانظر مجمع الزوائد (١٠٩/٧ - ١١٠)، الإصابة (٥٠٦/٢)، أسد الغابة (٨٨/٤)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لابن منده والطبراني وابن مردويه).

٣ - جابر بن عبدالله. عند الطبراني في الأوسط (٤٧٧/٤ - ٤٧٨)، وانظر: مجمع الزوائد (١١٠/٧)، الكافي الشاف ص ١٥٦، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣٣٤/٣)، الدر المنثور (٨٨/٦)، الفتح السماوي (١٠٢/٣).

٤ - أم سلمة. عند الطبراني في الكبير (٤٠٠/٢٣ - ٤٠١)، وراجع (٢٩٠/٢٣)، =

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ مُبَشِّرٌ بِبَلَاءٍ فَتَيَّنْهُمْ ۖ الْآيَةُ [الحجرات: آية ٦].

وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْشِيهِمُ الْعَذَابُ يَمَّا كَانُوا يَنْسِفُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] ومسيس العذاب هذا: هو الذي أُنذرتهم به الرسل في دار الدنيا إن لم يقلعوا عن ذلك التكذيب والكفر، كما في قوله هنا: ﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨].

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٥٠].

أول الرسل الذين أرسلوا إلى أهل الأرض بعد أن وقع فيهم الكفر

= وابن جرير (١٢٣/٢٦)، وانظر: الهيثمي في المجمع (١١٠/٧)، تفسير ابن كثير (٢٠٩/٤)، الكافي الشاف ص ١٥٦، (وعزاه لإسحاق والطبراني)، والزبيعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٣٢/٣)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لإسحاق بن راهويه وابن جرير والطبراني وابن مردويه)، الفتح السماوي (١٠٠١/٣).

٥ - ابن عباس. عند عبدالرزاق في التفسير (٢٣١/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٤/٩)، وابن جرير (١٢٣/٢٦ - ١٢٤)، وانظر: ابن كثير (٢٠٩/٤)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لابن جرير وابن مردويه والبيهقي في السنن وابن عساکر).

٦ - مجاهد. عند ابن جرير (١٢٤/٢٦)، البيهقي في الكبرى (٥٥/٩)، وانظر: مجمع الزوائد (١١١/٧)، (وعزاه للطبراني)، الاستيعاب (٦٣٢/٣)، ابن كثير (٢١٠/٤)، الإصابة (٦٣٨/٣)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لآدم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي).

٧ - قتادة عند ابن جرير (١٢٤/٢٦)، وانظر: الاستيعاب (٦٣٢/٣)، تفسير ابن كثير (٢١٠/٤)، الإصابة (٦٣٧/٣ - ٦٣٨)، الدر المنثور (٨٩/٦)، (وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير).

٨ - عكرمة. انظر: الإصابة (٦٣٨/٣)، الدر المنثور (٨٩/٦)، (وعزاه لعبد بن حميد).

٩ - ابن أبي ليلى: انظر: الاستيعاب (٦٣٢/٣).

وهو مروي عن غير هؤلاء مثل: يزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان، كما في ابن جرير (١٢٤/٢٦)، عبدالرزاق في التفسير (٢٣١/٢)، وابن كثير (٢١٠/٤).

والشرك بالله: هو نبي الله نوح، كما قدمنا في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلَامًا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: آية ١٦٣].

فدلّ على أنه أول ذلك النوع الذي يُرسل إلى الناس بعد أن كفروا، وآخرهم: محمد ﷺ. فالله قال لأولهم في سورة هود: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: آية ٣١] ومثل هذه القصة بعينها كانت فيما أنزل على محمد ﷺ حيث قال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] قل لهم يا نبي الله: لا أدعي لكم دعوى بعيدة ولا كاذبة، ولا أخرج لكم عن طوري وحقيقتي، لا أقول لكم: إن عندي خزائن الله.

والخزائن: جمع الخزانة، وهي المحل الذي تخزن فيه الأرزاق ونحوها^(١)، فخزائن الملوك مثلاً: المحل الذي يجعلون فيه العدة من الطعام والسلاح وما جرى مجرى ذلك. وكل شيء عند الله في خزانة؛ لأن الله جميع الأشياء كلها في خزائنه (جل وعلا)، كما سيأتي في قوله: ﴿وَلَنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: آية ٢١] لا أقول لكم: إن بيدي الأرزاق والآيات، وما اقترحتم من كل شيء، وخزائن الأمور ليست بيدي، وإنما هي بيد الله، وإنما أنا عبد أرسلت إليكم [لأبشرا] من أطاعني بالجنة، [وأنذر] من عصاني بالنار^(٢)، وأبلغكم رسالات ربي، وأوضح لكم طريق الخير والشر، وأقيم لكم المعجزات الواضحات التي لا تترك لمنصف في صدق شيئاً؛ ولذا قال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الجمهور من العلماء على أن هذا معطوف على ما قبله^(٣)، وأنه من جملة ما أمر أن يقوله. وتقرير المعنى: قل لهم أيضاً: لا أعلم الغيب. كما قال الله له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨]

(١) انظر: المفردات (مادة: خزن) ص ٢٨٠، القرطبي (٤٣٠/٦).

(٢) في الأصل: «لأنذر من أطاعني بالجنة، وأبشر من عصاني بالنار» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: البحر المحيط (١٣٤/٤)، الدر المصون (٦٣٨/٤).

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بل أقول لكم: إني رجل ابن رجل وابن امرأة، أذهب إلى السوق، وأشتري منه حاجتي. لأنهم قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: آية ٧] كيف يرسل الله من يأكل ويشرب، ويروح إلى السوق؟ والله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: آية ٢٠] ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: آية ٢٨] هذه سنة الله في رسله.

وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ كان المعتزلة يستدلون بظاهر هذه الآية على أن الملائكة أفضل من الآدميين^(١)؛ لأن هذه كأنها مناصب عالية. لا أقول لكم إني في رتبة إلهية، بحيث تكون عندي خزائن السماوات والأرض، وأعلم الغيب، ولا أدعي لكم الرتبة الأخرى الكبيرة، التي هي رتبة المَلَك.

وأكثر العلماء على أن خيار الرسل من الآدميين أفضل من الملائكة^(٢).

وهذا النوع من الخلاف والبحث مما فيه: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»؛ لأننا لم نؤمر به، ولم نكلف به، والخوض فيه لا حاجة لنا فيه، ولا لنا من ورائه نفع.

وقد قدمنا مراراً: أن أكثر العلماء على أن أصل المادة اللغوية التي منها (المَلَك)^(٣) أنها: (أَلَك) ففاء الفعل همزة، وعينها لام، ولاهما كاف،

(١) انظر: الكشف (١٥/٢).

(٢) في هذه المسألة انظر: الحجة في بيان المحجة (٣٨٧/٢)، القرطبي (٢٨٩/١)، (٤٣٠/٦)، (٢٧/٩)، (٢٩٤/١٠ - ٢٩٥)، (٢٧٨/١١)، (١٤٥/٢٠)، مجموع الفتاوى (٣٥٠/٤ - ٣٩٣)، (٣٠٠/١٠)، بدائع الفوائد (٦٦/١)، (١٦٣/٣)، شرح الطحاوية (٤١٠ - ٤٢٣)، البداية والنهاية (٥٤/١)، منهج الجدول والمناظرة (٥٢١/١).

(٣) انظر: ابن جرير (٤٤٤/١ - ٤٤٧)، القرطبي (٢٦٢/١ - ٢٦٣)، اللسان (مادة: ألك) (٨٤/١ - ٨٥)، الدر المصون (٢٤٩/١ - ٢٥١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال (٢٤٨ - ٢٥٠).

(أَلَكْ) وأصل هذه المادة، مادة (الهمزة واللام والكاف)، معناها: الرسالة. والألوكة: الرسالة، والمألكة: الرسالة.

وَعُلامٍ أَرْسَلْتُهُ أُمَّهُ بِاللُّوكِ فَبَدَّلْنَا مَا سَأَلْ^(١)
والعرب تقول: (أَلَكْنِي إِلَيْهَا): (حمل إليها مَا لَكْتَنِي) أي: رسالتي فبلغها عني، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي^(٢):

أَلَكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرِّسْوِ لِي، أَعْلَمُهُمُ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ
وعلى هذا فأصل الْمَلَك: (مَأْلَك) على وزن (مَفْعَل) من (الألوكة) وهي: الرسالة. فدخله القلب الصرفي المعروف، وهو جعل العين مكان الفاء، والفاء مكان العين، فجُعِلَت الهمزة التي كانت موضع الفاء في موضع العين، فصار: (مَلَأَكْ)، ووزن (المَلَأَك) بالميزان الصرفي: (مَفْعَل) لأن العين جاءت في موضع الفاء، والفاء في موضع العين. وربما نطق العرب به على هذا القلب بلفظ (مَلَأَكْ)، كقول الشاعر^(٣):

وَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ مَلَأَكَا تَحَدَّرَ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ يَصُوبُ
فخففت همزة المَلَأَكْ، وألقيت حركتها على اللام، ف قيل: (مَلَكْ). كما تسقط في قوله: (سَلَهُمْ). أصلها: (اسأَلَهُمْ). ومما يدل على أن أصله: (مَأْلَكْ)، وأن الهمزة أصلها فيه؛ لأنه يجمع على (ملائكة) فتأتي الهمزة التي خففت من الأصل. هذا أصله عند جمهور العلماء، ومن يقول: إن أصله من (المَلَك) قول ضعيف.

(١) البيت للبيد، وهو في ابن جرير (٤٤٦/١)، القرطبي (٢٦٢/١)، اللسان (مادة: أَلَكْ) (٨٥/١)، الدر المصون (٢٥٠/١).

(٢) البيت في ابن جرير (٧/١٣)، القرطبي (٢٥٥/٧)، اللسان (مادة: أَلَكْ) (٨٥/١).

(٣) نسبته بعضهم لعلقمة بن عبدة، وبعضهم نسبته إلى غيره. وهو في الكتاب (٣٨٠/٤)، المفضليات ص ٣٩٤، ابن جرير (٣٣٣/١)، القرطبي (٢٦٣/١)، الدر المصون (٢٥٠/١)، اللسان (مادة: أَلَكْ) (٨٥/١) ولفظه في بعض هذه المصادر:

وَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأَكِ تَنْزَلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وعلى هذا الذي قررنا، فَوَزُنُ (الملك) حالياً: (مَعَل) لأن الفاء المرحلة إلى مكان العين ساقطة منقولة حركتها. فوزنه (مَعَل) بإسقاط الفاء، قالوا: وإنما سُمِّيَ الْمَلِكُ مَلَكاً من (المَلَكَة) وهي الرسالة؛ لأن الملائكة عباد الله المكرمون، الذين يحملون مَالِكَ الله، أي: رسالاته، كما يأتي في قوله: ﴿فَالْمُدْرِيَاتُ أَمْرًا ۝﴾ [النازعات: آية ٥] فمنهم من يُرسل لتكثير الريح، ومنهم من يُرسل لتكثير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يُرسل لحفظ الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ الأدميين لئلا تختطفهم الشياطين، كما يأتي، في أحد التفسيرات في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية [الرعد: آية ١١].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (إن) هنا هي النافية. والمعنى: ما أتبع إلا ما أوحاه ربي إليّ، لا أزيد عليه، ولا أخرج عن طوري، فأنا رسول كريم، أوحى الله إليّ أن أنذركم وأبشركم، وأنا أتبع ما يوحى إليّ، فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار.

وبهذه الآية وأمثالها في القرآن يتمسك الظاهرية بأن القياس لا يجوز في الشرع^(١). قالوا: لأن النبي قال: ما أتبع إلا ما يوحى إليّ. فحصر الاتباع في الموحى إليه، والله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: آية ٢١] فعلينا أن لا نتبع إلا خصوص الوحي، ولا نخرج عنه إلى رأي. وأمثال هذا من الآيات التي يستدل بها الظاهرية كثيرة جداً^(٢).

ونحن نقول: إن الجواب: أنا لا نخرج عما يوحى، إلا أن ما يوحى منه ما هو منصوب به ظاهر، ومنه ما هو مفهوم من حكم المنصوص به، ولا خروج في هذا عن حكم الوحي؛ لإجماع العقلاء على أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فالشرع قد يذكر الشيء ويسكت عن نظيره

(١) انظر: القرطبي (١٧١/٧ - ١٧٣)، وسيأتي للشيخ (رحمه الله) بحث مطوّل في هذه المسألة عند الكلام على الآية (١٢)، من سورة الأعراف.

(٢) انظر: الإحكام ص ٩٤٦، المحلى (٥٦/١).

المماثل له في علة الحكم فيفهم العقلاء أنه مثله، وهذا الجمود الذي يدّعيه ابن حزم متمسكاً بعشرات أو مئات الآيات من هذا النوع، يقول: كل ما نصّ عليه الله فحكمه ظاهر، وما لم يأت في نص من كتاب الله، ولا سنة نبيه، فهو مسكوت عنه، وهو عفو، ولا لنا أن نبحث عنه، ولا نسأل عنه؛ لأن الله سكت عنه غير نسيان، بل سكت عنه رحمةً بنا، فليس لنا أن نبحث عنه.

هذا الذي يقوله ابن حزم، ويستدل عليه بعشرات الآيات، نحن نقول بِمُوجِبِهِ. ومعنى: (نقول بِمُوجِبِهِ) أننا نقدح فيه بالقادح المعروف في علم الأصول بـ(القول بالموجب)^(١)، وهو أن نقول: أنت صادق فيما قلت، ولكن هذا لا حجة لك فيه، ولا يقطع نزاعنا معك. والمعنى: نحن نصدقك بأن الله أباح أشياء، وحرم أشياء، وسكت عن أشياء رحمةً بنا لا نسياناً، والتي سكت عنها ليس لنا البحث عنها، وهي عفو، ولكن هذا الذي تقول أنت: إن الله سكت عنه، نحن نقول: أنت في هذا لست بمصيب، بل الله لم يسكت عنه، بل بين حكمه بذلك الشيء الذي نصّ عليه، وأمثال هذا كثيرة في كتاب الله وفي سنة نبيه، فنحن معاشر عامة المسلمين نعلم أن الله (جل وعلا) لما قال في الوالدين: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ ابن حزم يقول: ضَرَبُ الوالدين مسكوت عنه، ولم تدل هذه الآية على منعه^(٢)!! ونحن نقول: هذا غير صحيح، بل آية: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] ليست ساكتة عن ضرب الوالدين؛ لأن النهي عن التأفيف يفهم منه قطعاً من دلالة هذه الآية أنه أحرم وأحرم وأحرم؛ لأنه أشد إيذاء، كذلك حديث أبي بكرة الثابت في الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: «لا يقضين حَكَمَ بين اثنين وهو غضبان»^(٣). صرح النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح أن

(١) وهو بفتح الجيم وبالكسر، وهو نفس الدليل؛ لأنه الموجب للحكم.

وفي الاصطلاح: تسليم مقتضى الدليل مع بقاء النزاع في الحكم. انظر: شرح الكوكب المنير (٣٣٩/٤ - ٣٤٠)، نثر الورود (٥٤١/٢).

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم ص ٩٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو =

القاضي في وقت الغضب لا يجوز له أن ينظر في قضايا الناس؛ لأن الغضب أمر مُشَوِّش للفكر، لا يتمكن معه القاضي من استيفاء النظر في الحقوق، فلو حكم في ذلك الوقت، فهو مظنه لضياع حقوق الناس، وسكت النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح عما لو كان القاضي مُشَوِّش الفكر تشويشاً أعظم من الغضب، كأن كان في حزن أو سرور مُفْرِطَيْن، أو كان في جوع أو عطش مُفْرِطَيْن، أو كان في حقن أو حقب مُفْرِطَيْن؛ فإنه ينال من شدة العطش، ومن شدة الجوع، ومن شدة الحزن، ومن شدة السرور، ومن شدة الحقن (وهو - بالنون - : مدافعة البول. والْحَقْب - بالباء -: مدافعة الغائط، إذا كان في هيجان شديد للخروج). هذه الأشياء تشوش فكر الإنسان حتى لا يبقى له نظر تشويشاً أشد من الغضب.

فيقول ابن حزم: هذه مسكوت عنها، فالحكم في وقتها عفو!!

ونحن نقول: لا والله، ليست مسكوتاً عنها؛ لأن النبي ﷺ لما نبه على أن القاضي في وقت الغضب لا يجوز له أن يحكم، عرفنا أن هذا الحديث في معنى: أن كل مُشَوِّش للفكر يمنع من استيفاء النظر، ويؤدي إلى ضياع حقوق الناس، أن الحكم في وقته ممنوع، كذلك صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن البول في الماء الراكد^(١)، وسكت عما لو بال في قارورة وصبها في الماء من القارورة. فمقتضى ما يقوله ابن حزم: أنه لو قطر فيه قطرات قليلة من ذكره مباشرة: هذا منطوق به، ولو صب فيه مئات الأطنان من الأواني: أن هذا مباح ومسكوت عنه!! وهذا هَوَسٌ لا يقوله عاقل؛ لأن النبي ﷺ إنما نهى عنه لأن البول يُقَدَّرُه، وصَبَّه فيه من الإناء لا فرق بينه وبين بوله فيه مباشرة.

= غضبان؟ حديث رقم: (٧١٥٨)، (١٣٦/١٣)، مسلم، كتاب: الأقضية، باب: كراهة قضاء القاضي وهو غضبان. حديث رقم (١٧١٧)، (١٣٤٢/٣).

(١) أخرجه الشيخان بالفاظ متقاربة، انظر: البخاري، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، حديث رقم (٢٣٩)، (٣٤٦/١)، مسلم، كتاب الطهارة، باب: النهي عن البول في الماء الراكد، الحديثان (٢٨١، ٢٨٢)، (٢٣٥/١).

مثلاً النبي ﷺ نهى الإنسان عن أن يُضْحِي بالشاة العوراء^(١)، وسكت

(١) جاء ذلك من حديث علي، والبراء، وعتبة بن عبد السلمي (رضي الله عنهم).

أما حديث علي (رضي الله عنه) فهو قوله: «أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأَذْنَ، وَلَا نَضْحِي بَعُورَاءَ وَلَا مُقَابِلَةً وَلَا مُدَابِرَةً وَلَا خَرْقَاءَ وَلَا شَرْقَاءَ». وقد أخرجه أحمد (٨٠/١، ١٠٨، ٩٥، ١٠٥، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٩، ١٥٢)، والدارمي (٤/٢)، وأبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٧)، (٥٠٨/٧)، والترمذي في الأضاحي، باب ما يُكره من الأضاحي، حديث رقم: (١٤٩٨)، (٨٦/٤)، وأخرجه في موضع آخر برقم (١٥٠٣)، والنسائي في الضحايا، باب المُدَابِرَةِ، حديث رقم: (٤٣٧٣)، (٢١٦/٧)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٧٥)، وابن ماجه في الأضاحي، باب ما يُكره أن يُضْحَى به، حديث رقم: (٣١٤٣)، (١٠٥٠/٢)، وابن خزيمة (٢٩١٤، ٢٩١٥)، والطحاوي في شرح المعاني (١٦٩/٤، ١٧٠)، والحاكم (٢٢٤/٤، ٢٢٥) وصححه، والبيهقي (٢٧٥/٩). بعضهم يرويه مختصراً فيقتصر على صدر الحديث، وهو قوله: «أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأَذْنَ». وبعضهم يرويه بتمامه (على اختلاف في بعض ألفاظه). وإنما صحَّ من هذا الحديث صدره، دون قوله: «وَلَا نَضْحِي بَعُورَاءَ... إلخ». انظر: صحيح أبي داود (٥٣٩/٢)، وضعيفه ص ٢٧٤، صحيح النسائي (٩١٤/٣)، وضعيفه ص ١٧٧، ١٧٨، وصحيح ابن ماجه (٢٠٢/٢)، وضعيفه ص ٢٤٩، وضعيف الترمذي ص ١٧٥ - ١٧٦، الإرواء (٣٦٢/٤)، التعليق على المشكاة (١٤٦٣)، التعليق على ابن خزيمة (٢٩١٥).

وأما حديث البراء (رضي الله عنه) فهو قوله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء بَيِّنٌ عَوْرُهَا، والمريضة بَيِّنٌ مرضها، والعرجاء بين ظُلْعُهَا، والكسير التي لا تُنْقَى». وهو حديث ثابت صحيح أخرجه مالك (١٠٣٥)، والطيالسي ص ١٠٢، وأحمد (٢٨٤/٤)، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠١)، والدارمي (٤/٢)، وأبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٥)، (٥٠٥/٧)، والترمذي في الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، حديث رقم: (١٤٩٧)، (٨٥/٤)، والنسائي في الضحايا، باب ما نُهي عنه من الأضاحي، حديث رقم: (٤٣٦٩)، (٢١٤/٧) وأخرجه في موضعين آخرين برقم: (٤٣٧٠، ٤٣٧١)، وابن ماجه في الأضاحي، باب ما يُكره أن يُضْحَى به (٢١٤٤)، (١٠٥٠/٢)، وابن خزيمة (٢٩١٢)، والطحاوي في شرح المعاني (١٦٨/٤)، (١٦٩)، وابن حبان (الإحسان): (٥٨٨٩، ٥٨٩١ - ٥٨٩٢)، والحاكم (٤٦٧/١) وصححه، والبيهقي (٢٤٢/٥)، (٢٧٤/٩) وابن الجارود (٤٨١، ٩٠٧). وانظر: صحيح أبي داود (٥٣٩/٢)، صحيح الترمذي (٨٨/٢)، صحيح النسائي (٩١٣/٣، ٩١٤)، صحيح ابن ماجه (٢٠٢/٢)، الإرواء (٣٦٠/٤ - ٣٦١).

عن الشاة العمياء، فلا نقول: إن الشاة العمياء عفو، ومن شاء أن يُضْحِي بها؛ لأننا نقول: إن النص المانع من التضحية بالعوراء يُعرف منه حكم العمياء.

وهذا - لو تتبعنا - أمثاله كثيرة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

واستدل بعض العلماء - من علماء الأصول - بآية الأنعام هذه على أحد قولين؛ في مسألة اختلف فيها العلماء؛ لأنه معلوم في علم الأصول أن العلماء مختلفون: هل النبي ﷺ يمكن أن يجتهد في شيء، أو لا يجتهد في شيء؟^(١).

فالذين قالوا: الاجتهاد ممنوع عليه، استدلوا بهذه الآية من سورة الأنعام، وآية النجم، وما جرى مجراهما. قالوا: لأن النبي قال: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى﴾ [الأنعام: آية ٥٠] فحصر ما يتبع في الوحي، وهذا يمنع الاجتهاد، وأنه لا سبيل إلى الاجتهاد.

وآية النجم التي أشرنا إليها هي قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآيتان ٣ - ٤].

فأجابوا عن هذا قالوا: وقعت وقائع تدل على الاجتهاد في الجملة، كما دلت عليه آيات من كتاب الله، كقوله في سورة الأنفال: قال له الله (جل وعلا) لما اجتهد في أسارى أهل بدر، ولم يقتلهم، قال الله - كأنه لائم له، مقرر له -: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخِزَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: آية ٦٧] فقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخِزَ فِي الْأَرْضِ﴾ قالوا: دليل على أنه أسر

= وأما حديث عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِيِّ (رضي الله عنه) وفيه: «إنما نهى رسول الله ﷺ عن المضفرة والمستأصلة، والبخقاء، والمشيعة، والكسراء». والبخقاء: هي التي تبخر عينها، أي يذهب بصرها. وقد أخرجه أبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٦)، (٥٠٦/٧)، والحاكم (٢٢٥/٤) وصححه، والبيهقي (٢٧٥/٩). وهو ضعيف الإسناد. وانظر: ضعيف أبي داود ص ٢٧٤.

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٤/٤٧٥)، نثر الورود (٢/٦٢٩ - ٦٣١).

الأسارى اجتهاداً منه، ولو كان بوحى لما لأمه الله هذا اللوم. وكقوله في براءة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ أَنْ يَكُونَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٣] فلو كان ذلك العفو بوحى لما قال له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ﴾ قالوا: هذه النصوص وأمثالها معناه: أنه يفعل بعض الأمور من غير وحي صريح، بل باجتهاد منه.

وكان بعض العلماء يقول: أما ما يقول: إنه يُوحى إليه، فلا شك أنه وحي من الله، وهو الذي فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: الآيتان ٣ - ٤].

وأظهر الأقوال: أن الشرع والتحليل والتحريم، أنه لا يحكم فيه إلا بالوحي، كما جاءت قصص متعددة أنه إذا جاءه الأمر لا وحي فيه: كف عنه وأحجم، ينتظر حكم الله فيه، حتى يأتيه الوحي فيه، وأن مثل الحروب كما ذكرنا في قصة بدر، ومن أسر منهم هنالك، والأمور الدنيوية، أنه ربما يفعل فيها الأمر، ولا يفعله إلا جائزاً؛ لدلالة ظواهر الشرع عليه. إلا أنه ربما يكون غيره أولى منه؛ ولهذا يقول الله: لِمَ فعلت كذا؟ من حيث إن غيره أولى منه، وإن كان جائزاً. وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

ثم أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: آية ٥٠]. الله (تبارك وتعالى) ذكر طائفتين من الناس، طائفة ذكرها في قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨] وطائفة ذكرها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] فهؤلاء الذين عموا عن طريق الحق حتى دخلوا النار، هؤلاء - والعياذ بالله - عمي، وهؤلاء الذين أبصروا فعملوا لله حتى دخلوا الجنة، فهؤلاء هم المبصرون، كما قال تعالى في سورة هود يضرب المثل بفريق الكفار وفريق المؤمنين: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: آية ٢٤] فالأعمى والأصم: هو فريق الكفار، والسميع والبصير: هو فريق المؤمنين، كما قال هنا: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: آية

[٥٠] لا والله لا يستويان، فالأعمى هو من طمس الله بصيرته ولم ينور قلبه بنور الإيمان؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ومن أراد أن يعرف معنى هذه الآية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] فلينظر إلى رجلين يمشيان في الطريق، أحدهما: صحيح العينين قوي البصر، حديدته جداً، وهو مفقود العقل. والثاني: أعمى، إلا أنه عاقل. فيجد ذا العينين الصحيحتين الذي يفقد عقله، يجده يضرب الجدار، ويقع على الحية، ويقع على العقرب، ويسقط في البئر، ويسقط على النار، لا يُبصر شيئاً، ويرى ذلك الكفيف الذي عنده عقله، عصاه أمامه، يروغ كما يروغ الثعلب، ويحصل جميع منافعه، فيعلم حقيقة قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

إذا أدرك القلبُ المروءةَ والثَّقَى فإنَّ عمىَ العينين ليس يَضِيرُ^(١)
وذكر غير واحد كابن عبد البر في استيعابه، وغير واحد من المؤرخين، أن ابن عباس (رضي الله عنهما) أخبره النبي ﷺ أنه سيعمى في آخر عمره^(٢)، وقال عند ذلك^(٣):

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ففي لساني وقلبي عنهما نُورٌ
عقلي ذكي وقلبي غير ذي دَخَلٍ وفي فمي صَارِمٌ كالسيف مَأْثُورٌ
والحاصل أن الأعمى هنا: هو الكافر، والبصير: هو المسلم المؤمن؛

(١) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه (٥١/٤)، وشطره الأول: (إذا أبصر المرء...).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٢/١٠)، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٣٥٦/٢)، وابن عساكر في تاريخه (مختصر ابن منظور ٢٩٥/١٢، ٢٩٩)، والذهبي في السير (٣٤٠/٣) وقال: «إسناده لين» ١. هـ وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٧/٩) وفيه من لم أعرفه. ١. هـ.

(٣) البيت في الاستيعاب (٣٥٦/٢)، سير أعلام النبلاء (٣٥٧/٣)، ولفظ صدر البيت الثاني:
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دَخَلٍ

لأن المؤمن على نور من ربه، وبصيرته يُشعُّها نور الوحي. والكافر - والعياذ بالله - مطموس البصيرة، والله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

ثم قال (جل وعلا): ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ قد قدمنا مراراً^(١) أن هذه الهمزة التي تأتي في القرآن كثيراً قبل أداة عطف - كالتي تأتي قبل (الفاء) و(الواو) و(ثم)، وهي كثيرة في القرآن، قد قدمنا مراراً أن فيها للعلماء وجهان:

أحدهما - واختاره غير واحد، وإليه جنح ابن مالك في ألفيته -: أن الهمزة تتعلق بجملة محذوفة، والفاء أو الواو تعطف الجملة التي صُدَّرت بها على الجملة المعطوفة التي هي مُتَعَلِّقُ الاستفهام، ولا بد أن يكون في الجملة المذكورة ما يدل وتفهم منه الجملة المقدرة، وعليه فتقديره هنا: أفلا تتفكرون؟ أتغفلون عن هذه الأشياء، فلا تتفكرون حتى تفهموها؟ وما جرى مجرى ذلك. وهذا هو الذي اختاره ابن مالك في الخلاصة حيث قال^(٢):

وَحَذَفَ مُتَبَوِّعٌ بَدَأَ هُنَا اسْتَبَحَ

وهناك جماعة آخرون يقولون: إن همزة الاستفهام هي في الرتبة بعد حرف العطف، إلا أنه لما كان للاستفهام صدر الكلام ترحلت الهمزة عن محلها، وتقدمت على أداة العطف، وهي بعدها في الرتبة. وعلى هذا فيكون المعنى: (فألا تتفكرون) فتكون الفاء عاطفة للجملة المُصَدَّرَة بالاستفهام على ما قبلها، كأنه يقول: فأعطف على ذلك وأذكر بعده توبيخكم وتقريعكم أنكم لا تتفكرون حتى تفهموا عن الله آياته.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيْنَا رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١) [الأنعام: آية ٥١].

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأصح الأقوال في

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

مرجع الضمير: أنه راجع للقرآن^(١) المُعْتَبَر عنه بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أنذر بما يوحى إليك - الذي لا تتبع إلا إياه - أنذر به الذين يخافون.

وفي الآية هنا سؤال، وهو: لِمَ قصر الإنذار على الذين يخافون أن يحشروا في حال كونهم متجردين من الأولياء والشفعاء من دون الله، مع أن القرآن إنذار للأسود والأحمر ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ عن بكرة أبيهم ﴿نَذِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١] وكقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ [يونس: آية ٢] لِمَ خَصَّ هنا الذين يخافون؟^(٢).

أجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن من أساليب القرآن العظيم، واللغة العربية، أن يُقصر الفعل على الذين ينتفعون به؛ لأن غير المنتفع به هو في شأنه كلا شيء. ونظير الآية من القرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] مع أنه تذكير للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ [فاطر: آية ١٨] وهو منذر للأسود والأحمر. أي: بأنهم هم المنتفعون.

ومعنى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أعلمهم بما عند الله في الأوامر والنواهي، مقترناً ذلك الإعلام بالتهديد والتخويف من خالق السماوات والأرض إن لم يمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ هو معنى الخوف على بابهِ^(٣). ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مادة (خاف) تتعدى بنفسها، وتتعدى بالحرف. وهي هنا متعدية بنفسها، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ يُحْشَرُوا﴾ في محل نصب معمول به للخوف. والمعنى: يخافون الحشر إلى ربهم. والحشر معناه: جمع الناس.

(١) انظر: القرطبي (٤٣٠/٦)، البحر المحيط (١٣٤/٤).

(٢) انظر: المصدرين السابقين، والأضواء (٢٢٤/٦).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٣٥/٤).

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هذه الجملة الفعلية المصدرة بهذا الفعل الناقص هي في محل الحال^(١). وهذه الحال هي التي يَنْصَبُ عليها الخوف. أي: يخافون حشر الناس في حال كونهم ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع.

ومعنى: ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الولي في لغة العرب^(٢): هو كل من يعتقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كان كل قريب للرجل من عَصَبَتِهِ يُسمى (ولياً)، وكل صديق حميم يسمى (ولياً)؛ ولهذا كان الله ولي المؤمنين، والمؤمنون المتقون أولياء الله؛ لأن الإيمان سبب منعقد بين العبد وربّه، يكون بسببه الله يوالي العبد بالإحسان والرحمة والجزاء، والعبد يوالي الله بالطاعات ونحو ذلك. والمعنى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ﴾ يحشرون في حال كونهم وقت ذلك الحشر ليس لهم ﴿وَلِيٌّ﴾ أحد بينهم وبينه سبب يجعله يواليهم فيكون ولياً لهم يمنعهم مما أراد الله أن يفعل بهم إذا عصوه.

وقوله: ﴿مِنَ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ (الشفيع) في لغة العرب^(٣): فاعيل بمعنى فاعل. أصله: (شافع). وأصل (الشفاعة) مشتقة من (الشَّفَع)، و(الشَّفَع) ضد الوتر، وإنما قيل للشفيع: (شفيع) لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته فلما جاء إلى من يشفع له شَفَّعه فصارا اثنين في حاجته، ومنها قيل له: (شفيع)؛ لأنه من (الشَّفَع).

والشفاعة في الاصطلاح^(٤): هي التوسط للغير في جلب [نفع]^(٥) أو دفع ضرر، وهو على قسمين: شفاعة في الدنيا وشفاعة في الآخرة، أما شفاعة الدنيا فهي قد تكون عند الملوك، وعند غيرهم من العظماء، وهي نوعان^(٦): إذا كان الإنسان يشفع لينقذ مظلوماً، أو يحقق حقاً، أو يبطل

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: المفردات (مادة: ولي) ص ٨٨٥.

(٣) المصدر السابق (مادة: شفع) ص ٤٥٧.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٥) في الأصل: مكروه.

(٦) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

باطلاً، أو يوصل إنساناً إلى حقه الممنوع منه فهذه الشفاعة طيبة، صاحبها مأجور عليها، وهي التي قال فيها النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»^(١). وتارة تكون الشفاعة هي التوسط في أمر خبيث لا يجوز، كأن يتوسط رجل لرجل في امرأة لتمكنه من نفسها، أو يتوسط له عند سلطان لينزع حق رجل آخر، وما جرى مجرى ذلك من الشفاعة، أو يشفع ليسقط حداً من حدود الله. وهذه الشفاعة خبيثة، قبيحة، صاحبها يؤزر عليها، وهي من عظام الذنوب، وقد أشار الله إلى هذا التفصيل في سورة النساء في قوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: آية ٨٥].

أما الشفاعة في الآخرة فكلها لله جل وعلا ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: آية ٤٤] لا شافع ذلك اليوم إلا بإذن الله.

والشفاعة يوم القيامة قسمان: شفاعة باطلة مردودة، وهي التي كان يفهمها الكفار، وهي من أنواع الكفر بالله، وهي: ادعاء الكفار أن الأصنام تشفع لهم بلا إذن من الله (جل وعلا)، إذ من المعلوم أن الأوثان لا تشفع بإذن الله كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: آية ١٨] وهذا النوع من الشفاعة سماه الله في سورة يونس: (شركاً) حيث قال: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا النوع إنما سماه الله (شركاً) - وله المثل الأعلى - لأن فيه نوعاً من القدح في عظمة الربوبية. وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا: - والله المثل الأعلى - ترى أكبر جبار طاغ في الدنيا يتقطع غيظاً على مجرم، ونيته أنه يقطع ذلك المجرم عضواً عضواً، فيمكنه الله من ذلك المجرم ويقع في قبضته، ونيته أن يُنكِّله أعظم نكال، فيأتي واحد من عظماء دولته - رجل له عظمة وجاه، وله شعبية عظيمة - ويتجراً على ذلك الملك

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

رغم أنفه، ويقول له: بارك الله فيك شفعني في هذا المجرم!! فينظر ذلك الملك، يقول: إذا رددت شفاعته هذا العظيم قد يكون ضدّاً عليّ، وحرباً عليّ، فقد يأتيني بغائلة!! فيخاف المسكين، ويضطر إلى أن يشفعه رغم أنفه. فخالق السماوات والأرض لا يقدر أحد أن يدلّ عليه بعظمة ولا جاه، ولا يخاف من أحد أن يدبر عليه شيئاً؛ ولذا يقول مخاطباً لخلقه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] الجواب: لا أحد يمكن أن يتجاسر على ذلك أبداً؛ لأن هذا ملك الملوك الذي لا يخاف من أحد، ولا يمكن أحداً أن يدبر شيئاً ضده؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: آية ٢٣].

فالحاصل أن الشفاعة يوم القيامة قسمان: قسم مقبول، وقسم مردود، ولقبوله شرطان إذا حصلّا كانت الشفاعة شرعية واقعة، وإذا فُقدَا أو واحد منهما فالشفاعة ممنوعة شرعاً. أما هذان الأصلان:

فأحدهما: أن يكون المشفوع له مسلماً؛ لأن الله (جل وعلا) لا يقبل شفاعة لكافر ألّبتة، كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: آية ٢٨] مع أنه يقول: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧].

الثاني: أن يأذن خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فإذا أذن الله في الشفاعة، وكان المشفوع له مؤمناً. بهذين الشرطين تكون شفاعة مقبولة واقعة في الشرع، دلّ عليها كتاب الله وسنة نبيه.

ومما يوضح هذا المعنى: أن سيد الخلائق على الإطلاق - نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه - عنده وعد صادق من الله في دار الدنيا، كما يأتيكم في تفسير قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: آية ٧٩] عنده وعد من الله بالشفاعة الكبرى، وهو عالم أن الله لا يخلف وعده، فإذا وقع الناس في مأزق يوم القيامة، وجاؤوا إلى آدم، وقال كلامه المعروف، ثم جاؤوا إلى نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، حتى إذا

بلغوا النبي ﷺ قال لهم: «أنا لها»^(١). لأنه عالم بالوعد الصادق من خالق السماوات والأرض، ومع علمه بالوعد، وعظم جاهه، ومكانته عند الله، لم يتجرأ أن يشفع من غير إذن؛ بل خرّ ساجداً، فألهمه الله (جل وعلا) من المحامد ما لم يلهمه لأحد قبله ولا بعده، ولم يزل ساجداً حتى قيل له: ارفع رأسك، وسلّ تُغَطَّ، واشفع تُشَفَّع. هذا مصداق لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: آية ٥٥] الجواب: لا أحد، فالشفاعة للكفار ممنوعة بتاتاً، والشفاعة بغير إذن الله ممنوعة بتاتاً. وقد دلت السنة الصحيحة على أن الشفاعة للكفار خرج منها فرد واحد لا نظير له، وهو ما ثبت في الصحيحين: أن شفاعة النبي ﷺ نفعت أبا طالب، مع أنه مات كافراً. إلا أن هذا النفع لهذا الكافر الذي هو وحيد لم يكن له نظير، إنما كان في نُقْلٍ من موضع من النار إلى موضع آخر أخفّ منها؛ ولذا ثبت في الصحيحين: «لعله تنفعه شفاعتي فيُخَجَّل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه، له نعلان يغلي منهما دماغه»^(٢). والعياذ بالله جل وعلا.

- (١) حديث الشفاعة رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:
- ١ - أبو هريرة، عند البخاري في الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾. حديث رقم (٣٣٤٠)، (٣٧١/٦)، وطرقه (٣٣٦١، ٤٧١٢).
- ومسلم في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم (١٩٤)، (١٨٤/١).
- ٢ - أنس، عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّصْتُ يَدَيَّ﴾. حديث رقم (٧٤١٠)، (٣٩٢/١٣)، ومسلم في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم (١٩٣)، (١٨٠/١).
- ٣ - أبو هريرة وحذيفة، عند مسلم (الموضع السابق) حديث رقم (١٩٥)، (١٨٦/١).
- ٤ - أبو بكر الصديق، عند أحمد (٤/١)، والدارمي في الرد على الجهمية ص ٥٧، ٨٨، وابن أبي عاصم في السنة (٧٥١، ٨١٢)، وأبي يعلى (٥٦، ٥٧)، وابن حبان (الإحسان (١٣٤/٨)، والدولابي في الكنى (١٥٥/٢).
- ٥ - ابن عباس، عند أحمد (٢٨١/١، ٢٩٥)، وأبي يعلى (٢١٣/٤)، والطيالسي ص ٣٥٣.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

فهذه شفاعة خاصة نفع الله بها كافراً نفعاً مخصوصاً، وهو نقله من محل من النار إلى محل أخف منه من النار والعياذ بالله جل وعلا.

وهذا معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الشفيع المنفي هنا: هو الشفيع الذي يشفع لكافر، أو يشفع بغير إذن الله (جل وعلا). أما الذي يشفع بإذن الله للمؤمن فهذا ثابت كتاباً وسنة.

وأنواع الشفاعة كثيرة، وليست مخصوصة بالأنبياء، بل يشفع الصالحون، والمؤمنون وغيرهم ممن أراد الله أن يشفعه فيمن شاء من خلقه.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في (لعل) هنا وجهان بينهما بالأمس:

أحدهما: أنها للتعليل^(١)، وعليه فالمعلل هو الإنذار المذكور في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي: أُنذر الذين يخافون، أُنذرهم لأجل أن يتقوا. أي: لأجل أن يؤثر فيهم ذلك الإنذار ويخوفهم فيتقون الله جل وعلا.

وأصل الالتقاء في لغة العرب^(٢): هو اتخاذ الوقاية التي تقيك من المكروه. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان^(٣):

سَقَطَ التَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَّاوَلَيْتُهُ وَاتَّقَيْتُنَا بِالْيَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبينها، حيث جعلتها؛ دون وجهها لئلا نراه. هذا أصل (الالتقاء)، تقول العرب: «اتقيت السيوف بمجني»، و«اتقيت الرمضاء بنعلي».

هذا أصل (الالتقاء)، وهو في اصطلاح الشرع^(٤): اتخاذ العبد وقاية تقيه من عذاب الله وسخطه.

وهذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امثال أمر الله، واجتناب نهى الله.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

ومعلوم أن مادة (الاتقاء) أصلها من (وَقَى) ففاء المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون: (اللفيف المفروق). فأصل الاتقاء من الوقاية: (و. ق. ي). إلا أنها دخلها (تاء) الافتعال، كما تقول في (قرب): اقترّب، وفي (كسب): اكتسب، وفي (قطع): اقتطع، وفي (وقى): أوتقّى. والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل واوي الفاء إذا دخله (تاء) الافتعال أبدلت الفاء التي هي الواو تاء، وأدغمت في التاء، فقليل فيه: (اتقّى). فهذا التشديد مركب من حرفين: الأول منهما أصله واو في محل فاء الكلمة. والثاني: تاء الافتعال الزائدة. هذا أصل المادة^(١). ومعنى ﴿يَتَّقُونَ﴾: يجعلون وقاية بينهم وبين عذاب الله وسخطه، هذه الوقاية هي امتثال أمره بإخلاص على الوجه الذي شرع، واجتناب نهيه (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ب/٤ / ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٢].

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا ابن عامر: ﴿بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وقرأه ابن عامر وحده: ﴿بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بضم الغين والواو المفتوحة. وهما قراءتان صحيحتان^(٢)، ولغتان فصيحتان.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة: أن عظماء الكفار - بعض الروايات: كفار قريش^(٣)، وفي بعضها: عظماء غيرهم من العرب، كالأقرع بن حابس

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٤.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، حديث رقم (٢٤١٣)، (١٨٧٨/٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه).

من سادات تميم وعيينة بن حصن من سادات الفزاريين^(١). وأشهر الروايات وأولها بالصواب: أن الكفار الذين قالوا هذا كفار مكة؛ لأن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن إنما جاؤا للنبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وهذا مما يؤيد الروايات الواردة بأنهم عظماء الكفار من أهل مكة - كانوا يأتون النبي ﷺ فيجدون معه ضعفاء المسلمين الفقراء، كحَبَّاب، وعمار، وصهيب، وبلال، وما جرى مجرى ذلك. وفي بعض الروايات الثابتة أن من الذين قالوا فيه ذلك من الفقراء: سعد بن أبي وقاص وجماعة معه. قالوا للنبي: نحن كبار رؤساء العرب، وإن اتبعناك اتبعك الناس، ونحن لا نرضى أن نجالس هؤلاء الأعبد، ويؤذينا نَتْنُ جَبَابِهِمْ - لأنهم كانوا يلبسون جَبَاباً من الصوف ليس لهم غيرها، فيكون فيها ريح العرق - اطرده عنا هؤلاء النتنى لنجلس معك ونكلمك. وفي بعض الروايات أنهم قالوا له: إن جئناك فأقمهم عنا حتى نقول لك ما نشاء، وإن خرجنا فإن شئت فاقعد معهم. وفي بعض الروايات: أنه ﷺ هم بأن يجعل للعظماء الرؤساء مجلساً ليس فيه أولئك. وذكروا أنه دعا علياً (رضي الله عنه)، وأخذ الصحيفة ليكتب فيها علي؛ لأنهم قالوا له: اكتب لنا ذلك. فجاءه جبريل وأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ثم لما نزلت ألقى الصحيفة وامتنع من طردهم، وكان يجلس معهم، فإذا أراد القيام قام عنهم قبل أن يقوموا فأنزل الله عليه: ﴿وَأَصْرَ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: آية ٢٨] فكانوا

= وقد جاء من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) عند أحمد حديث رقم (٣٩٨٥)، والطبراني في الكبير، حديث رقم (١٠٥٢)، (٢٦٨/١٠)، وابن جرير (٣٧٤/١١) - (٣٧٥)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢١٧.

وورد أيضاً من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) عند ابن جرير (٣٧٥/١١)، كما ورد عن عدد من التابعين مرسلاً، انظر: ابن جرير (٣٧٨/١١ - ٣٨٠) الواحدي في أسباب النزول ص ٢١٨.

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، حديث رقم (٤١٢٧)، (١٣٨٢/٢)، والبيهقي في الدلائل (٣٥٢/١)، وابن جرير (٣٧٦/١١ - ٣٧٧)، والواحدي ص ٢١٧، وانظر: صحيح ابن ماجه (٣٩٦/٢ - ٣٩٧).

إذا جاء وقت قيامه يقومون ليفسحوا له في القيام؛ لأنهم يعرفون أنهم إن لم يقوموا لا يمكنه أن يقوم. هذا سبب نزول الآية.

والمعنى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] يعني: لأجل أن الكفار الفجرة يحبون ذلك ويرغبون فيه، كما قال له: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: آية ٢٨].

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يدعونه معناه: يعبدونه ويتضرعون إليه. وذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد بالدعاء هنا: الصلاة^(١)؛ لأنها أعظم العبادات، وهي فيها دعاء. يقول المصلي فيه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: آية ٦] ثم يقول: آمين. ففيها أعظم دعاء، وقد ثبت في حديث مسلم عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: أن المسلم إذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال الله: «هذه لعبدي ولعبي ما سألت»^(٢). كما بيّناه مراراً.

وعلى هذا فقوله: ﴿بِالْفُتُورِ وَالْعِشِيِّ﴾ يعني به (الغداة): صلاة الصبح، وبـ (العشي): صلاة العصر.

وقال بعض العلماء: الآية أعم من الصلاة. وهو الظاهر؛ لأنهم يدعون الله ويعبدونه بأنواع العبادات من صلاة وغيرها، أول النهار وآخره. وفي تخصيص الغداة والعشي للعلماء أوجه^(٣):

أحدها: أن العرب إذا أرادت الدوام أطلقت الليل والنهار، والغداة والعشي. يعنون أنهم دائمون على ذلك.

القول الثاني: أن أول النهار وآخره من أفضل الأوقات التي تُنتهز فيها فرصة العبادات.

(١) انظر: ابن جرير (٣٨١/١١ - ٣٨٨).

(٢) مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٥)، (٢٩٦/١).

(٣) انظر: القرطبي (٤٣٢/٦)، البحر المحيط (١٣٥/٤).

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إذا جاء في القرآن العظيم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ معناه: أن ذلك العمل بإخلاص لله (جل وعلا)، ليس فيه رياء ولا سمعة، ولا طلب غرض من أغراض الدنيا.

وصفة (الوجه) صفة من صفات الله (جل وعلا) أثبتتها لنفسه، وأثنى على هذه الصفة ثناء خاصاً لم يُثن به على صفة غيرها حيث قال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: آية ٢٧].

ونحن في هذه الدروس القرآنية مراراً^(١) نقول لكم: إن الطريق السليمة - التي إن متم عليها ولقيتم الله عليها في هذا المأزق الذي ضلّ فيه الآلاف [فإنكم تلقون ربكم بعقيدة صحيحة في هذا الباب]^(٢) - أنها مركزة على ثلاثة أسس، كل واحد منها في ضوء القرآن العظيم بغاية الوضوح، من لقي الله على اعتقاد هذه الأسس الثلاثة لقيه سالماً، ومن أخلّ بواحد منها دخل في مهواة، قد لا يتخلص منها.

أول هذه الأسس الثلاثة هو - أيها الإخوان - أن تلزموا قلوبكم بالطهارة من أقدار التشبيه، وتنزهاوا خالق الكون (جل وعلا) عن أن يُشبهه شيء من خلقه في أي صفة من صفاته، كائنة ما كانت، ومن الخلق حتى يشبهوا خالق السماوات والأرض؟ كيف يشبهونه وهم أثر من آثار قدرته وإرادته؟ فالأثر لا يشابه مخترعه.

وهذا الأصل هو الأساس الأكبر في معرفة الله، والحجر الأساسي لصلة العبد بربه صلة صحيحة على أساس صحيح، وهو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق. وهذا الأساس منصوص في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] لأنه لا مثل له ولا شبيه.

(١) للشيخ (رحمه الله) محاضرة في موضوع الصفات، وقد طبعت بعنوان (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات)، وانظر الأضواء (٢/ ٣٠٤ - ٣٢١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وهذا الأصل هو الأصل الأعظم في التوحيد، وهو أساس الصلة الصحيحة بين العبد وربّه، فمن حقق هذا الأصل قرب من الخير، ومن لم يحقق هذا الأصل جرّه إلى تشبيهات وإلى معاني لا خلاص منها. فإذا حقق العبد هذا الأصل، وألزم قلبه بأن يعلم أن خالق السماوات والأرض أعظم وأكبر وأنزّه وأجل من أن يشبهه شيء من خلقه بأي صفة من صفاتهم [فإنه يكون قد طهر قلبه من دنس التعطيل وأقذار التشبيه^(١)].

والأساس الثاني: هو أن يصدق الله بما وصف به نفسه، ويصدق رسوله بما وصف به ربه، تصديقاً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فلا يتنطع بين يدي الله، وينفي عن الله وصفاً مدح الله به نفسه، أو مدحه به من قال في حقه: ﴿وَمَا يَطَّلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآيتان ٣ - ٤] إذ لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ.

وهذا الأصل الثاني علّمناه خالق الكون (جل وعلا) تعليماً سماوياً أعظم، لا يقع في الحق بعده لبس، وذلك قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فإتيانه بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه سرّ أعظم، ومغزى أكبر، وتعليم خالق السماوات والأرض، وإيضاحه لهذه العقائد إيضاحاً كالشمس.

والمعنى: لا تتنطع يا عبدي، يا مسكين، اعرف قدرك، ولا تنف عني صفة سمعي وبصري مدعياً أنك إن أثبت لي سمعي وبصري شبهتني بالحيوانات التي تسمع وتبصر، لا، ما هكذا الأمر. المعنى: أثبت لي سمعي وبصري، وراع في ذلك الإثبات قولِي قبله مقترناً به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فأول الآية تنزيه كامل من غير تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات

(١) زيادة يقتضيها السياق.

إيماناً تاماً من غير تشبيهه ولا تمثيل، فعلياً أن نُنزّه خالقنا (جل وعلا) بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأن نُثبت له ما أثبت لنفسه، ولا نقول إذا أثبتناه: كنا مشبهين؛ لأن الحيوانات تتصف بهذا!! ولأجل هذا وصف نفسه بالسمع والبصر، مع أنهما من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكل الحيوانات تسمع وتبصر؛ ولذا وصف نفسه بالسمع والبصر بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يعني: لا تنف عني سمعي وبصري بدعوى أنك إن أثبتتهما كنت مشبهاً لي بالحيوانات التي تسمع وتبصر، لا. أثبت لي صفة سمعي وبصري إثباتاً مراعى فيه قلبي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ولأجل هذه الحكمة قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فأول هذين الأصلين - الذي هو الأساس الأكبر للتوحيد والصلة بالله صلة صحيحة -: تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يُشبه شيئاً من خلقه بأي شيء من صفاتهم.

الأساس الثاني: هو أن لا تتنطع - أيها المسكين - وتنفي عن الله وصفاً مدح به نفسه، أو أثني عليه به رسوله، بل أثبت له هذا الوصف مراعى في ذلك أنه (جل وعلا) ليس كمثله شيء، كما قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

فعلياً أن ننزه الله عن مشابهة الخلق، وعلياً أن نُصدّق الله بما وصف به نفسه، ونُصدّق رسوله بما وصف به ربه، ولا يخطر في عقولنا التشبيه بصفات المخلوقين. ومن المخلوقون حتى تشبه صفاتهم صفات خالقهم؟ أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته؟ وكيف تشبه الصنعة صانعها؟

ولو تَنَطَّع مُتَنَطَّع وقال: نحن ما عرفنا صفة سمع ولا بصر منزّهة عن صفة الخلق، وما علمنا صفة وجه منزّهة عن صفات الخلق، وما علمنا كيفية صفة استواء منزّهة عن استواءات الخلق، فبينوا لنا كيفية هذه الصفات حتى نعقل كيفية منزّهة نعتقدها.

فنقول في هذا: قال مالك بن أنس: السؤال عن هذا بدعة^(١). ولكن نتنزل معه ونقول: أيها المتنطع: هل عرفت كيفية الذات الكريمة المقدسة المتصفة بهذه الصفة؟ فلا بد أن يقول: لا، فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بهذه الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات.

هذان أصلان:

الأول منهما: تنزيه خالق السماوات عن أن يشبه شيئاً من خلقه.

الثاني: تصديقه فيما وصف به نفسه، وعدم تكذيبه، وتصديق رسوله بما وصف به ربه تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأول الآية تنزيه من غير تعطيل، وآخرها إثبات للصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، وإن كانت الحيوانات تسمع وتبصر.

الأصل الثالث: هو أن نقطع طمعنا عن إدراك كيفية صفات الله (جل وعلا). والله قد نص على عجز الخلق عن الإحاطة بإدراك كفياته. أشار إلى ذلك في السورة الكريمة - سورة طه - حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠].

هذه الأصول الثلاثة:

الأول: تنزيه الله.

الثاني: الإقرار بصفات الله مبنياً على أساس التنزيه على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

وأنا أؤكد لكم - أيها الإخوان - أننا جميعاً سننتقل من هذه الدار إلى القبور، وننتقل سريعاً من القبور إلى عرصات القيامة. ولا شك أننا هناك

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص ٣٣، البيهقي في الأسماء والصفات ص ٥١٥، اللالكائي رقم (٦٦٤)، شرح السنة (١٧١/١)، مختصر العلو رقم (٢٠٨)، فتح الباري (٤٠٦/١٣) - (٤٠٧).

تُناقش عن كل ما قدمنا، وما أسلفنا من خير أو شر، ومما يسألنا الله عنه: هل ما مدحت به نفسي وأثبتت به على [نفسي]^(١) أو أثبتته لي [رسولي] يُعد تشبيهاً؟ لو متم يا إخواني وأنتم على هذا المعتقد، أترون الله يوم القيامة يقول لكم: لِمَ نزهتموني عن مشابهة الخلق؟ ويلومكم على ذلك؟ لا وكلاً، والله لا يلومكم على ذلك. أترون أنه يلومكم على أنكم آمنتم بصفاته، وصدقتموه فيما أثني به على نفسه، ويقول لكم: لِمَ آمنتم بما أثبت لنفسي... [٢] ولا بما قد نص رسول الله ﷺ فيما أثني به علي، تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه. لا وكلاً، أبداً، فهو طريق سلامة محققة، ولا يقول له: لِمَ لا تدعي أن عقلك المسكين القصير محيط بكيفيات صفاتي؟ لا أبداً. فهذه طريق سلامة محققة، وهي التي سار عليها النبي ﷺ، والسلف الصالح، والقرون المشهود لهم بالخير، بيضاء ليلها كنهارها؛ لأن على العبد أن ينزه خالقه عن مشابهة الخلق، وأن يؤمن بصفات ربه، ولا يكذب ربه، ولا نبيه، إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ويعرف قدر عقله، ويعلم أنه عاجز عن الإحاطة بكيفيات خالق السماوات والأرض.

الأصل الأول بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ والثاني بقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ والثالث بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ فعلياً - معاشر المؤمنين - أن نمر آيات الصفات وأحاديثها، ونصدق الله بما مدح به نفسه، ونعلم أنه لا يمدح نفسه بنقص ولا باطل، ولا يثني على نفسه إلا بكمال وجلال، وننزه ربنا عن صفات المخلوقين، فبالتنزيه نسلم من ورطة التشبيه، وبالإيمان والتصديق بصفات الله نسلم من ورطة التعطيل ونكون مؤمنين موحدتين منزهين، لسنا مرتطمين في تشبيهه، ولسنا مرتطمين في تعطيل، هذا هو

(١)(٢) في هذين الموضعين انقطع الصوت في التسجيل. وقد استدركتُ النقص من المواضع التي تكلم فيها الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة بنحو هذا الكلام، كما في محاضرة الصفات ص ٤٤ - ٤٥، ومن كلامه في هذا التفسير كما في الأنعام عند الآيتين (١٠٣)، (١٥٨)، الأعراف (٥٤، ٩٩، ١٤٤)، التوبة (٢١).

الوجه فيما جاء من هذه الصفات؛ ولذا قال الله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ابتغاء وجه الله. فالمعنى: أن ذلك العمل خالص لله، لا يشوبه رياء ولا سمعة ولا غرض من أغراض الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] هذه الآية والآيات التي نزلت مثلها في قضية نوح في سورة هود^(١)، وفي سورة الشعراء^(٢)، معناها: أن الكفار قالوا له: هؤلاء الضعاف التتني الذين معك، ليس لهم إيمان، ولا معرفة بالله، ولا التجاء إلى الله، وإنما هم يقولون هذا الكلام لتسمعهم وتعطيهم شيئاً يأكلونه ويشربونه، فهم يراؤون لأجل الطعام. الله (جل وعلا) برأهم من هذه الدعوى، وبين أنهم مخلصون لله، وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ثم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: عملهم لهم، صالحه لهم وطالحه عليهم، ولست مأخوذاً بالتنقيب عنهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: لست محاسباً بما يفعلون، وليسوا محاسبين بما تفعل، فعليك أن تأخذ بالظاهر من أحوالهم - الإيمان - مع أن الله نص له على أن باطنهم سليم، وأن نيتهم صحيحة، وأنهم بريئون مما قال الكفار حيث قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ثم قال: ﴿فَتَطْرُدْهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال بعض العلماء^(٣): الفاء الأولى ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ في جواب النفي، والفاء الأخرى من جواب النهي. والمعنى: لا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، ما عليك من

(١) وهي قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ﴾ [هود: آية ٢٩] وقوله في الآية بعدها: ﴿وَيَنْقُورُ مَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طُرِدتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: آية ٣٠] وذلك بعد قولهم له: ﴿مَا رَبُّكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا رَبُّكَ بِأَنَّكَ إِلَهٌ لِّدِينِهِمْ أَرَادُوا نَفْسًا﴾ [هود: آية ٢٧].

(٢) وهي قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: آية ١١٤].

(٣) انظر: القرطبي (٤٣٤/٦)، البحر المحيط (١٣٨/٤)، الدر المصون (٦٤٥/٤).

حسابهم من شيء فتطردهم. أي: لو كان حسابهم عليك، لو كانوا فعلوا في الباطن شيئاً أمكن أن تطردهم؛ لئلا يكون فعلوه في الباطن^(١). لكن لو فرضنا أنهم فعلوا في الباطن غير طيب فحسابهم عليهم لا عليك، فأى موجب تطردهم عليه، فعلى كل حال فقلوه: ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ قولاً واحداً منصوب في جواب النفي؛ لأنها فاء السببية بعد النفي نحو ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْثُوا﴾^(٢) [فاطر: آية ٣٦] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه معطوف عليه ﴿فَتَطْرُدْهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بسبب طردهم.

الثاني: أنه في جواب ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ فتكون من الظالمين. وأن الجملة اعتراضية بين هذا وهذا.

والطرد: الإبعاد.

والظالمون: قد قدمنا أن معناه وُضع الشيء في غير موضعه^(٣). ومن طرد مسلماً طيباً كريماً يستحق التقدير والإحسان على خاطر خبيث خسيس - يستحق الطرد - فقد وضع الأمر في غير موضعه، حيث طرد من يستحق القرب على خاطر من يستحق البعد؛ ولذا قال: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

^(٤) وهذه القضية أجرى الله العادة بأن الرؤساء يقولون للأنبياء: اطرءوا هؤلاء التننى الضعاف، لا نؤمن بكم ومعكم هؤلاء. والدليل على هذا: أن نوحاً - صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا - أول الأنبياء، قالوا له: ﴿مَا

(١) المعنى المراد تقريره هو: لو كان حسابهم مؤكلاً بك فوقع منهم شيء في الباطن فلك أن تطردهم لأجل ما وقع منهم في الباطن.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٩٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٤) مضى قريباً.

نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَادِي الرَّأْيِ وَمَا
 نَزَّلْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴿هود: آية ٢٧﴾ وطلبوا منه أن يطردهم؛ ولذا
 قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ أَزِيدُهُمْ قَوْمًا
 يَجْهَلُونَ﴾ [هود: آية ٢٩] وقال في شأنهم: ﴿وَيَقْوَمُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ
 طَرَدْتُهُمْ﴾ [هود: آية ٣٠] وقال في هذا في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ
 وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: آية ١١١] وبينوا له أن أعمالهم رياء - كما
 قال هؤلاء في أصحاب النبي - فقال نوح: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: الآيتان ١١٢ - ١١٣]
 ليس علي من حسابهم من شيء، ولا عليهم من حسابي من شيء، ثم
 قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: آية ١١٤] لا أطردهم أبداً.
 فالقصة شبيهة بالقصة؛ ولذا قال هنا: ﴿فَتَطْرُدْهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

/ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَائِبِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَقْصَىٰ وَلَئِنَّ سَبِيلَ
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٥٣ - ٥٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: آية ٥٣].

قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: وكذلك الفتون المتقدم الذي فتن الله فيه أغنياء العرب ورؤساءهم فتنهم بضعفاء المسلمين حيث احتقروهم، وأبوا أن يجالسوا النبي ﷺ وهم معه في المجلس، وقالوا له: اطردهم عنا، فإننا لا نرضى أن نجلس معهم. حتى أنزل الله في ذلك ما أنزل.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما فتن هؤلاء الأغنياء بهؤلاء الفقراء، كذلك فتننا بعضهم ببعض، فالله يفتن بعض الناس ببعض، يفتن الغني بالفقير، والفقير بالغني.

وقد قدمنا مراراً أن الفتنة أطلقت في القرآن ثلاثة إطلاقات، وبعضهم

يقول: أربعة إطلاقات^(١)، أما الإطلاقات الثلاث الذي لم يخالف فيها أحد: فمنها إطلاق الفتنة على (الاختبار)، وهو أشهرها في القرآن.

ومنها إطلاق الفتنة على (الإحراق بالنار)؛ لأن العرب تقول: فتننت الذهب، إذا سبكته في النار وأذبتة، أي: ليتبين أخالص هو أم زائف. ومن إطلاق الفتنة على مطلق الوضع في النار قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: آية ١٣] أي: يحرقون بالنار - والعياذ بالله - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَنَؤُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: آية ١٠] أي: أحرقوهم بنار الأخدود على أصح التفسيرين.

وكذلك تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، كالمعاصي والكفر، فإن الكفار والعصاة اختبرهم الله بالأوامر والنواهي، فكانت نتيجة الاختبار فيهم غير محمودة حيث كفروا وعصوا؛ ولذا يطلق اسم (الفتنة) على الكفر والمعاصي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ هَلْ تَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] أي: حتى لا يبقى شرك. وهذا أصح التفسيرين، والدليل على صحة هذا التفسير: قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»^(٢). فغاية «حتى يشهدوا أن لا إله

(١) انظر: المفردات (مادة: فتن) ص ٦٢٣، نزهة الأعين النواظر ص ٤٧٧، إصلاح الوجوه والنظائر ص ٣٤٧.

(٢) هذه الجملة وردت في عدة أحاديث رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة منهم:

١ - ابن عمر (رضي الله عنه)، عند البخاري في الإيمان، باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] رقم (٢٥)، (٧٥/١)، ومسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. حديث رقم (٢٢)، (٥٣/١).

٢ - أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم (١٣٩٩)، (٢٦٢/٣)، ومسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. حديث رقم (٢٠، ٢١)، (٥١/١)، (٥٢).

٣ - جابر (رضي الله عنه)، عند مسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ورقمه في الباب (٣٥)، (٥٣/١).

٤ - أنس (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب: فضل استقبال القبلة، حديث رقم (٣٩٢)، (٤٩٧/١).

إلا الله» في هذا الحديث الصحيح يفسر الغاية في قوله: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي: لا يبقى أحد إلا وهو يشهد أن لا إله إلا الله على أظهر التفسيرين، وخير ما يُفسر به القرآن بعد القرآن: السنة الصحيحة؛ لأن النبي ﷺ قيل له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: آية ٤٤] فالسنة بيان للقرآن.

الرابع: إطلاق الفتنة بمعنى (الحجة)، كما قاله بعض العلماء في قوله المتقدم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً﴾ [الأنعام: آية ٢٣] أي: حجتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ على القول بذلك.

والمراد بالفتنة في هذه الآية التي نحن بصددتها: الاختبار والابتلاء. أي: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: اخترنا وابتلينا بعضهم ببعض. فالأغنياء يُبتلون بالفقراء، والفقراء يُبتلون بالأغنياء، وقد بين الله في سورة الفرقان: أن هذا الابتلاء يحتاج إلى صبر، وأن الله فيه حكمة كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: آية ٢٠] غالباً الأغنياء يُبتلون ويُفتنون بما يعطيه الله للفقراء من الدين والإيمان بالله (جل وعلا)، والفقراء غالباً يُبتلون بما يعطيه الله للأغنياء من الدنيا، فيقول الفقراء: كيف أعطي هؤلاء الغنى والدنيا، ونحن خير منهم ولم نعطيها؟ ويحسدونهم على غناهم، كما أن الأغنياء يقولون: كيف يكون هؤلاء الفقراء على حق ودين ويكونون أفضل منا ونحن خير منهم؟

وهذا النوع من الابتلاء هو المقصود هنا. أي: جعلنا فقراء المسلمين ابتلاءً وامتحاناً لأغنياء الكفار، حيث قالوا: هؤلاء الضعفاء كيف يعبأ الله بهم وهم لا جاء لهم ولا مكانة؟ والله لا يعبأ الله بهم، ولو كان ما هم عليه فيه خير لكنا سابقين إليه؛ لأننا أفضل منهم وأولى منهم بكل خير.

= ٥ - النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، عند النسائي في تحريم الدم، حديث رقم (٣٩٧٩)، (٧٩/٧ - ٨٠).

٦ - أوس بن حذيفة (رضي الله عنه)، عند النسائي في تحريم الدم الأحاديث (٣٩٨٠ - ٣٩٨٣)، (٧/٨٠ - ٨١).

كما قال تعالى عن الكفار في هذا الموضوع: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] وكما قال: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: آية ٧٣] أينما أحسن مجالس وأكثر غنى وأثنا؟ يعنون: أنا أفضل منكم، ولو لم تكن أفضل عند الله منكم في الآخرة لما فضلنا عليكم في الدنيا!! يقيسون الدنيا على الآخرة، ويحتقرون المسلمين، ويحلفون أن هؤلاء الضعفاء لا يرحمهم الله، ولا يعاب بهم لسقوط مكانتهم فيما يظنون. كما يأتي في الأعراف في قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٩] وكانوا إذا رأوهم يحتقرونهم، ويسخرون منهم، ويغمز بعضهم بعضاً فيقولون: هؤلاء الضعفاء الفقراء، والأعبد الموالى الذين لا يعاب بهم أحد، هم الذين يقول محمد ﷺ: إن لهم عند الله المكانة العظيمة، وأنهم خير منا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: آية ٣٠] أي: يغمز بعضهم بعضاً احتقاراً لضعفاء المؤمنين، كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا، ويتغامزون عليهم، ثم إنه يوم القيامة يكون أولئك الضعفاء في أعلى عليين، ويسخرون في ذلك الوقت من الذين كانوا يسخرون منهم، كما في قوله: ﴿رَبَّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: آية ٢١٢] وقد نص الله تبارك وتعالى في السورة الكريمة - سورة الصافات - على أن أهل الجنة يمكنهم أن ينظروا أهل النار، وقد يتكلمون مع بعضهم، كما جاء في قصة ذلك الرجل المقصوص خبره في الصافات، وذلك كما بينه المفسرون^(١): أنه كان رجلان شريكين في تجارة كثيرة، ثم اقتسما، وأخذ كل منهما نصيبه، وأحدهما مؤمن، والثاني كافر، وكان المؤمن ينصح الكافر للدين، والكافر يرشد المؤمن إلى الكفر وإنكار البعث - والعياذ بالله - فتزوج الشريك

(١) انظر: ابن جرير (٥٩/٢٣)، وأورد السيوطي في الدر (٢٧٥/٥ - ٢٧٦) روايات متعددة

الكافر امرأة حسنة جميلة، وأعطاهما مالا طائلاً، فقال شريكه المؤمن: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة جميلة، وأعطاهما كذا وكذا، وإنني أخطب إليك من نساء الجنة بمثل المهر الذي تزوج به، وتصديق بقدر ذلك المهر. ثم إن فلاناً - الكافر - اشترى بساتين وضياعاً، فقال أيضاً صاحبه: اللهم إن فلاناً اشترى كذا وكذا بكذا، وإنني أشتري منك في الجنة بذلك الثمن، فتصدق بالثمن على الفقراء والمساكين. حتى افتقر ذلك المؤمن، وجاء لشريكه الكافر يطلب أن يكون عنده أجيراً، فامتنع أن يشغله، ولامه ووبخه، فدخل ذلك المؤمن الجنة وذلك الكافر النار، وكان ذلك المؤمن يتحدث [مع] جلسائه [في] ^(١) الجنة، وقال لهم: كان لي في الدنيا صديق صاحب من أمره كيت وكيت، فاطلّعوا معي لنرى حاله وما هو عليه في النار، فأخبروه أنهم لا يعرفونه معرفة سابقة، ولا حاجة لهم فيه، وأنه هو إن شاء يطلع لينظر إليه، فاطلع فرآه في النار، وقال له ذلك الكلام الذي ذكره الله في الصافات، أشار الله إلى هذه القصة بقوله في أهل الجنة: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ۖ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَنُونٌ ۚ﴾ (٤٨) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ﴾ (٤٩) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۚ﴾ (٥١) ﴿يَقُولُ لَكَ لَئِن الْمَصْدِيقَ ۖ﴾ (٥٢) ﴿إِنكَاراً لِّلْبَعَثِ ۖ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَرَعَلْنَا لَنُدَّيْنَهُ ۖ﴾ (٥٤) ﴿إِنَّا لَمُجَازُونَ؟ لَا يَكُونُ ذَلِكَ. ۖ﴾ (٥٥) ﴿إِنكَاراً مِنْهُ لِّلْبَعَثِ ۖ﴾ (٥٦) ﴿قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ۚ﴾ (٥٧) يعني: مطلعون معي في النار لنشرف على حاله ﴿فَاطَّلَعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَاءِ الْحَجِيمِ ۚ﴾ (٥٨) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُزِدَنِي ۚ﴾ (٥٩) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ۚ﴾ (٦٠) [الصافات: الآيات ٤٨ - ٥٧].

ومعنى قوله (جل وعلا) هنا: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا بعضهم فتنة لبعض، كما جعل الله فقراء المسلمين الضعفاء، الذين ليس لهم مال ولا جاه في ذلك الوقت، كبلال، وعمار، وصهيب، وما جرى مجرى ذلك من الفقراء، الذين ليسوا أصلاً من قريش، ولا مال عندهم، فتن الله بهم أولئك الأغنياء. كأن الله (جل وعلا) قال: إنه من حكمته

(١) في الأصل: «في جلسائه في الجنة». وهو سبق لسان.

أن يفتنهم بهم ليقولوا هذا القول محتقرين لهؤلاء، ليسوا عارفين بحقيقة الأمر ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لأجل أن يقولوا. أي: أن يقول أولئك الأغنياء محتقرين لأولئك الفقراء إنكاراً: ﴿أَهْوَلَاءُ﴾ يعنون: أهؤلاء المساكين الفقراء الذين لا يُعْبَأُ بهم، ﴿مَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ فأعطاهم المنة العظمى، وهي التوفيق والإيمان لما يرضي الله جل وعلا، والفضل برضا الله (جل وعلا) عنهم، إنكاراً لهم أن الله يمتن على الضعفاء في زعمهم أنهم أحق بذلك منهم، وأن الذي هم عليه لو كان حقاً لكان أولئك الأغنياء سابقين إليه. كما قال عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] وقال الواحد منهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ﴾ [فصلت: آية ٥٠] ﴿وَلَكِنْ زُودْتُ إِيَّاكَ رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: آية ٣٦] ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: آية ٧٧] هذا كله جهل منهم، يظنون أن الله ما أعطاهم الغنى والجاه في الدنيا إلا لأنهم يستحقون ذلك، وأن لهم مكانة عند الله وشرفاً استحقوا به ذلك، والله (جل وعلا) كذبهم مراراً في هذه المقالة الكاذبة، قال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ يعني: التي تفتخرون بها في الدنيا وتقيسون عليها الآخرة ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: آية ٣٧] وقال: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا يُنِذِرُكُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّأُ ۝ شَارِعٌ لَّهُمْ فِي الْفِتْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥ - ٥٦] وبين أن ذلك استدراج من الله، كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلٍ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢ - ١٨٣] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾ [آل عمران: آية ١٧٨] ولذا قال هنا: ﴿يَقُولُوا﴾ محتقرين ضعفاء المسلمين ﴿أَهْوَلَاءُ﴾ الضعفاء الذين لا مكانة لهم، ولا مال، ولا جاه ﴿مَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أعطاهم المنة العظمى برضاه، ودينه، وهدهاء ﴿مَنْ بَيْنَنَا﴾ أي: لم يعطنا نحن ذلك؟ كما قال قوم صالح عنه: ﴿أَشْرَكَ بِنَا وَجَدًا نَّعْتُهُ﴾ [القمر: آية ٢٤] إلى أن قالوا: ﴿أَهْلَىٰ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنَنَا﴾ [القمر: آية ٢٥] أ جاءه الوحي من الله من بيننا، ولم يكن أفضلنا ولا

أغنانا؟ هذا لا يمكن أبداً!! كما قال كفار مكة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: آية ٣١] صاحب مال وجاه؛ لأن محمداً ﷺ لم يكن عنده الغنى، وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: آية ٣٢] لا وكلا؛ ولذا قال هنا: ﴿لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءُ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ واللام هنا (لام كي)، وهي للتعليل، والله يتبلي الخلق ليقع منهم ما يشاء الله من خير وشر، وله في ذلك حكمة، ويبين أنه يتبلي لينجح بعض الناس في ذلك الامتحان، ويسقط بعضهم في ذلك الامتحان، أوضح ذلك في سورة المدثر، حيث قال (جل وعلا) - لأنه لما جاء في القرآن أن خَزَنَةَ جَهَنَّمَ تسعة عشر ملكاً، كان هذا فتنة للكفار، حيث قالوا: كيف ونحن الآلاف المؤلفة يقهرنا تسعة عشر شخصاً؟ فقال لهم واحدٌ منهم كان قوياً: أنا أكفيكم منهم كذا وكذا - قدر سبع عشرة - وأنتم تقتلون الباقي فنحتل الجنة، وندخلها قهراً^(١)!! ولذا قال الله -: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [٣٢] ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم بين نتيجة هذه الفتنة، وهذا الاختبار، وصرح بأن قوماً ناجحون فيه، وقوماً بعكس ذلك. قال: ﴿يَسْتَفِيقُونَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا وَلَا يُرَأَبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ثم قال في غير الناجحين: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَمٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ كذلك قوله هنا: ﴿لِيَقُولُوا﴾ محتقرين ضعفاء المسلمين: ﴿أَهْتُولَاءُ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ لا يمكن ذلك؛ لأن الله لو كان ما أعطاهم خيراً لأعطانا؛ لأننا أولى منهم وأعظم وأحق بالخير ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] رد الله عليهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذا النوع من الاستفهام هو الاستفهام المسمى بـ(استفهام التقرير) والمقصود من استفهام التقرير ليس السؤال عن شيء يفهمه السائل، بل المراد به: حمل المُخَاطَب على أن يُقر فيقول: «بلى»، ولا يكون استفهام التقرير إلا في شيء لا يمكن أن

(١) انظر: ابن جرير (١٥٩/٢٩ - ١٦٠).

يُنَازَع فيه، وإن كان يمكن فيه النزاع فالمُخَاطَب يَعْرِفُ المُخَاطَبُ أَنَّهُ لَا يَنَازَعُ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَأَنَّهُ مُقَرَّبٌ بِهِ. فَمِثَالُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ نِزَاعٌ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. الْجَوَابُ: بَلَى، هُوَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَا يُمْكِنُ جَوَابُ غَيْرِ هَذَا لِأَحَدٍ. أَمَّا الْجَوَابُ الَّذِي يُمْكِنُ الْخِلَافُ فِيهِ، إِلَّا أَنَّ الْمُخَاطَبَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُخَاطَبَ مُقَرَّبٌ بِهِ وَيَكْفِيهِ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ: فَكَقَوْلِ جَرِيرٍ يَمْدَحُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ^(١):

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحَ
فهو يعلم أن الممدوح يعتقد هكذا، وإن كان غيره قد يخالف ويقول:
ليسوا أندى الناس بطون راح.

وقوله: ﴿بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذه (الباء) التي تأتي بعد (ليس) وبعد (ما) النافية باطراد إنما فائدتها أنها تدل على تأكيد النفي، فالنفي الذي تدخل فيه هذه (الباء) أوكد من غيره، فإن هذه (الباء) تؤكد الإسناد الخبري في حالة السلب، كما يؤكد الإسناد الخبري بـ(إن) و(اللام) في حالة الإثبات.

﴿الشَّاكِرِينَ﴾ جمع الشاكر. و(الشاكر): اسم فاعل الشكر، و(الشكر) أصله في لغة العرب: الظهور^(٢). ومنه: ناقة شكور. يظهر عليها السمن، ومنه سَمَتِ العرب (العُسْلُوج) الذي ينبت في الشجرة التي كانت مقطوعة إذا ظهر فيها غصن جديد بعد أن لم يكن، قالوا: (شَكِير)؛ لأنه يظهر بعد أن لم يكن ظاهراً. هذا أصله في اللغة.

وهو في القرآن^(٣) يُطْلَقُ مِنَ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ، وَمِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، كَمَا قَالَ فِي شُكْرِ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨] ﴿إِنَّا رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] وَقَالَ فِي شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ هُنَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٣] ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ﴾

(١) انظر: الخصائص (٤٦٣/٢)، (٢٦٩/٣)، مغني اللبيب (١٦/١).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

[لقمان: آية ١٤] ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: آية ٣].

قال بعض العلماء: معنى شكر الله لعبده: هو إثابته الثواب الجزيل من عمله القليل. ومعنى شكر العبد لربه: هو أن يصرف العبد نعم ربه فيما يرضي ربه.

فعلينا جميعاً أن نصرف نعم ربنا فيما يرضيه، فهذه العيون التي فتح لنا في أوجهن على هذا الشكل الغريب شُكْرُها عند الله أن لا ننظر بها في شيء إلا في شيء يرضي مَنْ خَلَقَهَا وَمَنْ بها (جل وعلا). وهذه اليد التي فَرَّقَ الله أصابعها، وشَدَّ رؤوسها بالأظفار، شُكْرُ نعمة من أنعم بها أن لا نمذها ولا نبطش بها إلا في شيء يرضي مَنْ خَلَقَهَا وَمَنْ بها. وهذه الرُّجُل التي جعلها الله للإنسان، يمشي عليها إلى حيث يشاء، شُكْرُ نعمتها أن لا يمشي بها الإنسان إلا إلى شيء يرضي مَنْ خَلَقَهَا وَمَنْ بها. وهكذا، فالجاء إذا مَنْ الله على إنسان بجاه وقبول كلمة فشُكْرُ هذا أن لا يستغل ذلك الجاه والنفوذ إلا في شيء يرضي مَنْ خَلَقَهُ وَمَنْ به، وكذلك الأموال، شُكْرُ المال أن لا يصرفه العبد ولا يفعل فيه إلا شيئاً يرضي خالقه (جل وعلا) الذي مَنْ به.

وفي^(١) الحقيقة أن الإنسان يفعل أموراً يعرق منها الجبين، ويخجل منها العاقل؛ لأن هذا الإنسان المسكين الضعيف يَمْنُ عليه هذا الخالق الجليل العظيم بهذه النعم، ثم يصرف هذه النعم أمام ربه فيما يسخط ربه (جل وعلا) ويغضبه، فهذا أمر يعرق منه الجبين، وهو عظيم جداً، فعلى المسلم أن يستحيي من ربه الذي خلقه وأنعم عليه، ويحترز من أن يصرف نعمة من نعم خالقه إلا في شيء يرضي خالقه (جل وعلا)، وعلى الأقل إلا في شيء لا يُسَخِّطُ مَنْ خلقه (جل وعلا) ويغضبه عليه.

هذا أصل شُكْرِ العبد لربه كما قاله العلماء. وقد قدمنا معنى الشكر

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

لغة^(١). ومادة «شكر» لها حالتان^(٢): قد تتعدى إلى النعمة، وتعديها إلى النعمة تتعدى إليها بنفسها بلا حرف بإطباق أهل اللسان العربي، كأن تقول: «شكرت نعمة زيد». ومنه قوله جل وعلا: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: آية ١٩] أما إذا أوقعت الشكر على نفس المنعم، كأن ينعم عليك إنسان فتقول له: «أنا أشكر لك». فاللغة العربية الفصحى هي تعديته باللام، ولا تكاد العرب تعديه بنفسه، تقول: «شكرت لك، وشكر الله لك». ولا تقول: «شكرتك». وتقول: «أحمد الله وأشكر له». ولا تقول: «أشكره». فاللغة الفصحى هي تعدي (شكر) إلى المنعم باللام لا بالفعل بنفسه. [هذه]^(٣) هي لغة القرآن، وهي اللغة الفصحى بإطباق أهل اللسان العربي، ولم يأت في القرآن مادة (الشكر) مُعْدَاة إلى المنعم إلا باللام، نحو قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي﴾ ولم يقل: «أن اشكرني» ﴿وَلَوْلَا ذِكْرُ اللَّهِ لَفَعَلْتَ فَعَلْتَ بِاللِّسَانِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ولم يقل: «واشكروني» فيُعديها للمفعول.

وظن قوم أن تعدي (شكر) إلى المنعم بالفعل نفسه لا بالحرف أنها لحن، وقالوا: (أشكره) لحن، و(شكرتك) لحن. والتحقيق: أنه ليس بلحن، وأنه لغة مسموعة في كلام العرب، إلا أن تعديته باللام أجود. ومن إطلاق مادة (الشكر) متعدياً إلى المنعم بنفسها لا باللام قول أبي نُخَيْلَة^(٤):

شكرتُك إن الشكر حبلٌ من الثَّقَى وما كل من أوليته نعمة يقضي
فإن هذا الشاعر العربي قال: «شكرتك». ومن هذا المعنى قول جميل ابن معمر الشاعر المشهور، قال^(٥):

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٣٣٤)، الدر المصون (١/٣٥٧)، (٢/١٨٤).

(٣) في الأصل: هذا.

(٤) البيت في عيون الأخبار (٣/١٦٥)، اللسان (مادة: شكر) (٢/٣٤٤).

(٥) ديوان جميل بن معمر ص ١٠٢.

خَلِيلِيْ غُوجَا الْيَوْمَ حَتَّى تُسَلِّمَا عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
فَإِنْكُمَا إِنْ غُجْتُمَا لِي سَاعَةً شَكَرْتُكُمَا حَتَّى أُغَيَّبَ فِي قَبْرِ

فَقوله: «شكرتكما» لم يقل: «شكرت لكما» على هذه اللغة القليلة.
وهذا معنى قوله: ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِالشَّاكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَّجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ
فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٤].

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في هذين الحرفين ^(١) ثلاث قراءات سبعيات ^(٢): قرأه ابن
عامر وعاصم: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَّجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بفتح همزة الحرفين، ووافقهما نافع في فتح
الحرف الأول، وخالفهما فكسّر الثاني، فقراءة نافع: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ
مِنْكُمْ سُوءًا يَّجْهَلُونَ﴾ وقرأ: ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتحصل من هذا: أن
ابن عامر وعاصمًا يفتحون الهمزة من (أن) في الحرفين، وأن نافعاً
يفتحها في الأولى ويكسرهما في الثانية، وباقي السبعة يكسرها في الحرفين
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ ثم يقرؤون: ﴿فَإِنَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وكسّر الحرفين قراءة بقية السبعة، وهم: ابن كثير، وأبو
عمرو، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم، هؤلاء كسروا الحرفين،
وابن عامر وعاصم فتحوهما برواية أبي بكر شعبة وحفص معاً، ليس عن
عاصم إلا الفتح فيهما، ونافع فتح الأول وكسر الثاني، والباقي منهم -
وهم: أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي، وحمزة - كسروا في الحرفين.

(١) المراد بالحرفين: الهمزة في قوله ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ﴾ والهمزة كذلك في قوله ﴿فَإِنَّهُ
غَفُورٌ﴾.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٤ - ١٩٥.

هذه هي قراءة السبعة في هذين الحرفين.

ومعنى الآية الكريمة ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جمهور المفسرين^(١) على أن المراد بـ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هم الفقراء، فقراء المؤمنين الذين طلب الكفار طردهم وإبعادهم وقت مجالستهم للنبي ﷺ، فجمع الله لهم بين ثلاثة أشياء تدل على عظم مكانتهم، وعظم منزلتهم عند الله (جل وعلا)، وإن احتقرهم الكفرة الفجرة:

الأول: هو نهيه ﷺ عن أن يطردهم.

وشهادة الله لهم بالإخلاص والعبادة حيث قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ونهى النبي عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ثم في سورة الكهف أمره بالصبر معهم، وأن لا يقوم حتى يقوموا ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ونهاه أن يطيع الكفرة فيهم ﴿وَلَا تَطْعَ مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ [الكهف: آية ٢٨] ثم هنا أمره إذا جاؤوا أن يتلقاهم، ويسلم عليهم، ويخبرهم بسعة رحمة الله (جل وعلا)؛ لتطمئن قلوبهم، ويسرروا بذلك. وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ أي: وهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إذا جاؤوك ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فابتدروهم وسلم عليهم.

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه^(٢):

أشهرها: أن النبي ﷺ أمر بأن يسلم عليهم مبتدئاً إياهم بالسلام.

القول الثاني: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من ربكم. وعلى هذا

(١) انظر: ابن جرير (٣٧٦/١١ - ٣٨٠) (ولم يرجح هذا القول). وابن عطية (٥٩/٦) (وعزاه للجمهور) والقرطبي (٤٣٥/٦)، البحر المحيط (١٣٩/٤) والشوكاني (١٢٤/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٤٣٥/٦)، البحر المحيط (١٤٠/٤).

التفسير فالله يُقرئهم السلام على لسان نبيه ﷺ لما احتقرهم أعداء الله.

الوجه الثالث: أن السلام من النبي ﷺ، وأنه ردٌ لسلامهم عليه، وهذا لم يقم ما يدل عليه، فأشهرها: أن النبي أمر بالتسليم عليهم.

ومعنى ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿سَلِّمْ﴾ هنا مبتدأ، و ﴿عَلَيْكُمْ﴾ خبره، وإنما سَوَّغَ الابتداء به وهو نكرة: أنه مُشَمُّ رائحة الدعاء^(١)، وقد تقرر في فن العربية: أن النكرة إن كان فيها معنى الدعاء بِخَيْرٍ، نحو: (سلام)، أو بِشَرٍّ، نحو: (ويل لهم)، أنها يجوز الابتداء بها^(٢).

و ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: سلمكم الله من الآفات والمحذور.

وهذه تحية الإسلام، هي أكمل تحية وأفضلها؛ لأن معنى (السلام عليكم): سلمكم الله (جل وعلا) من الآفات ومما يؤذيكُم. وهي أحسن من تحية الجاهلية الذين كانوا يقولون: (حياك الله) ف (السلام عليكم) أفضل من (حياك الله)، وإنما كانت أفضل منها لأن معنى (السلام عليكم): سلمكم الله من كل ما يؤذي ومن جميع الآفات. ومعنى (حياك الله) لا تزيد (حياك الله) على معنى أطال الله حياتك؛ وهذا الدعاء لا يستلزم الفائدة؛ لأنه كم من إنسان تكون حياته ويلاً عليه، وضرراً عليه، ويكون يتمنى الموت. وما كل حياة مرغوبة ولا مرغوب فيها، بل رُبَّ حياة الموت خير منها، وهذا معروف في كلام العرب، وقد سمعتم بعض الناس من المتأخرين، وإن كان مثله يذكر للمثال لا للاستدلال يقول^(٣):

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه فهذا العَيْشُ ما لا خير فيه

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٤٠)، الدر المصون (٤/٦٤٩).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١/١٦٩).

(٣) الأبيات للوزير المهلبى وهو في زهر الآداب (١/١٣٩ - ١٤٠)، صبح الأعشى (١/٤١)، قصص العرب (٣/٢٦٤)، معجم الأدباء (٣/٩٧٧)، وفيه بين البيتين بيت آخر وهو قوله:

إذا أبصرْتُ قبراً من بعيدٍ وددتُ لو أنني فيما يليه

أَلَا رَحِمَ الْمُهَيِّمِينَ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
فهذا الذي يطلب من يتصدق عليه بالموت لا يرغب في [الحياة]^(١)
فلو قلت له: «حياك الله» لقال لك - البعيد -: «لا حياني الله!! لأنه يرغب
في الموت، بخلاف (السلام عليكم) فليس هذا معناه، ومن هذا المعنى قول
الأعشى أو غيره في الأبيات التي اختلف في قائلها^(٢)»:

المرءُ يرغبُ في الحيا وطول عيشٍ قد يضره
تفنى بشاشته ويب قى بعد حلو العيش مُره
وتسوؤه الأيام حت ما يرى شيئاً يسره

فمن كان بهذه المثابة لا خير له في الحياة.

وقوله في هذه الآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ليس يمكن
لأحد أن يلزم الله شيئاً، ولكن الله يلزم نفسه ما شاء، ومعنى إلزامه: أن
يُخْبِر به، ووعد (جل وعلا) صادق لا يتخلف، فما وعد الله به فهو واجب
الوقوع لازمه محتوم؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، وقد ثبت عن النبي ﷺ
في الصحيح من حديث أبي هريرة ما يدل على أن الله (جل وعلا): كتب
في كتاب فهو عنده فوق عرشه: «إِنْ رَحِمْتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(٣)، وسيأتي في
قوله جل وعلا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾
[الأعراف: آية ١٥٦] فرحمة الله (جل وعلا) وسعت كل شيء، ولا يهلك
على الله إلا هالك. ألا ترون ما يدل على نظائر كثيرة من هذا في القرآن؟

(١) في الأصل: (الموت) وهو سبق لسان.

(٢) هذه الأبيات نسبها بعضهم لمضرس بن ربيعي، كما في (المعمرون والوصايا) لأبي حاتم
كما تُنسب لأبي العتاهية، وهي في ديوانه ص ١٠٤ وهي في الحماسة للبختري ص ٩٥
مع بعض الاختلاف في اللفظ.

(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ
تَرْ يُبَدُّ...﴾ حديث رقم (٣١٩٤)، (٢٨٧/٦)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر
الأحاديث: (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم، كتاب التوبة، باب:
في سعة رحمة الله تعالى. حديث رقم (٢٧٥١)، (٢١٠٧/٤).

تعلمون أنه لا أحد أشنع قولاً من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذه الفرية العظمى، والوقوع في جناب الله (جل وعلا) بهذا الأمر الهائل العظيم، فالله مع هذا يستعطفهم ويتلطف بهم للتوبة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: آية ٧٤] ويأمر نبيه أن يخاطب الكفرة الفجرة ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨] ومن أصرح ذلك: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا﴾ هذا خطاب موجه بخصوص المسرفين على أنفسهم دون غيرهم، يقول لهم الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: آية ٥٣] فأمر النبي ﷺ من خالق السماوات والأرض أن يوجه هذا الخطاب العظيم لخصوص المسرفين يدل على سعة رحمة الله جل وعلا ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا﴾ لم يقل: «الذين آمنوا»، ولا «الذين أخلصوا». خص به المسرفين على أنفسهم ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الآية؛ ولذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: آية ٥٤] على قراءة من قرأ: ﴿أَنْتُمْ﴾ بفتح (أنه) هنا، وهي في هذا الحرف قراءة ابن عامر، وعاصم، ونافع. فالمصدر المنسبك من (أن) وصلتها يعرب بدلاً من الرحمة^(١). والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة. معنى هذه الرحمة: هي غفرانه لمن عمل منكم سوءاً. فقلوه: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ مُفسِّر لتلك الرحمة مُبين لها، فهو بدل منها، وعلى قراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ فهو على الاستئناف، قُطِعَ مما قبله، وكان مستأنفاً^(٢)، و (إِنَّ) إذا كانت في ابتداء الجُمْلِ الاستئنافية كُسرَت. والضمير في (إنه) ضمير الشأن.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُكُمْ﴾ قال بعض العلماء: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ هنا شرطية، وجوابها مقترن بالفاء. وقال بعضهم: هي موصولة، والمبتدأ إذا كان موصولاً اقترن خبره بالفاء، كما قدمناه مراراً.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ السوء: هو كل ما يسوء صاحبه إذا رآه في صحيفته.

(١) انظر: القرطبي (٤٣٦/٦)، البحر المحيط (١٤١/٤)، الدر المصون (٦٥٠/٤).

والأعمال قد دل الكتاب والسنة على أنها أربعة أنواع^(١)، كلها إذا عملها الإنسان على غير الوجه المشروع كان عاملاً سوءاً، والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: آية ٣٠] أي: لكرهاتها إياه.

العمل على أربعة أنواع، هي التي إذا عملها الإنسان على غير الوجه المشروع كان عمله عمل سوء:

منها: فعله - المعروف - الزنى والسرقة.

الثاني: فعل اللسان، فهو عمل، والدليل على أن قول اللسان من الأفعال: أن الله صرح أن قول اللسان من الأفعال في سورة [الأنعام]^(٢)، في قوله جل وعلا: ﴿زُحِرْفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فأطلق على زحرف القول اسم (الفعل)، فدل على أن قول اللسان فعل. هذان قسمان: الفعل - المعروف - بأحد الجوارح، وفعل اللسان.

الثالث: العزم المصمم^(٣)؛ لأن عزم الإنسان المصمم دلت السنة الصحيحة على أنه من الأفعال السيئة التي تدخل صاحبها النار، والدليل على ذلك: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة (رضي الله عنه): «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقائِل والمقتول في النار» قالوا: يا نبي الله قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٤). فقولهم: ما بال المقتول؟ سؤال من الصحابة واستفهام عن إبراز السبب الذي دخل به المقتول النار، فبين النبي ﷺ جواباً مطابقاً للسؤال أن حرصه وعزمه

(١) انظر: نثر الورود (٧٨/١)، مذكرة أصول الفقه ص ٣٨ - ٤٠.

(٢) في الأصل: (الأعراف) وهو سبق لسان.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧٢٠/١٠)، فتح الباري (٣٢٤/١١ - ٣٢٩)، (١٩٧/١٢)، نثر الورود (٧٨/١)، مذكرة أصول الفقه ص ٣٩.

(٤) البخاري، كتاب الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا...﴾ حديث رقم (٦٨٧٥)، (١٩٢/١٢)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم (٢٨٨٨)، (٢٢١٣/٤).

المُصَمِّم على قتل أخيه هو السبب الذي أدخله النار. أما الهم الذي لم يكن عزمًا مُصَمِّمًا، فليس من الأفعال، كما قال جل وعلا: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: آية ١٢٢] وإتباعه لذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ دل على أنه هم لم يستقر، ولم يكن عزمًا مُصَمِّمًا حتى يُعد من الأفعال، ومن ذلك الهم - الذي ليس من العزم المُصَمِّم الذي هو من الأفعال - ما في الحديث: «وإذا هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة»^(١) / ب/٥ وإنما كُتبت له حسنة؛ لأنه تركها لوجه الله (جل وعلا)، فكان تركه إياها امتثالًا لأمر الله، وكانت بذلك حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: الآيتان ٤٠ - ٤١].

الرابع: هو الترك، والترك من الأفعال الحقيقية، فهو فعل على التحقيق^(٢)، وإن خالف فيه من خالف، فمن ترك الصلاة حتى ضاع وقتها فقد عمل بهذا الترك عملاً سيئاً يدخل به النار، وكان ابن السبكي في بعض

(١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ ثلاثة من الصحابة:

الأول: أنس بن مالك (رضي الله عنه) في حديث الإسراء الطويل الذي أخرجه الشيخان وغيرهما. إلا أن هذه الجملة لم ترد في لفظ البخاري وإنما هي في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، حديث رقم (١٦٢)، (١٤٥/١).

الثاني: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ حديث رقم (٧٥٠١)، (٤٦٥/١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا هم بسيئة لم تُكتب، حديث رقم (١٢٨ - ١٣٠)، (١١٧/١ - ١١٨).

الثالث: حديث ابن عباس (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب الرقاق، باب: من هم بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦٤٩١)، (٣٢٣/١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا هم بسيئة لم تُكتب. حديث رقم (١٣١)، (١١٨/١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨٢/١٤ - ٢٨٥)، القواعد والفوائد الأصولية ص ٦٢، المسودة ص ٨٠، المستصطفى (٩٠/١)، شرح مختصر الروضة (٢٤٢/٢ - ٢٤٧)، شرح الكوكب المنير (٤٩١/١)، نثر الورود (٧٨/١)، مذكرة أصول الفقه ص ٣٨ - ٤٠، أضواء البيان (٣١٧/٦).

تأليفه في الأصول يقول: طالعت كتاب الله لأجد فيه آية تدل على أن الترك فعل فما وجدت فيه شيئاً يدل على أن الترك فعل إلا شيئاً يفهم من آية في سورة الفرقان هي قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: آية ٣٠] قال: الاتخاذ أصله من الأخذ، والأخذ: تناول. فقال: تناولوه مهجوراً. فدل على أن الهجر فعل.

ونحن نقول: إنا باتباع كتاب الله وجدنا آيات صريحة من كتاب الله تدل بصراحة لا شك فيها على أن الترك من الأفعال، منها: آيتان في سورة [المائدة]^(١) ذكرناهما فيما مضى، إحداهما قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا وَآلِهِمُ السَّحَرُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٣] فسمى عدم نهيههم وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سماه: (صنعاً)، والصنع أخص من مطلق الفعل، ومنه قوله تعالى في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ثم قال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٧٩] يعني به تركهم للتناهي عن المنكر، سماه (فعلاً) وأنشأ له الذم بقوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. هذه الأقسام الأربعة هي الأفعال، واللغة العربية تدل على أن الترك من الأفعال، وقد قال بعض الصحابة لما أراد النبي ﷺ عند أول مجيئه لهذه المدينة مهاجراً عند بنائه هذا المسجد الكريم، كانوا يحملون المؤونة لبيئته، وواحد جالس، فرأى النبي ﷺ يعمل معهم، فقال راجزاً^(٢):

لَسْنَا قَعْدَنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مَنَا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

فسمى تركهم للعمل سماه (عملاً مضللاً) وبهذا يُعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ أن عمل السوء قد يكون بفعل أحد الجوارح، وقد يكون بفعل اللسان، وقد يكون بالعزم المصمم، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٣). وقد يكون بترك ما أوجبه الله جل وعلا.

(١) في الأصل: (الأنعام) وهو سبق لسان.

(٢) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٥٢٢/١)، نثر الورود (٧٩/١).

(٣) مضى تخريجه قريباً.

هذه الأعمال التي يعملها الإنسان سيئة.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ السوء: كل عمل يسوء صاحبه إذا رآه في صحيفته يوم القيامة.

وقوله: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ الجار والمجرور في منزلة الحال. أي: حال كونه متصفاً بالجهالة. ولا يعصي الله أحد إلا هو متصف بجهالة؛ لأن المعاصي غالباً لا تحمل عليها إلا أغراض دنيوية عاجلة، ومن أثر هذا الغرض الدنيوي العاجل على ما عند الله (جل وعلا) فهو جاهل، وإن كان في الجملة يعلم أن فعله هذا حرام، وأنه عالم بما يأتي، فلا بد أن يكون جاهلاً من تلك الحيثية، وكل من وقع في أمر لا ينبغي تقوله له العرب: «جاهل»^(١)، و«وقع فيه بجهل»، وهو كلام معروف في كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومن هذا المعنى قول الشاعر^(٢):

على أنها قالت عَشِيَّةَ زُرْتَهَا جَهِلْتُ عَلَى عَمْدٍ وَلَمْ تَكْ جَاهِلًا
تعني أنه فعل ما لا ينبغي أن يفعل، وهذا معنى قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد ذلك العمل الذي عمل به السوء بجهالة ﴿تَابَ وَأَصْلَحَ﴾.

قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ دليل على أن التوبة ليست قولاً باللسان مع الرجوع للمعاصي، هذا ليس كما ينبغي، بل يتوب توبة نصوحاً، ثم بعد ذلك يصلح ولا يرجع لما كان يعمل من السوء، وحذف مفعول (أصلح) لقصد التعميم، وأصلح جميع أقواله، وأفعاله، ونياته، وقصده، فلم يفعل إلا طيباً.

والتوبة عند العلماء تتركز على ثلاثة أسس^(٣)، إذا اجتمعت كلها

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) البيت في مشاهد الإنصاف ص ٩٣.

(٣) انظر: القرطبي (٩١/٥).

فالتوبة نصوح، وإذا اختل واحد منها فليست بتوبة نصوح:

أولها: أن يُقلع عن الفعل إن كان متلبساً به.

والثاني: أن يندم على الفعل الذي صدر منه ندماً شديداً ويأسف.

والثالث: أن ينوي أن لا يعود إلى الذنب حتى يعود اللبن في الضرع.

ومعلوم أن التوبة واجبة بإجماع المسلمين من كل ذنب يجترمه الإنسان، وتأخيرها ذنب يحتاج إلى توبة، والله أمر بها أمراً صارماً، قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: آية ٣١] وقوله: ﴿تُوبُوا﴾ صيغة أمر واجبة، فالتوبة واجبة من كل ذنب بإجماع المسلمين. وقد بين (جل وعلا) أنها مظنة لغفران الذنوب حيث قال جل وعلا: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ وأتبع ذلك بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: آية ٨] ف (عسى) من الله عزيمة تدل على أن من تاب توبة نصوحاً كفر الله عنه سيئاته.

واعلموا أن العلماء مطبقون على أن التوبة تتركز على هذه الأشياء الثلاثة: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به، والندم على فعل الذنب، ونية أن لا يعود إلى ذلك الذنب.

ومعروف أن في أركان التوبة - هذه - إشكالات وسؤالات معروفة عند العلماء^(١)، منها: أن الندم ركن من أركان التوبة بالإجماع، والتوبة واجبة بالإجماع، وركن الواجب واجب، فالندم على الذنب واجب إجماعاً، وهذا مما لا خلاف فيه، ومحل الإشكال في هذا الركن من أركان التوبة هو أن يقول المُستشكِل: أما الندم فإنه ليس من أفعال الإنسان الاختيارية، وإنما هو انفعال وتأثر نفسياني، والانفعالات والتأثرات النفسانية ليست تحت قدرة البشر، وليست من أفعال البشر، وليست من عمل البشر باختيارهم حتى يُطلق عليها أنها واجبة، ونحن نشاهد هذا، ترى الرجل البائع المغبون إذا

باع وُعِين في بيعه غبناً شديداً تراه في شدة الندم، وهو يتجلد ويحاول أن يدفع الندم عن نفسه فلا يستطيع، فهذا يبين أن الندم ليس من الأفعال الاختيارية، وإنما هو انفعال، وتأثر نفساني، وترى الرجل - والعياذ بالله - إذا كان يعشق امرأة جميلة، بارعة في الجمال، إذا نال منها قبلة، إذا أراد أن يتندم يتخيل له خيال ذلك الجمال فينبسط إليه قلبه، ولا يستطيع الندم؛ فلذا كُنَّا نعين الرجل قد يريد أن يندم ولا يندم، وقد يريد أن لا يندم فيندم، فالندم انفعال نفساني، وتأثر ليس من الأفعال الاختيارية، فكيف نقول: إنه واجب، وإنه ركن للواجب؟ هذا السؤال الأول.

والجواب عن هذا هو ما حققه بعض العلماء من أن الندم لا يعجز عنه الإنسان إلا إذا كان مسترسلاً مع النفس، محابياً لها فيما [لا] ينبغي^(١)؛ لأن أسباب الندم قائمة بكثرة، متوفرة كل التوفر، ومن أخذ بالأسباب كان في استطاعته حصول المسبب^(٢)، ذلك لأن عامة العقلاء يطبقون على أن الإنسان إذا قُدِّم إليه شراب في غاية الحلاوة واللذابة، لا يوجد شراب أحلى منه، ولا ألد، إلا أن هذا الشراب فيه سم قاتل فتاك، فعامة العقلاء لا يَسْتَحْلُونَ حلاوة هذا الشراب، ولا يلتذون بلذته، لما فيه من السم القاتل الفتاك، وحلاوة المعاصي - أعاذنا الله والمسلمين منها - تنطوي على السم القاتل الفتاك، وهو سخط رب العالمين وغضبه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان لا يدري إذا سخط عليه ربه أن يهلكه في وقته، ثم يجعله في عذاب، فإذا عرف الإنسان أن حلاوة المعاصي تنطوي على السم القاتل الفتاك من سخط رب العالمين، وألزم نفسه بالحقائق، وعرف أنه تَعَرَّض لسخط خالق السماوات والأرض بلذة فانية، تنطوي على السم الفتاك من سخط رب العالمين، فالعاقل إذا أخذ هذه الأسباب على حقيقتها، ولم يجمال نفسه، ولم يُحَابِها، لا بد أن يندم، فبسبب كون أسباب الندم متيسرة، متوفرة، قائمة، وأن من أخذ بالأسباب غالباً يُحْصِلُ الْمُسَبَّب، من هنا قيل: إن الندم واجب من هذه الحيثية.

(١) ما بين المعقوفين [] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٢/٢٠٣ - ٢٠٤)، قواعد التفسير (٢/٧٨٤).

الثاني: أن الإنسان قد يتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويحاول الإقلاع عن الذنب، ولكنه يكون تمادي فعله الأول متمادياً^(١) لا يقدر على نزعه، فهل يكون تائباً؛ لأنه فعل مقدوره، أو لا يكون تائباً؛ لأنه لم يُقْلَعْ^(٢)؟ ومن أمثلة هذا عند العلماء: رجل كان مبتدعاً، وبث بدعته في الناس، حتى طار بها أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، وبقوا على ذلك البدعة، ومعلوم أن من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وأعمال أولئك من ذنوبه؛ لأنه سنَّها لهم، والله يقول في رؤساء الضلال الذين يسنون البدع والضلالات: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ١٣] ويقول فيهم: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: آية ٢٥] هذا المبتدع الذي طارت بدعته في مشارق الأرض ومغاربها، ففسادها منتشر، إذا عرفنا أنه كان مبتدعاً وراجع التوبة، هل نقول: هو تائب توبة مستكملة الشروط؛ لأنه فعل قدر ما يقدر عليه؟ أو نقول: ليس بتائب؛ لأنه لم يقلع؛ لأن شر فعله باق متماد في مشارق الأرض ومغاربها؟ ومن هذا المعنى: إذا غضب الرجل أرضاً نحو عشرين كيلاً مربعاً، ثم ندم على الغضب وأراد أن يخرج منها، لو أدركه الموت وهو ماش خارجاً منها، هل نقول: مات تائباً؛ لأنه فعل قدر ما يستطيع؟ أو نقول: لم يمت تائباً؛ لأنه أخذ الأرض بغير وجه شرعي، ومات وجرمه باق فيها: سالب أرضاً لغيره؟ وكذلك الإنسان، إذا رمى إنساناً بسهم من بعيد، فلما فارق السهم الرمية تاب وأقلع قبل أن يصيب السهم المرمي، فلو فرضنا أن هذا الإنسان عندما رمى السهم، والسهم في الهواء، وأقلع وتاب إلى الله توبة نصوحاً، فأخذه أحد وقطع رأسه قبل أن يصل السهم إلى المرمي، فنقول: هل مات تائباً؛ لأنه فعل قدر ما يقدر عليه؟ أو نقول: لم يتب؛ لأنه لم يقلع؛ لأن شر فعله باق متماد؟ ولهذا نظائر كثيرة.

(١) أي: أن تأثيره باق مستمر.

(٢) انظر: الموافقات (١/٢٣١)، نثر الورود (١/٢١٥).

للعلماء في هذا الأخير وجهان، كما هو مقرر في الأصول، وأظهر القولين وأجراهما على قواعد الشرع: أنه تائب، وأن توبته كاملة؛ لأنه فعل قدر طاقته، وما عجز عنه فهو معفو؛ لأن النبي ﷺ يقول: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١). والله يقول: ﴿فَأَقْوَا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: آية ١٦] هذا هو الظاهر. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ إصلاحه لعمله يأتي بثلاثة أشياء^(٢)، إذا تحصلت هذه الأشياء كان عمله صالحاً، وإذا اختلت أو واحد منها كان العمل غير صالح.

أولها: أن يكون عمله مطابقاً لما جاء به محمد ﷺ؛ لأن الله مَلِك لا يقبل أن يُتقرب إليه إلا تقرباً مطابقاً لما شرع، والله يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١] ويقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: آية ٧] ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ الآية [آل عمران: آية ٣١] هذا هو الأول من الثلاثة.

الثاني: أن يكون العبد الذي جاء بذلك العمل - مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، أن يكون - فيما بينه وبين الله - في نيته التي لا يطلع عليها إلا الله. أن يكون مخلصاً لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: آية ١١] فمن عبد بغير إخلاص جاء بما لم يؤمر به؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥].

الثالث: من هذه الأمور الثلاثة: أن يكون ذلك العمل - الذي وقع بإخلاص، مطابقاً للشرع - أن يكون مبنياً على أساس التوحيد والإيمان

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ حديث رقم (٧٢٨٨)، (٢٥١/١٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (١٣٣٧)، (٩٧٥/٢)، وفي كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ورقمه في كتاب الفضائل (١٣٠)، (١٨٣٠/٤ - ١٨٣١).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣٥٢/٣ - ٣٥٣).

الصحيح، والعقيدة الصحيحة؛ لأن العقيدة كالأساس، والعمل كالسقف، فإذا وجد السقف أساساً ثبت عليه، وإن لم يجد أساساً انهار؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فجعل الإيمان قيداً في ذلك العمل، وبين مفهوم قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أن العامل لو كان غير مؤمن فعمله لا فائدة فيه، كما قال في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: آية ٢٣] ﴿أَعْمَلْتُمْ كَرَامَاتٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٨] ﴿أَعْمَلْتُمْ كَسْرَاتٍ﴾ [النور: آية ٣٩] وقوله جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: آية ١٦] إلى غير ذلك من الآيات، وهذا معنى قوله: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: آية ٥٤] على قراءة: ﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) فالهزمة مكسورة للاستئناف.

وعلى قراءة ﴿فَأَنْتُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو خبر مبتدأ محذوف، وتقرير المعنى: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أي: فله غفران الله (جل وعلا)؛ لأن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها يُسبِك من لفظ باسم المُسْتَقْلَيْنِ فيها، أي: الفعل، فمعنى ﴿فَأَنْتُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فغفران الله، أي: فله غفران الله ورحمته (جل وعلا)، وهذا أظهر الوجهين، واختاره سيبويه، خلافاً لمن قدره مبتدأ لخبر محذوف؛ لأن حذف المبتدأ أكثر من حذف الخبر. وغلط من قال: إنه معطوف على (أنه) الأولى؛ لأن العطف لا يصح هنا؛ لأن بينهما أداة شرط، ولو قلنا إن (مَنْ) موصولة، وجعلناه معطوفاً، لم يبق هنالك خبر للمبتدأ الذي هو (مَنْ)، فكونه عطفاً على (أن) الأولى لا يصح، وإن غلط فيه جماعة^(٢).

ومعنى قوله: ﴿غَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة لعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ يرحم عباده (جل وعلا)، والرحيم: مختص بالمؤمنين في الآخرة، كما بيّناه

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣ - ٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٤٣٦/٦)، البحر المحيط (١٤١/٤)، الدر المصون (٦٥٠/٤ - ٦٥٤).

في البسملة^(١)، وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: آية ٤٣].

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٥٥] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات^(٢): قرأه من القراء نافع وحده: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالتاء في ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ونُضِبِ (سبيل المجرمين)، وعلى هذه القراءة فـ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تأوّه تاء خطاب والفاعل محذوف لزوماً، تقديره: أنت. وعليه فالمعنى: ولتستبين أنت يا نبي الله سبيل المجرمين.

وقرأه حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم: ﴿وَلِيسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالياء وضم (السبيل)، على أن (السبيل) مذكر ﴿وَلِيسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ و(السبيل) يُذكر ويؤنث^(٣)، وتذكيره لغة التميميين وغيرهم من أهل نجد. وعلى لغة التذكير قراءة حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم في قوله هنا: ﴿وَلِيسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يظهر ويتضح طريق المجرمين. ومن تذكير (السبيل) قوله في الأعراف: ﴿وَلِإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ الْفِتْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] بتذكير (السبيل).

وقرأ باقي السبعة، وهم: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم، قرأ هؤلاء: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالتاء في (تستبين) ورفع (السبيل)، على أن ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فاعل (تستبين) وأن (السبيل) مؤنثة، وتأنيث (السبيل) كهذه القراءة كقوله في سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي.

(١) انظر: الأضواء (٤٠/١).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٥، حجة القراءات ص ٢٥٣، تفسير ابن جرير (٣٩٥/١١).

(٣) انظر: ابن جرير (٣٩٦/١١)، القرطبي (٤٣٧/٦)، الدر المصون (٦٥٥/٤)، بصائر ذوي التمييز (١٨٥/٣).

فَتَحْصُلُ أَنْ قِرَاءَةَ التَّاءِ ﴿وَلَتَسْتَبِينَ﴾ رَفَعَ بَعْدَهَا - غَيْرُ نَافِعٍ - (السَّبِيلُ) فَقَالُوا: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَي: لَتُظْهَرُ وَتَتَضَحَّ طَرِيقَ الْمُجْرِمِينَ. وَالتَّاءُ فِي قِرَاءَةِ هَؤُلَاءِ: هِيَ تَاءُ الْمُؤَنَّثَةِ، كَمَا تَقُولُ: «تَسْتَبِينَ هِنْدٌ وَتَقُومُ فُلَانَةٌ». وَ«تَسْتَبِينَ السَّبِيلُ» عَلَى أَنَّهَا مُؤَنَّثَةٌ.

أَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ: فَالتَّاءُ فِي (تَسْتَبِينَ) تَاءُ خَطَابٍ لَيْسَتْ تَاءُ تَأْنِيثٍ، وَالْفَاعِلُ غَيْرُ (السَّبِيلِ)، مُضْمَرٌ، أَي: وَلَتَسْتَبِينَ أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ.

و (استبان) تأتي لازمة ومتعدية^(١)، (استبان) و (أبان) و (تبين) هذه الأفعال الثلاثة من المزيد من (بان) تأتي في لغة العرب لازمة ومتعدية، أما (استبان) فقد جاءت لازمة على قراءة الجمهور، مَنْ قَرَأُوا: ﴿وَلَيْسَتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَمَنْ قَرَأُوا ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ عَلَى قِرَاءَتِهِمْ كُلَّهُمْ فَ (تستبين) هنا لازمة، و (سبيل المجرمين) فاعل، ولا مفعول للفعل، أما على قراءة نافع: ففعل الاستبانة هنا متعد إلى المفعول؛ لأن المعنى: وَلَتَسْتَبِينَ أَنْتَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ، أَي: تَتَبَّنِيهَا وَتَعْرِفُهَا. فَهَاتَانِ الْقِرَاءَتَانِ فِيهِمَا مِثَالُ لِلزُّومِ (استبان) وَلِتَعْدِيهَا.

ونحو (استبان): (أبان) و (تبين) فالعرب أيضاً تستعمل (أبان) لازمة، تقول: «أبان هذا الأمر واتضح». بمعنى: ظهر. وتستعملها متعدية للمفعول، تقول: «أبان زيد كلامه، وأبان الله الأمر الفلاني». كما هو معروف، ومن إتيان (أبان) لازمة: يكثر في القرآن اسم فاعلها ﴿كَتَبَ مُبِينٌ﴾ [المائدة: آية ١٥] و (الكتاب المبين) هو من (أبان) اللازمة. ومن إتيان فاعل (أبان) اللازمة: قول كعب بن زهير في بانت سعاد^(٢):

قَنَوءٌ فِي حُرَّتِيهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عَتَقٌ مُبِينٌ وَفِي الْخَدَيْنِ تَسْهِيلُ

(مبين): اسم فاعل (أبان) اللازمة، بمعنى: تبين ظاهر. ومن إتيان

(١) انظر: الدر المنصون (٤/٦٥٥)، الأضواء (٦/٢٢٤).

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير، لابن هشام ص ٢١٠.

(أبان) لازمة: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي^(١):

لو دبَّ ذرٌّ فوقَ ضاحي جِلْدِهَا لأبان من آثارهن حُدُورٌ

يعني: لظهر من آثار النمل حُدُور، أي: ورم. و (أبان) لازمة، وفاعلها: الحُدُور، ولا مفعول لها، ومنه قول جرير^(٢):

إذا أبأؤْنَا وأبوكَ عُدُوا أبان المُقْرِفَاتِ^(٣) من العِرَابِ^(٤)

أي: ظهر وتبين المقرفات من العراب، وكذلك (بَيَّن) تأتي لازمة في كلام العرب، ومنه المثل: (قد بَيَّنَّ الصبحُ لذي عينين)^(٥) معناه: بَيَّنَّ الصبح، أي: بان وظهر وتبين. ومنه بهذا المعنى قول قيس بن ذريح في رواية الجمهور^(٦):

وللحُبِّ آياتٌ تَبَيَّنُ بالفتى شحوبٌ وتعرى من يديه الأصابع^(٧)

فرواية الجمهور، فيمن روى بيت ابن ذريح هذا يرويه: (شحوبٌ) بالضم، والمعنى: وللحب آيات تبين بالفتى، أي: تظهر وتلوح بالفتى. ما هذه الآيات؟ شحوب وتعرى من يديه الأصابع. وروى بيت ابن ذريح هذا ثعلب، رواه ثعلب:

وللحُبِّ آياتٌ تُبَيَّنُ بالفتى شحوباً.....

بالنصب^(٨) وعلى هذه الرواية فلا شاهد في البيت. ومن إتيان (بَيَّن)

(١) البيت في اللسان (مادة: بين) (٣٠٢/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٣) جمع (مُقْرِف) وهو من الفرس وغيره: ما يُداني الهُجْنَةَ، أي أمه عربية لا أبوه. انظر: القاموس (مادة: القِرْف) (١٠٩١).

(٤) العراب: هي التي عتقت وسلمت من الهُجْنَةِ. انظر: القاموس (مادة: العُرب) (١٤٥).

(٥) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ٥٩، معجم الأمثال العربية (٣/٢٦٠).

(٦) البيت في اللسان (مادة: بين) (٣٠٢/١).

(٧) في اللسان: الأشاحم.

(٨) انظر: المصدر السابق.

لازمة قول جرير^(١):

رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا وَبَيَّتَ الْمَرَضُ مِنَ الصَّحاحِ
يعني: ظهرت وتبينت. وقوله يهجو الفرزدق^(٢):

وَجُوهٌ مُجَاشَعٌ طَلَيْتَ بِلُؤْمٍ يَبِينُ فِي الْمُقْلَدِ وَالْعِذارِ
ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَيَّاتِ﴾ وكذلك التفصيل الذي فصلنا لك فيه آيات هذه السورة الكريمة مما كنا نُفَصِّلُ، كذلك التفصيل والبيان الواضح نُفَصِّلُ آيات القرآن في كل ما يحتاج إليه الخلق من أمور دينهم وفي كل إبطال المقالات الباطلة التي يأتي بها الخصوم ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيْرًا﴾ [الفرقان: آية ٣٣].

وقوله: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ﴾ - على قراءة الجمهور من (استبان) اللازمة - معناه: ولتظهر طريق المجرمين. و(المجرمون) جمع (المجرم)، و(المجرم): اسم فاعل (الإجرام)، و(الإجرام): ارتكاب الجريمة، و(الجريمة): الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال، تُستعمل مادته رباعية وثلاثية، تقول: «أجرم»، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: آية ٢٩] وتقول: «جرم الذنب، فهو جارم»، ففاعل الثلاثية: (جارم) على القياس، وفاعل الرباعية (مجرم) على القياس، ومن إطلاقه ثلاثياً قول الشاعر^(٣):

وَنَنْصُرُ مَوْلَانَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا النَّاسِ مَجْرُومٌ عَلَيْهِ وَجَارِمٌ
لأن (المجروم) و(الجارم) اسم مفعول، واسم فاعل لجرم الثلاثية إذا ارتكب الجريمة^(٤).

وقوله هنا: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين،

(١) ديوان جرير (٩٠/١)، الأضواء (٢٢٥/٦).

(٢) ديوان جرير ص ١٤٦، الأضواء (٢٢٥/٦).

(٣) البيت لعمر بن براقة. وهو في الأمالي (١٢٢/٢).

(٤) انظر: اللسان (مادة: جرم) (٤٤٥/١)، المصباح المنير (مادة: جرم) ص ٣٨.

وعلى قراءة نافع: ﴿وَلَتَسْتَثَيِّنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ لتستبين يا نبي الله طريق المجرمين وتبينها وتعلمها. والنبي وإن كان عالماً بسبيل المجرمين فإنه يشرع على لسانه لأئمة، فيخاطب ليشرع على لسانه لأئمة كما يتنا^(١).

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان:

أحدهما: في الواو، واو ﴿وَلَتَسْتَثَيِّنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ علام عطف، وبم يتعلق^(٢)؟

الثاني: لم خص سبيل المجرمين، ولم يذكر سبيل المؤمنين^(٣)؟

الجواب عن الأول: أن الواو في قوله: ﴿وَلَتَسْتَثَيِّنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تتعلق بمحذوف، واختلفوا في تقديره، قال بعضهم: هو مُقدر بعدها وتقرير المعنى: ولأجل أن تستبين سبيل المجرمين فصلنا لك هذا التفصيل. أي: ولأجل استبانتها فصلنا. وقال بعض العلماء: هو معطوف على علة محذوفة، فدل المقام عليه: وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم، ولتستبين سبيل المجرمين.

أما الجواب عن السؤال الثاني: وهو لِمَ خص سبيل المجرمين؟ فللعلماء عنه جوابان:

أحدهما: أن سبيل المجرمين إذا عُرِفَتْ عُرِفَتْ منها سبيل المسلمين؛ لأن الأشياء تُعرف بأضدادها، وإذا عرف الإنسان الشر عرف أن مقابله هو الخير، وكان حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) - كما ثبت عنه في الصحيحين - يسأل عن الشر ليعرفه، ومعرفة الشر على هذا طيبة يعلمها الناس ليتجنبوها ويعلموا أن ما سواها هو الخير، كما ثبت في الصحيحين عن حذيفة (رضي الله عنه): كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير،

(١) انظر: القرطبي (٤٣٧/٦)، البحر المحيط (١٤١/٤) وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

(٢) المصدران السابقان، الدر المصون (٦٥٦/٤).

(٣) المصادر السابقة.

وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني^(١).

قال بعض العلماء: في الآية هنا حذف الواو وما عَطَفَتْ، أي: لتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين. قالوا: ومنه ﴿سَرِيلَ تَقِيكُمْ﴾ [النحل: آية ٨١] أي: والبرد ﴿وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الأنعام: آية ١٣] أي: [وما تحرك]^(٢)، وحذف الواو وما عَطَفَتْ إن دل المقام عليه معروف في كلام العرب، وإليه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله^(٣):

وَالْفَاءُ قَدْ تُحذفُ مَعَ مَا عَطَفَتْ وَالْوَاوُ إِذَا لَا لِبَسٍّ.....
يعني: وكذلك الواو تُحذفُ مَعَ مَا عَطَفَتْ كالفاء إن لم يكن هنالك لبس.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام: الآيات ٥٦ - ٥٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [الأنعام: آية ٥٦].

(١) أخرجه البخاري مختصراً، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، حديث رقم (٥٢٥)، (٨/٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (١٤٣٥)، (١٨٩٥)، (٣٥٨٦)، (٧٠٩٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، حديث رقم (١٨٤٧)، (١٤٧٥/٣).

(٢) في الأصل: «والنهار». وهذا سبق لسان أو وهم من الشيخ - رحمه الله - لأن النهار مذكور في الآية. وإنما الذي يذكره العلماء عند هذه الآية هو ما أثبتته أعلى، والله أعلم. انظر: قواعد التفسير (٣٧٤/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة، وبقيّة البيت: «وهي انفردت».

كان الكفار يقولون للنبي ﷺ: اعْبُدْ معنا آلِهَتنا مرة، ونعبد معك إلهك مرة أخرى!! فأمر الله نبيه أن يقول لهم: إنه لا يعبد ما يدعون من دون الله، قل لهم يا نبي الله: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ﴾ أي: نهاني ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنى: نهاني أن أعبد الأصنام التي تعبدونها من دون الله، والمصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مجرور بحرف محذوف؛ لأن (نهى) تتعدى بـ(عن) تقول: «نهاني ربي عن كذا». كما تقدم في قوله: ﴿وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٦] لأن (نهى) تتعدى بـ(عن)، والمصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها يَطْرُد جره بحرف الجر المحذوف، كما هو معروف^(١)، وتقرير المعنى: نهاني ربي عن أن أعبد الذين. وسَبَّك المصدر: نهاني ربي عن عبادة الذين تدعون من دون الله، وهذا نهى عظيم، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يعبد شيئاً من دون الله؛ إلا أن الله يأمره وينهاه ليشرع على لسانه لأُمَّته.

إذا عرفتم أن المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ﴾ مجرور بـ (عن) محذوفة، فاعلموا أن علماء العربية مختلفون في المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها المجرور بحرف محذوف، هل محله الجر أو محله النصب^(٢)؟ وفائدة هذا الخلاف تظهر فيما لو عَطَفْتُ عليه اسماً خالصاً، فعلى أن محله النصب ينصب المعطوف بعده، وعلى أن محله الخفض يخفض المعطوف عليه، وكبراء النحويين - منهم الخليل والكسائي فمن حاذاهم - يقولون: إن محله النصب، وخالفهم في هذا الأخفش الصغير - علي بن سليمان النحوي المشهور - قال: محله الخفض؛ لأنه مخفوض بالحرف المحذوف. قال: والدليل على ذلك أننا وجدنا في كلام العرب الفصحاء خفض المعطوف عليه، كقول الشاعر^(٣):

وما زُرْتُ ليلى أن تكون حبيبةً إليّ ولا دينٍ بها أنا طالبه

(١) انظر: الدر المصون (٤/٦٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فالرواية: «ولا دين» بالخفض وهو معطوف على مصدر مُنْسَبِك من (أن) وصلتها، مجرور بحرف محذوف، وهو: «أن تكون» في قوله: «وما زرتُ ليلى أن تكون حبيبة» أي: لكونها حبيبة، ولا لدين. وقد أجاز سيبويه الوجهين، واحتج جماهير النحويين عن هذا البيت - الذي أنشده الأخفش مدعياً به أن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها المجرور بحرف محذوف، أن محله الخفض - أجابوا عن ذلك: بأن محله النصب، وأن خفض «ولا دين» - بالجر - أنه من نوع العطف المعروف بعطف التوهم، وعطف التوهم معروف عند النحويين، وهو أن تكون الكلمة منصوبة أو مرفوعة، إلا أنها يجوز فيها أن تُجر فيتوهمون أنها مجرورة، يتوهمون الوقوع من مطلق الجواز، ويعطفون عليها بالجر، ومنه قول زهير وهو عربي قح جاهلي^(١):

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكٌ مَا مَضَى وَلَا سَابِقُ شَيْئاً إِذَا كَانَ جَائِياً

فإن الرواية بنصب (مُدْرِكٌ)، وخفض (سَابِقُ)؛ لأن «لَسْتُ مُدْرِكٌ مَا مَضَى» يجوز جره بالباء؛ لأن خبر ليس يجوز جره بالباء، فتوهموا أنها مجرورة من جواز دخول الباء عليها، فعطف عليها بالجر، ونظيره قول الآخر^(٢):

مَشَائِمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٌ إِلَّا بِبَيْنِ غُرَابِهَا

فعطف (ناعب) بالجر على (مصلحين) وهو منصوب لتوهم دخول الباء.

وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ يَأْتِيَنَّ أَنْ عَٰبَدَ الَّذِينَ﴾ أي: نهاني ربي عن عبادة الأوثان، والأصنام، والمعبودات التي تعبدونها من دون الله؛ لأن الله يقول لنبيه في هذا المنوال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ بَلِ اللَّهَ ۖ أَي بَلِ اللَّهِ وحده ﴿فَاعْبُدْ وَكُنْ

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

﴿مَنْ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: الآيتان ٦٥، ٦٦]. هذا معنى قوله: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون من دون الله (جل وعلا) من جميع أنواع العبادات، قل لهم يا نبي الله: ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ (الأهواء: جمع (هوى)، بفتححتين، و(الهوى): ميل النفس، وأكثر ما يطلق في الشرع: إلى ميلها إلى ما [لا] ^(١) ينبغي ^(٢). و(الهوى): هو ميل النفس إلى ما لا ينبغي هنا. فـ ﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾ يعني: مهوياتكم التي تميل إليها نفوسكم باتباع الهوى والباطل، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الجاثية: آية ٢٣] وهمزة (الأهواء) مبدلة من (ياء)، على القياس المعروف: أن كل واو أو ياء تطرفت بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة. وأصل الهوى: (هوى) بفتححتين ^(٣). والمادة مما يسميه علماء الصرف: اللفيف المقرون ^(٤). عينها واو، ولامها ياء، قلبت الياء في محل اللام ألفاً، فقليل لها: «هوى» وأبدلت عند التكسير همزة، كما هو معروف في فن الصرف ^(٥)، والمعنى: لا أتبع أهواءكم الباطلة في عبادة الأصنام والإشراك بالله (جل وعلا)؛ لأنني لا أتبع الهوى، ولا أتبع إلا الحق، كما يأتي في كونه على بينة من ربه. وهذا من جملة ما أمره ربه أن يقول.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قُرىء بإدغام الدال في الضاد ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ وقرأه بعض السبعة بالإظهار ^(٦) ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾. ﴿إِذَا﴾ معناه: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ولم أكن من المهتدين. والمعنى: لا أضل، ولا أخرج عن طريق الهدى، ولا أتبع أهواءكم أبداً.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: المفردات (مادة: هوى) ص ٨٤٩، المصباح المنير (مادة: هوى) ص ٢٤٦، جامع العلوم والحكم (٢/٤٣٨)، الدر المصون (٤/٤٩٩)، الكليات ص ٩٦٢.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٧٨، التوضيح والتكميل (٢/٤٨٢).

(٤) انظر: الكليات ص ٧٩٨.

(٥) انظر: شرح الكافية (٤/٢١٢٩ - ٢١٣٠)، الدر المصون (١/٤٩٩)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧١، التوضيح والتكميل (٢/٤٨٢).

(٦) انظر: النشر (٣/٢).

وهذه الآية تدل على أن من اتبع هواه بغير علم ولا دليل أنه ضال، وأنه ليس من المهتدين.

١/٦ / ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ
إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ ﴿٥٧﴾ [الأنعام: آية ٥٧].

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لما أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار: إنه لا يعبد معبوداتهم، ولا يتبع أهواءهم، وأنه لو فعل ذلك كان ضالاً غير مهتد، أمره أن يقول لهم: إنه على بينة من أمره ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ البينة: هي البيان والدليل القاطع، الذي لا يترك في الحق لبساً^(١). وأصله صفة مشبهة من (بان يبين)، إذا ظهر، فهو (بين). وإنما أنثت (البينة) لأنها كأنها تَضْمَنُ معنى الحجة الواضحة التي يعضدها الدليل القاطع، الذي لا يترك في الحق لبساً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بيان، وبرهان، وعلم، ويقين من ربي، وليس لي في الحق شك معه، وهذا معروف في كلام العرب، كل أمر واضح لا يترك في الحق لبساً يسمونه: (بينة)؛ ولأجل هذا أطلقت (البينات) على معجزات الرسل ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] أي: بالمعجزات؛ لأنها لا تترك في الحق لبساً. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(٢):

أَبْيَنَةُ تَبْعُونَ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ وَقَوْلِ سُويِدٍ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ بِشِرَا
يعني: هذا أمر واضح في البيان، لا يحتاج معه إلى ما يبين الحقيقة.

وقوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ ذَكَرَ الضمير مع أن (البينة) مؤنثة لفظاً نظراً إلى المعنى؛ لأن (البينة) معناها البيان والبرهان واليقين ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: ذلك البرهان واليقين الذي أنا عليه، المُعْبَرُ عنه بالبينة، وهذا هو الظاهر، خلافاً لمن قال: إن الضمير عائد إلى الله، أي: كذبتُم بالله (جل وعلا) أنه المعبود وحده جل وعلا^(٣).

(١) انظر: ابن جرير (٣٩٧/١١)، القرطبي (٤٣٨/٦)، المفردات (مادة: بان) ص ١٥٧.

(٢) البيت في ابن جرير (٣٩٨/١١).

(٣) انظر: القرطبي (٤٣٨/٦)، البحر المحيط (١٤٢/٤)، الدر المصون (٦٥٧/٤).

﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ﴾ كان الكفار يقولون للنبي ﷺ: هذا الذي تهددنا به من عذاب الله، إن كنت صادقاً، إن كنت نبياً فعجله علينا الآن^(١). كما بين الله ذلك عنهم في آيات من كتابه، كقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: آية ١٦] والْقِطُّ في لغة العرب: أصله كتاب الجائزة الذي يكتبه الملك^(٢). فالملك إذا أراد أن يُجيز الوفود كتب لكل رئيس جائزة معينة في صكّ، وذلك الصكّ يُسمى: (القِطُّ). وعليه فقولهم: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾ معناه: عَجِّلْ لَنَا نصيبنا من مَلِكِ السماوات والأرض الذي تقول إنه نصيبنا منه، وهو العذاب في الدنيا والآخرة، كما قال الشاعر، وهو نابغة ذبيان^(٣):

ولا الملكُ النعمانُ حينَ لَقِيْتَهُ على مُلكه يُعطي القُطُوطَ ويأْفِقُ

ومعنى (يأفق) أي: يفضل في العطاء بعضهم على بعض ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: آية ٣٢] ﴿وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُوا مَا يَحْسِبُونَ﴾ [هود: آية ٨] أي شيء يحبس العذاب ويؤخره، ولم لا تعجله؟ والله يقول: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: آية ٤٥] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الشورى: آية ١٨] ونحو ذلك من الآيات الدالة على استعجالهم العذاب^(٤)، وقالوا له: إن كنت نبياً حقاً فعجل لنا العذاب الذي تهددنا به، فأمره الله أن يقول لهم ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ﴾ (ما) وهو الاسم المبهم الموصول واقعة على العذاب، والمعنى: ليس بيدي العذاب الذي تطلبون استعجاله عليكم ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٢١٩.

(٢) انظر: اللسان (مادة: قطط) (١١٧/٣).

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١١٨، ولفظه في الديوان:

ولا الملكُ النعمانُ يومَ لَقِيْتَهُ بِإِمْتِنِهِ يُعطي القُطُوطَ ويأْفِقُ
وقوله: (بإمته) أي: نعمته.

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/ ١٩٤، ٤٩٠)، (٣/ ٧٨)، (٥/ ٧١٦)، (٧/ ٢٣).

[ص: آية ١٦] ليس بيدي، وإنما هو بيد الله.

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ قرأ هذا الحرف قارئ أهل المدينة، وقارئ أهل مكة - أعني: نافعاً، وابن كثير - وقرأ معهما عاصم من الكوفيين، هؤلاء الثلاثة من القراء السبعة - أعني: نافعاً، وابن كثير، وعاصماً - قرؤوا: ﴿يَقُصُّ الْحَقُّ﴾ بضم القاف، وضاد مهملة مضمومة. وقرأ باقي السبعة - وهم: أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي - قرؤوا: ﴿يَقُصُّ الْحَقُّ﴾ بسكون القاف والضاد المكسورة^(١).

وعلى قراءة الحَرَمِيِّين وعاصم - أعني: نافعاً، وابن كثير، وعاصم - فمعنى: ﴿يَقُصُّ الْحَقُّ﴾ أي: يتلو علينا في كتابه الحق الواضح، الذي لا لبس فيه، كما قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: آية ٣] وعلى هذا فإعراب (الحق) واضح؛ لأنها مفعول به لـ (يقص).

وأما على قراءة البصري والشامي والاثنيين من الكوفيين^(٢) ﴿يَقُصُّ الْحَقُّ﴾ ففي إعراب (الحق) إشكال، وبِمَ نُصِبَتْ؟ وفي إعرابه للعلماء ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه نعت لمصدر محذوف، أي: ما ناب عن المطلق. والمعنى: يقضي القضاء الحق، الذي لا جور فيه، ولا حيف.

الثاني: أنه منصوب بنزع الخافض. أي: يقضي بالحق، فحذف حرف الجر فنُصب الاسم. ومما يدل على هذا قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: آية ٢٠].

الوجه الثالث: أن (يقضي) معناه: يصنع. أي: يصنع الحق؛ لأن كل

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٥.

(٢) البصري: أبو عمرو، والشامي: ابن عامر، والكوفيان هنا: حمزة والكسائي.

أعماله التي يعملها، من تشريع، وإثابة، وعقاب كله حق واقع موقعه منه (جل وعلا). والعرب تُطلق (القضاء) وتريد (الصُّنْع) وهو معنى معروف في كلام العرب^(١)، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي^(٢):

وعليهما مَسْرُودتان قَضَاهُما داوُدُ أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تَبَعُ
قضاهما: يعني صنعهما.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (إن) هي النافية، والألف واللام في (الحكم) هي للاستغراق، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب^(٣)؛ لأن سبب نزول الآية في الحكم الكوني القدري، حيث قالوا له: عَجَّلْ لَنَا العذاب، وأنزل علينا الآيات. فأخبرهم الله أن ذلك الحكم الكوني القدري من تعجيل العذاب وإنزال الآيات إنما هو لله وحده، هو الذي بيده ذلك، وعموم الآية يقتضي أن الحكم من حيث هو: هو لله (جل وعلا) وحده، كذلك الحكم الشرعي له وحده. ويدل على دخول الحكم الشرعي: أنه قال في الآية: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ لأن (الفاصلين) جمع (الفاصل)، وهو الذي يفصل الخصوم، وينصف بينها، ويُحقِّق الحق بينها. ولا شك أن الحكم من حيث هو حكم سواء كان شرعياً أو قديراً فإنه لله وحده، فالأحكام القدرية له، لا يقع تحريك ولا تسكين، ولا خير ولا شر، ولا شيء كائن ما كان إلا بحكمه (جل وعلا) وقدرته ومشيئته. وكذلك الأحكام الشرعية، لا تشريع لأحد، ولا تحليل لأحد إلا له (جل وعلا) وحده، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله؛ لأنه من المعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا، والسلطة الحاكمة على السماوات والأرض هي التي لها الأمر والنهي والتشريع. فالتشريع لرب العالمين ﴿فَلِلَّهِ الْحُكْمُ﴾

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٤٣)، الدر المصون (٤/٦٥٧ - ٦٥٩).

(٢) البيت في البحر المحيط (٤/١٤٣)، الدر المصون (٢/٨٦).

(٣) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/١٩٨، ٢١٠، ٢٢٠)، شرح الكوكب المنير (٣/١٧٧)، قواعد التفسير (٢/٥٩٣).

الْكَبِيرِ ﴿[غافر: آية ١٢]﴾ **﴿إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾** [الأنعام: آية ٥٧] **﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾** [الكهف: آية ٢٦] فالحاكم هو الله، والتشريع تشريع الله، والنبى ﷺ مبلّغ عن الله شرعه لخلقه، والمشرع هو الخالق جل وعلا.

ويُفهم من هذا أن من زَيْن له الشيطان أن يكون مُشرّعاً يُحلل ويُحرم، ويضع النُظم والقوانين ليُحكّمها في دماء الناس وأموال الناس وأعراضهم وعقولهم: أن هذا متمرّد على نظام السماء، يُحاول أن يجعل لنفسه خصوصية خالق السماوات والأرض، عُتوّاً وتمرداً على الله، فهو كافر، وقد دلّ القرآن العظيم في آيات كثيرة أن من يتبع نظاماً وقوانين وضعيّة شرّعها الشيطان على ألسنة أوليائه مُدعيّاً أن تشريع خالق السماوات والأرض لا يصلح لتنظيم العالم، ولا يُسائر التطور، فمن يرى هذا، ويرى نظام إبليس هو الذي يقوم بمصالح البشر، ونظام خالق السماوات والأرض - الذي خلق هذا الكون وهو أعلم بمصالحه - أنه لا يُسائر التطور، ولا ينظم علاقات الدنيا على الوجه الذي ينبغي: فهذا لا شك بين أهل العلم في أنه كافر كفراً بواحاً مخرجاً عن دين الإسلام^(١)، والآيات القرآنية الدالة على هذا كثيرة جداً، من ذلك ما بيناه مراراً: أن إبليس عليه لعنة الله، لما جاء تلامذته وإخوانه من أهل مكة، وأراد أن يُهيىء لهم وحي الشياطين ليجادلوا به النبي ﷺ، قال لهم: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فلما أخبرهم أن الله هو الذي قتلها، قالوا له من وحي الشيطان: ما ذبحتموه بأيديكم - يعنون المذكاة - تقولون: حلال، وطاهر، وطيب، مستلذ، وما ذبحه الله بيده الكريمة - يعنون الميتة، أن الله قتلها - تقولون: هو حرام، ميتة، مستقذر، فأنتم إذا أحسن من الله!! وأنزل الله في وحي الشياطين جواباً لنبيه عنه^(٢) قوله: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** [الأنعام: آية ١٢١] يعني الميتة، وإن زعم أولياء الشيطان أنها ذبيحة الله، ثم

(١) انظر: الأضواء (١٦٢/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٧٧/١٢ - ٨٢) الأضواء (١٦٩/٧). وسيأتي تخريجه عند تفسير الآية

(١١٨) من سورة الأنعام.

قال: ﴿وَأَنْتُمْ لَفَاسِقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، وخروج عن طاعة الله، ثم قال - وهو محل الشاهد - ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وإن أطعتموهم في تحليل الميتة إنكم لمشركون.

اعلم أن تحليل الميتة وتحريمها ليس عقيدة من العقائد، ولا أصلاً من الأصول، وإنما هو فرع من الفروع. مضغة لحم شرع الله على لسان نبيه تحريمها؛ لأنها ماتت ولم يُذكر عليها اسم الله، وشرع إبليس على لسان أوليائه تحليلها، فهذا نظام إبليس، وهو تحليل الميتة، وهذا نظام خالق السماوات والأرض الذي شرعه على لسان نبيه. الله يقول: هذه ماتت حتف أنفها، ولم تُذكر ولم يُذكر اسم الله عليها. والشيطان يُشرع بفلسفته ويقول: هذه ذبيحة الله، وما ذبح الله أظهر وأحل مما ذبحتموه بأيديكم، والله يقول بالمقارنة بين تشريع الشيطان وتشريع الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ إن أطعتموهم في تحليل الميتة الذي هو تشريع إبليس، تاركين تحليل وتشريع الله - وهو تحريمها - إنكم لمشركون.

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية^(١) مثال لحذف لام توطئة القسم، قالوا: والأصل: (ولئن أطعتموهم) فحُذفت اللام الموطئة للقسم. قالوا: والقرينة على لام القسم: أنه لو كان الشرط وحده ليس معه قَسَمَ لاقتربت الجملة بالفاء، لقال: «وإن أطعتموهم فإنكم لمشركون» فلما لم تقترب بالفاء علمنا أن عدم اقترانها بالفاء لأنها جواب القسم المقدر المحذوفة لأمه، لقرينه عدم الفاء؛ ولأن الشرط إذا جاء معه القسم - يكون القسم قبله - ويكون الجواب والقسم، ويُحذف جواب الشرط، كما هو معروف في علم النحو^(٢).

(١) انظر: البحر المحيط (٢١٣/٤)، الدر المصون (١٣٢/٥)، الأضواء (١٧٠/٧).

(٢) المراد: أنه إذا اجتمع شرط وقسم، وكان القسم سابقاً على الشرط، فالجواب للقسم، وجواب الشرط يكون محذوفاً؛ لأن الجواب في هذه الحالة للسابق منهما. انظر: البحر المحيط (٣٤٥/٤)، ضياء السالك (٥٣/٤)، التوضيح والتكميل (٣٢١/٢)، النحو الوافي (٤٨٦/٤)، الدر المصون (٣٨٥/٥).

وإذا تقرر هذا، فقد أقسم الله - كما قلنا - في هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان واتبع تحليله مخالفاً لتشريع الله أنه مشرك، وهذا الشرك شرك ربوبية؛ لأن التشريع، والأمر، والنهي للرب الخالق، فالشيطان أراد أن يشارك الله في السُلطة العليا، والأمر والنهي، فمن اتبعه فكأنه جعله رباً، وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام، وسيوبخ الله مرتكبه على رؤوس الأشهاد، كما بيّنه الله في سورة يس في قوله: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَتَبَيَّ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] عبادتهم للشيطان التي عهد الله إليهم في دار الدنيا النهي عنها ليس معناها أنهم يسجدون للشيطان، ولا يركعون له، ولا يصومون، ولا يصلون له، وإنما هو اتباعهم تشاريعه ونظمه، تاركين تشريع الله ونظامه؛ ولذا قال: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَتَبَيَّ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٦٠] وَأَنْ عَابُدُونِي ﴿واتبعوا تشريعي﴾ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[يس: الآيتان ٦٠، ٦١] ثم بيّن (جل وعلا) كثرة من اتبع نظام الشيطان واختار تشريعه ودينه عن تشريع الله، وبيّن مصيرهم، قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاَ كَثِيْرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٢] [يس: آية ٦٢] أليست عندكم عقول تعلمون أن التشريع هو تشريع الله الذي خلقكم فتمثلوا أوامره، وتجنبوا نواهيه، وتركوا تشريع الشيطان؛ لأن كله كفر ومعاص - والعياذ بالله - ثم بين مصير من كان يتبع نظام الشيطان ويترك نظام الله فقال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٦٣] أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ [يس: الآيتان ٦٣ - ٦٥] إلى آخر الآيات؛ ولأجل هذا المعنى قال نبي الله إبراهيم الخليل الذي قال له الله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وشهد له في قوله: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: آية ٣٧] ويقول له: ﴿وَإِذْ أَبَتَ إِلَىٰ إِيزَجَرَ رَبُّهُ بِكَلِمَتِهِ فَاْتَمَنَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] قال لأبيه: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: آية ٤٤] عبادته للشيطان التي ينهاه عنها ليست السجود له، ولا الركوع، ولا الصيام، وإنما هي اتباع نظامه من عبادة الأصنام، ومعاصي الله (جل وعلا)؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن

دُونِهِ إِلَّا أَنْتَ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ [النساء: آية ١١٧]
 يعني: لا يعبدون إلا الشيطان؛ لأن اتباعهم لتشريع ونظامه وتركهم
 تشريع الله ونظامه هو عبادتهم له؛ ولذا سمي الله (تبارك وتعالى) في هذه
 السورة - سورة الأنعام - سمي فيها الذين يُطاعون في معاصي الله، سماهم
 (شركاء) حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ زُكِّيَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلٌ
 أَوْلَدِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لما زينوا لهم
 الحرام واتبعوه فيهِ. وقد صح عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه سأل
 النبي ﷺ عن آية التوبة - وكان عدي هذا نصرانياً - قال له: يا نبي الله:
 ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف
 اتخذوهم أرباباً؟ يعني أنهم لم يسجدوا، ولم يركعوا لهم، ولم يصوموا
 لهم. قال له ﷺ: «ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما
 أحل الله، فاتبعوهم؟» قال: بلى. قال: «بذلك اتخذوهم أرباباً»^(١).

وهو نصٌّ في أن من يتبع تشريع الشيطان تاركاً تشريع الله، أنه اتخذ
 الشيطان رباً، ومعنى هذا واضح؛ لأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم لا
 يكون إلا للأعظم الذي بيده كل شيء، فإذا جعله لغير الله فقد أعطى
 منصب الربوبية الكامل لغير الله (جل وعلا)، وجعله رباً غير الله، وبين الله
 (تعالى) في سورة النساء أن الذي يريد أن يُحكّم قوانين الشيطان دون
 نظام الله، ويدّعي مع ذلك أنه مؤمن، أن دعواه هذه كاذبة بعيدة، تستحق
 أن يُتعجب منها، والآية التي بين الله بها هذا هي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى

(١) أخرجه الترمذي، في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم (٣٠٩٥)،
 (٢٧٨/٥)، وعقبه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه! إلا من حديث عبد السلام بن
 حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث» اهـ.

كما أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧)، والطبراني في الكبير (٩٢/١٧)،
 والبيهقي في السنن (١١٦/١٠)، وابن جرير (٢٠٩/١٤ - ٢١١)، وقال عنه شيخ الإسلام
 (وهو حديث حسن طويل) (الإيمان ص ٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي
 (٥٦/٣)، وغاية المرام ص ١٩، والحديث له شواهد يتقوى بها، والله أعلم.

الطَّاعُونَ» [النساء: آية ٦٠] والتحاكم إلى الطاغوت يشمل كل تحاكم إلى غير ما أنزله الله، فقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ» صيغة يُعَجِّبُ الله بها نبيه، يقول: «يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا» كيف يزعمون الإيمان، ومع ذا يريدون التحاكم للطاغوت، فهذا شيء لا يجتمع!! ولذا عَجَبَ الله منه نبيه.

ثم ختم الآية بقوله: «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» فالواقع أن خالق السماوات والأرض له الحكم كله، له الحكم الكوني القدري، وله الحكم الشرعي، فهو الذي يفعل ما يشاء، ولا يكون خيراً ولا قدراً إلا ما شاءه (جل وعلا). وكذلك له الحكم الشرعي، فهو الذي يأمر، وهو الذي ينهى، وهو الذي يحلل، وهو الذي يحرم، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تحليل ولا تحريم، ولا شرع دين ولا نظام. وقد بينا أن من ادعى أنه يملك هذه السلطة - وهي سلطة التشريع - أنه جعل نفسه له أن يأخذ حقوق الله الخالصة له؛ لأجل ربوبيته فيجعلها لنفسه.

وهذا الذي ذكرنا - أن اتباع نظام إبليس، وترك نظام خالق السماوات والأرض - أنه كفر، قد بينا في هذه الدروس مراراً أن النظم ليست كلها على وتيرة واحدة، بل هي نوعان: نظام إداري، ونظام شرعي.

أما النظام الإداري الذي لا يخالف نصوص الشرع، بل قد تشهد أصول الشرع للمصلحة فيه، فهذا ليس أحد يقول: إنه كفر، ولا حرام، والصحابة (رضي الله عنهم) جعلوا بعد النبي ﷺ أشياء كثيرة من هذا، ولم يقع بينهم فيها خلاف، بينا بعض أمثلتها، من ذلك أنه في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن الجُند مكتوباً في ديوان، فمن أراد أن يتخلف قد يتخلف ولا يُطلع على تخلفه إلا بعد زمن؛ ولأجل ذلك ثبت أن النبي ﷺ لما تخلف عنه - في غزوة تبوك - كعب بن مالك (رضي الله عنه) لم يتفقد كعباً، ولم يسأل عنه حتى وصل تبوك^(١)، ولم يذَرِ أهو موجود في الجيش

(١) قصة تخلف كعب (رضي الله عنه) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب:

إذا تصدق أو وقف بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز. حديث رقم (٢٧٥٧)، (٣٨٦/٥)، =

أو غير موجود فيه؛ لأنهم لم يكن عندهم ديوان، وكذلك زمن أبي بكر، فلما كانت الخلافة إلى عمر كتب أسماء الجند في ديوان، فدون جميع أسماء المقاتلين في ديوان^(١)، فصار إذا تخلف واحد عُرف من وقته أنه تخلف، وعرف مُقاتِلَة كل جهة من الجهات، وجعل كل جهة في جهتهم يحمونها مما يكون إليهم، وصارت كل جهة أهلها أهل ديوان، فكتب أسماء الجند في ديوان. هذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ ولا أبو بكر، ولكنها مصلحة محضة لا تخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهي مصلحة عملها عمر بن الخطاب، ولم يخالف أحد من الصحابة مع كثرتهم وعلمهم. ومن هذا المعنى: أن زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن عند المسلمين سجن يقفون فيه الجناة، ولا يسجنون فيه، فلما كانت الخلافة لعمر (رضي الله عنه) اشترى دار صفوان بن أمية في مكة، وجعلها سجناً يقف فيه الناس حتى ينظر في أمورهم، وربما سجن به بعض المذنبين^(٢). فهذا السجن هو مصلحة إدارية لم تكن في زمن النبي ﷺ ولا أبي بكر، والقصد مطلق التمثيل.

فهذا النوع من ضبط الأمور وتنظيم الإدارة بما لا يخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهذا لا نقول: إنه كفر، ولا نقول: إنه حرام. وهو من المصالح المرسلّة التي عمل بها الصحابة، ولم يخالف منهم أحد، وكان مالك يجعل هذا النوع أصلاً من أصول مذهبه^(٣)، وهو (المصالح المرسلّة) قال: لأن الصحابة أجمعوا عليه؛ لأن أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ أبو

= وأخرجها في مواضع متفرقة، انظر الأحاديث: (٢٩٤٧)، (٢٩٤٨)، (٢٩٤٩)، (٢٩٥٠)، (٣٠٨٨)، (٣٥٥٦)، (٣٨٨٩)، (٣٩٥١)، (٤٤١٨)، (٤٦٧٣)، (٤٦٧٦)، (٤٦٧٧)، (٤٦٧٨)، (٦٢٥٥)، (٦٦٩٠)، (٧٢٢٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه، حديث رقم (٢٧٦٩)، (٢١٢٠/٤).

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣١٩/١٨)، التراتيب الإدارية (٢٢٥/١).

(٢) انظر: البخاري، الخصومات، باب الربط والحبس في الحرم، (٧٥/٥)، تغليق التعليق (٣٢٦/٣)، أخبار مكة للأزرقي ج (١٦٥/٢)، تهذيب الأسماء واللغات (١٢٢/٢)، التراتيب الإدارية (٢٩٨/١).

(٣) انظر: نشر الورود (٥٠٥/٢).

بكر، عمل بالمصلحة المرسله لما حضرته الوفاة - يعني باحتضار الوفاة، في ذلك الوقت يتوب المجرم، وينيب الظالم، أخرى أبو بكر (رضي الله عنه)، فهذا فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: آية ٢٤] لما عابن الغرق قال: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: آية ٩٠] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر: آية ٨٤] أخرى أبو بكر في آخر لحظة من حياته - عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كتب أبي وصيته في سطرين: هذا ما أوصى ابن أبي قحافة: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به، وإن يجز فلا أعلم الغيب ﴿وَسِعَ الْعَرْشَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبِ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: آية ٢٢٢]^(١). لم ترد آية في كتاب الله، ولا نص من سنة رسول الله لأبي بكر أن ينيب عمر على الناس، ولكن رأى المصلحة تقتضي ذلك، ففعل هذه المصلحة، ولم ينكر عليه أحد من الناس، فتوليته له من المصلحة المرسله^(٢)، لا من قياس العهد على العقد، كما قال به بعض الناس.

والحاصل أن النظام نوعان: نظام لا يتعرض لقواعد الشرع، وإنما هو تنظيم مصلحي لا يتعرض للقواعد، فهذا هو الذي ذكرنا أنه لا بأس به، وأن الصحابة فعلوه.

والثاني: نظام تشريعي، وهو الذي كنا نتكلم عليه ونورد فيه الآيات، كالذي يقول: إن الأئمة تمت بالقراءة التي يمت بها الذكر، فتفضيله عليها ظلم وجور. وكالذي يقول: إن تعدد الزوجات يجعل الرجل دائماً في شغب، ولو أخذ واحدة لكان معها في خفض ودعة، وأن الشغب دائم لا يزول، وأن هذا أمر لا يصلح في الاجتماع. والذي يقول: إن قطع اليد عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في النظم التي يعامل بها الإنسان. وما جرى مجرى ذلك، مع أن كل هذه الأمور حكمته بالغة، وسنيين - إن شاء الله - حكم الجميع إن مررنا على الآيات التي هي بها.

(١) الطبقات الكبرى (١٤٢/٣)، عيون الأخبار (١٤/١)، مختصر تاريخ دمشق (١٢٠/١٣).

(٢) انظر: نشر الورود (٥٠٦/٢ - ٥٠٧).

فهذا النوع من النظام هو الضلال والكفر، وقد بين الله أن من يقول: إن الأنثى كالذكر في الميراث، أنه ضال، كما قال (جل وعلا) في آية الصيف، الآية الأخيرة من سورة النساء: ﴿وَلِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَلِمَاتِ﴾ [النساء: آية ١٧٦] يبين لكم هذا البيان كراهة أن تقولوا: هما سواء في الميراث فتضلوا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ أَلْحَمَّكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]:

يقض الحق كقوله: ﴿نَحْنُ نَقْضُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: آية ٣] و﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [غافر: آية ٢٠] ﴿وَهُوَ﴾ (جل وعلا) ﴿حَيُّ الْقَاضِيَيْنِ﴾ الذين يفصلون بين الخصوم، وسيفصل بين الخلائق يوم القيامة، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: آية ٢٥].

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٨].

هذا أمر من الله لنبيه أن يقول للكفار الذين يستعجلون بالعذاب ويقولون له: ﴿عَجَلْنَا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: آية ١٦] ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لَقَدْ أَهْلَكْنَا قَوْمَكَ مِنْ قَبْلُ فَكَيْفَ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلُ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ آتٍ﴾ [الأنفال: آية ٣٢]، ﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَّا أَتَيْنَهُمْ مَعْدُودَةً لَقَوْلُنَا مَا يَحْسِبُونَ﴾ [هود: آية ٨] قل يا نبي الله لهؤلاء المتمردين المتعنتين، الذين يستعجلون بالعذاب تعنتاً وعناداً: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ أي: العذاب الذي تستعجلون به، لو كان بيدي لعجلته عليكم، وقضي الأمر بيني وبينكم، وسلمت من ذلك لأنني على حق، وأهلككم العذاب هلاك استئصال، واسترحت منكم.

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان، لطالب العلم أن يسأل عنهما: أحدهما نحوي، والثاني وحيي^(١).

(١) لم يذكر السؤال الثاني هنا، وقد ذكره في أضواء البيان (١٩٤/٢) حيث قال:

أما النحوي فهو أن يقول طالب العلم: همزة (أن) إذا فُتحت دلت على مصدر، فهي في محل اسم مفرد؛ لأنها إن فُتحت سَدَّتْ مَسَدًا مصدر، وهذا المصدر - طبعاً - معروف أنه اسم، و(لو) حرف شرط، وخروف الشروط لا تتولى إلا الجمل الفعلية، فَلِمَ تولى حرف الشرط اسماً، وهو هذا المصدر المنسبك من (أن) وصلتها؟ هذا وجه السؤال.

والجواب عنه: هو ما حققه علماء العربية: أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها فاعل فعل محذوف، والفعل المضمر هو الذي يلي حرف الشرط، وتقدير المعنى: لو ثبت أن عندي، لو ثبت كون ما ستطلبونه عندي لعجلته عليكم. ولم يكن بعده إلا فعل، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها فاعل الفعل. هكذا يقولون^(١).

﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قضاء الأمر هنا كناية عن إنزال العذاب عليهم، واستراحته منهم.

ومن قال: «إن قضاء الأمر هنا معناه ذبح الموت»^(٢). فهو غلط ووهم منه؛ لأن ذلك الذي معناه ذبح الموت هو في آية مريم، وليس في هذه الآية، وهو قوله (جل وعلا) في أخريات مريم: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: آية ٣٩] فقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ تفسير

= تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الآية، صريح في أنه ﷺ لو كان بيده تعجيل العذاب عليهم لعجله عليهم، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها): أن النبي ﷺ أرسل الله إليه ملك الجبال، وقال له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشيين - وهما جبال مكة اللذان يكتفانها - فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً». والظاهر في الجواب: هو ما أجابه به ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية، وهو أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبون تعجيله في وقت طلبهم تعجيله لعجله عليهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم طلبوا تعجيل العذاب في ذلك الوقت، بل عرض عليه الملك إهلاكهم فاختر عدم إهلاكهم، ولا يخفى الفرق بين المتعنت الطالب تعجيل العذاب وبين غيره.

(١) انظر: ضياء السالك (٤/٦٦).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٠٠/١١).

آية مريم^(١) هذه: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال: إذ دُبح الموت ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنذرهم وهم في غفلة ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ودُبح الموت. ولا يصح في آية الأنعام هذه هذا التفسير؛ لأن المعنى هنا: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لعجلت لكم العذاب الذي تطلبونه فهلكتكم، ونفذ القضاء بيني وبينكم. ونفوذ القضاء: هو إهلاك الظالم وبقاء المطيع سالماً، وهذا معنى قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين الذين يتعنتون ويستعجلون، هو أعلم بهم، عالم من يهديه الله فيتوب، ومن يخذله فلا يتوب، وعالم بالوقت الذي يأتيهم فيه العذاب، وعالم بما يستحقون من العذاب، ووقت مجيئه لهم، وسيكون ذلك على حسب ما سبق في علمه (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

قال بعض العلماء: صيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن المقرر في علم العربية: أن صيغة التفضيل تدل على مشاركة بين المفضل والمفضل عليه، إلا أن المفضل أكثر في المصدر من المفضل عليه^(٢). و (زيد أعلم من عمرو) يدل على أنهما مشتركان في العلم، إلا أن المفضل يفضل فيه المفضل عليه. والعلم بالظالمين: بأحوالهم وما يؤولون إليه، ووقت نزول

(١) البخاري، كتاب التفسير، باب (وأنذرهم يوم الحسرة) حديث رقم (٤٧٣٠)، (٤٢٨/٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، حديث رقم (٢٨٤٩)، (٢١٨٨/٤)، وانظر: حديث رقم (٢٨٥٠) ولفظه عند البخاري: عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيُنَادِي مَنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيُشْرِبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيُشْرِبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيُنَادِي: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ. وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ. ثم قرأ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٢٦/٢).

العذاب عليهم، هذا لا يُشارك الله فيه أحد، وهذا إنما يعلمه الله وحده؛ ولذا يقولون: إِنَّ صِيغَةَ (أَفْعَل) هنا بمعنى (الوصف) بمعنى: والله عليم بالظالمين، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ لأن هذه لا يشاركه فيها غيره، وقد تقرر في علم العربية: أن صيغة (أَفْعَل) قد تأتي مراداً بها الوصف من غير إرادة التفضيل^(١) وشواهد ذلك كثيرة في كلام العرب، ومنه قول الشنفرى^(٢):

وإن مُدَّتْ الأيدي إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ

يعني بـ(أجشع القوم): هو العَجَل منهم، وقول الفرزدق^(٣):

إن الذي رفع السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

يعني عزيزة طويلة. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٩].

ذكر بعض أهل العلم أن سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ جاءه بدوي فقال له: إني تركت امرأتي حُبْلَى، وتركت قومي في جذب، فأخبرني عما في بطن امرأتي: أذكراً هو أم أنثى؟ وأخبرني عن الوقت الذي يأتي فيه الغيث لقومي فإنهم مُجَدَّبُونَ. ثم قال له: ولقد عرفت الوقت الذي وُلِدَتْ فيه، فأخبرني عن الوقت الذي أموت فيه. فأنزل الله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٤).

(١) المصدر السابق (١٣٣/٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١٣٤/٢)، خزانة الأدب، (٤٨٦/٣)، وفيه: (سَمَكُ السَّمَاءِ).

(٤) أخرجه ابن جرير (٨٧/٢١)، وابن أبي حاتم (٣١٠/٩)، عن مجاهد مرسلًا، وعزاه في =

ومفاتيح الغيب المذكورة في هذه الآية هي المذكورة في أخريات سورة لقمان في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: آية ٣٤]. وتفسير النبي ﷺ لمفاتيح الغيب هنا بأنها الخمس المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى آخرها، ثبت في الصحيح عن أبي هريرة^(١) وعبدالله بن عمر^(٢)، وجاء بأسانيد لا بأس عليها عن /قوم آخرين من ٦/ب الصحابة، منهم بريدة^(٣)، وابن مسعود^(٤)، وابن عباس^(٥)، وصحابي من بني عامر^(٦): أن النبي ﷺ فسر مفاتيح الغيب المذكورة هنا بأنها المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(٧)؛ لأن هذه الخمس أمهات عظيمة لها أهميتها من أمهات علم الغيب، ففسر النبي بها هذه الآية؛ لأن الساعة هي أقطع أمر وأهم أمر يوجد، ليس علمها إلا عند الله وحده، كما قال: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٧] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ [٤٣] ﴿إِنَّ رَبَّكَ مُنْهِنَهَا﴾ [٤٤] [النازعات: الآيات ٤٢ - ٤٤]

= (الدر) إلى الفريابي، وابن أبي حاتم. وأورده الواحدي في أسباب النزول بغير سند ص ٣٤٧. وذكر في (الدر) نحوه عن عكرمة، وعزاه إلى ابن المنذر. انظر: الدر المنثور (١٦٩/٥).

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام.. حديث رقم (٥٠)، (١١٤/١)، وأخرجه في موضع آخر، انظر الحديث: (٤٧٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. الأحاديث (٨ - ١٠)، (٣٦/١) - (٤٠).

(٢) البخاري، كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله. حديث رقم (١٠٣٩)، (٥٢٤/٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٤٧٧٨، ٧٣٧٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٣/٥).

(٤) أخرجه ابن جرير (٨٩/٢١)، وانظر: الدر المنثور (١٦٩/٥).

(٥) أخرجه أحمد (٣١٩/١).

(٦) أحمد في المسند (١٢٩/٤، ١٦٤)، وانظر: الدر المنثور (١٦٩/٥، ١٧٠) من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه.

(٧) انظر: الأضواء (١٩٥/٢).

ولما سأله جبريل في حديثه المشهور عن الساعة. قال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وبين له شيئاً من أماراتها^(١).

هذه هي مفاتيح الغيب، فالوقت الذي تقوم فيه الساعة لا يعلمه إلا الله وحده (جل وعلا)، لا يعلمه أحد ﴿لَا يَحِيطُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٧] ﴿وَيَزِلُّكَ الْعَنَقَ﴾ الوقت الذي ينزل فيه المطر لا يعلمه إلا الله وحده ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآزْوَاجِ﴾ الذي هو في رحم أمه لا يعلم حقيقته إلا الله، أذكر هو أم أنثى؟ قبيح أو جميل؟ شقي أو سعيد؟ لا يدري الإنسان ماذا يكسب غداً. والمراد به (ما يكسب غداً): من خير أو شر، ما يكسب من الحسنات التي تقربه لله، وما يكسب من السيئات التي تبعده عن الله (جل وعلا)، ويدخل في ذلك: ما يكسبه من مال ونحوه؛ لأن الله قد يغنيه من حيث لا يشعر، وقد يفقره من حيث لا يشعر؛ لأن الله بيده كل شيء ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لا يعرف الإنسان المحل الذي فيه قبره، وإن كان ساكناً في محل وإذا كتب الله أجله في محل لا بد أن تكون له حاجة إلى ذلك المحل، فيذهب إليه ليدركه أجله فيه، وينفذ قضاء الله كما سبق في علمه الأزلي، وجاء بذلك حديث عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ: أن الله إذا كتب أن يموت رجل في محل، لا بد أن يجعل له حاجة إلى ذلك المحل حتى يذهب إليه ويدركه أجله فيه^(٢). هذه مفاتيح الغيب الخمس التي بين النبي أنها معنى هذه الآية، وخير التفسير تفسيره ﷺ.

(١) هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) وقد مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧/٥)، والترمذي في السنن، كتاب القدر، باب: ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتبت لها. حديث رقم (٢١٤٦)، (٤/٤٥٢)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه. وانظر: صحيح الترمذي (٢/٢٢٧)، المشكاة (١/٣٩). وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي عزة (رضي الله عنه). انظر: السنن، حديث رقم (٢١٤٧)، (٤/٤٥٣)، وابن أبي حاتم (٤/١٣٠٣ - ١٣٠٤)، (٩/٣١٠٢) وانظر: صحيح الترمذي (٢/٢٢٧) ولفظ الحديث عند الترمذي: «إذا قضى الله لعبده أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة».

وقد بين (جل وعلا) في آية عامة أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُنْعَثُونَ﴾ [النمل: آية ٦٥] وقد بينا فيما مضى أمثلة لمصداق هذه الآيات، و بينا أن أعظم الخلق: الملائكة، والرسل، والملائكة لما قال لهم الله: ﴿أَتَيْتُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ؟﴾ أجابوا بأن قالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: آية ٣٢] وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ النكرة فيه مبنية مع (لا) والنكرة لا تُبنى على الفتح مع (لا) إلا التي هي لنفي الجنس. فمعنى الآية: أنهم نفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علمهم الله إياه. وهؤلاء الرسل الكرام (عليهم صلوات الله وسلامه) مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة يقولون: إنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله. هذا سيدهم وخاتمهم ﷺ قد بينا أن الله أمره قال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَيْنَا إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا﴾ [الأنعام: آية ٥] وأمره أيضاً في سورة الأعراف أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] وقد قال في أخريات أيام حياته صلوات الله وسلامه عليه: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة»^(١). كما هو معروف. وقد بينا أن نبي الله نوحاً ذكر الله عنه في سورة هود: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: آية ٣١] وقد بينا أمثلة من هذا، فهذا سيد ولد آدم على الإطلاق، وأفضل الرسل، وأعلم الناس (صلوات الله وسلامه عليه)، رُميت أحب أزواجه

(١) قطعة من حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت. حديث رقم (١٦٥١)، (٥٠٤/٣)، وأطرافه في: (١٥٦٨، ١٥٧٠، ٢٥٠٦، ٤٣٥٢، ٧٢٣٠، ٧٣٦٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب: بيان وجوه الإحرام. حديث رقم (١٢١٣، ١٢١٦، ١٢١٨)، (٨٨١/٢ - ٨٨٥). وقد روى هذا الحديث أيضاً البراء بن عازب (رضي الله عنه) عند أبي داود، والنسائي. وأخرج الشيخان نحوه من حديث أنس ولفظه: «لولا أن معي الهدي لأحلت».

بأعظم فرية، أم المؤمنين عائشة، لما رموها بصفوان بن المُعَظَل في غزوة بني المُضَطَّلِق، كما قص الله القصة مُوضحة في سورة النور، كان (صلوات الله وسلامه عليه) مع ما آتاه الله من العلم والمكانة العظيمة لا يدري أحق ما قالوا عن زوجته أم كذب، وكان يقول: «كيف نيكم؟» وفَقَدَت منه العطف الذي كانت تجده إذا مرضت، وكان يقول لها غير دارٍ بالحقيقة: «يا عائشة إن كنتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَتُوبِي، وإن كنتِ بريئة فسيبرئكَ الله». ولم يعلم بالحقيقة حتى أخبره عالم الغيب والشهادة ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: آية ١١] فسماه: إفكاً، ثم قال في آخر الآيات: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: آية ٢٦] فلم يعلم الحقيقة إلا بعد أن علمه الله إياها. ولما نزلت عليه آيات براءتها في بيت أبي بكر، وسُرِّي عنه وهو يتبسم، وقال: «أما أنت يا عائشة فقد براءك الله». فقالت لها أمها أم رومان: «قومي إليه فاحمديه». قالت لها: «والله لا أحمده، ولا أحمد اليوم إلا الله؛ لأنه لم يبرئني، وإنما برأني الله»^(١). وهذا نبي الله إبراهيم، وهو هو، ذَبَحَ عجله، وتعبد هو وامراته بإنضاج العجل وحَمَلِهِ، كما قال الله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: آية ٦٩] ولم يدر أن الذين ينضج لهم عجله أنهم ملائكة كرام لا يأكلون! ولأجل عدم علمه بذلك لما لم يأكلوا خاف منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: آية ٧٠] وما هذا إلا لأنه لا يعلم بحقيقتهم، وما درى عن الأمر حتى أخبروه! سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ [الحجر: آية ٥٧] ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ [هود: آية ٧٠] ولما ارتحلوا من عنده، ونزلوا على نبي الله لوط، وكانوا في صفة شباب مُرد حسنة ثيابهم، حسنة ريحهم، خاف عليهم أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط، فحزن أشد الحزن؛ ولذا قال تعالى عنه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ

(١) البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً. حديث رقم (٢٦٦١).

(٢٦٩/٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، حديث رقم (٢٧٧٠).

هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ [هود: آية ٧٧] وما سبب مساءته بهم وضيقه ذرعاً بهم - كقوله: إن ذلك يوم عصيب - إلا لعدم علمه بحقيقة الواقع، حتى قال ذاك الكلام المؤسف المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَّةٌ إِلَيَّ رُكْنًا سَدِيدًا﴾ [هود: آية ٨٠] ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [الآيات [هود: آية ٨١]. وقال المفسرون^(١): عند ذلك نشر جبريل أجنحته عليه وشأحه، وضرب أوجههم بريشة من جناحه، فتركها ليس فيها محل العيون، لا أثر فيها للعيون، كأن وجوههم لم تكن بها عيون أصلاً!! كما أشار الله إلى ذلك في سورة القمر بقوله في قصة لوط، والملائكة، وقوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَیْفِهِ. فَكَفَسْنَا عَنْ يَمِينِهِمْ﴾ والعياذ بالله ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ [القمر: آية ٣٧]. وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] مدحه الله بالعلم الذي علمه، ومع هذا فولده يوسف كان في مصر، ما بينه وبينه ثمان مراحل، لا يعلم عن أمره شيئاً ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: آية ٨٤] يقول لأولاده: ﴿يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأَيَّسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: آية ٨٧] يطلب من أولاده التحسس ليعثروا له على خبر، وهو لا يدري عنه حقيقة حتى جاء البشير بالقميص، كما هو مبين في سورة [يوسف]^(٢). وهذا نبي الله نوح، وهو هو، لما قال له ربه: ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: آية ٢٧] ظن أن ولده الفاجر أنه من أهله، ولم يدرك أنه ليس من أهله حتى قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِي وَلَئِنِّي لَنَافٍ﴾ [هود: آية ٤٥] ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى قال له عالم الغيب والشهادة: ﴿يَنْتُحِ إِنَّمَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ عَبْرٌ صَالِحٌ فَلَا تُنَافِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] كان جوابه أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَن أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا

(١) انظر: ابن جرير (١٠٥/٢٧ - ١٠٦).

(٢) في الأصل: (هود). وهو سبق لسان.

تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ» [هود: آية ٤٧]. وهذا نبي الله سليمان أعطاه الله الريح، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له مَرَدَّة الشياطين مع قدرتهم على الطيران في آفاق الأرض، ما كان يدري عن قصة (...).^(١) بلقيس وجماعتها حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين، وكان قد خرج بغير إذن، وكان نبي الله سليمان يتهدده ويتوعده على الخروج بلا إذن، كما قص الله في سورة النمل: ﴿وَتَقَعَّدَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَآئِينَ ۝﴾ [النمل: الآيتان ٢٠، ٢١] فعلم من تاريخ اليمن، ومن جغرافية اليمن، ما لم يعلمه سليمان (عليه السلام)!! وهذا العلم الضئيل البسيط - علم تاريخ وجغرافية - أعطى هذا الضعيف قوة، وكان له سلاحاً، وقواه على سليمان، حيث كان هو يعلم شيئاً يجهره سليمان؛ ولذا قام غير مبالٍ بالوعيد، مع أن سليمان ملك نبي، له هيبه الملك، وهيبه النبوة، ومع هذا وقف ذلك الهدهد بين يديه وقفة البطل غير مكترث بالوعيد، وإنما قواه أنه علم شيئاً من جغرافية اليمن وتاريخهم لم يعلمه سليمان، ونسب الإحاطة إلى نفسه، ونفاها عن سليمان، وقال له: إني ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَرٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: آية ٢٢] وهذا النبأ بين فيه بعض تاريخهم، أنهم كفرة يسجدون للشمس، وأن ملكتهم امرأة، قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: الآيتان ٢٣، ٢٤] وعند خبر الهدهد إياه لم يعلم أيضاً حقيقة الأمر؛ لأنه [ما كان يعلم صدق]^(٢) الهدهد؛ ولذا قال مخاطباً له: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: آية ٢٧] ثم أرسله بكتاب، كما في هذه الآيات من سورة النمل، كل هذه الأمور من [عدم]^(٣) علم الأنبياء الكرام، والملائكة الكرام

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. ولعلها: «أهل مأرب» والكلام مستقيم بدونها.

(٢) في الأصل كلمتان غير واضحتين، وما بين المعقوفين زيادة يتظم بها الكلام.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

هذه الأمور من الغيب كله مصداق لقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) [النمل: آية ٦٥] وقوله هنا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩].

والله (جل وعلا) يُطلع رسله على ما شاء من غيبه، ويُطلع ملائكته على ما شاء من غيبه، كما بينه في آيات من كتابه: ﴿عَلَّمَ الْغَيْبَ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية [الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧] ، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩] أي: فيطلع من اجتبي من رسله على ما شاء من غيبه، وقد أطلع نبينا ﷺ على أمور كثيرة، أخبر بكثير منها، منه ما حفظه الناس حتى وقع، ومنه ما نسوه.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن العظيم أجمع العلماء على أنه أكبر واعظ وأعظم زاجر نزل من السماء إلى الأرض، فهي أعظم موعظة تُلقى يتعظ بها الناس. إلا أنه مع الأسف تمر على أذانهم ولم تكن في قلوبهم!! وهذا أكبر واعظ؛ لأنه أطبق العلماء على أن أعظم المواعظ، وأعظم الزواجر، هو واعظ المراقبة والعلم.

وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا^(٢) - والله المثل الأعلى -: لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض، فيه ملك قتال للرجال إن انتهكت حرماته، سفاك للدماء إن انتهكت حرماته، ذو قوة وعزة ومَنَعَة، وحوله جيوشه، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أخطر في بال أحد أن أولئك الحاضرين مجلس هذا الملك الجبار يقوم واحد منهم بغمزة عين إلى حرم ذلك الملك، أو ريبة؟ لا، وكلا، كلهم خاضعون خاشعة عيونهم، خاشعة جوارحهم، غاية أمانهم السلامة!! ولا شك أن خالق الكون - وله المثل الأعلى - أعظم بطشاً، وأشد نكالاً إن انتهكت حرماته، وجَمَاهُ في أرضه محارمه.

(١) انظر: الأضواء (١٩٦/٢).

(٢) انظر: الأضواء (١٠/٣).

ولو قيل لأهل بلد: إن أمير ذلك البلد يبيت عالماً بكل ما يفعلونه في الليل من الخسائس والدسائس لباتوا متأدبين، لا يفعلون إلا شيئاً طيباً!! وهذا خالق السماوات والأرض، الملك الجبار، يخبرهم في آيات كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من أوراق المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمُهُ﴾، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ﴾ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ الآيات [الأنعام: آية ٥٩] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: آية ١٦] ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥] ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: آية ٦١] فينبغي علينا جميعاً أن نعتبر بهذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وأن لا نتناساه، لئلا نهلك أنفسنا، ونعتقد أننا لو كنا في حضرة ملك جبار من ملوك الدنيا يموت ويأكله الدود، أننا بحضرته وملاقاته لا يمكننا أن نفعل إلا شيئاً يسره ويرضيه، فعلينا أن نعلم أننا بين يدي ملك السماوات والأرض (جل وعلا)، وأنه أعظم بطشاً وأفظع نكالاً إن انتهكت حرماته، وأنه عالم بكل ما تُسرّ وما نعلن، فعلينا أن نعتبر هذا لنتعظ، فقد بين النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور^(١) (...) ^(٢) أن جبريل أراد أن يبين هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم لأصحاب النبي ﷺ لما لم ينتبهوا له. وإيضاح ذلك: أن الله بين لنا في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق من أجلها الخلق والسماوات والأرض، وخلق من أجلها الموت والحياة، هي أن يبتلي خلقه، أي: يختبرهم بنقطة واحدة، هي نقطة العمل، من يحسن عمله فيأتي به حسناً كما ينبغي، ومن لا يحسنه؛ ولذا قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثم بين الحكمة والعلة الغائية قال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] ولم يقل: أيكم أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ ثم بين الحكمة في ذلك قال: ﴿لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة المُلْك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلْك: آية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فدللت هذه الآيات القرآنية أَنَّا خُلِقْنَا لِنُخْتَبَرُ وَنُبْتَلَى فِي شَيْءٍ هُوَ إِحْسَانُ الْعَمَلِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَاقِلَ يَقُولُ: إِذَا كَانَ رَبِّي (جَلَّ وَعَلَا) خَلَقَ الْخَلَائِقَ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَالْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ؛ لِأَجْلِ الْإِبْتِلَاءِ فِي إِحْسَانِ الْعَمَلِ، يَا لِيَتَنِي عَرَفْتُ الطَّرِيقَ إِلَى إِحْسَانِ الْعَمَلِ لِأَنْجَحَ بِهَذَا الْإِخْتِبَارِ. وَجَاءَ جَبْرِيلُ يَبِينُ هَذَا الْمَغْزَى الْأَكْبَرَ، وَالْمَقْصِدَ الْأَعْظَمَ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ (صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ) أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ - الْمَعْنَى الَّذِي خُلِقَ الْخَلْقُ لِأَجْلِ الْإِخْتِبَارِ فِيهِ - فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى الْإِحْسَانِ الَّذِي خُلِقْنَا مِنْ أَجْلِهِ إِلَّا بِاعْتِبَارِ هَذَا الزَّاجِرِ الْأَكْبَرَ، وَالْوَاعِظِ الْأَعْظَمِ، وَهُوَ مُرَاقَبَةُ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ رَقِيبٌ، عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ وَلِذَا قَالَ لَهُ: «الْإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَى اللَّهَ، وَإِذَا تَنَزَّلَ فَقَالَ: لَا أَرَى اللَّهَ، فَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، مَطَّلِعٌ عَلَيْهِ، مَنْ كَانَ يَعْمَلُ أَمَامَ الْمَلِكِ الْعَبَّاسِ، وَهُوَ مَطَّلِعٌ عَلَيْهِ، نَاضِرٌ إِلَيْهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسِيءَ الْعَمَلَ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَحْسِنَ الْعَمَلَ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: آية ٧] فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ زَاجِرٌ أَعْظَمُ، وَوَاعِظٌ أَكْبَرُ.

وَإِذَا عَلِمْتُمْ مِنْ هَذَا أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ هُنَا: ﴿وَعِنْدُ مَقَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩] وَقَالَ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: آية ٦٥] فَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ طَرِيقٍ يَفْعَلُهَا الْإِنْسَانُ لِيَصِلَ بِهَا إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ أَنَّهَا طَرِيقٌ بَاطِلَةٌ، وَبَعْضُهَا يَكُونُ كُفْرًا؛ لِأَنَّ الْغَيْبَ مِنْ خَصَائِصِ اللَّهِ الَّتِي اخْتَصَّ بِعِلْمِهَا، وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا مَا عَلِمَهُمُ اللَّهُ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ اتِّخَاذُ شَيْءٍ يَدَّعِي صَاحِبَهُ أَنَّهُ يَصِلُ بِهِ إِلَى

الغيب، فكل ذلك حرام، كالطَّرْق^(١)، والزَّجْر^(٢)، والعيافة^(٣)، وما جرى مجرى ذلك من الأمور التي يُراد بها الاطلاع على الغيب. وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»^(٤). هذا لفظ مسلم في صحيحه، والمراد بالعراف: هو من يدعي أنه يعرف موضع الضالة، وموضع الشيء المسروق وما جرى مجرى ذلك، مع أن العراف قد يدخل فيه الكاهن، والحازي، والزاجر^(٥). وهذه أمور كلها حرام، وهي من أمور الشر، فبعضها يكون كفراً. وما تجري به العادة في هذه البلاد من أن الواحد يأتي للواحد هنا ويقول: ضاعت لنا شاة أو جفرة، فاعرف لي محلها بعرفة أو بشيء!! هذا من كبائر الذنوب، وصاحبه لن تقبل له صلاة أربعين ليلة على لسان محمد ﷺ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم. والسائل والمسؤول كلاهما في غاية الضلال. فهذه أمور لا تجوز، وكل هذا يدخل في الكهانة. فالكهانة، والطَّرْق، والزَّجْر، والعرافة، وما جرى مجرى ذلك، كل هذا حرام^(٦)، ولا يجوز منه شيء الزجر ولا العيافة.

والمراد بالعيافة: زجر الطير، وادعاء أهلها الذين يزجرونها أنهم يعرفون المغيبات، ويطلعون على الأمور من أحوال طيران الطيور، من

(١) الطرق: ضرب الكاهن بالحصى. انظر: القاموس (مادة: طرق) (١١٦٦)، وانظر: الأضواء (١٩٩/٢).

(٢) قال في القاموس: الزجر: «العيافة والتكهن» القاموس (مادة: زجر) (٥١١)، وفي المعجم الوسيط: «زجر الطير: أثارها ليتيمن بشئونها أو يتشام ببروحها» اهـ (المعجم الوسيط (مادة: زجر) (٣٨٩/١)، وانظر: الأضواء (١٩٩/٢).

(٣) عيافة الطير: زجرها. والمقصود الاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتفاءل بذلك أو يتشام، والعائف هو المتكهن بالطير أو غيرها. انظر: القاموس (مادة: عاف) (١٠٨٦)، وانظر: الأضواء (١٩٩/٢).

(٤) مسلم، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث رقم (٢٢٣٠) (١٧٥١/٤)، وفيه (ليلة) بدل (يوماً).

(٥) انظر: القرطبي (٣/٧)، الأضواء (١٩٨/٢).

(٦) انظر: الأضواء (١٩٧/٢).

أسمائها، وألوانها، وجهاتها، ومواقعها التي تقع عليها. وهذا النوع من العيافة كان موجوداً عند العرب، ومما اشتهر به من قبائل العرب: بنو لهب، حتى كان الشاعر يقول فيهم^(١):

خبير بنو لهب فلا تك مُلغياً مَقَالَةً لِهَبِي إِذَا الطير مَرَّتْ

والطَّرْقُ بعض العلماء يقول: هو الخط الرملي الذي يخطونه، ويدعون به الإطلاع على الغيب. وبعضهم يقول: هي حجارة كان يرمي بها النساء، ويزعمون أنهم يطلعون بها على الغيب. وقد صدق لبيد حيث قال^(٢):

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

والذي يعمل هذه العلوم الشرية ويقول: «عرفت منها غيباً». فهو ضال. وبعض العلماء يقول: إنه في [مسائل منها]^(٣) كافر. قالوا: فمن قال: «أنا أعلم الوقت الذي يأتي فيه المطر، وأعلم ما في بطن هذه المرأة هل هو ذكر أو أنثى». جزم ابن العربي المالكي في أحكام القرآن^(٤)، والزجاج^(٥)، أن من يقول هذا أنه كافر. اللهم إلا إذا ادّعى أنه يستند لعادات وأمور، كالذي يقول: إذا اسودت حلمة ثدي المرأة الأيمن فهو ذكر، وإذا اسودت حلمة الثدي الأيسر فهو أنثى^(٦) والظاهر أن هذه عوائد أجراها الله بمشيئته وقدره، فهذا قد لا يُكفّر عند من قالوا هذا، ولكنهم يقولون: يُنهي. وكذلك الذي يقول: العادة جرت بأن الحامل إن كانت ترى جنبها الأيمن أثقل فهو ذكر، وإن كانت ترى جنبها الأيسر أثقل فهو أنثى^(٧). هذه كلها أمور باطلة. ومن

(١) البيت في ضياء السالك (١٣٦/١)، وانظر: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية (١٤٦/١)، وهو في الأضواء (١٩٩/٢).

(٢) البيت في الدر المصون (٧٥١/١٠)، الأضواء (١٩٩/٢).

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة في الأصل، وهي شبيهة بما أثبت.

(٤) أحكام القرآن (٧٣٨/٢)، وانظر: القرطبي (٢/٧)، الأضواء (١٩٧/٢).

(٥) معاني القرآن وإعرابه (٢٠٢/٤).

(٦)(٧) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٧٣٨/٢)، والقرطبي (٢/٧)، إكمال إكمال المُغلم

(٧٦/١)، الأضواء (١٩٧/٢).

ادعى أن السحابة [تُمطر]^(١) بعله: أن الله ربط بمجاري عاداته أن النوع الفلاني ينزل الله عنده [المطر]^(٢) ناسباً الأمر لله، وأنها عادات ربطها الله، وإن شاء خرمها. مثل هذا لا يُكفر صاحبه، ولكنه ينهى. ولو قال: إن عنده مقدمات يعلمها هو من نفسه يعلم بها أذكراً هو أم أنثى، ويعلم بها أن المطر سينزل. فهذا الذي جزم ابن العربي بكفره، والزجاج، وغير واحد من العلماء، والذين كفروه قالوا: لأنه كذب كلام الله، وعارض كلام الله الصريح: أن هذا لا يعلمه إلا الله، أما الذين يقولون: إن في اليوم الفلاني ستكشف الشمس ويخسف القمر. وعامة العلماء على أن هؤلاء لا يُكفرون؛ لأن هذا شيء قد يُدرك بالحساب؛ لأن الله يقول في قضية القمر: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: آية ٣٩] ويقول فيه: ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابَ﴾ [يونس: آية ٥] إلا أن علماء المالكية منعوا على من علم هذا بالحساب أن ييوح به. قالوا: ولو تكلم به لوجب على الإمام تعزيره وحبسه. قالوا: لأنه يشوش على الجهلة الذين لا يميزون بين الأمور الغيبية، وبين ما جعل الله له منها علامات يُعرف بها، وما لم يجعل له علامات واختص الله بعلمه^(٣). وعلى كل حال فهذه الأمور، قول إنسان لإنسان: «فتش لي بعلم غيب القراءة على محل الضالة». هذا - والعياذ بالله - ضلال كبير، من كبائر الذنوب. ولو جاء واحد وقال لإنسان: «افعل لي هذا»، أو سألَه عن شيء: «أين ضالتي؟» أو شيئاً من المسروق، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة، كما صرح النبي ﷺ بذلك. هذا السائل، فكيف بالذي يفعل ذلك ويتعاطاه؟ وقد أجمع العلماء أن ما يدفع للكاهن من الحلول وللعراف أنه مما لا يجوز، كل تلك المكاسب بإجماع العلماء^(٤) باطلة، كالذي يُعطى للكاهن لكهنته ويسمى حلواناً، والذي يُعطى للنائح في نياحته، والذي يُعطى للمُعني في غنائه، والذي يُعطى لكل مبطل

(١) في الأصل كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في الأصل: «السحاب» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٧٣٩/٢)، القرطبي (٣/٧)، الأضواء (١٩٨/٢).

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٩١، القرطبي (٣/٧)، الأضواء (١٩٨/٢).

ولهو، والذي يُعطى لاطلاع الغيب، كل ذلك من المكاسب السيئة التي هي حرام بإجماع العلماء، لا يجوز شيء منها.

ومعنى قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ ﴿وَعِنْدَهُ﴾ أي: عند الله وحده جل وعلا ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ في مفرد المفاتيح هنا وجهان معروفان عند العلماء^(١):

أحدهما: أن مفرد المَفَاتِحِ هنا (مَفْتَح) بفتح الميم، و(المَفْتَح) بفتح الميم هو الخزانة. وعلى هذا فالقول ﴿وَعِنْدَهُ﴾ جل وعلا ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أي: خزائن الغيب، يعلم كل ما يغيب مما يجهله خلقه. وهذا مروى عن ابن عباس، وجزم به السدي.

القول الثاني: أن واحد المفاتيح في هذه الآية أنه (مِفْتَح) بكسر الميم. و(المِفْتَح) بكسر الميم هو المفتاح. وقد تقرر في فن التصريف أن (المِفْعَل) وزن قياسي لآلات الفعل، و (المِفْتَح): آلة الفتح، فهو أمر قياسي، بحسب الميزان الصرفي^(٢) أن يكون على (مِفْعَل) ويأتي على مفتاح (مِفْعَال) أيضاً.

قال بعض العلماء^(٣): (المِفْتَح) أفصح من (المِفْتاح). والذين قالوا: إن (المفاتيح) جمع (مفتاح)، وأنها قُصِرت، وأن القياس (المفاتيح)؛ لأن المفرد (مفتاح) إلا أنها قُصِرت، كما قالوا في القطر: قواطر، وقالوا في المحراب: محارب، هذا لا يُحتاج إليه؛ لأن (المفتاح) فيه لغة فصيحة هي (المِفْتَح) بلا ألف. وعليها فتكون (مفاتيح) جمع لـ(المفتاح) قياسياً. وعلى كل التقديرين فالمعنى: إنما خزائن الغيب ومفاتيحه التي يُفْتَح بها ويظهر كل هذا عند الله وحده، لا يعلمها إلا هو وحده (جل وعلا)، ولا ينافي ذلك أن الله يُعَلِّمها لمن شاء.

(١) انظر: ابن جرير (٤٠١/١١)، القرطبي (١/٧)، البحر المحيط (١٤٤/٤)، الدر المنصور (٦٥٩/٤)، أضواء البيان (١٩٥/٢).

(٢) انظر: ضياء السالك (٤٨/٣).

(٣) انظر: القرطبي (١/٧)، البحر المحيط (١٤٤/٤).

المعنى أنه ليس عند أحد قدرة ولا اكتساب يكتسب هذه، ولا مانع من أن يعلم الله ما شاء من خلقه، فقد يَعْلَمُ الملائكةُ الموكلون بالسحاب الوقت الذي تنزل فيه السحاب؛ لأن الله يقول لهم: احملوا هذا المطر حتى تنزلوه في وقت كذا، في موضع كذا، فهم يعلمون هذا بتعليم الله قبل أن يعلمه غيرهم، وكذلك المَلَكُ الموكل بالرحم، كما ثبت في حديث ابن مسعود الصحيح^(١): أنه يقول: أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد؟ فيخبره الله وهو في بطن أمه قبل أن يعلم به الآخرون. وهكذا.

وهذا معنى قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني يعلم ما يختص بعلمه، ويعلم كل شيء، الذي يعلمه الخلق هو يعلمه، والذي لا يعلمه إلا هو وحده فقد استأثر بعلمه جل وعلا.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ والتحقيق أن البرّ ضد البحر^(٢)، والمراد بـ﴿مَا فِي الْبَرِّ﴾ أي: جميع ما في [البر]^(٣).

قال الله تعالى:

1/ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ زَارَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (٣٢٠٨) (٣٠٣/٦)، وأخرجه في مواضع أخرى من صحيحه، انظر الأحاديث (٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... حديث رقم (٢٦٤٣)، (٢٠٣٦/٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٤٥/٤).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل.

فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّ بَرًىۙ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَيَّ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِئًاۚ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُۥ قَالُوا اأَمْحُجُوَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِۦ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِۚ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰنَهُمْ بِظُلْمٍۚ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْاَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام: الآيات ٧٤ - ٨٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيْمُ لِأَبِيهِ ءَا زَرَ اتَّخَذْتَ أَصْنٰمًا ؕ إِلٰهَةً إِلَٰهِيَّ أَرَأَيْتَ أَزْكٰرَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٧٤﴾ [الأنعام: آية ٧٤].

قرأ هذا الحرف نافع، وأبو عمرو، وابن كثير^(١) ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَ أَزْكٰرَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقرأه الباقون من السبعة: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَ أَزْكٰرَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان.

ووجه مناسبة هذه الآية الكريمة للتي قبلها التي كنا نفسرها بالأمس: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ وأصحابه: ارجعوا إلى ديننا، فاعبدوا معنا معبوداتنا، وأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ أَدْعُوٓا۟ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلٰٓى أَعْقَابِنَاۚ بَعْدَ إِذْ هَدٰنَا اللَّهُ كَآلِذِيۤ السَّنٰهَةِۚ الشَّيْطٰنُ فِي الْاَرْضِ حَيْرٰنٌ لَّهٗۚ أَصْحٰبُ يَدْعُوْنَهُۥٓ إِلَى الْهُدٰى ائْتِنَا﴾ [الأنعام: آية ٧١]^(٢) لما بين الله أنهم دعوهم إلى عبادة الأوثان، وأنهم لا يمكن أن يرجعوا إلى [الكفر]^(٣) بعد أن علمهم الله الدين، وعلمهم توحيد الصّحيح ﴿وَنُرَدُّ عَلٰٓى أَعْقَابِنَاۚ بَعْدَ إِذْ هَدٰنَا اللَّهُ﴾ هذا لا يكون، بين الله في هذه الآية سفاهة عقول مشركي مكة، وهم يقولون إن إبراهيم جدهم، وإنه على دين

(١) فتح الباء في هذا الموضع: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٦.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٥٢/١١).

(٣) في هذا الموضع يوجد مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

صحيح، وملة حنيفية سمحة!! فأمر الله نبيه أن يذكر لهم قصة إبراهيم مع أبيه وقومه، وتقنيده لعبادة الأوثان، وتحذيرهم من ذلك؛ ليعلموا أن الذي يدعونكم إليه أنه كفر وضلال وسفه، وأنه مخالف لملة إبراهيم التي يقرون بأنها حسنة^(١).

ومعنى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر يا نبي الله ﴿إِذْ﴾ أي: حين ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرْزُ﴾ جرت عادة العلماء أن يُقدِّروا الناصب لـ ﴿إِذْ﴾ يقدروه: (اذكر)^(٢).

ولطالب العلم أن يقول: أين القرينة على أن العامل في هذا الظرف الذي هو ﴿إِذْ﴾ أنه لفظة (اذكر)، أين قرينة ذلك؟

الجواب: أن العلماء فهموا ذلك من استقراء القرآن، وأن الله في القصص يأتي بلفظة (اذكر) عاملة في ﴿إِذْ﴾ هذه ونحوها، كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١] ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] ونحو ذلك في القرآن، كذلك قوله هنا: واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي: حين قال نبي الله وخليفه إبراهيم قال: ﴿لِأَبِيهِ أَرْزُ﴾ التحقيق الذي لا شك فيه أن (آزر) بدل، أو عطف بيان من الأب^(٣)، وأنه أبوه، وإن كان عامة المؤرخين يقولون: إن أبا إبراهيم اسمه (تارح). وقد أجاب عن هذا ابن جرير وغيره^(٤)، قالوا: لا أصدق من الله، وذكر هنا أن أباه (آزر)، وقد يكون له اسمان، أي: اسم ولقب، أحدهما: (تارح)، والثاني: (آزر). وهذه قراءة السبعة، وجماهير القراء^(٥).

(١) انظر: البحر المحيط (١٦٣/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) في سورة البقرة.

(٣) انظر: البحر المحيط (١٦٣/٤).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٤٦٨/١١)، القرطبي (٢٢/٧)، البحر المحيط (١٦٣/٤)، ابن كثير (١٥٠/٢)، كلمة الحق للشيخ أحمد شاكر ص ٣٠٢.

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٩٦.

وهناك قراءات شاذة^(١): منها من قرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ بضم الراء. وعلى هذا فالمعنى: يا آزرُ أتتخذ أصناماً آلهة. ومنهم من يقول: إن (آزر) ليس اسم أبيه، إنما هو اسم صنم^(٢). والذين قالوا: هو اسم صنم، قالوا: كثرت عبادته لذلك الصنم، وملازمته إياه حتى نُبِز به، كما قيل في ابن قيس الرُّقِيَّات^(٣)؛ لأنه تَشَبَّه بنساء متعددة، كلهن تُسمى (رقية)، فنبزوه بها. وفيه قراءات شاذة غير هذا، وأقوال آخر لا مَعَوَّل عليها.

واعلموا أن قصة أبي إبراهيم هذه ذكرها الله مراراً كثيرة في سور متعددة من كتابه، وكلها صريح في أنه أبوه لا عمه، ولم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله حرف واحد يدل على أنه عمه، إلا أن أهل السير أولعوا بأن قالوا: أبوه: عمه. والذي يجب علينا جميعاً هو تصديق الله، وأن لا نُحَرِّف كلام الله، ولا نفسره بغير معناه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة، فاحترام الله واجب، واحترام كتابه واجب، ومن أوجِب احترامه: أن لا نحرفه، ولا ننقل لفظاً^(٤) منه عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لا سيما والله في آيات كثيرة من كتابه جاء بالقصة بعبارات مختلفة، منها ما هو في الخطاب، ومنها ما هو في غيره، كلها صريحة في أنه أبوه لا عمه.

والأبُّ إذا أطلقتَه العرب انصرف إلى أب الرجل الذي وَلَدَه، ولا يجوز أن يُحمل على أنه عمه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لا سيما لو كثر ذكره في القرآن بعبارات كثيرة مختلفة، على أنحاء مختلفة، كلها صريح في أنه أبوه، فنقلها إلى عمه من غير دليل من كتاب ولا سنة تجرؤ على الله وعلى كتابه بما لا يجوز. وأهم شيء في التعظيم والاحترام: كلام خالق السماوات والأرض، والحذر من أن يُبدل أو يُحرف، الله قال هنا: ﴿وَإِذْ قَالَ

(١) انظر: المحتسب (٢٢٣/١)، ابن جرير (٤٦٧/١١).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٦٧/١١)، القرطبي (٢٢/٧)، ابن كثير (١٤٩/٢).

(٣) هو عبيد الله بن قيس، أحد بني عامر بن لؤي. انظر: الشعر والشعراء ص ٣٦٦.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

إِذْ هَبَّتْ لَأَيُّهُمُ لَأَيُّهُمُ ﴿٧٤﴾ [الأنعام: آية ٧٤] وقال في موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ آتِئْتُمْ لَهَا عِبَادَةً ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٥١، ٥٢] وقال في الشعراء: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٦٩، ٧٠] وقال في سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٦١﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ بَنَاتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٦٢﴾ بَنَاتِي إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴿٦٣﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. [مريم: الآيات ٤١ - ٤٣]. وقال في براءة: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيُّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [براءة: آية ١١٤] وهذا كثير في القرآن، وكذلك قال نفس إبراهيم: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيُّهُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٨٦] فجاء مراراً كثيرة بكلام خالق السماوات والأرض، وليس لنا أن نُحَرِّفَ كلام الله، ولا أن نحمله على غير معناه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب وسنة، وكونه أباه لو كان فيه منقصة أو مضرة على إبراهيم لما كان إبراهيم يقول: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيُّهُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٨٦] ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيُّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: آية ١١٤] فشفع إبراهيم، وجلالته، ومكانته هي هي، لا ينقصها شيء من ذلك، وعلى كل حال فعلينا أن نُصَدِّقَ الله، ولا نُحَرِّفَ كلامه، ونحمله على غير معناه افتراء على الله من غير برهان من كتاب ولا سنة.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ نبي الله ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ وخليله ﴿لَأَيُّهُمُ لَأَيُّهُمُ﴾ وكان في قوم يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويعبدون تماثيل أصنام أرضية، فلهم معبودات أرضية، ومعبودات سماوية، ومعبوداتهم الأرضية: أصنام، وتماثيل، يزعمون أنهم يجعلون صورها وأشكالها على هيئة الملائكة، ويعبدونها لتشفع لهم عند الله، وكذلك يعبدون الكواكب السيارة التي هي الشمس، والقمر، وزحل، والمشتري، والزهرة، وعطارد، والمريخ، كما هي معروفة. قال لهم نبي الله إبراهيم موبخاً لهم مُسْتَفْهَماً أحلامهم: قال لأبيه (آزر) مُنْكَراً عليه بهمة الإنكار:

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً﴾ المعنى: ألتخذ تماثيل مصورة من حجارة، أو من غيرها من الأجسام، تتخذها آلهة تعبدتها من دون الله، وتصرف لها حقوق الله، مع أنها لا تنفع ولا تضر؟ هذا مما لا يليق!! كما قال له: ﴿يَتَأْتٍ لِّمَن تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: آية ٤٢] وقد أفحمهم بالحجة في سورة الأنبياء، ذلك كما قصه الله في الأنبياء^(١)، والصفات^(٢)، أنه ما كان يجد فرصة يكسر أصنامهم فيها؛ لأنه إن كسرهم وهم ينظرون أهانوه وأذوه، وكان يرتقب فرصة يكسرهم فيها، حتى جاء يوم عيدهم، فجاؤوا بطعامهم وشرابهم ووضعوه عند الأصنام، وقالوا للأصنام: اجعلوا لنا البركات والخيرات في هذا الطعام والشراب حتى نرجع من عيدنا، وقالوا لإبراهيم: اخرج معنا إلى عيدنا. ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(٣). يريد أن يتخلص منهم ليكسر الأصنام، فلما خرجوا جاء إلى الأصنام وبيده الفأس، فوجد الطعام عندهم ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾^(٤) مستهزئاً بهم، لِمَ لا تأكلون من الطعام؟ كما قال في الصفات: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصفات: آية ٩١] ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صُرُبًا ۖ يَالِيَيْنَ﴾^(٥) [الصفات: آية ٩٣] يضربهم ويكسرهم يمينه بالفأس، فلما كسرهم ترك كبيرهم، وهو أعظم صنم عندهم، يقولون: إنه مرضع بالجواهر، وأن عليه ياقوتتان. علق الفأس في عنقه^(٦)، فلما جاؤوا من عيدهم وجدوا الأصنام مكسرة، والفأس معلقاً في عنق الكبير، فقالوا: من فعل هذا بالهتنا؟ فدلوا على إبراهيم، كما فصله الله في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(٧) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَٰكِفِينَ﴾^(٨) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٢﴾ [الأنبياء: الآيات ٥١ - ٥٤] وكما قال هنا في الأنعام: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَ مَا لَكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] فأجابوا: ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّٰغِيِينَ﴾ [الأنبياء: آية ٥٥] فأجابهم أنه جاء بالحق: ﴿بَلْ زَكَّرَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) كما في قوله: ﴿وَتَأْتِي لِّمَن تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ والآيات بعدها.

(٢) كما في قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ والآيات بعدها.

(٣) انظر: تاريخ ابن جرير (١/١٢٢)، البداية والنهاية (١/١٤٥).

الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿[الأنبياء: آية ٥٦]﴾ ثم قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ يعني بكيدها: أن يكسرها من حيث لا يحضر أحد يراه ﴿بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿جِذَاذًا﴾^(١) أي: كسّرهم ﴿إِلَّا كَبِيرًا﴾ لَمْ يَلْعَلَهُمْ إِلَٰهٌ يَرْجِعُوهُمْ ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا﴾ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْفٰكِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُعِيبُهُمْ وَيَقُول: إِنَّهُ يَكِيدُهُمْ ﴿يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَتْنٍ مِنَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ يشهدون عليه أنه الذي فعل هذا، فاستنطقوه وقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟ ﴿٦٢﴾﴾ هَذَا﴾ يعني: جَعَلَهُمْ جِذَاذًا، قال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآيات ٥٧ - ٦٣] إلى أن قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٦٥] أنت تعرف أن هؤلاء جماد، ما عندهم نطق، ولا يتكلمون. وكان هذا هو قصده، فقال: ﴿أَفَبِمَا نَعْبُدُكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: آية ٦٧] فلما أفحمهم بالحجة والبرهان والدليل لجؤوا إلى القوة ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٦٨ - ٧٠] هذه القصة مكررة في القرآن، ومما بسطها الله فيه: سورة الأنبياء، وذلك معنى قوله هنا في الأنعام: ﴿إِنِّجِ أَرْنَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] أي: في ذهاب عن طريق الحق بين واضح لكل من له أدنى عقل، كيف تتركون عبادة الخالق، الرازق، النافع، الضار، المحيي، المميت، وتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر؟! هذا هو الضلال المبين الواضح لكل من له أدنى عقل.

﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبْرٰهِيْمَ مَلٰكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٥] الإشارة في قوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ كما بَصَّرْنَا إِبْرٰهِيْمَ الْعَقِيْدَةَ الصَّحِيْحَةَ، وعَرَفْنَاهُ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، حَيْثُ وَتَخَ الْمُشْرِكِيْنَ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ

في الضلال المبين، كذلك التبصير والتعريف بالدين الصحيح، وإخلاص العبادة لله، كذلك التعريف والتبصير نريه - أيضاً - ملكوت السموات والأرض؛ ليكون من الموقنين في عقيدته ودينه^(١)، و(الملكوت): أصله مصدر الملك، إلا أنه تزايد فيه الواو والتاء، كالرَّهْبُوت، والرَّحْمُوت، والرَّغْبُوت في: الرحمة، والرَّهبة، والرغبة، وهي مصادر مسموعة في كلام العرب، نزل بها القرآن العظيم^(٢).

﴿نُزِىَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملك السموات والأرض، وما أبدع الله في ملكه في السموات والأرض من غرائب صنعته وعجائبه؛ ليكون من الموقنين.

وفي ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان لعلماء التفسير معروفان^(٣): قالت جماعة كثيرة من العلماء: إن الله فتح له السموات، فنظر كل ذلك، حتى إلى العرش، وأنه شق له الأرضين، وأطلعه حتى الأرض السفلى. وهذا قال به جمع كثير من العلماء، ولكن التحقيق في الآية: أن ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التي أراه ليكون بها من الموقنين هو الظاهر من غرائب صنع الله وعجائبه، مما أبدع في أرضه وسماؤه حيث جعل السماء سقفاً محفوظاً، تمر عليه آلاف السنين لا يتفطر، ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى ترميم، مرفوعاً على غير عمد ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَاتَّجِيعَ الْبَصَرِ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [٣] ثُمَّ أَتَجِيعُ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [٤] [الملك: الآيتان ٣، ٤] أي: ذليلاً من عظم ما رأى، وجلالة ذلك الصنع، وكذلك الأرض بما أودع الله فيها من غرائب صنعته، وعجائبه، من أنواع الثمار، والجبال، وألوانها، والحيوانات، والناس، واختلاف ألسنتهم، وما أودع فيها من المنافع، والمعادن، والثمار، مما هو آيات تبهر العقول، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ

(١) انظر: ابن جرير (٤٧٠/١١)، الدر المصون (٥/٥).

(٢) ابن جرير (٤٧٠/١١)، ابن عطية (٨٨/٦)، القرطبي (٢٣/٧)، البحر المحيط (١٦٥/٤)، الدر المصون (٦/٥).

(٣) انظر: ابن جرير (٤٧٠/١١ - ٤٧٥)، القرطبي (٢٣/٧ - ٢٤).

وَالْأَرْضِ ﴿مَخَاطِبًا لِّكُلِّ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يَشَقَّ لَهُمُ السَّمَاوَاتُ وَلَا الْأَرْضُ﴾ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿[الأعراف: آية ١٨٥] وَقَالَ: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: آية ١٠١] ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّنَّ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٥] ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ بَصِيرَةً﴾ [ق: الآيات ٦ - ٨] هذه (التبصرة) المذكورة هنا هي (الإيقان) المذكور في قوله: ﴿نُزِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٥] هذا هو القول الصحيح الذي دلَّ عليه استقراء القرآن^(١)، لا ما زعموا من أنه شُقَّتْ له السماوات إلى العرش، وأنه شُقَّتْ له الأرضون إلى السفلى، وأن الله (جل وعلا) رفعه حتى اطلع على أعمال بني آدم، وكلما رأى إنساناً على فاحشة دعا عليه فهلك، وأن الله نهاه عن ذلك، وأخبره أن من أسمائه الصبور. كل هذه مقالات ذكرها كثير من علماء السلف من أكابر المفسرين^(٢). والظاهر أن التحقيق خلاف ذلك كله، وهو ما ذكرنا، وهو أن ملكوت السماوات والأرض: ما أودع الله فيهما من غرائب صنعته، وعجائبتها، مما يدل العقلاء على أن من صنعها هو العظيم القادر على كل شيء، وأنه المعبود وحده، كما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] وأمثال ذلك من الآيات.

هذا معنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُزِيَ إِبْرَاهِيمَ الظَّاهِرُ أَنْ﴾ ﴿نُزِيَ﴾ هنا من (رأى) البصرية. وقال بعض العلماء: من (رأى) العلمية. و﴿نُزِيَ﴾ عُدِّي، أصله مضارع (أَزَيْنَا) بهمزة التعدية؛ ولذا كانت (رأى) بصرية، فعدتها إلى المفعولين^(٣).

(١) وهو ما رجحه ابن جرير (رحمه الله). انظر جامع البيان (١١/٤٧٥)، وابن كثير، كما في التفسير (٢/١٥٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٤٧٢ - ٤٧٣).

(٣) انظر: ابن عطية (٦/٨٨)، البحر المحيط (٤/١٦٥)، الدر المصون (٥/٥).

وقوله جل وعلا: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فيه الوجهان اللذان ذكرنا في قوله: ﴿وَلْيَسْتَيِّنَّ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١) [الأنعام: آية ٥٥] أحدهما: وليكون من الموقنين أريناه ذلك. والمعنى: ولأجل أن يكون من الموقنين أريناه ملكوت السماوات والأرض.

وقال بعض العلماء: نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليُحَاجَّجَ قومه، وليكون من الموقنين. والمعنى متقارب.

و(الموقنون) جمع (الموقن)، و(الموقن) اسم فاعل (الإيقان)، وواوه مبدلة من ياء، أصله (مُوقِنٌ) (مُفْعِلٌ) من (اليقين)^(٢). و(اليقين) هو العلم الذي لا تتطرقه الشكوك ولا الأوهام، لا يقبل التغير بحال^(٣). وهذا معنى قوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُجِبُ الْآفِلِينَ (٧٦)﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ العرب تقول: «جَنَّ عليه الليل، وجنَّ الليل، وأجَنَّ عليه الليل، وأجنَّه الليل». فإذا قالت: «أَجَنَّ» رباعية كان قولها: «أَجَنَّهُ الليل» أفصح من «أَجَنَّ عليه الليل». وإذا قالت: «جَنَّ عليه الليل»، فهو أفصح من «جَنَّهُ الليل»، والكل معروف في لغة العرب^(٤). ومن تعدية (جَنَّ) - ثلاثية - قول الهذلي^(٥):

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية المشار إليها. وفي هذه الآية انظر: ابن كثير (٢/١٥٠ - ١٥١)، البحر المحيط (٤/١٦٥)، الدر المصون (٥/٧).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال، ص ٢٩٥.

(٣) انظر: المفردات (مادة: يقن) ٨٩٢، التعريفات للجرجاني ٣١٦.

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٤٧٨ - ٤٧٩)، الدر المصون (٥/٨).

(٥) البيت في ابن جرير (١١/٤٧٩)، البحر المحيط (٤/١٦٢)، الدر المصون (٥/٨).

والسَّدَف: الظُّلْمَةُ من أول الليل، أو آخره عند اختلاط الضوء.

والأدهم: الضارب إلى السواد.

وأصل مادة (الجيم، والنون، والنون) (جَنَنَ) أصل هذه المادة في جميع تصرفاتها معناها: الاستتار والتغطية^(١)، ومنه (الجِنَّة) وهم - مثلاً - إبليس وجنده؛ لأنَّه لا يراهم. ومنه: (الجنين)؛ لأنَّه مستتر في بطن أمه، ومنه: (الجِنَّة) للذَّرَقَة؛ لأنَّها تستر صاحبها وتغطيه عن السهام، ومنه: (جَنَانُ الليل). أي: ظلامه واذلْهَمَامه. وهذا معروف، كما قال الشاعر دُرَيْد بن الصُّمَّة^(٢):

وَلَوْلَا جَنَانُ اللَّيْلِ أَدْرَكَ رَكْضُنَا بِذِي الرُّمْتِ وَالْأُرْطِيِّ عِيَاضَ بَنِ نَاشِبٍ

هذا أصل المادة، ومعنى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ﴾ أظلم عليه الليل، وأرْخَى سدوله، حتى غطى الأجرام بسواده؛ لأنَّه عند ذلك الوقت تظهر الكواكب نيرة؛ لأنَّه قبل ادْلهَمَام الليل وظلامه لم تُنر الكواكب. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ﴾ أظلم وادْلهَم وظلَّ الأجرام بظلامه.

﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ ﴿رَأَى﴾ معناه: أبصر بعينه ﴿كَوْكَبًا﴾ والكوكب: النجم الكبير، وعلماء التفسير يقولون: إن ذلك الكوكب الذي رآه هو الكوكب المسمى بالزُّهْرَة^(٣). وهو من الإسرائيليات، وغاية ما دلَّ عليه القرآن أنه رأى نجماً كبيراً، وهو مُرادُه بقوله: ﴿كَوْكَبًا﴾، وكان أبوه وقومه يعبدون معبودات أرضية ومعبودات سماوية، منها الكواكب السبعة^(٤).

قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، قول إبراهيم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في رؤيته للكوكب، ورؤيته للقمر، ورؤيته للشمس، أصله فيه بحث معروف للعلماء، غلط جماعة في هذا المقام من العلماء، منهم العالم الكبير ابن جرير الطبري،

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الجيم، باب: ما جاء من كلام العرب في المضاعف والمطابق أوله جيم. ص ٢٠٠، المجلد، كتاب الجيم، باب ما جاء من كلام العرب أوله جيم في المضاعف والمطابق، ص ١٢٠، المفردات (مادة: جن) ٢٠٣.

(٢) البيت في المحتسب (٢/٢٩٣).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٥)، البحر المحيط (٤/١٦٦)، البداية والنهاية (١/١٤٣)، الدر المنثور (٣/٢٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية (١/١٤٠).

فزعم أن إبراهيم قال هذا ناظراً لا مُناظراً، وأنه قال هذا قبل أن يتيقن الدليل، يظن أن الكوكب ربه. هذا قاله^(١) ونقله عن ابن عباس^(٢)، واستدل عليه بقوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٧] قال: فقوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ هذا يدل على أنه قال هذا قبل أن يتيقن الحقيقة، وقبل أن يتم له النظر، فبعد أن تم نظره وعلم الحق، قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٨، ٧٩].

والتحقيق بدلالة القرآن والسنة: أن هذا القول لهذه الطائفة من العلماء، منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري، ورواه عن ابن عباس، أن هذا القول غلط لا شك فيه، وأن إبراهيم لم يظن يوماً في ربوبية كوكب، ولم يشك يوماً واحداً في ربوبية الله، هذا التحقيق الواجب اعتماده، الذي دل عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ^(٣)، أما القرآن: فقد دل على هذا في مواضع كثيرة:

منها: أنه أولاً قال رافعاً لهذا الاحتمال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: آية ٧٥] فلما أثبت له اليقين قال بعد ذلك مرتباً عليه بالفاء: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

والثانية: أن الله ذكر أنه قال هذا في سبيل المناظرة والمحاجة، لا في سبيل النظر بنفسه، حيث قال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: آية ٨٠]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] ومن أصرح الأدلة في هذا: أن الله نفى عن إبراهيم كون الشرك في ماضي الزمن مطلقاً، حيث قال في آيات كثيرة من كتابه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٣/١١ - ٤٨٥).

(٢) المصدر السابق (٤٨٠/١١).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/٢٦٦)، القرطبي (٧/٢٥)، ابن كثير (٢/١٥١)، البداية والنهاية (١/١٤٢)، فتح الباري (٦/٣٩١).

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ [النحل: آية ١٢٣] وَنَفِي الكون الماضي يستغرق الكون في جميع الزمن كائناً ما كان، وكذلك قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: آية ٦٧] هذا جاء في آيات كثيرة، ونفي الإشراك عنه في الكون الماضي يدل بدلالة القرآن - دلالة المطابقة - على أنه لم يتقدم له كون إشراك البتة. والله يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: آية ٥١] فَعِلْمُ الله به وبصلاحه يدل على ذلك، هذا هو الحق الذي لا شك فيه.

ولطالب العلم أن يقول: قررتم لنا أن إبراهيم لا يعتقد ربوبية الكوكب، وأن القرآن دل على ذلك، ومن السنة الصحيحة الدالة عليه: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتين منها في ذات الله...» الحديث^(١).

وهذا حديث صحيح متفق عليه، وهذه الكذبات الثلاث التي قالها النبي ﷺ يعني أنها في الصورة كصورة الكذب، وهي في نفس الأمر ليست من حقيقة الكذب^(٢)، بدليل أنه قال: «اثنتين منها في ذات الله» وكيف يكون الكذب في ذات الله؟ فالذي يأتي في ذات الله هو أحق الحق، وأصدق الصدق.

والكذبات الثلاث التي يعنيها رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة المتفق عليه:

أحدها: قوله لقومه لما أرادوا أن يخرج معهم إلى عيدهم، وهو يريد

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. حديث رقم: (٣٣٥٧، ٣٣٥٨) (٣٨٨/٦)، وأطرافه: (٢٢١٧، ٢٦٣٥، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠) ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث رقم: (٢٣٧١) (١٨٤٠/٤).

(٢) انظر: الفتح (٣٩١/٦).

أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ لِيُتَسْنَى لَهُ تَكْسِيرُ الْأَصْنَامِ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَّا إِلَهُهُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) [الصافات: الآيات ٨٨ - ٩٣] فقولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - وهو صحيح - قال بعض العلماء^(١): يريد أني سقيم عليكم، سقيم القلب لخساسة عقولكم، وأنكم تعبدون مع الله جمادات، وأنكم ذاهبون بفعلكم إلى النار. أو: إني سقيم في المستقبل؛ لأن الإنسان لا بد أن يمرض فيأتي الموت. وفي المعارض منادح كثيرة عن الكذب.

الثانية: هي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: آية ٦٣] وبعض العلماء يقول: إنه قال ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ قصده ليلجئهم إلى الإقرار؛ لأن كبيرهم لا يفعل، وأنه جماد لا يفعل شيئاً، فكأنه يُعرض ويقول: أنتم تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، إلى غير ذلك من الأجوبة^(٢).

أما الثالثة: فهي أنه لما هاجر من بلاد قومه، لما أنجاه الله من النار، مرَّ على ذلك الجبار، في القصة المشهورة الثابت في الصحيحين^(٣)، وكانت امرأته - سارة - من أجمل النساء، فعلم بها ذاك الجبار فطلبها، ولما قال له: ما هي منك؟ قال: هي أختي. ولم يقل: هي زوجتي. خوف أن يغار عليه فيلحقه منه بأس، وجاءها وقال لها: يا سارة، إني قلت لهذا الجبار: إنك أختي، وأنت أختي في الدين، ليس هنا من يدين بدين الإسلام إلا أنا وأنت، فأنت أختي في الإسلام، فلا تكذبيني. في القصة المشهورة الثابت في الصحيح فلما أدخلت عليه، وأراد أن يتناولها بسوء أخذ، فقال لها: ادعي الله لي ولا أعود، فدعت له فبريء، فهم أن يعود فأخذ أشد من الأول، فقال لخدمه: ما أتيتموني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان!! وأخذها هاجر التي أعطتها لإبراهيم، فتسرَّها وكانت أم إسماعيل. ويذكرون في التاريخ - وقد دل عليه بعض الأحاديث - أن هاجر أصلها بنت ملك القبط -

(١) انظر: الفتح (٣٩١/٦).

(٢) المصدر السابق (٣٩١/٦ - ٣٩٢)، وانظر البداية والنهاية (١/١٤٥).

(٣) مضى تخريجه في الصفحة السابقة.

ملك مصر - أخذها منه هذا الملك الجبار^(١).

هذه الثلاث محل الشاهد من هذا الحديث الصحيح: أن إبراهيم لو كان معناه أن الكوكب رب، وأن القمر رب، وأن الشمس رب، لكان هذا أعظم فرية، وأعظم كذب. فلم يقل النبي: إنه لم يكذب إلا هذه الكذبات، وإن كانت في نفس الأمر ليست بكذبات، إلا أن صورتها كأنها صورة الكذب، وهي في الحقيقة بعيدة من الكذب، لطالب العلم أن يقول: قد قررتم لنا أن قول إبراهيم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في الكوكب، وفي القمر، وفي الشمس، ليس يظن أن الكوكب رب، ولا يشك في ذلك، ولكن إذا فما معنى قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾؟ وأين نصرف هذا اللفظ عن الاعتراف بربوبية الكوكب، والقمر، والشمس؟؟

الجواب: أن العلماء خرّجوا هذا على وجهين^(٢)، كلاهما قد يُغني عن الآخر:

الأول: الذي عليه الجمهور: أن المُنَاطِرَ إذا أراد أن يُفحِمَ خصمه سلّم له مقدمة تسليماً جدلياً ليُمَكِّنَه أن يفحمه؛ لأنه إذا نفى المقدمة لا يمكن أن يفحمه. فالمعروف في فنون الجدال: أنه لا بد للخصمين من أن يتفقا على قاعدة، وإن اختلفا من الأول لا يمكن أن يفحمه. وعليه فالمعنى: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على التسليم الجدلي، وفي زعمكم الكافر الفاسد كما قال الله جل وعلا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: آية ٢٧] فنسب إلى نفسه الشركاء ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾. وليس له شريك (جل وعلا) ليقرّعهم، ويوبّخهم، كأنه يقول: هذا ربي على التسليم الجدلي والتنزل، وفرض المُحال، وتسليم المُحال، على قولكم الكاذب الفاسد، فكيف يكون الرب وهو يأفل ويسقط؟ فمقصوده بهذا لِيُفْحِمَهُمْ، فلو قال لهم عند أول وهلة: الكوكب مخلوق مُسَخَّر، لا يمكن أن يكون

(١) انظر: الفتح (٣٩٤/٦).

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج (٢٦٦/٢)، القرطبي (٢٥/٧)، ابن كثير (١٥١/٢)، البداية والنهاية (١٤٢/١)، فتح الباري (٣٩١/٦)، القاسمي (٥٨٩/٦ - ٥٩٠).

رباً. لقالوا له: أنت كذاب، الكوكب رب لا محالة. فلما تنزل معهم، وسلم لهم الكذب والمحال، أمكنه أن يفحمهم، وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أي: في زعمكم الكافر الفاسد. فمن أين يكون الرب وهو يافل؟ أي يسقط.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض العلماء: من أن المقرر في علوم العربية أن الجملة إذا صُدِّرت بهمزة استفهام أو همزة تسوية، وكان المقام يدل عليها، أن حذفها جائز، وعليه فالمعنى: أهذا ربي؟! إنكاراً لهم. وحذَفَ همزة الاستفهام. قالوا: وحذَفَ همزة الاستفهام إذا دل المقام عليه، ذهب غير واحد من علماء العربية إلى أنه جائز، وقال باطراذه جماعة من النحويين، منهم: الأخفش، واعتمده ابن مالك في شرح الكافية، وقال به غير واحد^(١).

وإذا نظرت كلام العرب وجدته كثيراً فيه، فائضاً فيه، كثرة تعرف منها أنه جائز.

وهو يوجد في كلام العرب على ثلاثة أنحاء - أعني حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها -: يوجد بدون (أَمْ)، وبدون ذكر الجواب، ويوجد بدون (أَمْ) مع ذكر الجواب. وهو مع (أَمْ) كثير مُطْرَد شائع.

فمثال وجوده دون (أَمْ) ودون ذكر الجواب: قول أبي خراش الهذلي - واسمه خويلد^(٢) :-

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لِمَ تُرْعَ فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجُوهَ هُمْ هُمْ

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٤/١١)، الكتاب (١٧٤/٣)، الصاحبى ٢٩٦، الخصائص (٢٨١/٢)، شرح الكافية لابن مالك (١٢١٥/٣ - ١٢١٧)، الخزانة (٤٤٧/٤ - ٤٥٠)، القرطبي (٢٦/٧)، الدر المصون (١٢/٥)، التوضيح والتكميل (١٧٧/٢)، ضياء السالك (١٩٧/٣).

(٢) البيت في: الخصائص (٢٤٧/١)، (٣٣٧/٣)، الصاحبى ٢٩٦، ابن جرير (٤٨٤/١١)، الخزانة (٢١١/١).

يعني: أَهْم هُمْ؟ فحذف همزة الاستفهام، ومن هذا المعنى قول الكُمَيْت^(١):

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البَيْضِ أَطْرُبُ ولا لعباً مِنِّي وذو الشَّيْبِ يلعبُ؟
يعني: أَوْدُو الشَّيْبَ يلعبُ؟! فحذف همزة الاستفهام.

ومنه دون (أم) مع ذكر الجواب على التحقيق: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي^(٢):

أَبْرَزُوهَا مثل المَهَاة تَهَادَى بين خَمْسٍ كَوَاعِبِ أَثْرَابِ
ثم قالوا: تُحِبُّهَا؟ قلت بَهْرًا عدد النجم والحصى والتراب
فقوله: «تُحِبُّهَا»، يعني: أَتُحِبُّهَا؟؟ وإتيانه مع (أم) لا تكاد تحصيه في كلام العرب وأشعارهم، فَمِنْ حَذَفْ همزة الاستفهام قبل (أم) قول عمر بن أبي ربيعة^(٣):

بدا لي منها مِعْصَمٌ يوم جَمَرْتُ وكفَ خَضِيبِ زُيْنَتِ بِنَانِ
فوالله ما أدري وإني لحاسب بسبع رميثَ الجمر أم بثمان
يعني: أَسْبَعُ أم بثمان.

ومنه بهذا المعنى قول الأَخْطَلِ^(٤):

كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ أم رَأَيْتَ بواسِطِ عَلسَ الظلام من الرِّبَابِ خَيْالاً

(١) البيت في: الخصائص (٢/٢٨١)، شرح الكافية (١/٣٩٩)، (٣/١٢١٧)، الخزانة (٤/٤٤٨).

(٢) هذان البيتان يفصل بينهما نحو ستة أبيات من القصيدة. وهما في ديوانه ٥٩ - ٦٠، الخصائص (٢/٢٨١) والمثبت فيهما: «عدد القطر».

(٣) البيت في: الكتاب (٣/١٧٥)، الصاحبى ٢٩٧، شرح الكافية (٣/١٢١٥)، الخزانة (٤/٤٤٧).

(٤) البيت في ديوانه ٢٤٥، الكتاب لسبويه (٣/١٧٤)، الخزانة (٤/٤٥٢).

يعني: أكذبتك، بحذف الهمزة. كما جَوَّزَه سيبويه في كتابه خلافاً للخليل^(١). ومنه بهذا المعنى قول الأسود بن يعفر التميمي^(٢):

فوالله ما أدري وإن كنت دارياً شُعَيْثُ بن سَهْمٍ أم شُعَيْثُ بن مِثْقَرٍ
يعني: أشعيث بن سهم؟ ومنه بهذا المعنى قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري المشهور^(٣):

وما تدري وإن دَمَّرْتَ سَقْباً لغيرك أم يكون لك الفصيل
يعني: أَلْغَيْرِك.

وقول الخنساء الشاعرة^(٤):

قَدَى بَعِينِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أُمِّ خَلَّتْ إِذْ أَفْقَرْتُ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
وقول امرئ القيس^(٥):

تَرَوْحُ مِنَ الْحَيِّ أَوْ تَبْتَكَزْ وَمَاذَا عَلَيْكَ بَأْسٌ تَنْتَظِرُ؟

وهو كثير شائع، قالوا: فعلى هذا فيكون المعنى: أهذا ربي؟ فحذفت أداة الاستفهام، وعلى هذا القول فالقرينة على أداة الاستفهام: إيقان إبراهيم المذكور قبله في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٥] وتصريح الله بأنه مُحَاجٌّ ومناظر لا ناظر بقوله: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (١٧٤/٣).

(٢) البيت في الكتاب (١٧٥/٣)، الخزاعة (٤٤٨/٤ - ٤٥٠) شرح الكافية (١٢١٣/٣)، وشرطه الأول هكذا:

(لعمرك ما أدري... إلخ.

(٣) البيت من قصيدة لأحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي كما في ديوانه، ص ٧٥.

(٤) شرح ديوان الخنساء ٣٨ ولفظه في الديوان:

قَدَى بَعِينِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أُمِّ دَرَقْتُ إِذْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

(٥) ديوان امرئ القيس ٦٨.

إِزْهَيْدَ ﴿[الأنعام: آية ٨٣] قالوا: ومن حذف الاستفهام في القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَايُنِ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٧٤] لأن المعنى: أفئن مت أفهم الخالدون بعد موتك؟ في نظائر ذكروها. هذان الوجهان في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أفول النجم هو سقوطه وغيوبته، إذا طلع النجم تقول العرب: طلع، وتقول في القمر والشمس: بَزَغَ. فإذا غاب تقول العرب: أَفَلَ، فالأفول: الغيوبة^(١)، ومنه قول العرب: أين أَفَلَتْ عَنَّا؟ أين غَبَتْ عَنَّا؟ فلَمَّا أَفَلَ ذلك النجم - أي: غاب - قال إبراهيم: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ يعني بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ لا أحب أن أعبد هذا الساقط المتغير المُسَخَّر؛ لأنه لا يمكن أن يكون هو المُدَبِّرُ لشؤون هذا العالم، الذي بيده النفع والضرر، فمن يتصف بصفة الأفول والغيوبة والسقوط لا يحب عبادته؛ لأنه ليس متصفاً بصفات الرب؛ لأن صفات الرب: العظمة، والقدرة الكاملة، وهذا متصف بصفة نقص وتغير، لا يصلح أن يكون رباً. قال بعض العلماء: ووافق هذا أن في معتقدهم أن الكواكب التي يعبدونها أنها وقت أفولها يسقط تأثيرها في ذلك الوقت، وأنها تضعف حتى ترجع طالعة، فيرجع لها ما كان لها من التأثير في زعمهم/ فوافق هذا أفوله؛ ولذا قال لهم: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

فكانه هنا استنتج لهم إنتاجاً واضحاً أن الكوكب لا يمكن [أن يكون]^(٢) رباً من مقدمتين:

أحدهما: أنه آفل، وكونه آفلاً يدل على أنه مُسَخَّر، أنه جرم مُسَخَّر بقدرة وإرادة غيره.

الثانية: هي أنه لا يحب الآفلين، فكانه يقول: هذا آفل، وكل آفل كائناً ما كان متصف بصفات النقص لا يمكن أن يكون رباً، فهذا لا يمكن أن يكون رباً.

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٥/١١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٧] أصل البزوغ: أول الطلوع، لما رآه طالعا في أول طلوعه قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على ما بينا في غيره.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب القمر وذهب. ﴿قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. العلماء قالوا: قوله: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ فيه وجهان من التفسير^(١):

أحدهما: أنه تواضع من إبراهيم، كقوله هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: آية ١٢٨] يطلب الله أن يجعله من جملة المسلمين تواضعا لله (جل وعلا). وكقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: آية ٣٥] كل هذا تواضع من الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم)، وإظهارهم للفقر والعجز بين يدي الله (جل وعلا)، ولذا قال: ﴿لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٧].

الثاني: هو ما قال بعض العلماء: أن هذا تعريض بقومه، يعني من لم يهده الله فإنه ضال، فكيف تضلون وتعبدون من دون الله أجراما لا تنفع ولا تضر، وليس بيدها شيء؟ والمعنى: من لم يهده الله فلا هادي له، فهو ضال، كأنه تعريض بقومه على هذا القول.

ثم لما رأى الشمس ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً﴾ أي: طالعة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٨] والمعنى: هذا الطالع المنير ربي، فعتبر عنها بالمعنى، هذا الطالع المنير ربي^(٢). قال بعض العلماء^(٣): ووجه تذكيره لأنه لا ينبغي أن يُطلق على الرب اسم أنثى، ولو على لفظه؛ ولذا قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ هذا الطالع المنير ربي.

ثم قال: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ هذا من التنزل كالأول، يعني: هذا أكبر من

(١) انظر: القاسمي (٥٩١/٦).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٨٦/١١)، البحر المحيط (١٦٧/٤)، ابن كثير (١٥١/٢).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٦٧/٤)، الدر المصون (١٤/٥)، القاسمي (٥٩١/٦).

الكوكب ومن القمر، فحذف (مِنْ) وما بعدها^(١)، هذا أكبر من الكوكب ومن القمر، ومقصوده بـ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ هو إسقاط الشمس أيضاً؛ لأن الأكبر الأعظم إذا كان يتصف بصفة النقص فصفة النقص أعظم في الكبير الجليل منها في الصغير الحقير.

﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾ أي: غابت الشمس ﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾ أقام عليهم الحجة ثلاث مرات، فأظهر حقيقة أمره، وقد قضى وَطَرَهُ من التنزل لهم حتى ألقمهم الحجر، فصرح لهم بعقيدته، قال لهم: ﴿يَقْوِمُ إِنِّي بَرِيءٌ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾ أبرأ إلى الله مما تعبدون من دونه.

ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] أي: أخلصت عبادتي وقصدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ للقادر النافع الضار الذي هو الخالق الرازق. وقوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يُشير به إلى أن علامة استحقاق العبادة شيء واحد، العلامة لمن يستحق العبادة شيء واحد، وهو أنه الذي يخلق ويُبرز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزك من العدم إلى الوجود هذا ربك الذي يستحق أن تعبد، ومن لا يقدر على إبرازك من العدم إلى الوجود فهو عبد مريب محتاج إلى خالق يعبد مثلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢١] وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: آية ١٦] لا والله ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا خَلْقَهُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: آية ١٦] وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

ومعنى: ﴿فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] فطرهما يعني: خلقهما واختراعهما على غير مثال سابق. فالْفَطْرُ معناه: الاختراع والابتداع على غير مثال سابق، روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: ما كنت أتحقق حقيقة معنى ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١٤] حتى اختصم إلي أعرابيان في بير، فقال أحدهما: إنها بيري، وأنا الذي

فطرتها^(١). يعني: اخترعتها، وابتدأت حفرها. فعلمت أن العرب تطلق هذا على اختراع الفعل وابتدائه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أخلصت عبادتي وقصدي للذي خلق السموات والأرض.

﴿فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما بما فيهما.

﴿حَنِيفًا﴾ أي: حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الدين الباطل إلى دين الحق، أصل الحنيف: (فَعِيل) من (الْحَنْف) بفتح الحاء، و(الْحَنْف) أصله في لغة العرب أن يميل مقدم الرجل اليمنى إلى جهة الرجل اليسرى، ويميل مقدم الرجل اليسرى إلى جهة الرجل اليمنى، فيقال للرجل: (أحنف)، وللمرأة: (حنفاء). وقد كان كذلك الأحنف بن قيس المشهور، وقد قالت أمه تُرقصه وهو صغير^(٢):

والله لولا حَنْفٌ برجله ما كان في فثيانكم من مثله

فهذا الميل صار حقيقة عُرفية في الميل عن الدين الباطل إلى دين الحق، فمعنى ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الله الصحيح^(٣).

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٧٤/٢)، وفي غريب الحديث له (٣٧٣/٤)، وابن جرير (٢٨٣/١١)، والبيهقي في الشعب (٣١٦/٤)، وفي الأسماء والصفات له ص ٤٤، وابن عبد البر في الاستذكار (٣٨٤/٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (انظر مختصره لابن منظور (٣١٣/١٣))، وذكره السيوطي في الدر (٧/٣)، وعزاه لأبي عبيد، وابن جرير، وابن الأنباري في الوقف والابتداء. ومداره على إبراهيم بن مهاجر، وهو البجلي. قال عنه في التقريب (ص ٢٥٦): «صدوق لين الحفظ» اهـ. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال (٢١١/٢).

قال الحافظ في الكافي الشاف (ملحق بالكشاف (٦١/٤)): «بإسناد حسن ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر» اهـ. وانظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزيلعي (٤٣٤/١).

(٢) البيت في القرطبي (١٤٠/٢)، الدر المصون (١٣٧/٢).

(٣) انظر: ابن جرير (١٠٤/٣)، المفردات (مادة: حنف) ٢٦٠، القرطبي (١٣٩/٢ - ١٤٠)، الدر المصون (١٣٧/٢).

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] يعني في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٦] لست أشرك بربي شيئاً، ولا أعتقد ربوبية كوكب، ولا شمس، ولا قمر. هذا هو الظاهر في هذه الآيات الكريمة أن نبي الله إبراهيم مُناظر لا ناظر، وأنه يريد بهذا التنزل: التوصل إلى إفحام خصومه بدليل قوله: ﴿وَحَاجَّكُمْ قَوْمُكُمْ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] حاجه: أصله (حَاجَّجَه) من (المُحَاجَّجَة)، بأن يُدلي كل منهما بحجته ضد الآخر، وكل كلام يُدلي به خصم ضد آخر يُسمى: (حجة) ولو كان في غاية البطلان، كما قال تعالى في قوم أدلوا بكلام باطل: ﴿جُحَّتْهُمْ دَلِيلَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: آية ١٦] فهو يطلق على كل ما أدلى به خصم ضد آخر، تقول له العرب: (حجة) ^(١)، و(المُفَاعَلَة): (حَاجَّ) أصلها: (حَاجَجَ)، على وزن (فَاعَلَ) أدغمت إحدى الجيمين في الأخرى.

﴿وَحَاجَّكُمْ قَوْمُكُمْ﴾ قوم الرجل أصلهم: جماعته، و(القوم) في وضع اللسان العربي يُطلق على الذكور خاصة، وربما دخل فيهم الإناث بحكم التبع ^(٢). فالدليل على إطلاقه على الذكور خاصة في الوضع العربي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] فَعَطَفَ النساءَ عليهم يدل على اختصاص اسم (القوم) بالذكور دون الإناث، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى ^(٣):

وما أذري وسوف إخال أذري أقوم آل حِضْنٍ أم نساء

والدليل على دخول النساء في اسم (القوم) بحكم التبع قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: آية ٤٣] دخلت بالتبع، بدليل قرينة السياق.

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: قوم) ٦٩٣، اللسان (مادة: قوم) (٣/١٩٥)، الكليات ٧٢٨.

(٣) البيت في اللسان: (مادة: قوم) (٣/١٩٥)، الدر المصون (١/٣٦٠).

ومعنى محاجة قومه له: أنهم قالوا له: كيف تدّعي أن المعبود واحد، وأن العالم كله يدبر شؤونه ويسمع نداءه معبود واحد؟ هذا لا يمكن!! كما قال قوم نبينا له: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: آية ٥] فقالوا له: من يعبد آلهة متعددة خير ممن يقتصر على واحد؛ لأن هؤلاء المتعددين تتكرر بهم الشفاعة من جهات، وهذا واحد. ومحاجبتهم له في توحيد الله؛ ولذا قال: ﴿أَتُحْجَوْنِي فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] دل ذلك على أن محاجبتهم في الله وفي عبادته، قال منكرًا عليهم: ﴿أَتُحْجَوْنِي﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء، ما عدا نافعاً وحده، وابن ذكوان عن ابن عامر، وهشام عن ابن عامر - بخلاف عنه - قرأه كلهم: ﴿أَتُحْجَوْنِي﴾ بتشديد النون، وقرأه نافع برواية ورش وقالون وهشام - بخلف عنه - عن ابن عامر كذلك ﴿أَتُحْجَوْنِي﴾ بتخفيف النون. والياء مثبتة عند جميع القراء، فهما قراءتان سبعيتان^(١) ﴿أَتُحْجَوْنِي﴾ وهذه قراءة الجمهور، وقراءة نافع وهشام - في إحدى الروایتين -: ﴿أَتُحْجَوْنِي﴾ بنون بعدها ياء، نون مخففة.

أما قراءة الجمهور فلا إشكال في الآية عليها، أصلها تأتي هنا نونان، النون الأولى: نون الرفع، والثانية: نون الوقاية، فأدغمت إحدى النونين في الأخرى، وهذا لا إشكال فيه^(٢).

أما على قراءة نافع: ﴿أَتُحْجَوْنِي فِي اللَّهِ﴾ وقرأ بها هشام عن ابن عامر - في إحدى الروایتين - ﴿أَتُحْجَوْنِي فِي اللَّهِ﴾ فقد استشكلها بعض العلماء، وذكر عن بعض علماء العربية أنه قال: قراءة نافع في هذا لحن^(٣)!! وهذا خطأ، بل هي قراءة فصيحة، ولغة عربية فصحي، قرأ بها نافع في حروف كثيرة من القرآن، في قوله هنا في الأنعام: ﴿أَتُحْجَوْنِي فِي اللَّهِ﴾ وفي قوله في الزمر: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: آية ٦٤] وفي قوله

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٧.

(٢) انظر: حجة القراءات ٢٥٧، القرطبي (٢٩/٧)، البحر المحيط (١٦٩/٤)، الدر المصون (١٥/٥).

(٣) انظر: القرطبي (٢٩/٧)، البحر المحيط (١٦٩/٤)، الدر المصون (١٩/٥).

في النحل: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: آية ٢٧] وفي قوله في الحجر: ﴿فِيمَا تُبْشِرُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٤] بكسر النون. كل هذه الحروف قرأها نافع على هذه الوتيرة. والتحقيق في هذا: أن هذه لغة فصحي، كما جزم به سيبويه^(١) أن من عادة العرب إذا اجتمع مثلاً أن يخففوا ويحذفوا أحد المثلين، وأنشد له سيبويه قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي^(٢):

تراه كالشَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكَاً يسوءُ الفَالِيَّاتِ إِذَا فَلَيْنِ

قال: الأصل: فَلَيْنِنِي. فلما اجتمع نونان حُذفت إحداهما^(٣). والتحقيق المقرر في علوم العربية: أن نون الرفع المعروفة في الأفعال الخمسة أنها لها حالات متعددة - لها تقريباً خمس حالات - في ثلاث حالات يجب حذفها بقياس مُطَرَّد، وهذه الثلاث التي يجب فيها حذف نون الرفع^(٤):

أولها: ما إذا دخل عليها جازم.

والثانية: إذا دخل عليها ناصب. وقد جمعهما قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: آية ٢٤].

الثالثة^(٥): إذا دخلت عليها نون التوكيد الثقيلة نحو: ﴿تَتَّبَلُّونَ﴾، فإنها يجب حذفها في هذه الأمور الثلاثة بقياس مُطَرَّد. ما إذا تقدمها جازم، أو تقدمها ناصب، أو دخلت عليها نون التوكيد الثقيلة. فتحذف نون الرفع

(١) انظر الكتاب (٥١٩/٣).

(٢) البيت في: الكتاب (٥٢٠/٣) وحجة القراءات ٢٥٨، القرطبي (٢٩/٧)، الدر المصون (١٨/٥).

والشَّغَام: نبت له نور أبيض يُشَبَّه به الشيب.
ويُعَلُّ: أي: يطيب شيئاً بعد شيء.

(٣) انظر: حجة القراءات ٢٥٨.

(٤) انظر: التوضيح والتكميل (٦٠/١ - ٦١).

(٥) انظر: الكتاب لسيبويه (٥١٩/٣)، المصدر السابق (٢٥٨/٢ - ٢٥٩).

باطراد، وبقاؤها مع الجازم أو الناصب لغات قليلة مسموعة، وبقاؤها مع الجازم كقول الشاعر^(١):

لولا فوارس من نُغمٍ وأسرَتِهِمْ يومَ الصُّلَيْفَاءِ لم يوفُونَ بالجارِ
فهذه لغة قليلة تُحفظ ولا يقاس عليها. وبقائها مع الناصب، كقول الشاعر^(٢):

أن تقرأن على أسماءٍ ونَحَكُما مني السلامَ وأن لا تُشعِرا أحدا
هذا أيضاً كذلك.

أما الموضع الرابع: فهو يجوز فيه حذفها وإبقاؤها بقياس مُطرد، كأن تجتمع نون الرفع مع نون الوقاية - كهذه الآيات التي ذكرنا - فإنها يجوز إثبات نون الرفع كقراءة الجمهور، ويجوز حذفها كقراءة نافع، وقد غلط من ظن أن النون المحذوفة أنها نون الوقاية، فالمحذوفة نون الرفع^(٣).

الموضع الخامس: هو أن تُحذف نون الرفع لغير واحد من الأسباب الأربعة - لأن لا يدخل عليها ناصب، ولا جازم، ولا تكون مع نون التوكيد الثقيلة، ولا مع نون الوقاية - فحذفها في مثل هذا شاذ يُحفظ ولا يُقاس عليه، كقول الراجز^(٤):

أبيتُ أسري وتبيتني تَذُلُكي وجهك بالعنبرِ والمِسْكِ الذُّكي
فالتحقيق أن قراءة نافع في هذا الحرف وفي غيره أنها على لغة عربية فصحي.

ومعنى الآية الكريمة: أحتاجونني، أتجادلونني في الله، وأني لا أعبدُه

(١) البيت في المحتسب (٤٢/٢)، الخصائص (٣٨٨/١)، الخزانة (٦٢٦/٣).

والصُّلَيْفَاء: مصغَّر صلفاء، وهي الأرض الصلبة. ويوم الصلفاء: من أيام العرب. وقد صغره الشاعر هنا. وهو لهوازن على فزارة وعبس.

(٢) انظر: الخصائص (٣٩٠/١)، أوضح المسالك (١٦٦/٣)، الخزانة (٥٥٩/٣).

(٣) انظر: القرطبي (٢٩/٧)، الدر المصون (١٦/٥).

(٤) البيت في الخصائص (٣٨٨/١)، الخزانة (٥٢٥/٣)، الدر المصون (١٧/٥).

وحده، والحال قد هداني ربي، وشرح صدري بما أوحى إلي، وبما أراني من ملكوت السموات والأرض حتى صرت من الموقنين، أبعد هذا من العلم واليقين الذي أعطاني الله، تحاجوني وتجادلونني في الله، في أنه المعبود وحده؟ هذا مما لا يكون ولا يصح. ثم إنهم قالوا له على عادة الكفار: ترى أنك عبت آلهتنا وأصنامنا، وعبتها وكسرتها، وقلت: إنها لا تنفع ولا تضر. ترى أنها ستصيبك ببرص أو جذام أو تُخَبِّلَكَ فتجنك^(١)!! وهذه عادة الكفار، يخوفون أنبياء الله من أصنامهم. فأجابهم إبراهيم قال لهم: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ قال لهم: لا أخاف ما تشركون به؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، ولا يُترقب منه خوف ولا نفع، فلا أخافه أبداً.

والتحقيق في الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أنه استثناء منقطع. هذا هو التحقيق^(٢)، والمعنى: لكن إن شاء ربي أمراً مخوفاً أو قنعياً فيه، أما أصنامكم فليس منها خوف، وليس منها نفع؛ لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر. وهذا هو التحقيق، خلافاً لقوم زعموا أن الاستثناء متصل، وقالوا: لا أخاف من معبوداتكم إلا أن يشاء الله أن يجعل لي منها ضرراً، كأن يسقط عليّ قطعة من القمر الذي تعبدون، أو من الشمس الذي تعبدون، وأن يخلق في الحجارة عقولاً وقوة تبطش بي بها^(٣). هذا كله خلاف التحقيق.

والتحقيق أن الاستثناء منقطع، وأن المعنى: ولا أخاف ما تشركون به شيئاً، فلا أخاف ما تشركون به، ثم إنه لما نفى الخوف عن نفسه استثنى مشيئة الله، إلا أن يشاء الله أن يخوفني بما شاء، فله في ذلك ما شاء، والاستثناء استثناء منقطع، والتحقيق: أن الاستثناء المنقطع جائز في لغة العرب، وفي كلام العرب، خلافاً للمقرر في أصول الإمام أحمد بن حنبل،

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٩/١١).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٨٩/١١)، القرطبي (٢٩/٧)، ابن كثير (١٥٢/٢)، البحر المحيط

(١٦٩/٤)، الدر المصون (٢٠/٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٧٠/٤).

فالمقرر في الأصول^(١) عند ثلاثة من الأئمة: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، أن الاستثناء المنقطع صحيح، وأنه جائز في القرآن وفي كلام العرب، خلافاً للمقرر في أصول الإمام أحمد بن حنبل أن الاستثناء المنقطع لا يجوز؛ لأن غير ما دخل لا يمكن أن يُخرج بالاستثناء، وحجة الجمهور ورود الاستثناء في القرآن وفي كلام العرب، ومن ورود الاستثناء المنقطع في القرآن: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ﴾ [النساء: آية ١٥٧] فاتباع الظن ليس من جنس العلم، وكقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: الآيتان ١٩، ٢٠].

فليس من جنس نعمة لأحد عنده، وكقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً﴾ [إِلَّا سَلَامًا] [الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦] فالسلام ليس من جنس اللغو. وهو كثير في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان^(٢):
وقفتُ فيها أصيلاً أسألتها عيت جواباً، وما بالربيع من أحدٍ
إلا الأواري لأياً ما أبينها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد
فالأواري التي هي مرابط الخيل ليست من جنس الأحد. وكقول الراجز^(٣):
وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس
وذلك ليس من جنس الأنيس. وقول الفرزدق^(٤):

(١) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (٢/٢٦٤)، (٨/١٣٦، ١٣٧)، (٩/٣١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٣/٢٧٧)، شرح الكوكب المنير (٣/٢٨٦)، المذكرة في أصول الفقه ٢٢٦، نثر الورود (١/٢٨١)، أضواء البيان (٤/٣٣٦ - ٣٣٩).

(٢) البيت الثاني مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة، وهما في ديوان النابغة ص ٩. وقوله: (أصيلاً) أي: عند الأصيل. و(عيت جواباً) أي: عجزت عن الإجابة. و(الأواري) مفردا الأري، وهي الآخية التي تشد بها الدابة. و(النؤي) الشدة. و(النؤي) ما يُحفر حول الخيمة لعدم تسرب الماء أو غيره إلى داخلها. و(المظلومة الجلد) أي: الأرض الشاقة التي أُقيم فيها حوض على غير استحقاق منها لذلك.

(٣) البيت لجبران العود. وهو في الخزانة (٤/١٩٧)، الدر المصون (١١/٣٣) واليعافير: جمع يعفور، وهو الظبي بلون التراب، أو عام.

(٤) البيت في المقاصد النحوية (٣/١١٠).

وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله
فالسنان ليس من جنس الخاطب.

وينبني في الأصول على الخلاف في الاستثناء المنقطع: ما لو قال
رجل في إقراره: أقر لزيد أن له علي ألف دينار إلا ثوباً. فالذين قالوا
بجواز الاستثناء المنقطع، قالوا: تسقط قيمة الثوب من الألف. وعلى مذهب
الإمام أحمد بن حنبل - المانع للاستثناء المنقطع - لا يسقط من الألف
شيء؛ لأن الثوب ليس من جنس الدنانير التي أقر بها.

وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ لا أخاف الأصنام التي
تشركونها بالله (جل وعلا). فالتحقيق في الضمير في (به) أنه عائد إلى الله^(١).
(تشركونها بالله) أي: به (جل وعلا). لا أخافها لأنها لا تنفع ولا تضر. ثم
استثنى وقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ لكن إن شاء ربي مخوفاً أن يوقعني فيه
فهو (جل وعلا) ما شاء، فالاستثناء منقطع، وليس المراد أنه استثنى مخافة من
الأصنام أبداً؛ لأنها جماد لا ينفع ولا يضر، والاستثناء منقطع، كما جزم به غير
واحد من المحققين، وقد غلط من جعله متصلاً، كمن قال: إن الله قادر على
أن يخلق في الأصنام عقولاً وبطشاً تضره به، وقادر على أن يسقط عليه فلقه من
القمر الذي يعبدون فتضره!! هذا بعيد من كلام العرب، والظاهر ما ذكرنا.
وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ يخوفني به
فمشيئة الله نافذة كائنة ما كانت.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿عِلْمًا﴾ تمييز مَحْوَلٍ عن الفاعل^(٢).
والمعنى: وسع علمه كل شيء، فهو عالم بكل شيء، وعلمه المحيط بكل
شيء إذا أحاط بأنه يجعلني في مخافة فذلك حقيق، فلما نفى الخوف من
الأصنام تدارك وقال: لا يمكنني أن أنفي الخوف، بل أنيطه بمشيئة الله، إذا
شاء أن يخيفني أخافني، وإلا فلا. هذا معنى الكلام.

(١) انظر: القرطبي (٢٩/٧)، البحر المحيط (٤/١٦٩)، الدر المصون (٥/٢٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/١٧٠)، الدر المصون (٥/٢١).

ثم قال: ﴿أَفَلَا نَتَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون وتعلمون أنني لا ينبغي لي أن أخاف من جمادات لا تنفع، مع أنكم لا تخافون من شديد البطش، ملك السماوات والأرض، حيث تكفرون به، وتصرفون حقوقه لغيره؛ ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: آية ٨١] في غاية الإنكار، كيف أخاف هذه الجمادات التي أشركتموها بالله، لا تنفع ولا تضر، وأنتم لا تخافون جبار السماوات والأرض، حيث تكفرون به، وتشركون به غيره؟

﴿وَلَا تَخَافُوكَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ (ما) موصولة، وهي في محل المفعول لـ: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾^(١) أي: أشركتم بالله الشيء الذي لم ينزل به سلطاناً. أي: حجة.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن نفي الشيء لا يدل على إمكانه؛ لأن نفي السلطان عن الآلهة لا يدل على إمكانه، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: آية ٥٧] فنفيه ظلمهم عنه لا يدل على إمكانه^(٢)، فهذا يدل على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: آية ١١٧] فنفي البرهان لا يدل على إمكان البرهان، إذ لا يقوم عليه برهان أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُوكَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: آية ٨١] أي: حجة واضحة.

ثم قال: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي الفريقين أحق بالأمن، أهو الفريق الذي يعبد الله، ويوحده الله، ويطيع الله، الذي بيده النفع والضرر، ويُرقب ويُرجى من قبله كل شيء، أو هذا الذي يكفر بالله، ويغضبه، ويسخطه، ويصرف حقوقه للجمادات؟ أي هذين الفريقين أحق بالأمن والسلامة من الآخر؟ الجواب: أن فريق الله الذي يعبد ويوحده ويطيعه

(١) انظر: الدر المنصور (٢١/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

لا شك أنه أحق بالأمن؛ ولذا قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنعام: آية ٨٢] وهم إبراهيم ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري، في تفسير هذه الآية الكريمة، أنه لما نزل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: «ليس الذي تريدون». ثم تلا قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) [لقمان: آية ١٣] وبين لهم أن المراد بالظلم هنا: الشرك.

وكان الزمخشري يقول: لا يمكن أن يُفسَّر الظلم هنا بالشرك؛ لأن الله يقول: ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ لأن الشرك لا يختلط مع الإيمان؛ لأنهما ضدان^(٢). وهذا في الحقيقة أمر غير صحيح؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: آية ١٠٦] فإنهم يؤمنون بربوبية الله (جل وعلا)، وبأنه النافع الرازق، ويشركون معه غيره في عبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وقد جاء في بعض الأحاديث: أن النبي ﷺ خرج في سفر من أسفاره من المدينة، ثم بعد ذلك لحق بهم بدوي راكب على بعير، وقد قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني أتيتك من بلادي وتلادي، أريد أن تعلمني مما علمك الله، وأدخل في دينك، فعلمه النبي شرائع الإسلام، وأمن على يد النبي ﷺ إيماناً صحيحاً، وفي ذلك الوقت سقطت يد بعيره في جحر في الليل، فانكسر عنقه فمات، فقال لهم النبي ﷺ: «هذا من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم». لأنه عندما آمن إيماناً صحيحاً نقياً أخذه الله إليه.

وفي بعض الروايات: فيه أن النبي ﷺ قال لهم: «إنه رأى ملكاً يدرس

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) عبارة الكشف: «أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس». اهـ. الكشف (٢٥/٢).

في فيه من ثمار الجنة؛ لأنه مات جائعاً. جاء هذا في أحاديث مرفوعة، الله أعلم بأسانيدها^(١).

وقوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ﴾ كإبراهيم ومن سار على سيره. ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ على طريق صحيحة.

يفهم من مفهوم مخالفة الآية: أن الذين لم يؤمنوا، وكانوا يلبسون كل شيء بظلمهم، وكفرهم، وعبادتهم للأصنام لا أمن لهم في الدنيا، ولا في الآخرة، وليسوا مهتدين. هذا معنى الآية الكريمة.

١/٨ / قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) [الأنعام: الآيات ٨٣ - ٨٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) [الأنعام: الآية ٨٣].

في هذا الحرف قراءتان سبعيتان^(٢): قرأه أربعة من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ غير مُتَوْنٍ مُّضَافاً

(١) أخرجه أحمد (٣٥٧/٤، ٣٥٨، ٣٥٩)، والطبراني في الكبير (٣١٩/٢ - ٣٢٠)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤/٨)، وفي الحلية (٢٠٣/٤)، وابن عدي في الكامل (١٨١٤/٥)، وأورده الهيثمي في المجمع (٤١/١)، وابن كثير في التفسير (١٥٣/٢)، والسيوطي في الدر (٢٧/٣)، وعزاه لأحمد، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب. من حديث جرير (رضي الله عنه) مع شيء من التفاوت في لفظه، حيث يرويه بعضهم بمثل السياق الذي ذكره الشيخ هنا، وبعضهم يرويه مختصراً.

وللحديث طرق لا تخلو من ضعف ولا يتقوى الحديث بمثلها، والله أعلم. وقد أخرج ابن أبي حاتم في التفسير (١٣٣٤/٤) نحوه من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، ومن طريقه أورده ابن كثير في التفسير (١٥٣/٢)، والسيوطي في الدر (٢٧/٣) وعزاه للحكيم الترمذي وابن أبي حاتم.

(٢) انظر المبسوط لابن مهران ١٩٨.

إلى (من)، وقرأه الكوفيون - عاصم، وحمزة، والكسائي - ﴿نَزَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ بتنوين درجات، وإدغام نون التنوين في الميم.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ اختلف العلماء في المشار إليها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ فعن مجاهد: أَنَّ الحجة المُشار إليها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ أنها قول نبي الله إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: آية ٨١]. قال: لما خوفوه أصنامهم، وزعموا أنها تُخَبِّلُهُ وتستجلب له البرص ونحوه، قال لهم: كيف أخاف أصناماً لا تنفع ولا تضر، وأنتم تشركون مع الله غيره ولا تخافونه؟ قال مجاهد وغيره: هذه هي حجة الله التي آتاها إبراهيم^(١). والظاهر أن الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ راجعة إلى المناظرة كلها^(٢)، من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٦]. كما جزم به غير واحد، وهو الصواب، أما عدم الخوف من الأصنام، فهذا أمر حجة أعطيت لجماعة من الرسل، ولم يخص بها إبراهيم، ألا ترى أن قوم هود قالوا له: إِنْ بَعْضُ آلِهَتِهِمْ اعْتَرَاهُ بَسُوءٌ، كَمَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يعنون: أَنَّ بعض معبوداتهم مس نبي الله هوداً بسوء، حتى جعله مجنوناً مختلاً، يقول: اعبدوا الله، اعبدوا الله، اعبدوا الله. كأن هذا عندهم هذيان وجنون، وأن آلِهَتِهِمْ خَبَلَتْهُ، حتى صار يقول هذا. فأجابهم نبي الله هود: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) [هود: الآيات ٥٤ - ٥٦] وقد بين الله في سورة الزمر، أنهم خوفوا نبينا ﷺ بآلِهَتِهِمْ، ثم أمره أن يقول: إنها لا تنفع ولا تضر، لا تكشف ضرراً ولا تستجلب نفعاً. وذلك في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: آية ٣٦] يعني يهددونك بالأصنام أن

(١) انظر: ابن جرير (٥٠٥/١).

(٢) انظر القرطبي (٣٠/٧)، البحر المحيط (١٧١/٤ - ١٧٢)، أضواء البيان (٢٠٢/٢)، آداب البحث والمناظرة (٨٢/٢).

تضرك كما خوفوا بها إبراهيم وهوداً على الجميع صلوات الله وسلامه عليه .
ثم إن الله أمر نبيه أن يبين أنها لا تنفع ولا تضر، في قوله بعد الآية التي ذكرنا: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر: آية ٣٨]. وهذا مما يبين أن الحجة التي آتاها الله نبيه إبراهيم هي إفحامه الخصوم، ومناظرته لهم جميعاً؛ ذلك أنهم كانوا يعبدون كواكب مسخرة، ويعبدون أصناماً أرضية، وأجراماً سماوية، فقال لهم في الأجرام الأرضية: ﴿تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: آية ٩٥] ﴿أَفِي لَكُمُ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: آية ٦٧] ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٢) [الشعراء: الآيتان ٧٢-٧٣] ﴿لِمَ تَقْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: آية ٤٢] هذا في الأجرام الأرضية، وهي أصنامهم؛ وقد أشار له في هذه الآيات بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّكَ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤) [الأنعام: آية ٧٤] حيث تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، وتتركون عبادة الخالق الرازق النافع الضار. ثم ناظرهم في عبادتهم الأجرام السماوية، فلما رأى كوكباً: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فكأنه يتنزل لهم في المناظرة ويُسلم لهم مقدمة باطلة، هي مقدمة كفر، يُسلمها لهم على زعمهم الفاسد الكافر^(١)؛ ليتمكنه إفحامهم، ويبين لهم أن الأقول صفة نقص محققة، تنافي صفات الربوبية، فاتصافه بالأقول ينافي كونه رباً، كما بينه، وكأنها نتيجة ترتبت على مقدمتين:

إحدهما: كون ذلك المزعوم معبوداً، كونه آفلاً. وهذه في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ لأن أصل المعنى: رأى كوكباً فأفل ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿بَحْذُ الْفَاءِ وَمَا عُطِفَتْ عَلَيْهِ﴾. فقوله ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ تضمنت مقدمة معناها: هذا الجرم آفل.

ثم رتب المقدمة الأخرى: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ لا أحب أن أعبد من يتصف بصفة الأقول والغيبوبة؛ لأنها صفة نقص، تدل على النقص

والتسخير، فمن كان كذلك لا يستحق أن يكون رباً. فهذا نظر عقلي صحيح، واستنتاج صحيح، وقد تقرر عند عامة النظائر أن الاستنتاج العقلي إذا كان على طريقه الصحيحة أنه أمر صحيح. وقالوا: نوه الله بشأنه حيث جعله حجة أضافها لنفسه، وآتاها إبراهيم على قومه^(١)، حيث قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣].

ومعلوم أن النظر العقلي أنه محصور في أربعة أنواع؛ لأن المُستدلَّ به: إما وجود، وإما عدم. والمُستدلَّ عليه: إما وجود، وإما عدم. فتضرب حالتني الدليل في حالتني المدلول، اثنين باثنين: بأربعة. بسطها وتضطيقها: استنتاج وجود من وجود، واستنتاج عدم من عدم، استنتاج عدم من وجود، واستنتاج وجود من عدم. هذا معروف.

مثال استنتاج الوجود من الوجود: هو استنتاج وجود خالق هذا الكون من وجود هذا الكون على هذه الأساليب الغريبة العجيبة، الدالة على أن له خالقاً مدبراً هو الرب المعبود وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] فبين أن وجود هذا الكون دليل على وجود صانعه، فهو وجود يلزم منه عقلاً وجود خالق مدبر، هو الرب المعبود.

ومثال استنتاج العدم من العدم: قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: آية ٢٢] فهنا: عدم فساد السماوات والأرض يستلزم عدم تعدد الآلهة. فهو عدم ينتج عدماً، كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فعدم الفساد المشاهد يلزمه عدم تعدد الآلهة.

وكذلك ربما يُستنتج عدم من وجود - كما في هذه الآية - فإن أقول الكوكب صفة وجودية عاينوها بالحس فيه، استنتج منها عدم الربوبية، حيث قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

وأما استنتاج الوجود من العدم: فهو معروف باستنتاج عدم النقيض من وجود نقيضه، أو مساوي نقيضه، كما هو معروف.

والشاهد أن نبي الله إبراهيم ناظر قومه مناظرة عقلية، بين لهم فيها أن هذه المعبودات التي يزعمونها أرباباً هي آفلة، وهذه المقدمة - التي كون تلك المعبودات آفلة - مقدمة قطعية؛ لأنها تُدرك بالحواس، فهم يشاهدون أفعالها بأعينهم، فهي مقدمة لا يمكن إنكارها. ثم رتب لهذه المقدمة المحسوسة مقدمة عقلية ضمّها معها، أشار لها بقوله ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ هي أن الأفعال صفة نقص لا شك فيها، تدل على حدوث وتسخير، وهذه تنافي صفات الربوبية، فالآفل لا يمكن أن يكون ربّاً. ثم قال لهم مثل هذا في الشمس والقمر، حتى ألقمهم الحجر^(١). ثم بعد ذلك بين لهم معتقده، وأظهر حقيقته، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) ﴿إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩) [الأنعام: الآيتان ٧٨ - ٧٩] وكان الله (جل وعلا) أعطى إبراهيم حُسن الحجج والمناظرة، واللفظ فيها. من ذلك أنه لما ناظر نمرود، وهو الذي بُعث إبراهيم في زمن ولايته، وكان ملكاً جباراً طاغياً، نمرود بن كنعان بن سنجاري بن كوش بن سام بن نوح^(٢)، الفاجر المعروف، لما قال له: من ربك الذي تدعوننا إليه؟ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٨] وكان نمرود جاهلاً، فأخذ رجلين، أحدهما كان محكوماً عليه بالقتل فأطلقه، وأخذ آخر بريئاً فقتله، فقال: هذا كان حياً فأنا أمته، وهذا كان سيموت الآن فأنا أحييته^(٣)!! فليما أعطاه الله من الحجّة وحسن المناظرة لم يقل له: هذه ليست الحياة التي أريد، ولا الموت الذي أريد. بل ترك له هذا كله، ولم يجبه بشيء منه، وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فزعموا في

(١) في هذا الموضوع انظر: آداب البحث والمناظرة (٧٨/٢)، ٨٢ - ٨٣).

(٢) في تاريخ ابن جرير (١٤٧/١): «نمرود بن كنعان بن حام بن نوح». وفي التفسير (٤٣٠/٥): «نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح». وانظر البداية والنهاية (١٤٨/١).

تنبيه: هناك شيء من الاختلاف بين هذه المصادر في بعض هذه الأسماء، بل هذا الاختلاف موجود في المصدر الواحد في المواضع المتعددة، ف(فالخ) في بعض المصادر: (فالغ)، وفي بعضها: (فالغ). وهكذا (شالغ) فهو في بعضها: (صالح)، وفي بعضها: (شالغ).

(٣) انظر ابن جرير (٤٣٣/٥)، ٤٣٦ - ٤٣٧).

قصته أنه أولاً أراد أن يكذب وأن يقول: أنا هو الذي آتي بها من المشرق، فقل لربك يأتي بها من المغرب!! فنظر فإذا في المجلس رجال كبار السن، يعلمون الشمس تطلع من المشرق، يطلعها الله قبل أن يولد نمرود، فخاف أن يكذبوه فيفتضح في المجلس، فبهت الذي كفر. هذه المناظرات التي يفحم بها الخصوم، كما في آية الأنعام هذه، هي التي نوه الله بشأنها، وأضافها إلى نفسه، وقال: إنه آتاه إبراهيم، معظماً نفسه ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ تلك الحجة التي أفحم بها الخصوم حجتنا، وأضافها الله لنفسه تشريفاً وإعظاماً.

﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ أي: أعطيناها ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، فهمناه إياها، وألهمناه إياها ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾، هذه الحجة يحتج بها على قومه الكفرة الذين يجادلونه، كما قال: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] حتى يفحمهم ويلقمهم الحجر. ثم قال: ﴿رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] هذه الآية تدل على أن من علمه الله الحُجج، ومناظرات الخصوم التي يثبت بها التوحيد، ويدفع بها شبه المُبطلين، أن هذا رفع من الله في درجاته، حيث أتبع قوله: ﴿حُجَّتُنَا﴾ ﴿ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أتبعه بقوله: ﴿رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ أي: كما رفعنا درجة إبراهيم، بما آتيناه من تلك الحجة التي صدع بها بالحق، وقهر بها الخصوم. أما على قراءة الجمهور: ﴿رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ بالإضافة، فالدرجات: مفعول به لـ ﴿رَفَعُ﴾ و﴿مِّنْ نَّشَأٍ﴾ مضاف إليه ما قبله. ومن رُفعت درجاته فقد رُفع^(١)، كقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ وفي الحديث: «اللهم ارفع درجته»^(٢) والدرجة: المرتبة والمنزلة، فإن من رُفعت درجته ومنزلته فقد رُفع، وعلى هذا فمعناه: نرفع رُتب ومنازل من نشاء أن نرفع رتبته ومنزلته. أما على قراءة الكوفيين - عاصم، وحمزة، والكسائي -^(٣): ﴿رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ فـ ﴿مِّنْ﴾ الموصولة هي مفعول ﴿رَفَعُ﴾ أي: نرفع من نشاء رفعه، نرفعه درجات.

(١) انظر القرطبي (٣٠/٧)، البحر المحيط (١٧٢/٤)، الدر المصون (٢٦/٥).

(٢) قطعة من حديث أم سلمة عند مسلم (في وفاة أبي سلمة رضي الله عنه). كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر. حديث (٩٢٠) (٦٣٤/٢).

(٣) مضت هذه القراءات عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وفي إعراب ﴿دَرَجَاتٍ﴾ على هذه القراءة أوجه معروفة للعلماء^(١):

أحدها: أنها ما ناب عن المطلق؛ لأن معنى نرفع من نشاء درجات أي: رفعات عالية، فالدرجة في معنى الرفع، فهي في معنى المفعول المطلق لا بلفظه.

وقوم قالوا: هي منصوبة بنزع الخافض. أي: نرفعه في درجات. إلى غير ذلك من الأعراب.

ومفعول المشيئة محذوف، (نرفع درجات من نشاء رَفَعَ درجاته). أو: (نرفع درجات من نشاء رَفَعَه). فعلى الإضافة: فالتقدير: (نرفع درجات من نشاء رَفَعَ درجاته). وعلى التنوين: فالتقدير: (نرفع درجات من نشاء رفعه). هذا معناه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ جل وعلا ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الحكيم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها. فالله (جل وعلا) حكيم لا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه، ولا يأمر إلا بما فيه الخير، ولا ينهى إلا عما فيه الشر، ولا يعذب إلا من يستحق، وهو (جل وعلا) ذو الحكمة البالغة، له الحجة والحكمة البالغة. وأصل (الحكيم): هو المتصف بالحكمة. وأصل (الحكمة): (فِعْلَةٌ) من الحُكْم. وأصل مادة (الحُكْم) في لغة العرب^(٢): أصلها معناها (المنع). تقول العرب: «حَكَمَهُ وَأَحْكَمَهُ» إذا منعه.

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا^(٣)

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هَجَاءٌ
فَنُحَكِّمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ^(٤)

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٢/٤)، الدر المصون (٢٦/٥).

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الحاء، باب الحاء والكاف وما يثلثهما ص ٢٧٧.

(٣) البيت لجرير، وهو في المقاييس في اللغة ص ٢٧٧، الدر المصون (٢٦٧/١).

(٤) البيتان لحسان بن ثابت (رضي الله عنه) وهما في ديوانه، ص ٢٠.

هذا أصل (الحكم): المنع، ومنه: (حَكَمَ الدابة). لأنها تمنعها من الجري على غير مراد صاحبها. والحَكْمَةُ: (فِعْلَةٌ) من (الحُكْم) بمعنى: المنع. وأظهر تفسيراتها: أنها العلم النافع. لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال. أي: يمنعها أن يعتريها الخل. فمن كان عنده العلم الكامل كان لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لأن كل إخلال في الإحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور، فترى الرجل الحاذق القلب البصير يفعل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، ثم ينكشف الغيب عن أن فيه هلاكه، فيندم حيث لا ينفع الندم، ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلتُ لكان كذا!! كما قال الشاعر^(١):

أَلَمْ عَلَى لَوْ وَلَوْ كُنْتُ عَالِماً بِأَذْنَابِ لَوْ لَمْ تَفُتْنِي أَوَائِلُهُ
يقولون لي: لو فَعَلْتُ كذا لكان خيراً!! أنا لو كنتُ عالماً بما يصير إليه الأمر لفعلته من أول. فرب السماوات والأرض وحده لا يجري عليه: لو فعلتُ كذا لكان أحسن؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تصير إليه، وعالم بما كان، وما يكون، فلا يضع أمراً إلا في موضعه، ومحال عن أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب؛ لأنه عالم بعاقبة الأمر، وما يؤول إليه، كما بيناه مراراً.

والعَلِيم: صيغة مبالغة؛ لأن عِلْمَ الله (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم خطرات القلوب، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، حتى قدمنا أنه من إحاطة علمه: يعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، هو عالم أن لو وُجد كيف يكون؛ لشدة إحاطة علمه بالموجودات والمعدومات. وقد بيناه في هذه السورة الكريمة؛ لأن أهل النار لما عاينوا النار، ورأوا الحقيقة، وندموا، تمنوا أن يُردوا إلى دار الدنيا مرة أخرى ليُصدقوا الرسل، ورَدُّهُمْ ذلك الذي تمنوه: الله عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأن ذلك الرد

(١) البيت في الكتاب لسبويه (٢٦٢/٣)، ما ينصرف وما لا ينصرف للزجاج، ص ٦٦، فتح

- الذي هو عالم أنه لا يكون - صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لن يكون، ثم صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال بعده: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لِمَا سبق في علم الله من تشييطهم عنها، والله ثبطهم عنها بإرادته لحكمة ﴿وَلَكِنَّ كَرَهُ اللَّهِ أَيْعَافَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ وخروجهم إلى غزوة تبوك، الذي ثبطهم عنه، وسبق في علمه أنه لا يكون، صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿لَوْ حَرَجُوا فِيكَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: الآيتان: ٤٦، ٤٧]. وأمثال هذا في القرآن كثيرة. الله (جل وعلا) محيط علمه بكل شيء. وفي اسميه: (الحكيم، العليم) أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ويتبعوا تشريعه؛ لأن بحكمته يعلمون أنه لا يأمرهم إلا بما فيه الخير، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر، فلا يوقع لهم أمراً إلا في موقعه، ولا يضعه إلا في موضعه، وبإحاطة علمه: يعلمون أنه ليس هنالك غلط في ذلك الفعل، ولا عاقبة تنكشف عن غير ما أراد، بل هو في غاية الإحاطة والإحكام. وإذا كان من يأمرك عليم لا يخفى عليه شيء، حكيم في غاية الإحكام، لا يأمرك إلا بما فيه الخير، ولا ينهاك إلا عما فيه الشر، فإنه يحق لك أن تطيع وتمثل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: آية ٨٤]، صيغة الجمع في قوله ﴿وَوَهَبْنَا﴾ للتعظيم، ومعنى ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾: أعطيناه إياهما. وقد بين الله (جل وعلا) أن هبته إياه إسحاق كانت على كبر عظيم منه، وعلى كبر من امرأته، بحيث لا يحمل مثلها عادة، وأن الرسل الذين بُعثوا إلى قوم لوط لما نزلوا عنده، وذبح لهم عجله، وأنضجه، ونكّرهم لما رأى أيديهم لا تصل إليه وخاف منهم، في ذلك الوقت بشّروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق: يعقوب، بشّروه بأن امرأته تلد إسحاق، وأنه يُولد له يعقوب، حتى تَقَرَّبَ به أعينهما وهما حيان، كما نص الله عليه في سورة هود:

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلْتَرْزَنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [٧١] [هود: آية ٧١] حتى إن امرأته لشدة تعجبها من أنها تلد وهي عجوز فانية صرخت، وصكّت وجهها، كما قال تعالى في الذاريات: ﴿فَأَنبَتَ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرْرِ﴾ [الذاريات: آية ٢٩] يعني: في صيحة وضجة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لاستعجابها واستغرابها من هذا الخير، وكذلك قال عنها في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَوْنُلْنِي مَوْلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٢]. أما إسماعيل فقد أعطاه الله إياه قبل ذلك من سرّيته هاجر، كما هو مشهور في التاريخ، ولم يعطه إسماعيل أيضاً إلا بعد أن كبر وطعن في السن، كما نص عليه في سورة إبراهيم الخليل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٩]. إلا أن وقت بشارته بإسحاق كان كبيراً كبيراً شديداً، وامرأته عجوز فانية، أكبر من زمن إيتائه إسماعيل، وإن كان كبيراً عند الوقتين. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: آية ٨٤].

وآية هود هذه من النصوص الدالة على أن الذبيح: إسماعيل، وليس بإسحاق؛ لأن ذلك دل عليه القرآن في موضعين، وهو الصحيح. إلا أن الإسرائيليين يحكون إسرائيليّات كثيرة في أنه إسحاق، اغتر بها بعض من علماء المسلمين، فظن أنه إسحاق، وهو غلط، والتحقيق أن الذبيح: إسماعيل، وأن آية هود التي ذكرنا هي دليل قوي على ذلك، كما دلت عليه آية الصفات.

أما وجه دلالة آية هود لأن الله قال، وهو أصدق من يقول ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلْتَرْزَنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: آية ٧١] أي: وبشرناها بأن إسحاق - وهو ولدها - يلد يعقوب، وهو ولد ولدها، فبعد البشارة بالوحي الصادق أن إسحاق لن يموت حتى يلد يعقوب فليس من المعقول أن يؤمر بذبحه وهو صغير! وهذا معروف.

أما الآية الأخرى التي هي في الصفات فهي واضحة جداً في ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ إِنِّي أَذْهَبُكَ

فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٢﴾ [الصافات: آية ١٠٢] حتى جاء بقصة إسماعيل الذبيح تامة، قال بعدها لما أنهاها: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴿١٠٤﴾ [الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣]. فصار صريح القرآن أن الذبيح غير إسحاق، حيث قال في ذلك الغلام: ﴿يُقَالُ لِيَحْمِدُ ﴿١٠٥﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٦﴾ [الصافات: الآيتان ١٠١، ١٠٢] حتى انتهى من قصته، وجاء بقصة إسحاق مستقلة بعدها، حيث قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٧﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴿١٠٨﴾ ... [الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣]. وهذه الآية الكريمة يفهم منها معنى أوضحه الله في سورة مريم؛ ذلك أنه قال هنا إن إبراهيم سفع أحلام قومه، وعاداهم وكفرهم وذلهم، حتى اضطره ذلك إلى الخروج عنهم، والهجرة إلى بلاد الشام، كما يأتي في قوله: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴿١٠٩﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] وكان في قرية بسواد العراق تسمى (كوثي)^(١).

لما هجر قومه وخرج من الوطن في الله عوضه الله عنهم قرة عين تؤنسه، وهي الأولاد الصالحون الكرام، يخلفون له الوطن والأقارب؛ لأنه لما ذكر قصته معهم هنا قال بعدها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴿١١٠﴾ [الأنعام: آية ٨٤] فهذا يدل على أن إقرار عينه بالذرية الصالحين؛ لأنه هجر الوطن، وخرج عن القرباء والأحباء في الله، وقد أوضح الله هذا في سورة مريم حيث قال: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿١١١﴾ [مريم: آية ٤٩].

وفهم من هذه الآيات أن من هجر الأوطان والأقارب لله أقر الله عينه من ظهره بما يسليه عنهم^(٢)؛ ولذا قال هنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴿١١٢﴾ [الأنعام: آية ٨٤] نون التنوين عوض عن كلمة، أي: كل

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (١/١١٩).

(٢) في هذا المعنى انظر: البداية والنهاية (١/١٤٦)، تفسير ابن كثير (٢/١٥٤)، (٣/١٢٤).

واحد منهم هدينا، و﴿كَلَّا﴾ مفعول به ل﴿هَدَيْتَا﴾. وهذا تمام إقرار العين؛ لأن الولد إذا كان غير صالح لم يكن قرة عين، فهبته والنعمة به إنما تتم إذا كان مهدياً، لا إن كان غير مهدي؛ ولذا قال: ﴿كَلَّا هَدَيْتَا﴾.

ثم قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْتَا مِنْ قَبْلُ﴾ لما كانت قصة نوح شبيهة بقصة إبراهيم ذكره معه؛ لأن نبي الله نوحاً نشأ في قوم يعبدون الأصنام، وهو أول نبي أرسل لقوم يعبدون الأصنام، وجادلوه جداً في الأوثان ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٢) ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: الآيتان ٢٣، ٢٤] وكان يجادلهم في عبادة الأصنام حتى قالوا له: ﴿قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: آية ٣٢] وكان إبراهيم نشأ في قوم يعبدون أجرام السماء وأجرام الأرض كذلك، وخاصمهم مثل مخاصمة نوح، بين أنه هدى نوحاً من قبل إبراهيم، كما هدى إبراهيم، وهذا معنى قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْتَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: آية ٨٤]. (نوح): يسمونه (آدم الصغير)؛ لأنه ليس على الأرض إنسان إلا وهو من ذريته، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا مَبْتَغًى﴾ (٧٧) [الصافات: آية ٧٧] ونبي الله إبراهيم لم يكن بعده نبي إلا وهو من ذريته، فالأنبياء الذين ليسوا من ذريته: إما من سبقه، وإما من كان معاصراً له، كلوط ابن أخيه، أما من بعده فهم جميعهم من ذريته، فالأنبياء من ذرية نوح وإبراهيم، فالذي لم يكن من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح، وإبراهيم من ذرية نوح، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: آية ٢٦] وقال في سورة العنكبوت في إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ الآية [العنكبوت: آية ٢٧] ولذا قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْتَا مِنْ قَبْلُ﴾، ﴿نُوحًا﴾: مفعول به ل﴿هَدَيْتَا﴾ مقدماً عليه.

وأهل التاريخ يزعمون أن (نوحاً) أنه: ابن لمك بن متوشلخ بن خنوخ^(١). ويزعمون أن خنوخ هو إدريس^(٢). هكذا يقولون. ويزعمون أن

(١) (٢) انظر: البداية والنهاية (١/١٠٠)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/١٩٠).

إبراهيم بن تارح. هذا المعروف في التاريخ، يقولون: إنه ابن تارح بن ناحور بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح^(١). هكذا يقول المؤرخون، وهي أمور تُذكر في التاريخ شبه الإسرائيليات، لم يَقم على ضبطها وتحقيقها دليل. وهذا معنى قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: وهدينا من ذريته داود. فهذا معطوف على معمول ﴿هَدَيْنَا﴾. أي: وهدينا من ذريته داود.

واختلف العلماء في الضمير في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾^(٢) قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم؛ لأنه هو المُحدَّث عنه^(٣)، وهذا في حجاجه مع قومه، والآيات كلها فيه. وقال بعض العلماء: الضمير راجع إلى نوح. والذين قالوا: «يرجع إلى نوح» عضدوه بأمرين:

أحدهما: أنه هو أقرب مذكور، والضمير يرجع لأقرب مذكور^(٤).
الثاني: أن هؤلاء الرسل الذين قيل من ذريته ذكر فيهم لوط، ولوط ليس من ذرية إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وذكر فيهم يونس، وأكثر المؤرخين أن يونس ليس من ذرية إبراهيم، وإن زعم قوم أنه منه، ولا يكاد يختلف المؤرخون أن لوطاً ليس ابن إبراهيم، وإنما هو ابن أخيه؛ لأن لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم^(٥). قالوا: لو كان الضمير لإبراهيم لما ذكر لوطاً؛ لأنه ليس من ذريته. واختار أن الضمير راجع إلى نوح، اختاره ابن

(١) في تاريخ ابن جرير (١١٩/١): «إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح».

وهو في البداية والنهاية (١٣٩/١) مع بعض الاختلافات (إبراهيم بن تسارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح) وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٤٤/٣).

وراجع التنبيه المذكور سابقاً في الحاشية عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٥٠٧/١١)، القرطبي (٣١/٧)، البحر المحيط (١٧٣/٤)، الدر المصون (٢٧/٥).

(٣) انظر: قواعد الترجيح (٦٠٣/٢).

(٤) المصدر السابق (٦٢١/٢).

(٥) انظر: تاريخ الطبري (١٥٠/١).

جرير^(١) لِيَذْكُرَ لوط؛ ولأن نوحاً أقرب إلى الضمير من إبراهيم. وعن ابن عباس: أن الضمير لإبراهيم^(٢)، وأن يونس من أنبياء بني إسرائيل، أو من ذرية إبراهيم، خلاف ما يزعمه أكثر المؤرخين، وأن لوطاً جعل من ذريته تغليبا؛ لأنه ابن أخيه، فجعل من ذريته تغليبا؛ كما جعل إسماعيل أباً له تغليبا، لما ذكرت آباؤه، وهو عمه. هكذا يقولون^(٣).

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ أي: وهدينا من ذريته. أي: إبراهيم، أو نوح على الخلاف الذي ذكرنا.

﴿دَاوُدَ﴾ هو نبي الله داود، وهو أول من جمع من أنبياء بني إسرائيل بين المُلْك والنبوة. وهو داود بن إيشى، يزعمون أنه ابن إيشى بن عوبد. على كل حال لهم أسماء يختلف فيها المؤرخون^(٤)، عجمية، وعلى كل حال داود يقولون: هو داود بن إيشى بن عوبد. يزعمون أنه من سبط يهوذا. هكذا يقولون: ﴿وَسُلَيْمَنَ﴾ ولده.

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ أكثر المؤرخين يقولون: إن أيوب بن موص، وأنه من ذرية عيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفيه غير ذلك^(٥).

﴿يُوسُفَ﴾: هو يوسف نبي الله ابن يعقوب. ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾

(١) انظر تفسير ابن جرير (٥٠٧/١).

(٢) ذكره في الدر المنثور (٢٨/٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر القرطبي (٣١/٧).

(٤) في تاريخ ابن جرير (٢٤٧/١) «داود بن إيشى بن عوبد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى نادب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠٥/٨).

وفي البداية والنهاية: (٩/٢) «داود بن إيشا بن عوبد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب...».

(٥) في تاريخ ابن جرير (١٦٥/١): «أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم» وذكر قولين آخرين. وانظر تفسير ابن جرير (٥٠٨/١١) البداية والنهاية (٢٢٠/١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠٥/٥).

معروفان، أبناء عمران، وعمران: - يزعمون - ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب^(١).

ويعقوب: بن إسحاق بن إبراهيم. كما هو معروف.

وهؤلاء الأنبياء - كل هؤلاء المذكورين - لهم قصص معروفة في القرآن، بينها الله جل وعلا.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ كما هدينا هؤلاء الرسل الكرام، ووفقناهم لطريق الصواب: كذلك الجزاء نجزي المحسنين، فنهديهم ونوفقهم إلى ما يرضينا. والمحسنون: جمع المُحْسِن، وهو اسم فاعل الإحسان. والإحسان هو: الإتيان بالعمل حسناً. وطريق الإتيان بالعمل حسناً بينها النبي ﷺ في قوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

والآية تدل على أن من أحسن العمل لله زاده الله هدى؛ لأن التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي﴾ عائد إلى الهدى في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ أي: وهدينا من ذريته داود. كذلك الهدى والتوفيق نجزي ذلك الجزاء الحسن ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ مثل ذلك الجزاء؛ لأن من آمن بالله وأحسن العمل زاده الله هدى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: آية ١٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: آية ٨٥] يعني: وهدينا أيضاً زكريا ويحيى. قرأه أكثر القراء: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ بهمزة. وقرأه بعض الكوفيين ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ بلا همزة. وهما قراءتان سبعيتان معروفتان^(٣).

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/١٩٨)، وكذا التفسير له (٥٠٨/١١)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٠٠/٢٥).

وفي البداية والنهاية (١/٢٣٧): «موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب».

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الكشف لمكي (١/٣٤١-٣٤٢)، الإقناع في القراءات السبع (٢/٦١٩)، النشر (٢/٢٣٩).

وأكثر المؤرخين يقولون: إن زكريا بن برخيا^(١). وهو من ذرية سليمان بن داود (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام). قص الله قصصه في سورة مريم^(٢)، وسورة آل عمران^(٣)، والأنبياء^(٤)، وغيرها.

﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يحيى: هو ابن زكريا، وقصته معروفة بينها في آل عمران، وستأتي في سورة مريم. وعيسى: هو عيسى بن مريم.

وذكر عيسى هنا أخذ العلماء منه حكماً فقهياً معروفاً، وهو أنه إذا قال رجل: «هذا وقف على ذريتي». أو أوصى لذريته، أن أولاد البنات يدخلون؛ لأن عيسى ولد بنت؛ لأنه لا يدلي إلى إبراهيم - الذي إليه الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ (أو نوح، على القول بأن الضمير له)^(٥). لا يدلي بواحد منهما بـ ٨/ب - إلا بيته مريم؛ لأنه لا أب له. / فالله (جل وعلا) أدرجه في اسم الذرية، ومن هنا يُعرف أن أولاد البنات من الذرية، وهذه المسألة التي هدد الحجاج عليها يحيى بن يعمر، قال له: أنقول إن الحسن والحسين (رضي الله عنهما) من ذرية النبي ﷺ؟ قال: نعم. وأنه قال له: إن لم تجتني بدليل من كتاب الله فعلت بك وفعلت. قال: أنقرأ في سورة الأنعام؟ قال: نعم، قال: قال الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ ثم إلى أن قال ﴿وَعِيسَى﴾ وعيسى ابن بنت^(٦). وهذا صريح في دخول

(١) في تفسير ابن جرير (٥٠٨/١١): «زكريا بن إدو بن برخيا». وفي مختصر تاريخ دمشق (٤٥/٩): «زكريا بن حنا. ويقال: زكريا بن دان. ويقال: زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوف». وقيل: زكريا بن برخيا. انظر البداية والنهاية (٤٧/٢).

(٢) كما في الآية ٢ من سورة مريم. وهي قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا﴾ والآيات بعدها.

(٣) كما في الآية ٣٨ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكِرِيَّا رَبَّهُ﴾ والآيات بعدها.

(٤) كما في الآية ٨٩ من سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿وَزَكِرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ والآيات بعدها.

(٥) انظر: القرطبي (٣١/٧ - ٣٢)، ابن كثير (١٥٥/٢)، البحر المحيط (١٧٣/٤).

(٦) هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٥/٤) ونقله ابن كثير (١٥٥/٢)، وهو في الدر المنثور (٢٨/٣).

ابن البنت في الذرية، وعلى هذا أكثر العلماء^(١). على أنه لو أوصى للذرية، أو وقف عليهم، أن أولاد البنات يدخلون لهذه الآية.

واختلفوا في البنين والأولاد^(٢)، لو قال: «هذا وقف على بني، أو على ولدي». قال جماعة: يدخل أولاد البنات في لفظ الأبناء؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه في الصحيح أنه قال في الحسن بن علي (رضي الله عنه): «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من أمتي». الحديث المشهور^(٣). قالوا: سماه ابناً، وهو ابن بنت. وقال بعض العلماء: تسميته هنا ابناً ليست على حقيقتها؛ لأن الله يقول: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: آية ٤٠] فالله نفى هذه البنوة، فدل على أنها كقول الرجل للقريب: «يا بني». وكذلك لو قال: «وقف على ولدي». أو أوصى لولده. أكثر العلماء على أن أولاد البنات لا يدخلون؛ لأن الشاعر يقول^(٤):

بُنُونًا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبَاعِدِ

ولإجماع من يُعتد به من العلماء في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: آية ١١] أنه لم يقل أحد إنه يدخل فيها أولاد البنات فيكونون عاصبين كأولاد الذكور. ومن هنا قالوا: لما قال الله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ ولم يدخل في الميراث أولاد البنات في هذه الآية: عُرف أنه إذا قال: «وقف على ولدي، أو: أولادي». لم يدخل فيه أولاد البنات، كما هو معروف.

وقوله: ﴿عِيسَى﴾ هو عيسى ابن مريم الذي خلقه الله بقدرته من غير أب

(١) في هذه المسألة: انظر المدونة (١٠٣/٦)، كتاب الوقوف للخلال (٤٠٧/١ - ٤١٢)، المجموع (٣٥٢/١٥)، المغني (٢٠٢/٨)، الإنصاف (٧٩/٧). القرطبي (١٠٤/٤) (٣٢/٧)، ابن كثير (١٥٥/٢)، البحر المحيط (١٧٣/٤).

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي (رضي الله عنهما): «إن ابني هذا سيد...»، حديث (٢٧٠٤) (٣٠٦/٥). وأخرجه في مواضع أخرى من الصحيح، انظر الأحاديث: (٣٦٢٩، ٣٧٤٦، ٧١٠٩).

(٤) البيت في المجموع للنووي (٣٥٣/١٥)، المغني (٢٠٤/٨)، الخزانة (٢١٣/١). ونسبه بعضهم للفرزدق.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: آية ٥٩]. ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ إسماعيل على التحقيق: هو نبي الله إسماعيل بن إبراهيم، جد النبي ﷺ. وقال قوم: هو نبي آخر من بني إسرائيل^(١). والذين قالوا هذا قد غلطوا. والتحقيق أنه إسماعيل، وأنه رسول كريم، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: آية ٥٤]. والمؤرخون يقولون: إنه أرسل إلى قبيلة جرهم من العرب البائدة^(٢).

وقوله: ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ المؤرخون يقولون إنه: إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران أخي موسى^(٣). هكذا يقولون، والله تعالى أعلم. وقد ذكر الله قصته في آيات من كتابه، وبين أنه رسول كريم، وبين في سورة الصافات حاجته لقومه في قوله: ﴿وَإِلَّا إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٢٣] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴿١٢٦﴾ [الصافات: الآيات ١٢٣ - ١٢٦] إلى غير ما ذكر من خبره.

وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء الأنبياء الذين هديناهم من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. والصالحون جمع الصالح، وهو من كانت أعماله ونياته صالحة لله (جل وعلا)، والصلاح يتفاوت متفاوتاً كثيراً.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَانَ قَدْ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٨٦] ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حمزة، والكسائي: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾. وقرأه حمزة والكسائي: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَاللَّيْسَعَ﴾ بتشديد اللام وسكون الياء وهما قراءتان سبعيتان معروفتان^(٤). أي: وهدينا إسماعيل، وهدينا الليسع، وهدينا اليسع. بعض العلماء يقول: اليسع هو يوشع بن نون. وأكثر المؤرخين

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٤/٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٩٣/١).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢٣٩/١)، والتفسير له (٥٠٩/١١)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٣/٥).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٨.

يقولون: إنه اليسع بن أخطوب بن العجوز^(١). والله (جل وعلا) ذكره في مواضع من كتابه في جملة الأنبياء.

وقوله: ﴿وَيُؤَسِّسُ﴾ هو نبي الله يونس بن متى، أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، في بلد (نَيْنَوَى) من بلاد الموصل. وقصته مشهورة، ذكرها الله في آيات كثيرة من كتابه. أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، ولم يرسل الله نبياً لقوم إلا كذبوه وأهلكهم الله بعذاب مستأصل، ولم يُسْتَنْ من هذا أحد إلا الجماعة الذين أرسل إليهم نبي الله يونس بن متى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). سيأتيكم في مواضع في الصفات، وفي القلم، وغيرها: أن نبي الله يونس لما كذبه قومه وعدهم بالهلاك، وأن العذاب ينزل عليهم، وخرج عنهم، وسافر من قبل أن يأذن له ربه، كأنه ضجر منهم وعجل. وذلك الضجر والعجلة هو الذي نهى الله عنه نبينا محمداً ﷺ في سورة القلم، مؤدباً له بالتأني والحمل والصبر، قال: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني يونس بن متى ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: آية ٤٨] حيث ضجر وعجل.

زعم بعض المفسرين أنه كان شرعهم ونظامهم أن من جُرِب عليه الكذب أنهم يقتلونه. هكذا زعموا، وأن نبي الله يونس وعدهم بالعذاب، والله (جل وعلا) جاءهم بالعذاب، فلما أظلمهم وعابنوا أوائله خافوا خوفاً عظيماً، وأنابوا إلى الله إنابة صادقة، وتوبة عظيمة، وضجوا جميعهم، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الآدميين والحيوانات، وصار الجميع يضح مبتهلين إلى الله، فرفع الله عنهم العذاب، ولم يوجد هذا لناس غيرهم أبداً، كما نص الله عليه في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤَسُّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: آية ٩٨] فقولُه هنا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الظاهر أنه ما كشف عنهم خزي العذاب في الحياة الدنيا إلا وهو يكشفه عنهم في الآخرة إذا داموا ولم ينكثوا^(٢). ويدل عليه الإطلاق في

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٥١٠/١١)، البداية والنهاية (٤/٢) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣٧/٢٨).

(٢) انظر: ابن كثير (٤٣٣/٢)، البداية والنهاية (٢٣٢/١).

الصفات في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٧) ﴿فَاتَمُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ (١٨) ﴿إِنْ حِجَابٍ﴾ [الصفات: الآيتان ١٤٧، ١٤٨] فلما سَلِمُوا ولم يأتهم العذاب كان نبي الله يونس زعم أنه إن رجع إليهم قالوا: قلت: إنا نهلك بالعذاب ولم نهلك، فقد جربنا عليك الكذب. فخرج من غير إذن، فدخل في البحر، فلما دخل معهم في البحر وقفت السفينة ولم تمش، فقالوا: لعل فيها عبداً أبق على ربه، هنا عبد أبق على ربه، فاجعلوا القرعة نقترع، فإن سقطت القرعة على واحد ألقيناه في البحر، فهو العبد الأبقر على ربه. فصاروا كلما اقترعوا تسقط القرعة على يونس. فقالوا: هذا العبد أبقر على ربه؛ لأنه خرج بغير إذن^(١). كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١٩) ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (٢٠) [الصفات: الآيتان ١٤٠، ١٤١] يعني كان سهمه داحضاً؛ لأنه هو الذي تأتي القرعة أنه يُرمى في البحر. فرموه في البحر ﴿فَالْقَمَّةُ الْخَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٢١) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِينَ﴾ (٢٢) ﴿لَكُنْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢٣) [الصفات: الآيات ١٤٢ - ١٤٤] كما قص الله قصته في آيات من كتابه، وهو نبي الله يونس بن متى. والمؤرخون لا يكادون يصلون له نسباً إلى محله، وهو ابن متى كـ(حَتَّى) أرسل لجماعة في (نَيْنَوَى) من بلاد الموصل، هكذا يقولون.

وقوله: ﴿وَلُوطًا﴾ هو نبي الله لوط ابن أخي إبراهيم، وقد هاجر معه من بلاد العراق، إلى بلاد الشام، مُهَاجِرَ إبراهيم، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَقَامَ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] بعض المؤرخين يقولون: هاجر معه^(٢)، وبعضهم يقول: لم يهاجر معه. واستدل بما ثبت في الصحيح أن إبراهيم قال لسارة: ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك^(٣). وعلى كل حال: الله بين أن لوطاً آمن بإبراهيم.

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (٤٣/٢).

(٢) انظر تاريخ الطبري (١٥٠/١)، البداية والنهاية (١٥٠/١).

(٣) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

والمعروف في التاريخ أنه هاجر معه إلى الشام، ثم إن الله أرسل لوطاً إلى قري (سدوم)، كما هو معروف.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وكلاً من أولئك الأنبياء فضلنا على العالمين، عالمي زمانهم^(١)، فلا يلزم من ذلك تفضيلهم على من بعدهم كالنبي ﷺ، فإنه أفضلهم.

وكان بعض العلماء^(٢) يقول: آية الأنعام هذه مما استدل به العلماء على أن الأنبياء من الآدميين أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون في اسم ﴿الْعَالَمِينَ﴾، بدليل قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُفُومُ الَّذِينَ كَفَرُوا كُنُفٌ مُّوَقِنَةٌ ﴿٢٤﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] قالوا: والله فضلهم على العالمين، والتفضيل بين الرسل والملائكة معروف عند العلماء^(٣)، ولم يقم عليه دليل قاطع، ولا حاجة لنا فيه. لو لقي الإنسان ربه وهو لم يبحث في التفضيل بينهم لم يسأله عن ذلك، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٧] قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ معطوف على معمول (هدينا) أي: وهدينا أيضاً من آبائهم وذرياتهم. ودل بـ(من) على أن مفعول (الهداية) البعض. أي: وهدينا أيضاً بعض ذرياتهم. ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ لما بين الله هؤلاء الرسل الكرام ذكر أنه هدى بعض أصولهم وفروعهم، وبعض حواشيهم. فبعض الأصول كآدم وإدريس، وبعض الفروع كأولادهم من الطيبين، وبعض الحواشي كإخوة يوسف ومن جرى مجرى ذلك. أي: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم.

(١) انظر: ابن جرير (٥١٢/١١).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٧٤/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

﴿وَأَجَبْتُمْ﴾ أي: اجتبينا هؤلاء الرسل المذكورين. والاجتباء: الاصطفاء والاختيار. أي: اخترناهم واصطفيناهم ﴿وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. أي: وفقناهم وأرشدناهم إلى صراط مستقيم. والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح^(١). والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه^(٢) ومنه قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز^(٣):

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ
وهذا الصراط المستقيم، أي: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه: طريق دين الإسلام، دين الحنيفية السمحة، التي بعث الله بها إبراهيم، وحاصلها: اعتقاد نافع، اعتقاد بجميعه لله (جل وعلا) وما يجب اعتقاده، مع امتثال الأمر، واجتناب النهي بإخلاص، مطابقاً للوجه الذي شرعه الله (جل وعلا).

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: آية ٨٨] ذلك الهدى الذي هدى الله به هؤلاء الأنبياء الكرام المذكورين في سورة الأنعام هو هدى الله، ولا هدى إلا هدى الله، كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: آية ١٢٠].

﴿يَهْدِي بِهِ﴾ أي: بهداه من يشاء أن يهديه من عباده. ومفهوم مخالفة الآية: أن من لم يشأ أن يهديه فلا هادي له؛ لأن من هداه الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له. فالهداية والإضلال كلها بمشيئته وحده (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ومفعول ﴿يَشَاءُ﴾ محذوف. أي: من يشاء هدايته من عباده.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هؤلاء الرسل الكرام الذين هداهم الله لو أشركوا بالله غيره، وعبدوا معه غيره، كما كان أبو إبراهيم

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١/١٧٠)، المحتسب (١/٤٣)، الدر المصون (١/٦٤).

يُرَاوِدُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَرْجِعَ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، لَوْ أَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرِهِ لِحَبْطِ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَبَطَلَ جَمِيعُ مَا عَمَلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الشَّرْكَ كُفْرٌ يَبْطُلُ جَمِيعُ الْحَسَنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخَاطِباً لَنَبِيِّنَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ الزَّمَرِ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: آية ٦٥]، وهذه الآية الكريمة تدل على أن الشرك - والعياذ بالله - مَحْبُطَةٌ لِلْعَمَلِ، وَأَنَّهُ يُبْطَلُ جَمِيعُ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ^(١).

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَخَذَ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ (رَحِمَهُ اللَّهُ) فِرْعَاً فَقَهِيماً، قَالَ: إِنْ الرَّجُلُ إِذَا ارْتَدَّ بَانَتْ مِنْهُ زَوْجَتُهُ^(٢). تَارَةً يَقُولُ: بِفَسْخِ، وَتَارَةً يَقُولُ: بِطُلُقٍ بَائِنَةٍ. لِأَنَّ ذَلِكَ النِّكَاحَ الَّذِي عَمِلَ مِنْ عَمَلِهِ، وَقَدْ أَشْرَكَ، وَإِذَا أَشْرَكَ حَبِطَ جَمِيعُ مَا كَانَ يَعْمَلُ، حَتَّىٰ مَعَاشِرَتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَ تِلْكَ الْمُؤْمَنَةَ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَبِكِتَابِ اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا)، وَالشَّرْكَ يَحْبِطُ ذَلِكَ^(٣).

وَهُنَا بَحْثٌ أَصُولِيٌّ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ الْمَقْرَرَةَ فِي الْأَصُولِ: أَنَّهُ إِذَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَصٌّ مُطْلَقٌ، ثُمَّ جَاءَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مُقَيِّداً، فَالْجَمَاهِيرُ عَلَى أَنَّهُ يُحْمَلُ الْمَطْلُوقُ عَلَى الْمَقْيَدِ^(٤). وَإِحْبَاطُ الشَّرْكَ لِلْأَعْمَالِ جَاءَ مُطْلَقاً فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَجَاءَ مُقَيِّداً فِي آيَةٍ أُخْرَى، فَمِنْ الْآيَاتِ الْمَطْلُوقَاتِ: قَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: آية ٦٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥] هَذِهِ الْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ بِاللَّهِ يَحْبِطُ الْعَمَلَ مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ. وَهَذَا إِذَا كَانَ مُسْلِماً ثُمَّ ارْتَدَّ. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّ مَحَلَّ إِحْبَاطِ الْإِشْرَاقِ، وَالرَّجُوعِ لِلْكَفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ، مَحَلَّ إِحْبَاطِهِ لِلْعَمَلِ مَا إِذَا مَاتَ عَلَى

(١) انظر: الأضواء (٧/٢)، (٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (٦٧/٢).

(٣) انظر: القرطبي (٤٨/٣)، (٢٧٧/١٥).

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٤١٦/٣)، أضواء البيان (١٩٦/١)، ١٩٧، ٢٦٤، ٢٨١، ٧/٢، ٣٠، ١٢٧، ١٣٨، وغير ذلك من المواضع.

ذلك، حيث قال: ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٧] فقيده بقوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

وذهب مالك في جماعة من العلماء إلى أن الآيات المطلقة هنا على بابها، قال: إذا ارتد الإنسان حبط جميع عمله، وبطلت حجة الإسلام - إن كان حجها - وبانت منه امرأته. وإذا راجع الإسلام ليس عليه قضاء فائت من صوم ولا صلاة؛ لأن جميع أعماله حبطت.

وذهبت جماعة من العلماء، منهم محمد بن إدريس الشافعي (رحمه الله)، إلى أن الكفر بعد الإيمان، والإشراك بعد الإسلام، لا يحبط جميع عمله إلا إذا مات على الكفر^(١). بدليل القيد الذي في قوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

وقول الشافعي في هذه المسألة أجرى على الأصول؛ لأن المقرر في الأصول: أنه إذا جاء نص من كتاب الله عاماً أو مطلقاً، وجاء مقيداً في موضع آخر، فله عند العلماء حالات^(٢): تارة يكون الحكم والسبب واحداً، وتارة يكون الحكم واحداً دون السبب، وتارة يكون السبب واحداً دون الحكم، وتارة لا يتحد حكم ولا سبب.

فإذا كان الحكم والسبب متحدين فجمهور العلماء على أن المطلق يُحمل على المقيد، وأنه يقيد بقيدته؛ ولأجل هذا فقد جاءت في تحريم الدم أربع آيات من كتاب الله، ثلاث منها مُطْلَقَات، وواحدة مقيدة:

أما المُطْلَقَات: فقوله في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [النحل: آية ١١٥] وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: آية ٧٣] وقوله في سورة المائدة:

(١) انظر: القرطبي (٤٨/٣)، (٢٧٧/١٥).

(٢) في هذه المسألة راجع: البحر المحيط (٤١٦/٣)، شرح مختصر الروضة (٦٣٥/٢)، شرح الكوكب (٣٩٥/٣)، المذكرة في أصول الفقه ٢٣٢، نثر الورود (٣٢٣/١).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] فالدم في آية النحل، وآية البقرة، وآية المائدة، مطلق عن قيد.

وقد جاء في سورة الأنعام هذه مقيداً بالمسفوحية، في قوله: ﴿لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] وجماهير العلماء على أن القيد بالمسفوحية في الأنعام يقيد به إطلاق الآيات في النحل والبقرة والمائدة؛ ولذا أطبق من يُعتمد به من العلماء على أن الحُمرة التي تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم أنها لا تنجسه؛ لأن ذلك الدم غير مسفوح، خارج بقيد المسفوحية في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [البقرة: آية ١٤٥] وهذا يدل على أن العلماء يحملون المطلق على المقيد، ولو كان المقيد هو السابق نزولاً؛ لأن القيد في آية الأنعام، وهي نازلة قبل البقرة، وقبل المائدة، وقبل النحل. أما نزولها قبل المائدة والبقرة فهو معروف؛ لأن سورة الأنعام نازلة قبل الهجرة بلا خلاف، إلا آيات معروفة منها^(١). والمائدة والبقرة من القرآن المدني بالإجماع، نزلتا في المدينة بعد الهجرة، والمائدة من آخر ما نزل، وفيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] بقيت: النحل والأنعام، هما مكيتان على التحقيق، إلا أن القرآن دل في موضعين على أن سورة الأنعام نازلة قبل سورة النحل، وهي التي فيها القيد، والموضعان الذي دل القرآن فيهما على أن الأنعام نازلة قبل النحل: أن الله قال في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النحل: آية ١١٨] وهذا المحرم المحال، المقصوص عليه من قبل، في سورة الأنعام بلا خلاف، في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الآية [الأنعام: آية ١٤٦]. الموضع الثاني: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٨] فبين أنهم سيقولون هذا

(١) انظر: القرطبي (٣٨٢/٦)، ابن كثير (١٢٢/٢)، مصاعد النظر (١١٥/٢).

في المستقبل، وأنهم لم يقولوه فعلاً. وبين في سورة النحل أن ذلك القول الموعود به في المستقبل أنه وقع فعلاً في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الآية. [النحل: آية ٣٥] فهذا دل على أن النحل بعد الأنعام. والمائدة والبقرة بعدها بلا نزاع. فتبين أن المطلق يُحمل على المقيد، ولو كان المقيد سابقاً نزولاً. هذا هو المعروف عند العلماء.

أما إذا اتحد حكمهما واختلف سببهما: فكثير من العلماء - منهم أكثر الشافعية، والحنابلة، وجماعة من المالكية - أن المطلق يحمل على المقيد في هذه.

ومثال ما اتحد حكمه واختلف سببه: قوله (جل وعلا) في كفارة القتل خطأ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: آية ٩٢] فقيد الرقبة بالإيمان، وأطلقها عن قيد الإيمان في كفارة اليمين، وكفارة الظهار حيث قال في كفارة اليمين في سورة المائدة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: آية ٨٩] ولم يقل: مؤمنة. وقال في الظهار في سورة المجادلة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ [المجادلة: آية ٣] ولم يقل: مؤمنة. فالحكم هنا واحد، وهو التكفير بتحرير رقبة، والسبب مختلف؛ لأن المقيد سببه: القتل خطأ، والمطلق سببه: إما حنث في يمين، وإما ظهار. وأكثر العلماء من الشافعية والمالكية والحنابلة يقولون: يُحمل المطلق هنا على المقيد، فيشترط في كفارة الظهار وكفارة اليمين الإيمان. خلافاً للإمام أبي حنيفة - رحمه الله على الجميع - قال في مثل هذه: لا يُحمل، ولو أعتق الحانث في اليمين أو المظاهر رقبة غير مؤمنة لأجزأته؛ لأن القيد في كفارة القتل خطأ، وهذه مطلقة.

ومثال عكس هذا: وهو ما إذا اتحد السبب واختلف الحكم، في مثل هذه يخالف الحنابلة، ويقولون: لا حمل في هذه. ويبقى المالكية والشافعية يقولون: فيها الحمل. ومثل الحنابلة لهذا، قالوا: الله (جل وعلا) في كفارة الظهار قيد بكونها قبل المسيس بالعتق والصوم، قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ [المجادلة: آية ٣] وقال في الصوم: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ

قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَّ^١ [المجادلة: آية ٤] وأطلق الإطعام عن كونه قبل المسيس، مع أن السبب في الجميع واحد، وهو الحنث في الظهر، والحكم مختلف؛ لأن هذا عتق، وهذا إطعام، وهذا صوم، فلا يُحمل المطلق على المقيد، فيجوز أن يعطي الطعام بعد المسيس، ولا يشترط في الطعام أن يُقال فيه: من قبل أن يتماسا. وقال غيرهم: إن هذا يُحمل فيه المطلق على المقيد. قالوا: ومثاله قوله في سورة المائدة، قال الله جل وعلا: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ﴾ [المائدة: آية ٨٩] فقيد الإطعام بكونه من أوسط ما تطعمون، ثم قال: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ ولم يقيد الكسوة بكونها من أوسط ما تكسون أهليكم. قالوا: فنحمل المطلق على المقيد، ونقول: إن الكسوة من أوسط ما تكسون أهليكم. كما قاله جماعة من العلماء. والحكم هنا مختلف؛ لأن المطلق: كسوة، والمقيد: إطعام، إلا أن السبب واحد، وهو الحنث في كفارة اليمين.

ومحل هذه الأقوال ما إذا كان المُقَيَّدُ واحداً، أما إذا كان هناك مطلق وهناك مُقَيَّدَيْنِ بقيدين مختلفين، فلهما حالتان^(١): إن كان المُقَيَّدَانِ بقيدين مختلفين ليس أحدهما أقرب للمطلق، فلا يُحمل على واحد منهما. وإن كان أحدهما أقرب للمطلق، فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المطلق يُحمل إلى أقرب المُقَيَّدَيْنِ له، ويقيد بقيده.

مثال ما إذا كان أحدهما أقرب: أن الله (تبارك وتعالى) ذكر صوم أيام اليمين، قال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَحْدِ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: آية ٨٩] وأيام اليمين لم يقيدها بتتابع ولا بتفريق، مع أنه جاء هنالك صوم مقيد بالتتابع، وهو صوم الظهر في قوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: آية ٤] وجاء هناك صوم آخر مقيد بالتفريق، وهو صوم التمتع؛ لأن الله قيده بالتفريق، حيث قال: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعْيٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٦] فقيد صوم الظهر بالتتابع، وقيد صوم التمتع بالتفريق، وأطلق صوم كفارة اليمين، لم يقيده بتتابع ولا بتفريق.

(١) انظر: مذكرة أصول الفقه ٢٣٤، نشر الورود (١/٣٢٧).

وقراءة ابن مسعود: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾^(١) لم تثبت قرآنًا. وإذا لم يأت بها إلا على أنها قرآن، وبطل كونها قرآنًا بطل الاحتجاج بها عند من يقول بذلك، خلافاً لجماعة آخرين^(٢). قال بعض العلماء في هذه: نحمل الإطلاق في كفارة اليمين على أقربهما لها، والظهار أقرب لليمين من التمتع؛ لأن الظهار واليمين كلاهما كفارة، والتمتع أبعد منهما.

ومثال ما لم يكن أقرب لواحد منهما: أن الله قيد صوم الظهار بالتتابع، وقيد صوم التمتع بالتفريق، وأطلق قضاء رمضان، ولم يقيد بتتابع ولا تفريق قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] ولم يقيد قضاء صوم رمضان الفائت بمرض أو سفر، لم يقيد بتتابع ولا تفريق، حيث قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، من غير أن يقول: متتابعات، ولا متفرقات، مع أن صوم الظهار مقيد بالتتابع. وصوم التمتع مقيد بالتفريق. فنقول: قضاء رمضان، الذي هو المطلق عن قيد التتابع أو قيد التفريق ليس أقرب إلى الظهار ولا إلى التمتع، فليس بأقرب لهذا وهذا، فلا نقيده بقيد التفريق ولا نقيده بقيد التتابع، فيبقى مطلقاً، من شاء تابعه، ومن شاء فرقه، إلا أن جماعة من العلماء قالوا: يُندب تنابعه. والله تعالى أعلم.

يقول الله جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾^(٣) [الأنعام: آية ٨٩] قرأه أكثر القراء ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ بالإدغام، وقرأه نافع: ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ بتحقيق الهمزة^(٣).

الإشارة في قوله ﴿ص﴾ إلى الأنبياء الكرام المذكورين في قوله:

(١) انظر تفسير ابن جرير (٥٥٩/١٠ - ٥٦٠).

(٢) في هذه المسألة راجع: المستصفى (١٠٢/١)، تفسير القرطبي (٤٧/١)، الفتاوى (٣٩٤/١٣، ٣٩٧)، (٢٦٠/٢٠)، البحر المحيط للزركشي (٤٧٥/١)، النشر (٥٣/١ - ٥٤)، شرح الكوكب المنير (١٣/٢، ١٣٦)، أضواء البيان (٢٤٨/٥)، المذكرة في أصول الفقه ٥٦، قواعد التفسير (٩٢/١).

(٣) انظر: السبعة لابن مجاهد (١٥٧ - ١٥٨)، الإقناع لابن الباذش (٤٠٣/١)، النشر (٣٨٣/١)، الموضح لابن أبي مريم (٢٧٨/١)، الكشف لمكي (٢٤٣/١ - ٢٤٥)، إتحاف فضلاء البشر (٣٩٥/١ - ٣٦٠).

﴿وَتُوحَا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ [الأنعام: آية ٨٤] إلى آخر من عدّ منهم. أولئك الرسل الكرام: نوح، وإبراهيم، ومن ذكر معهم ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعطيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب، الصادق بصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، ونحو ذلك. وهذا معنى قوله ﴿أُولَئِكَ﴾ الرسل المذكورون ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي: أعطيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: جنسه الصادق بالكتب المنزلة عليهم.

وقوله: ﴿وَالْحُكْمَ﴾، قال بعض العلماء: الحكم هو الفهم في الدين، والفصل بين الخصوم. ومعنى الحكم على هذا: هو فهم الكتاب، والاطلاع على دقائقه^(١)، والعمل بما فيه.

وقوله: ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ هو مصدر معنوي، معناه: أن الله جعلهم أنبياء. والنبوة أصلها من (النبأ)، و(النبأ) في لغة العرب: الخبر الذي له شأن وخطب. لا تكاد العرب تطلق (النبأ) إلا على الخبر الذي له شأن. تقول: «جاءنا نبأ الأمير». ولا تقول: «جاءنا نبأ حمار الحجام»؛ لأن هذا لا شأن له ولا خطب. فالنبأ أخص من الخبر؛ لأن كل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ؛ لاختصاص (النبأ) عادة بالخبر الذي له شأن؛ وذلك لأن الأنبياء يخبرهم الله عن طريق الوحي أخباراً لها شأن وأمر عظيم، خلافاً لمن زعم أن (النبوة) و(النبي) أنها من (النُّبُوَّة) بمعنى: الارتفاع؛ لارتفاع شأنهم بما أوحاه الله إليهم. وهذا معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءَ﴾ الضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ قال بعض العلماء: عائد إلى النبوة؛ لأنها أقرب مذكور^(٢). فإن يكفر بالنبوة، كنوبة محمد ﷺ، التي هي من جنس نبوتهم، كما صرح به في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: آية ١٦٣] وقال بعض العلماء: الضمير في ﴿بِهَا﴾ راجع إلى المذكورات الثلاث، وهي: النبوة، والحكم، والكتاب^(٣). ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ

(١) انظر: ابن جرير (٥١٤/١١).

(٢) انظر: ابن كثير (١٥٥/٢).

(٣) المصدر السابق.

بالثلاثة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني: كفار مكة، الذين كذبوا النبي ﷺ^(١). ولا شك أن الله أعطاه النبوة، وأعطاه الحكم، وأعطاه الكتاب. فإن كفروا بنبوته وحكمه وكتابه ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: بالنبوة، أو بالمذكورات ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ كأن معنى الآية: يقول الله: إن كان هؤلاء تَمردوا، وكذبوا رسلي، وكفروا بي، ولم يعبدوني، فلي قوم آخرون غيرهم، يعبدوني ويوحدوني كما ينبغي. وقوله ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: وفقناهم للإيمان بها. أي: بالنبوة. أو: النبوة والحكم والكتاب. ومعنى وكنناهم بها: أي: وفقناهم لها، وهيأناهم لها، حتى كانوا يقومون بها، ويحافظون عليها، كما يقوم الوكيل بما أسند إليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ بل هم مؤمنون بها بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

وهؤلاء القوم المؤمنون - الذين هم ليسوا بها بكافرين، الذين وكلهم الله بالإيمان بها - للعلماء فيهم أوجه من التفسير، لا يكذب بعضها بعضاً^(٢).

أظهرها: أنهم الأنبياء المذكورون. يعني: إن كفر هؤلاء الكفرة، وكفروا بالنبوة، فلنا من صفوة خلقنا أناس طيبون يؤمنون كما ينبغي، ويعظمون الله كما ينبغي، تظهر بإيمانهم حكمة الله في خلقه الخلق، ليعبدوه ويعظموه. وعلى هذا فالقوم في قوله: ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الأنبياء المذكورون. ويدل عليه: أنه قال بعده ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَدُهُمْ أَقْتَدُ﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

وقال بعض العلماء: المراد بهؤلاء القوم الذين وكلوا بها، وليسوا بها بكافرين: المؤمنون من المهاجرين والأنصار، حيث تلقوه بالإيمان والعمل الصالح.

وقال بعض العلماء: هي تشمل كل مؤمن آمن بالله (جل وعلا). وعليه فالمعنى: إن كفر بعض خلقي وتمردوا وكذبوا رسلي فلي بعض آخر من الناس الطيبين وفقتهم للعمل والإيمان، يحصل بهم غرض التشريع،

(١) انظر: ابن جرير (٥١٥/١١)، ابن كثير (١٥٥/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٥١٥/١١ - ٥١٨).

وخلق الخلق؛ لأن الغرض الأكبر من خلق الناس: أن يعبدوا ربهم (جل وعلا)، ويحسنوا العمل له، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: آية ٥٦] فهؤلاء الطيبون تحصل بهم الحكمة المرادة في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ويحسنون العمل لله، فيحصل بهم المعنى المراد في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

/ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ قُلْ لَا أَتْلُوَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ١/٩
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي: ﴿فبهدهم اقتد﴾ في الصلة بلا هاء، وقرأه غيرهما وغير ابن عامر: ﴿فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ بهاء السكت وصلًا ووقفًا، وقرأه ابن عامر من رواية هشام: ﴿اقتده﴾ بكسرة مُخْتَلَسَةً، وقرأه ابن عامر من رواية ابن ذكوان: ﴿اقتدهي﴾ بكسرة مشبعة.

فَتَحْصُلُ أَنَّ الْقَرَاءَاتِ فِيهِ مُتَعَدَّةٌ^(١)، قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ: ﴿فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ بهاء السكت الساكنة وصلًا ووقفًا، وقرأه حمزة والكسائي: ﴿اقتد﴾ بلا هاء في حالة الوصل. ﴿اقتد﴾ بالهاء في حالة الوقف، وقرأه ابن عامر بهاء مكسورة تُخْتَلَسُ كسرتها في رواية هشام عنه، وتُشَبَّعُ كسرتها في رواية ابن ذكوان عنه.

هذه هي القراءات: ﴿اقتد﴾ وصلًا ﴿اقتده﴾ وقفًا ﴿اقتده﴾ وصلًا ووقفًا ﴿اقتدهي﴾ وصلًا هذه قراءات القراء السبع في هذا الحرف.
و﴿اقتد﴾ معناه: فعل أمر من الاقتداء، والاقتداء معناه: الاتساع والاتباع في العمل. يقول العرب: «اقتدى به». إذا اتسأ به وتبعه في عمله.

وقال قوم: إن قراءة ابن عامر هنا ﴿اقتدهي﴾ ﴿اقتده﴾ زعم قوم أنها لحن لا تجوز؛ لأن هاء السكت لا يجوز كسره^(٢). وهذا غلط؛ لأن قراءة

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٨.

(٢) انظر: القرطبي (٣٦/٧).

ابن عامر قراءة صحيحة متواترة، والعلماء خرّجوها على أن الهاء في قراءة ابن عامر - في حرف هشام وابن ذكوان - ليست هاء السكت؛ لأن هاء السكت ساكنة على كل حال^(١)، وإنما هي ضمير راجع إلى المصدر.

ومعنى «اقتدهي» أي: الاقتداء فيكون بمعنى اقتد اقتداء بهم. هذا تخريج قراءة ابن عامر^(٢).

ومعنى «فِيهِدْهُمْ أَقْتَدَةً» اقتد بهداهم، وافعل كما يفعلون من الهدى.

وهذه الآية الكريمة هي التي أخذ منها جماهير العلماء - هي وأمثالها في القرآن - أن شرع من قبلنا شرع لنا إن ثبت في شرعنا إلا بدليل يدل على أنه ليس شرعاً لنا.

وهذه مسألة معروفة في الأصول^(٣). اعلم أولاً: أن شرع من قبلنا له ثلاث حالات: تارة يكون شرعاً لنا بلا خلاف، وتارة يكون غير شرع لنا بلا خلاف، وتارة يكون محل خلاف، هو الذي فيه كلام العلماء؛ لأن شرع من قبلنا واسطة وطرفان: طرف هو شرع لنا إجماعاً، وطرف ليس شرعاً لنا إجماعاً، وواسطة هي محل بحث العلماء وخلافهم.

أما الطرف الذي هو شرع لنا إجماعاً: وهو ما ورد في شرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، ثم جاءنا في شرعنا أنه مشروع لنا - كقتل النفس بالنفس قصاصاً، فإن قتل النفس بالنفس قصاصاً كان شرعاً لمن قبلنا، كما نص الله عليه بقوله: «وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» [المائدة: آية ٤٥]. ثم إن الله بين في كتابنا أنه شرع لنا، حيث قال: «كُنْزٌ عَلَيْكُمْ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ» [البقرة: آية ١٧٨] وقال: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ» [البقرة: آية ١٧٩] وقال: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا» [الإسراء: آية ٣٣]. فمثل هذا الطرف هو شرع لنا بإجماع.

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٦/٤).

(٢) انظر: حجة القراءات ٢٦٠.

(٣) انظر: إحكام الفصول للباقي ٣٢٧ - ٣٣٢، القرطبي (٣٥/٧)، البحر المحيط (٤١/٦) -

(٤٧)، شرح الكوكب المنير (٤١٢/٤)، المذكرة في أصول الفقه ١٦١، الأصواء (٦٣/٢).

الطرف الثاني: يكون شرع من قبلنا ليس بشرع لنا إجماعاً، وهذا الطرف له صورتان:

إحداهما: ألا يثبت بشرعنا أصلاً، بأن لا يوجد دليل من كتاب ولا سنة على أنه كان شرعاً لمن قبلنا، وإنما تلقى عن الإسرائيليات. فهذا لا يكون شرعاً لنا بالإجماع؛ لأن النبي ﷺ نهانا عن تصديق الإسرائيليات وتكذيبها^(١) ما لم يقر دليل على صدقها أو كذبها. وما نهينا عن تصديقه لا يمكن أن يكون شرعاً لنا.

الثاني من هذا الطرف: هو ما ثبت في شرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، إلا أنه نُص لنا في شرعنا أنه غير مشروع لنا. ومثال هذا كالأصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، فإن الله بين لنا في كتابنا أنه رفعها عنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ومن هذه الأصار: ما جاء في سورة البقرة من أن عبدة العجل لما أرادوا أن يتوبوا إلى الله لم يقبل الله توبتهم حتى قدموا أنفسهم للقتل، كما تقدم في قوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَرِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِيكُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٤]،

(١) ورد هذا النهي في عدة أحاديث منها:

- ١ - حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بلفظ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم...» الحديث وقد أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، باب: «قُولُوا مَا مَكَاَ وَاللَّهُ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» حديث رقم: (٤٤٨٥)، (١٧٠/٨) وأطرافه (٧٣٦٢، ٧٥٤٢).
- ٢ - حديث أبي نملة الأنصاري (رضي الله عنه) بلفظ: «ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم...» الحديث. وقد أخرجه عبد الرزاق (١١١/٦)، (٣١٤/١٠)، (١٠٩/١١)، وأحمد (١٣٦/٤)، وأبو داود في السنن، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب. حديث رقم: (٣٦٢٧)، (٧٦/١٠)، والدولابي في الكنى (٥٨/١)، وابن حبان (الإحسان ٥١/٨ - ٥٢)، والطبراني (٣٤٩/٢٢ - ٣٥١)، والبيهقي في السنن (١٠/٢)، وفي الشعب (٤٢٠/٩ - ٤٢١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٠١/٢ - ٨٠٢)، والخطيب في الجامع (١١٥/٢)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٨/١)، والآحاد والمثاني (١٤٠/٤)، وفي التفسير (٤٧٠/٣)، وابن الأثير في أسد الغابة (٣١٥/٦)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٥٤/٣٤). وهو في ضعيف الجامع (٥٠٥٤).
- ٣ - عن عطاء بن يسار مرسلاً. أخرجه عبد الرزاق (١١١/٦)، (٣١٢/١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٠٣/٢).

لأن الله وضعها عنا بنص قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] والإصر في اللغة: الأثقال. والمراد به: الأثقال الشاقة في التكليف. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦]. أن الله قال: «نعم». في رواية أبي هريرة: قال الله: «نعم». وفي رواية ابن عباس: قال الله: «قد فعلت»^(١). وهو حديث صحيح، يصرح بأن الله وضع عنا الأصار والأثقال التي كانت على من قبلنا.

بقيت واسطة هي محل الخلاف بين العلماء، وهي ما ثبت بشرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، ولم يثبت في شرعنا أنه شرع لنا، ولا غير شرع لنا. هذا محل الخلاف، وجمهور العلماء - وهو المشهور عن الأئمة الثلاثة، مالك وأحمد وأبي حنيفة - أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا يكون شرعاً لنا، إلا للدليل يدل على أنه منسوخ عنا. وعن الشافعي في أصح الروايات في أصوله: أنه لا يكون شرعاً لنا إلا بدليل منفصل. واحتج الشافعي بقوله تعالى في الأنبياء والرسول ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: آية ٤٨] قال: لكل نبي شرعة مستقلة، ومنهاج مستقل.

واستدل الجمهور على أن شرع من قبلنا - إن ثبت بشرعنا - شرع لنا بأدلة كثيرة، من آيات كثيرة^(٢):

قالوا: الله (جل وعلا) لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام، قال لنبيينا وهو قدوتنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْقِدَةً﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وأمر القدوة أمر لأتباعه. قالوا: والله (جل وعلا) بين أنه ما قص علينا قصصهم إلا لنعبر بها، فنتباعد عن موجب الهلاك، ونتسارع إلى موجب النجاة، كما قال: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: آية ١١١] فصرح بأنه يقص قصصهم للاعتبار والعمل بما تضمنته قصصهم،

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق. حديث (١٢٥، ١٢٦) (١١٥/١ - ١١٦).

(٢) انظر الأضواء (٦٣/٢).

ووبخ من لم يعقل ذلك، قال في قوم لوط: ﴿وَلَا تَكُ لَكُمْ لُجُومٌ عَلَيْهِمْ تُصِيحُونَ﴾ [١٣٨] وَيُخَ مِنْ لَمْ يَعْقِلَ عَنْ اللَّهِ وَقَائِعَهُ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، وَفَائِدَةُ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَهُوَ أَنْ يَكْفَ عَنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ الَّذِي هَلَكَ بِهَا الْهَالِكُونَ، وَيَسَارِعَ إِلَى أَسْبَابِ النِّجَاةِ. وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: آية ١٣] وَقَالَ فِي التَّوْرَةِ: ﴿يُخَكِّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: آية ٤٤] وَالْمَوْجُودُ مِنَ النَّبِيِّينَ عِنْدَ نَزُولِ الْآيَةِ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَحَدَهُ.

وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: ﴿فِيهِدَهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] المراد بالهدى هنا في قوله: ﴿فِيهِدَهُمْ﴾ والمراد بالدين في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ خصوص العقائد والأصول، لا الفروع العملية؛ لأن الله قال في الفروع العملية: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: آية ٤٨].

ونحن نقول: إن هذا الذي يُذكر عن الإمام الشافعي (رحمه الله)، وإن كان هو هو في الجلالة، إلا أن هذا الكلام غير مستقيم؛ لما ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد في تفسير سورة (ص) أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ يعني: ومن أين أخذت السجدة في (ص)؟ فقال له ابن عباس: أَوْمًا تَقْرَأُ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ ثم قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ وكان داود ممن أمر نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ^(١). هذا حديث ثابت في صحيح البخاري عن ابن عباس، صرح فيه ابن عباس أن النبي ﷺ اقتدى بدادود في سجدة تلاوة، وسجدود التلاوة فرع من الفروع كما هو معلوم، لا أصل من الأصول. وكذلك كان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: ﴿فِيهِدَهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ هذا الأمر الخاص بالنبي ﷺ لا يشمل الأمة. هذا الصحيح في مذهب الشافعي. قال: الأوامر الخاصة بالنبي ﷺ لا تشمل أحكامها الأمة إلا بدليل منفصل. قال: لأن اللفظ الخاص بالرسول ﷺ لم يشمل الأمة بحسب الوضع ومقتضى الصيغة،

(١) البخاري، كتاب التفسير، (سورة ص) حديث (٤٨٠٧) (٥٤٤/٨).

وإدخالنا في كتاب الله شيئاً لم يتناوله اللفظ لا يجوز إلا بدليل منفصل. وقد بينا فيما مضى أن جماهير العلماء على أن الخطابات الخاصة بالنبي ﷺ أنها تشمل أحكامها الأمة، وإن كان اللفظ لا يتناول الأمة لأدلة خارجية عن مادة اللفظ^(١)، منها: أنه هو القدوة المُشَرَّع (صلوات الله وسلامه عليه)، وأمرُ القدوة أمرٌ لأتباعه، والله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: آية ٢١] أي: اقتداء كريم. وذلك الاقتداء في أفعاله وأقواله وتقريراته ﷺ. والله جل وعلا يقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١] واتباعه يقتضي في كل شيء مما أمر به، ولو بأوامر خاصة. وثبت عن عائشة (رضي الله عنها) أنها ردت على من زعم أن تخيير الزوجة طلاق لها: بأن النبي ﷺ خير أزواجه فاخترته، فلم يعد ذلك طلاقاً^(٢). مع أن الصيغة خاصة به ﷺ في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَمِنْكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩]. وقد بينا مراراً أن القرآن دل باستقرائه أن الله يخاطب نبينا بصيغة خاصة به ﷺ، ثم يبين لنا أن مراده بالصيغة الخاصة أن يشمل حكمها الأسود والأحمر. هذا كثير في القرآن، يورد الله الخطاب خاصاً بالنبي ﷺ، ثم يبين أن مراده عموم حكم ذلك الخطاب الخاص، كقوله في صدر سورة الطلاق بخطاب خاص به ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بصيغة الجمع الشاملة للأسود والأحمر، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْضُوا إِلَيْهِنَّ وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: آية

(١) في هذه المسألة انظر: البحر المحيط للزركشي (١٨٦/٣ - ١٨٨)، شرح الكوكب المنير (٢١٨/٣)، نهاية السؤل (١٠١/٢)، شرح مختصر الروضة (٤١١/٢)، الفتاوى (٢٧٤/١٤)، (٢٧٥)، (٨٢ - ٨١/١٥)، (٤٤٤ - ٤٤٥)، (٣٢٢/٢٢)، أضواء البيان (٢١٩/١)، (٦٤/٢ - ٦٧)، (٢٨٥)، (٤٩٤/٣)، (٤٩٥)، (٦٣٤) وغير ذلك من المواضع. وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري، كتاب الطلاق، باب من خير أزواجه، حديث (٥٢٦٢، ٥٢٦٣)، (٣٦٧/٩)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية. حديث: (١٤٧٧)، (١١٠٣/٢).

[١] فلو لم يكن قوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ﴾ يُقصد منه شمول الحكم لجميع الأمة لأفرد الخطابات بعده، ولقال: (إذا طلقت النساء فطلقهن لعدتهن وأحص) (واتق الله) (لا تخرج) فلما جاء بها مجموعة تبين أنه أراد إدخال الأمة تحت خطاب: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ﴾. ونظير هذا أيضاً في سورة التحريم، في قوله بخطاب خاص به ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: آية ١] ثم بين قصد شمول الخطاب للجميع حيث قال بعده: ﴿قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكُمْ فَلَةً أَمَنَّاكُمْ﴾ [التحريم: آية ٢] بصيغة الجمع الشاملة للأسود والأحمر. ونظيره أيضاً قوله في صدر سورة الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ أَنَّ اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: الآية ١، ٢]. كل هذه خطابات خاصة به ﷺ، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بصيغة الجمع الشاملة للجميع، فدل على أن المراد شمول الجميع بـ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ﴾ ومن ظواهر هذا في القرآن قوله في سورة يونس: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾. ثم قال بصيغة الجمع الشاملة للجميع: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: آية ٦١] وقد بينا أن من أصرح الأدلة في هذا آيتي الأحزاب، وآية الروم. أما آيتا الأحزاب: فالأولى منهما قوله تعالى في قصة زواج النبي ﷺ زينب بنت جحش (رضي الله عنها): ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فكاف الخطاب في قوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ خاصة بالنبي ﷺ؛ لأنه هو وحده الذي زُوجها في ذلك الوقت، ثم بين أن هذا الخطاب الخاص به ﷺ أنه يُراد تعميم حكمه للأسود والأحمر حيث قال بعده: ﴿لَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: آية ٣٧] وآية الأحزاب الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْمُؤْمِنَةُ إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ ثم قال: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: آية ٥٠]. أي: هذا الحكم يخصك دون أمتك. والخطاب أوله: ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فلو لم تكن الأمة داخلة حكماً تحت اسم (النبي) لما كان لقوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فائدة، ولما كانت إليه حاجة.

وأما آية الروم: فقوله تعالى: ﴿فَاقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي

فَطَرِ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِلَ لِخْلُقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي أَنْفَعُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَنْفَعُهُ ﴿[الروم: الآيتان ٣٠، ٣١].
فقوله: ﴿مُبَيِّنَ﴾ حال من ضمير الفاعل، المُخَاطَبُ به النبي ﷺ في قوله:
﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ﴾ أنت يا نبي الله ﴿وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم ﴿مُبَيِّنَ﴾، فلو لم تدخل
الأمّة تحت الخطاب بقوله: ﴿فَأَقْمْ﴾ لقال: منيماً إليه واتفقه، ولم يقل:
﴿مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَنْفَعُهُ﴾ وقد أجمع أهل اللسان العربي على أن الحال الحقيقية
- أعني الحال التي لم تكن سببية -^(١) تجب مطابقتها لصاحبها في الإفراد،
والجمع، والتثنية، والتأنيث، والتذكير، فلا يقول: «جاء زيد ضاحكين».
ولا يجوز أن تقول: «ادخل الدار قائمين». كل هذا لا يجوز^(٢). فلما قال:
﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم ﴿مُبَيِّنَ﴾ عرفنا شمول الصيغة الخاصة به
لجميع الأمّة. ومن هنا نعرف أن قوله: ﴿فِيْهَدْهُمْ أَقْصِدُ﴾ [الأنعام: آية
٩٠] أنه خطاب للنبي ﷺ، وأن الخطاب الخاص به يشمل حكمه أمته، كما
دل عليه استقراء القرآن.

وهنا مسألة تخطر في ذهن طالب العلم، يقول: الله أمر النبي ﷺ في
هذه الآية من سورة الأنعام أن يقتدي بهؤلاء الرسل الكرام، وهو سيد الرسل
وخيرهم وأفضلهم، فكيف يأمر الأفضل أن يقتدي بمن هو [أقل]^(٣) منه؟
الجواب عن هذا^(٤): أن اقتداءه بهم أعلى لظهور فضيلته وأوضح
لذلك؛ لأنه إن اقتدى بهم شاركهم في كل ما كانوا عليه من الهدى والخير،

(١) انظر الأضواء (٦٦/٢) وقد جرت العادة على ذكر هذا التقسيم عند الكلام على النعت،
فيقولون: هو حقيقي وسببي. فالحقيقي: هو الذي يدل على صفة في المتبوع نفسه.
ومن علامته أن يرفع الضمير المستتر. مثل: جاءني زيد العالم.
والسببي: هو الذي يدل على صفة في اسم ظاهر بعده متعلق بالمنعوت. وعلامته أن
يرفع الاسم الظاهر المشتمل على ضمير يعود على المنعوت. مثل: جاءني زيد العالم
أبوه.

وعلى ضوء ما سبق تعرف الفرق بين نوعي الحال هنا، والله أعلم.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٤٤/٢ - ١٤٥)، توضيح النحو (٨/٤).

(٣) في الأصل: أفضل.

(٤) انظر التفسير الكبير (٧٠/١٣ - ٧١)، محاسن التأويل (٦١٨/٦).

وزاد عليهم بأمور عظيمة خصه الله بها لم تكن لديهم. وإذا كان مشاركاً لهم بما عندهم، زائداً عليهم بما ليس عندهم، ظهر بذلك الفضل، كما هو معروف.

والحاصل أن أكثر العلماء على أن شرع من قبلنا شرع لنا، وأن من أدلت: هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال لنبينا: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَقَدِ بُذِرَ لَهُمْ سَبِيلٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وما أنزله الله عليهم كله هدى، إلا ما ثبت نسخه، ولم يزل العلماء يستدلون بقصص الأمم الماضية عملاً بهذه الآية وأمثالها في القرآن من جميع المذاهب وفقهاء الأمصار. ومن هنا كان علماء المالكية يقولون: إن القرينة إذا قويت ربما قامت مقام البينة^(١)؛ ولأجل هذا لما سئل مالك بن أنس (رحمه الله) عن رجل استنكح فثُم من فيه ريح الخمر!! أفتى بجلده؛ لأن ريح الخمر قرينة جازمة على أنه شرب الخمر، إذ لو لم يشربها لما كانت ريحها في فيه^(٢). قالوا: لأن الله دل في القصص الماضية - بين ما يدل - على أن القرائن الجازمة ربما قامت مقام البينات؛ ذلك لأن نبي الله يوسف لما بهتته امرأة العزيز وقالت ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: آية ٢٥] واضطر نبي الله يوسف إلى الدفاع فقال: ﴿هِيَ زَوَدَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: آية ٢٦] ولم تكن هناك بينة ولا شيء يصدقه أو يصدقها، فجاء ذلك الشاهد وقال لهم: هذا أمر يقوم مقام البينة، وهي قرينة تبين الحقيقة تركز إليها النفس كما تركز للبينة. قال: انظروا إلى قميص الرجل فإن كان مشقوقاً من جهة وجهه فهو يَرْكُضُ على المرأة، والمرأة تدفعه عن نفسها، وإن كان القميص مشقوقاً من الوراء فهو هارب وهي تَتَنَاشُه من وراء. قال الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ﴾ يعني من الأمام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾^(٣) وإن كان قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٤) [يوسف: آية ٢٦،

(١) في العمل بالقرائن انظر: الكافي في فقه أهل المدينة ٤٧٨، أحكام القرآن لابن العربي (١٠٧٧/٣، ١٠٨٥)، تفسير القرطبي (١٤٩/٩، ١٧٤)، الطرق الحكمية ص ٤ فما بعدها. الإثبات بالقرائن ٧٧ وما بعدها، الأضواء (٦٩/٢).

(٢) انظر الأضواء (٦٩/٢) (٧٠/٣).

[٢٧] ومحل الشاهد قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِّبِكُنَّ﴾ لما وجدوا القميص مشقوقاً من دبر جزموا بأنها كاذبة وألزموها، وقالوا: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَذِّبِكُنَّ إِنَّ كَذِّبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: آية ٢٨] والله (جل وعلا) ما ذكر هذه القصة في معرض الاستحسان والتسليم مُبرئاً بها ساحة نبيه يوسف إلا أن مثل هذا يجوز أن يُعتمد عليه إذا كانت القرائن واضحة بينة لا تترك في الحق لبساً^(١). وقد أخذها العلماء بالإجماع في بعض الأفراد. أجمع العلماء في أقطار الأرض أن الرجل يتزوج المرأة ولم ير وجهها قط، ولم يعرفها، وإنما يسمع أن عند فلان ابنة فيخطبها، ويتزوجها من غير أن يراها. ثم إنها وقت الزفاف تزفها إليه ولائد وإماء لا يثبت بقولهن حقير ولا جليل، فقد أجمع العلماء على أن له بأن يجامعها، وليس عليه أن يتوقف حتى تقوم بينة عدول تشهد أن هذه عين فلانة ابنة فلان التي وقع عليها العقد؛ لأن قرينة العقد، ودفع الصداق، والتهيو للزفاف، قرائن قامت مقام البينة في هذا الموضوع^(٢). والرجل ينزل عند القوم فيأتيه الولد والجارية بطعام القوم، والطعام مال معصوم محترم، وليس عليه أن يثبت حتى تقوم بينة على أنهم أذنوا له في الأكل؛ لأن القرينة تقوم مقام ذلك^(٣).

وقد أخذ علماء المالكية وغيرهم من قصة يعقوب وأولاده أن القرينة تبطلها قرينة أقوى منها^(٤). وهو أخذ صحيح من كتاب الله؛ ذلك أن أولاد يعقوب لما أرادوا أن يجعلوا يوسف في غيابة الجب ذبحوا سخلة، ولطخوا قميصه بدم السخلة، ليكون الدم قرينة لهم على صدقهم بأن يوسف أكله الذئب، ونسوا أن يشقوا القميص!! فلما جاؤوا بالليل إلى يعقوب بالقميص عليه الدم تأمل في القميص، فإذا هو ليس فيه شق، وهو صحيح سليم، فقال: سبحان الله!! متى كان الذئب حليماً كيئساً؟ يقتل يوسف ولا يشق قميصه؟! فجزم بأنهم كاذبون. كما نص الله عنه في

(١) انظر: القرطبي (١٥٠/٩)، الأضواء (٦٩/٣).

(٢) انظر قواعد الأحكام (١٣٦/٢ - ١٣٩)، الأضواء (٦٩/٢)، (٧٠/٣).

(٣) انظر الأضواء (٦٩/٢)، (٧٠/٣).

(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٠٧٧/٣)، القرطبي (١٤٩/٩)، الأضواء (٦٩/٢) (٧٠/٣).

قوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ [يوسف: آية ١٨] وحكى غير واحد إجماع العلماء^(١) على أن مستند يعقوب في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أنه عدم شق القميص، وتيقن أن الذئب لو كان أكله لا بد أن يكون في القميص شق من نابيه أو ظفره، كما هو معروف.

وكذلك أخذ المالكية ضمان الغُرم من قوله في قصة يوسف وإخوته: ﴿وَلَمَنْ جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: آية ٧٢]^(٢).

وأخذ بعض الشافعية - مع أنهم يقولون: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا - أخذوا ضمان الوجه المعروف في الاصطلاح بـ (الكفالة) من قول يعقوب لأولاده: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَأُنْتِنِي بِهِ﴾ [يوسف: آية ٦٦]^(٣).

وأخذ علماء المالكية وغيرهم أن القاضي إذا توجه حكمه إلى أحد الخصمين لا بد أن يُعذر إليه بـ: (أَبْقَيْتْ لَكَ حُجَّةً)؟ أخذ هذا من قوله في قصة الهدهد: ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأْجِزَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: آية ٢١] أي: ما لم يكن عنده مَدْفَعٌ وعُذر يدفع به عن نفسه^(٤).

وأخذ علماء المالكية وغيرهم أن القاضي إذا انتهت الآجال والتلؤمات للخصوم ينبغي له أن يستظهر لمن توجه عليه الحكم بثلاثة أيام، أخذاً من قوله في قصة صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: آية ٦٥]^(٥).

(١) نقله القرطبي (١٥٠/٩) وانظر: الأضواء (٧١/٣).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٠٩٦/٣)، القرطبي (٢٣٣/٩)، الأضواء (٧٠/٢).

(٣) انظر: القرطبي (٢٢٥/٩)، الأضواء (٧٠/٢).

(٤) انظر: الأضواء (٧٠/٢).

(٥) المصدر السابق.

وأخذ علماء الحنابلة جواز طول مدة الإجارة من قوله في موسى وصهره شعيب أو غيره: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: آية ٢٧]^(١).

أما الذين قالوا: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا - وهو أصح الروايات في الأصول عن الإمام الشافعي - فتمسكوا بظاهر قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: آية ٤٨] وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أولاد علّات، ديننا واحد»^(٢). وأولاد العلّات: هم أولاد الرجل الواحد إذا كانت أمهاتهم شتى مختلفة. يعني أن العقيدة والأصل واحد، والفروع تختلف، أما اختلاف الفروع الذي أشار إليه النبي بقوله: (أولاد علّات) وبينه الله بقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ فهو لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن بعض الشرائع يكون فيها نسخ لم يكن فيما قبلها، ويُزاد في بعض الشرائع أحكام لم تكن موجودة فيما قبلها، وبواسطة نسخ بعض الأحكام السابقة، وزيادة بعض الأحكام التي لم تكن، تختلف الشرائع بهذا الاعتبار، ويكون لكل شريعة ومنهاج؛ لأنها لم تتحد في كل شيء. وهذا معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] العائد إلى الصلة هنا محذوف، والأصل: أولئك الذين هداهم الله، فحذف الضمير العائد على الصلة^(٣) لأنه منصوب بفعل، وإذا كان منصوباً بفعل أو وصف فحذفه مطّرد. كما هو معروف.

(١) انظر: المغني (١٠/٨)، حاشية الروض المربع لابن قاسم (٣١٦/٥)، الأصواء (٧٠/٢).

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْمَ إِذْ أَنْبَذْتَ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]. حديث (٣٤٤٢)، (٤٧٧/٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى (عليه السلام)، حديث (٢٣٦٥)، (١٨٣٧/٤).

(٣) انظر: الدر المنصور (٣١/٥).

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] قل لهم يا نبي الله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ أي: لا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا التبليغ الذي بلغتكم به ما فيه لكم خير الدنيا والآخرة، لا أطلب منكم في مقابلته جُعلاً، ولا أجرة أنتفع بها في الدنيا، لا، وكلا، إنما أجري في ذلك على الله، وهذه عادة كل الأنبياء، يُبَلِّغُونَ الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ جُعلاً ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٩ ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: الآيتان ٢٠، ٢١] ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: آية ٤٧] وقد ذكر الله قصص الأنبياء في سورة الشعراء^(١)، قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، كل واحد يقول: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٠٩] وذكر في (هود) عن نوح: ﴿وَتَقَوُّوا لِأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: آية ٢٩] وهذه عادة الرسل، يبلغون ويبذلون العلم والنصائح والخير مجاناً من غير عوض في ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لا أطلب منكم جُعلاً في مقابلة هذا الذي أتيتكم به، كما قال تعالى: ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُنْقَلُونَ﴾ [القلم: آية ٤٦] والله (جل وعلا) منع على الأنبياء أن يأخذوا جُعلاً في مقابلة التبليغ؛ لأنهم لو أخذوه لكانوا يتهمونهم ويقولون: يأتي بهذه الدعوى التي جاء بها لأجل أن يأخذ؛ ولئلا تثقل الناس من المغارم؛ لأن النفوس مجبولة على بغض المغرم، كما قال: ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُنْقَلُونَ﴾ [القلم: آية ٤٦] ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: آية ٤٧] أما قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: آية ٢٣] فالتفسير الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، وأكثر علماء السلف^(٢): أن النبي ﷺ له في كل فخذ من قريش قرابة. ومعنى الآية: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ على هذا الذي جئتكم به من الفضل ﴿أَجْرًا﴾، جُعلاً ولا شيئاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن

(١) كما في الآيات (١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٣/٢٥).

تودوني في قرابتي منكم، وتراخوا في حق القرابة، فلا تؤذوني. وهذا مضمون للأسود والأحمر.

وفي الآية أقوال: منها ما روي عن جماعة من آل البيت، وجماعة من العلماء، أن المعنى: إلا أن تودوني في قرابتي، فتراعوني فيهم^(١). هذا الوجه الآخر في الآية، والأول هو المشهور، وبقيّة الأوجه ضعيفة. وإذا كان لا يطلب أجراً إلا الشيء المبذول للأسود والأحمر من مودة كل قريب لقريبه تبين أنه لا يطلب أجراً، كما قال ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبا: آية ٤٧] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] يعني: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ (ذكرى): اسم مصدر بمعنى التذكير، مؤنث بألف التانيث المقصورة تأنثاً لفظياً. فما هو إلا ذكرى. أي: تذكير وعظة للعالمين، يتذكرون ويتعظون بما فيه من الغرائب والعجائب والمواعظ، وما كان بهذه المثابة لا يحسن ولا يجمل أن يؤخذ عليه جُعل أو أجر، لا، وكلا^(٢).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: آية ٩١].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ذهبت جماعة من العلماء إلى أن هذه الآية نزلت في مالك بن الصليف، وهو حبر من أحبار اليهود، ذكروا في قصته: أن النبي ﷺ ناشده: «أوجدت في التوراة أن الله يُبغض الحبر السمين؟» وأنه قال: نعم. وأنهم قالوا له: أنت حبر سمين!! فغضب، وقال: «ما أنزل الله على بشر من شيء»^(٣). مع أن أثر: «إن الله يبغض الحبر السمين» لم يثبت من طريق صحيح، إلا أن هذا ذكره بعض العلماء في سبب نزول هذه

(١) انظر: القرطبي (٢١/١٦)، الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ص ٢٥٨.

(٢) انظر: القاسمي (٦١٩/٦ - ٦٢٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٢١/١١)، وابن أبي حاتم (١٣٤٢/٤)، والواحدي في أسباب النزول ٢٢٠ من طريق سعيد بن جبير مرسلاً. وعزاه في الدر (٢٩/٣) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم. وفي سنده - إضافة إلى الإرسال - (يعقوب القمي) و(جعفر بن أبي المغيرة) وكلاهما قال عنه الحافظ في التقریب (ص ٢٠١، ١٠٨٨): «صدوق يهمل» أ.هـ.

الآية. والذين قالوا هذا قالوا: هذه آية مدنية من سورة مكية؛ لأن سورة الأنعام مكية، نزلت قبل الهجرة إلا أن فيها آيات مدنية، منهم عند بعض العلماء هذه الآية^(١). قالوا: نزلت في مالك بن الصيف اليهودي، والتي بعدها نزلت في مسيلمة والأسود العنسي. أعني قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] وأن آخرها: ﴿قُلْ تَكَاوَلُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١]. أنه مما نزل في المدينة، هكذا قال بعض العلماء.

والمعنى كما ذكره المفسرون: أن هذا اليهودي لما قال: ما أنزل الله على بشر من شيء.

وقال قوم: هذه المقالة لكفار مكة، والآية مكية من سورة مكية^(٢). وعلى كل حال فالذين قالوا هذه المقالة سواء قلنا إنه مالك بن الصيف، أو غيره من اليهود، أو كفار مكة الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، هؤلاء ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني ما قدروا الله حق قدره: ما عظموا الله حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، حيث نفوا إنزال الله الكتب السماوية على الأنبياء.

ولطالب العلم أن يقول: إذا نفوا عن الأنبياء إنزال شيء، فأى شيء في هذا من عدم تعظيم الله؟

الجواب: أن هذا نزه الله نفسه عنه في سورة (قد أفلح المؤمنون) وبين أنه لا يليق به؛ لأن الحكيم الخبير خلق هذا الخلق، وأبدع هذا الكون، كيف يفعل هذا إلا ليحكم بالغة؟ وهو أنه يمتحنهم ويجازيهم، ويكلفهم ويجازيهم. فهذا هو الذي نزه الله عنه نفسه، إذ لو كان يخلق الخلق ولا يكلفهم ولا يجازيهم كان خلقه إياهم كأنه من العبث، ومن ظن أن الله يفعل هذا لا لحكمة فويل له من النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧)

(١) انظر: القاسمي (٦/٦٢٤، ٦٢٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٢٤)، ابن كثير (٢/١٥٦).

[ص: آية ٢٧] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ۖ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿الدخان: الآيتان ٣٨، ٣٩﴾ وقال جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) [المؤمنون: آية ١١٥] ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ هَذَا - وَهُوَ مَحَلُّ الشَّاهِدِ - فَقَالَ: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (١١٦) [المؤمنون: آية ١١٦] تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَخْلُقَ هَذَا الْعَالَمَ عَبَثًا مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفٍ وَلَا جَزَاءٍ، لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا. وَمَنْ هُنَا لَمَّا قَالُوا: لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، وَلَيْسَتْ هُنَالِكَ كُتُبٌ عَلَى ضَوْئِهَا التَّكَالِيفُ وَالْجَزَاءُ، بَيْنَ اللَّهِ أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَلَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، حَيْثُ يَتْرَكُ هَذَا الْعَالَمَ سُدىً عَبَثًا ﴿أَحْسِبُ الْإِنْسَانَ أَن يُنْزَلَ سُدىً﴾ (١١٦) [القيامة: آية ٣٦] لَا، وَكَلَّا. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُفُوسٌ مِمَّنْ تُمْنَى﴾ (١١٧) ﴿وَفِي الْقِرَاءَةِ الْآخِرَى: ﴿يَتَنَبَّأُ﴾ (١)﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلٍ فَسَوَى (٢٨) [القيامة: الآيات ٣٦ - ٣٨] فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَفَسُوا إِنْزَالَ الْكُتُبِ عَلَى الرُّسُلِ وَتَكْلِيفِ الْخَلَائِقِ وَمَجَازَاتِهِمْ، هَؤُلَاءِ ظَنُّوا بِاللَّهِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَبَثًا، وَلَمْ يَخْلُقْهُ لِلْحِكْمِ الْبَالِغَةِ، فَمَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَلَا عَرَفُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ حِينَ قَالُوا: ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩١] الْمَعْرُوفُ عِنْدَ جَمَاعَةِ الْمَفْسُرِينَ: أَنَّ مَالِكَ بْنَ الصَّيْفِ لَمَّا قَالَ: ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالُوا: إِنْ قَوْمُهُ قَالُوا: كَيْفَ تَنْكُرُ إِنْزَالَ شَيْءٍ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ التَّوْرَةَ أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى (٢)؟ يَذْكُرُونَ فِي قِصَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ حَبْرَهُمْ، وَأَنَّهُمْ خَرَّجُوهُ بِسَبَبِ هَذَا، وَوَضَعُوا بَعْدَهُ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ، أَوْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ صُورِيَا الْأَعُورِ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي التَّارِيخِ.

والعلماء في هذا يقولون: إن مناظرة هذا اليهودي أو غيره، أنها متطبقة على المناظرة الاصطلاحية تماماً؛ لأن هذا اليهودي قال: ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهذه المقدمة التي جاء بها هي التي تسمى في الاصطلاح:

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ٤٥٣.

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٢٢).

(كلية سالبة). ولا شك أنه حذف مقدمة أخرى، وأنه يقصد: أنت يا محمد من جملة البشر، والبشر جميعهم - بالعنوان الأعم الذين أنت من جملتهم - ما أنزل الله عليهم من شيء. ينتج من ذلك: أنت لم ينزل عليك شيء، حيث كنت داخلًا في جملة البشر، وحيث إن البشر بالعنوان الأعم حُجِبَ عن جميعهم إنزال شيء. ينتظم من المقدمتين: أنت لم ينزل عليك شيء!! وقد تقرر في فنون المناظرة: أن (السالبة الكلية) إنما تنقضها (مُوجِبَةٌ جزئية). فالخصم إذا أراد نقض كلام خصمه؛ إذا كان مبنى كلام خصمه على (سالبة كلية)؛ إنما ينقضها بـ(مُوجِبَةٌ جزئية)، كما هو معروف. قالوا: ولذا قال الله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ أنت قلت: ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ من هو الذي أنزل الكتاب الذي هو التوراة على موسى؟! فهذا في قوة: موسى بشر، وأنتم يا يهود تُسَلِّمون بشرية موسى، موسى أنزل عليه الكتاب، وهو التوراة، فأنتم تُسَلِّمون بشريته، ونزول الكتاب عليه. ينتج: بعض البشر - وهو موسى - أنزل عليه الكتاب^(١).

إلا أن هذا في الاصطلاح يتطرقه سؤال، قد يكون بعض الحاضرين لا يفهمه؛ لأنه يقال: هذا اليهودي بنى دليله على (كلية سالبة) ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وأن الله لما نقض عليه، كان النقض في قوة (مُوجِبَةٌ جزئية)؛ لأن معنى قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام: آية ٩١] هو في قوة: موسى بشر، موسى أنزل عليه كتاب. ينتج: بعض البشر أنزل عليه كتاب.

العارف باصطلاحات هذه الفنون يقول: هذا الميزان من الشكل المعروف بـ: (الشكل السالب) وأهله يشترطون فيه كلية إحدى المقدمتين، وهما هنا: شخصيتان.

والجواب عن هذا هو: ما هو مقرر: أن كل ما تُنتج فيه الكلية تُنتج فيه الشخصية؛ لأن المراد أن لا يبقى شيء من أفراد الموضوع الداخلة تحت

(١) انظر: آداب البحث والمناظرة (٧٨/٢ - ٨٠).

العنوان، سواء حصرها سُورَ، أو حصرها مجرد الوضع^(١). وعلى كل حال فهذا اليهودي أو غيره قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فالله ألزم اليهود، وقال لهم: من هو الذي أنزل الكتاب على موسى؟

ب/٩

/ وهم يعترفون ببشرية موسى، أنه بشر، وأن الله أنزل عليه الكتاب، يلزم من ذلك أن بعض البشر أنزل عليه الكتاب. وهو نقض لمقالتهم، وتكذيب لهم في قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ أي: وهو التوراة.

وقوله: ﴿تُورًا وَهَدًى لِلنَّاسِ﴾ قوله: ﴿تُورًا وَهَدًى﴾ كلاهما حال. أي: جاء به موسى في حال كونه نوراً يكشف ظلام الجهل، والشك، والشرك ﴿وَهَدًى﴾ يهتدى به من الضلال. الجواب: أنزله الله (جل وعلا)، والله (جل وعلا) لم يكل هذا إليهم؛ لأنه قال لنبيه: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩١] قل لهم يا نبي الله: أنزله الله. وهو محل الشاهد. وإذا كان الجواب: أنزله الله على موسى. أي: هذا الكتاب أنزله الله على موسى، وهو بشر، تبين كذب مقالتهم ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا معنى قوله: قل لهم يا نبي الله ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ من هو الذي أنزل الكتاب ﴿الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ في حال كونه ﴿تُورًا وَهَدًى لِلنَّاسِ﴾ هذا السؤال في قوله: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾. أمر الله نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ معناه: قل أنزله الله جل وعلا ﴿تَعَزَّاهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُدَوِّنَهَا وَيُخَفِّفُونَ كَثِيرًا﴾ فيه قراءتان سبعيتان^(٢)، قرأه أكثر السبعة: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُدَوِّنَهَا وَيُخَفِّفُونَ كَثِيرًا﴾. وقرأه بعض السبعة: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُدَوِّنَهَا وَيُخَفِّفُونَ كَثِيرًا﴾ أما على قراءة: ﴿تَجْعَلُونَهُ﴾ فهو خطاب لليهود^(٣). وسياق الكلام يَعيِّن أن الآية نازلة في

(١) المصدر السابق (٧٩/٢ - ٨٠).

(٢) انظر المبسوط لابن مهران ١٩٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٦١، القرطبي (٣٧/٧).

اليهود لا في مشركي مكة، كما قاله بعض العلماء. ومعنى: ﴿يَجْعَلُونَهُ﴾ أي: اليهود. أو ﴿يَجْعَلُونَهُ﴾ أنتم أيها اليهود.

وقوله: ﴿قَرَأَاطِيسَ﴾ (القراطيس) جمع (قراطس)، و(القراطاس): الورقة. كما هو معروف؛ لأن نسخة التوراة الكبيرة كلها فيها الحق، فإذا أرادوا التحريف أخذوا أوراقاً مفرقة، وكتبوا فيها أشياء متعددة مما يريدون أن يحرفوه، وتركوا نسخة الكتاب الكبيرة غير حاضرة، فإذا أرادوا التحريف قالوا: هذا القراطاس نقلنا فيه من محل التوراة في المحل الفلاني كذا وكذا، وهذا نصه!! وهو محرف، ولم يأتوا بأصل الكتاب؛ لأنه لو جاء لظهرت الحقيقة فيه. وهذا معنى: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ﴾ ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي: القراطيس المحرفة على أهوائكم ﴿وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ وجعله بهذه القراطيس ليستعينوا بها على إخفاء ما يحبون وإبداء ما يحبون؛ لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لعرف الحقيقة فيه؛ ولذلك يكتبونها كتباً مُحَرَّفةً، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ آلَ الْكِتَابِ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨) [آل عمران: آية ٧٨] وهذا معنى قوله: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ محرفة للناس ﴿وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ في النسخة الكبيرة لا تُظهِرُونَهُ. كانوا يخفون صفات النبي ﷺ، فيجدونه في التوراة: (أبيض مُشْرِباً بِخُمْرَةٍ)، فيكتبون لونا غير ذلك. يجدون: (رَبْعَةً)، يكتبون: (طويلاً مُشْدَباً). (جَعْد الشعر): يكتبون: (سَبَط الشعر) ويغيرون الحقائق؛ ولذا قال تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أظهر الأقوال فيها: أن المراد: بهم اليهود الذين أنزل عليهم التوراة، أن الله علمهم بواسطة القرآن من غرائب ما في التوراة وعجائبه ما كانوا جاهلين به؛ لأن القرآن مهيمن على الكتب، وكانت أشياء غامضة عليهم لا يعرفونها، فبينها القرآن حتى عرفوها، وعلموا بواسطة القرآن من أسرار التوراة ما لم يكونوا يعلمونه، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَبْصُرُ عَلَى بَيْنٍ إِسْرَافِيلَ﴾

أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ [النمل: آية ٧٦] وقال الله جل وعلا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] إلى غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي وعلمتم الشيء الذي لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من قبل، علمكم الله إياه بواسطة القرآن العظيم؛ لأنه مهيمن على الكتب يبين ما فيها، كما قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَيِّنٍ سِرِّيَّيْلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] مما كانوا لا يعلمونه.

ثم قال جل وعلا: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب للاستفهام في قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ قل لهم: من هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، ثم أمره بالجواب: قل لهم: أنزله الله (جل وعلا). ثم بعد أن تفحمهم ﴿ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿ذَرَهُمْ﴾ معناه: اتركهم.

ومعنى: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ أي: في خوضهم في الباطل، والكفر، والتكذيب بآيات الله ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يتخذون ذلك لعباً واستهزاء.

وهذا الأمر قال بعض العلماء: هي مُتَارَكَةٌ منسوخة^(١)؛ لأن أهل الكتاب كان النبي ﷺ مأموراً بتركهم، حيث قال ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: آية ١٠٩] ثم جاء الله بأمره فقال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ٢٩].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٢] لما قال اليهود: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وأن الله (جل وعلا) كذبهم تكذبتين: الأولى: قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ﴾

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٢١/٢).

مُوسَى ﴿ ثُمَّ قَالَ فِي جَوَابِ هَذَا الاستفهام: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الله أنزله. وهذا تكذيب صريح لقولهم: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. ثم كذبهم التكذيبية الأخرى: أن الله أنزل على محمد ﷺ أعظم كتاب، وهو الكتاب المبارك، حيث قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا أيضاً كتاب آخر غير الذي أنزل على موسى، أنزلناه على بشرٍ تكذيباً لقولكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وصيغة الجمع في قوله ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للتعظيم؛ لأن منزل هذا الكتاب عظيم جداً، فهو جدير بالتعظيم.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: كثير البركات والخيرات، فهذا القرآن كله بركات وخيرات؛ لأن الله قال إنه مبارك. والمبارك: كثير البركات؛ لأن فيه خير الدنيا والآخرة، يعتقد الإنسان عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويعتبر بأمثاله وقصصه، فيكون على أكمل حال في الدنيا والآخرة. فهو فيه البركات والخيرات لمن وفقه الله - للعمل به - (جل وعلا)؛ ولذا بينا مراراً أنه أعظم نعمة أنزلها الله على خلقه؛ ولذا علمهم أن يحمده على هذه النعمة والبركات في هذا القرآن العظيم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: آية ١] وبَيَّن أن إيراثه علامة الاصطفاء، وبَيَّن أن ذلك فضل كبير من الله حيث قال في (فاطر): ﴿ثُمَّ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي آصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فبين أن إيراث هذا الكتاب أنه لا يكون إلا لمن اصطفاه الله. ثم قال في معرض التنويه به: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٢] أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم هو الفضل من الله الكبير عليهم، كما قال هنا إنه ﴿مُبَارَكٌ﴾.

وقوله: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معناه: أن القرآن العظيم مصدق للكتب السماوية التي قبله، وتصديقه لها من جهات متعددة منها^(١): أنه لا يخالفها. أن العلامات التي قامت عن النبي وعن كتابه الذي ينزل عليه جاءت كلها مطابقة، وأن ما تدعو إليه الكتب السماوية من التوحيد وطاعة الله ومكارم الأخلاق كذلك جاء القرآن أمراً به. ومن تصديقه للكتب

(١) انظر: القاسمي (١١٥/٢).

السماوية: أنه يهيمن عليها ويمنعها من التحريف، كلما أرادوا أن يحرفوا منعهم القرآن، كما قال: ﴿وَمَهِّمْنَا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] وبين الله ذلك في مواضع من كتابه حيث قال: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] ولما أنزل الله: ﴿فِي ظُلُمٍ مِّنَ اللَّيْلِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحُلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٦٠] قال اليهود: لم يحرم علينا إلا ما كان محرماً من الطعام على أبينا إسرائيل. وهو يعقوب. فالقرآن كذبهم وألقمهم الحجر حيث قال: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: آية ٩٣]^(١). والمفسرون يقولون: إن هذا الذي حرم على نفسه هو لبن الإبل ولحمها. قالوا: إنه أصابه مرض (عرق النساء) وأنه نذر الله إن شفاه الله ليُحَرِّمَ الله أحب الطعام والشراب إليه، وأن ذلك كان جائزاً في شرعه، فشفاه الله، فحرم لبن الإبل ولحمها. هكذا يقولون^(٢). ومحل الشاهد قوله: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا فَإِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فهذا إلقاء الحجر أنهم كاذبون على كتاب الله؛ ولذا قال هنا: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَنُنذِرَ أَمَّ الْقُرَى﴾ يقول بعض العلماء^(٣): المَعْلَل محذوف ﴿وَلَنُنذِرَ أَمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. أنزلنا إليك هذا الكتاب. وبعض العلماء يقول: هو معطوف على معنى ما قبله. والمعنى: كتاب أنزلناه إليك لأجل البركات المشتمل عليها؛ ولتصديق الذي بين يديه؛ ولتنذر أم القرى. وأكثر العلماء على أن المَعْلَل محذوف، والمعنى: ولتنذر أم القرى أنزلناه إليك. (وأم القرى) هي مكة المكرمة حرسها الله. ومعنى ﴿وَلَنُنذِرَ أَمَّ الْقُرَى﴾ لتنذر أهلها.

وقوله: ﴿لَنُنذِرَ أَمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: ومن حول أم القرى.

وبقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تمسك جماعات من اليهود، قالوا: لم يرسل

(١) انظر: ابن جرير (٧/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٧ - ١٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٧٩/٤).

محمد ﷺ إلا إلى جزيرة العرب؛ لأنه قال له: ﴿وَلَنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في موضعين^(١).

وقد أجمع العلماء، ودل القرآن العظيم، والسنة الصحيحة، وإجماع العلماء، أن رسالة نبينا ﷺ شاملة عامة للأسود والأحمر^(٢). وعليه يقول السائل: ما الجواب عن قوله ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والافتصار على هذا هنا، وفي قوله: ﴿لَنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾؟
للعلماء عنه جوابان^(٣):

أحدهما: أن ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ صادق بالدنيا كلها؛ لأن الدنيا عند الله شيء بسيط كأنها نقطة.

وقال بعض العلماء: غاية ما في الباب أن هذه الآية الكريمة اقتضت على إنذار أم القرى ومن حولها، وسكتت عما سوى ذلك، وجاءت آيات أخر صرّحت في الإنذار بالتعميم، كقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١] ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولٌ إِلَهُكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١].

والآية على هذا الوجه الأخير الذي ذكرنا كقوله: ﴿وَأَنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] فليس لنا أن نقول: ليس مرسلًا إلا لعشيرته الأقربين؛ لأن الله قال: ﴿وَأَنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [٢١٤] لأنه في هذه الآية أمره أن ينذر عشيرته، وعمم الإنذار في آيات أخر، كذلك في هذه الآية: ﴿لَنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: آية ٩٢] وعمم الإنذار في آيات أخر.

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: ابن كثير (١٥٦/٢ - ١٥٧)، القاسمي (٦٢٩/٦).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٧٩/٤)، ابن كثير (١٥٦/٢)، فتح القدير (١٣٩/٢)، القاسمي (٦٢٩/٦)، أضواء البيان (١٥٨/٧)، دفع إيهام الاضطراب (مطبوع في آخر الأضواء) (١١٩/٩).

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] وفي بعض القراءات: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قد بينا مراراً أن معنى (الآخرة) أنها لا دار بعدها ينتقل إليها؛ ولذلك سُميت (آخرة). والإنسان قبل أن يصل إليها ينتقل من طور إلى طور. وقد بينا أن رحلة الإنسان يجب عليه النظر فيها؛ لأن الله أمره بذلك. وأن مبدأ رحلة الإنسان أنه تراب بله الله بماء، ثم صار طيناً، ثم ذكر عن هذا الطين أطواراً صار فيها حملاً مسنوناً، ثم يُبَسِّ فصار صلصالاً كالنفخار، ثم إن الله بقدرته خلق من هذا الطين بشراً سوياً في غاية الجمال، اسمه آدم، ثم خلق من ضلعه امرأة، ثم كان بين هذا الرجل والمرأة ما يكون بين الرجل والمرأة. فالطور لنا جميعاً: هو ذلك التراب، والطور الثاني: هو تلك النطفة الأمشاج من ماء الرجل وماء المرأة، والطور الثالث: هو الدم الجامد، المُعَبَّر عنه بـ(العَلَقَة)، والطور الذي بعد ذلك: هو طور (المُضْغَة)، وهو استحالة الدم مضغة، قطعة لحم، ليس فيها تخطيط، ولا تشكيل، ولا رأس، ولا يد، ولا رجل، ثم إن الله (تبارك وتعالى) يقلب تلك المضغة هيكل عظام، والله (جل وعلا) يرتب تلك العظام بعضها ببعض على هذا الأسلوب الغريب العجيب، في غاية من الإحكام، ثم إن الله (جل وعلا) بعد أن يصنع هيكل العظام يكسوه اللحم، ويجعل فيه العروق، فيفصله ويخططه، ويفتح فيه العينين، والأنف، والفم، والأذنين، ويجعل فيه الأعضاء، ويضع كل عضو في محله، ويضع الكبد في محله، والطحال، والكليتين، إلى غير ذلك، ويجعل الإنسان على هذا الأسلوب الغريب العجيب الهائل، الذي لو شُرح منه عضو واحد لحارت عقول العقلاء بما أبدع الله فيه من غرائب صنعته وعجائبه، فليس في بدن الواحد منا موضع إبرة إلا والله أودع فيه من غرائب صنعته وعجائبه ما يبهر العقول، وكل هذا فعله فينا لم يشق أمهاتنا، لم يشق طبقة بطنها السفلى، ولا الوسطى، ولا العليا، ولم يخطها، ولم يُبَسِّجها، ولم يُنومها في صحبة. يفعل في بطنها هذه الأفعال الهائلة الغريبة العجيبة وهي

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٨٠).

لا هية تفرح وتمرح، لا تدري عن شيء من ذلك، بكمال قدرته وصنعه. والله يُلَفِت أنظارنا إلى هذا ونحن نُلَفِت أنظار إخواننا إليه دائماً؛ لأن الله يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] يعني: بعد النطفة علقه، وبعد خلق العلقه مضغة، وبعد خلق المضغة عظاماً، إلى آخره. وهو يقول: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي على الولد في داخل الرحم. لم يحتاج إلى أن يزيحها أو يسلط عليها أشعة كهربائية. العلم والبصر نافذ لهذا الصنع الغريب العجيب في بطن أمه ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: آية ٦] ولذا لما قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال - وهو محل الشاهد -: ﴿فَإَنِّي تُصَرِّفُون﴾ [الزمر: آية ٦] أين تصرفون؟ أين تذهب عقولكم عن هذه الغرائب والعجائب التي يفعلها فيكم خالق السماوات والأرض؟ ثم إن الله (جل وعلا) يخرج من بطن أمه، ويسهل له طريق الخروج ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ [عبس: آية ٢٠] ويكون في هذه المحطة التي نحن فيها، فكل ما قبلها جاوزناه، ثم إنه عن قريب ينتقل الجميع من هذه المحطة إلى محطة القبور، فيمكثون فيها ما شاء الله، ثم ينادي خالق السماوات والأرض أن يرحلوا من القبور ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمُ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: آية ٢٥] فيجيبون داعي الله مهطعين إلى الداعي، فيجمعهم في صعيد واحد، صعيد المحشر، ينفذهم البصر، ويُسَمِعهم الداعي، ثم يمكثون ما شاء الله، ثم يفرقون كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاًا﴾ [الزلزلة: آية ٦] متشتتين متفرقين، وهذه الأشأت في سورة الزلزلة أوضحها الله في سورة الروم ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [١٤] فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ [الروم: الآيات ١٤ - ١٦] فبعد ذلك يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وعند ذلك تُلقَى عصى التسيار، ويُذبح الموت، ويقول: يا أهل الجنة خلود

فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وهو معنى قوله: ﴿وَأَلَدِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: آية ٣٩].

بهذا تعرفون حقيقة معنى (الآخرة)؛ لأن الأتوار قبلها كلها ينتقل من طور إلى طور، بعد التراب نطفة، وبعد النطفة علقة، وبعد الدنيا قبر، وبعد القبر بعث. أما في الآخرة فالدار التي يحلها الإنسان ليس بعدها انتقال آخر إلى شيء، ومن هنا قيل لها (الآخرة)؛ لأنها ليس بعدها شيء، والمتمثل في ذلك إما غرفة من غرف الجنة، وإما سجن من سجون النار.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] بهذا القرآن العظيم. كل من يؤمن باليوم الآخر يؤمن بهذا القرآن العظيم، لوضوح أدلته. أما الذي لا يؤمن باليوم الآخر فهو لا يخاف من عقاب، ولا يرجو ثواباً، فلا يؤمن بشيء.

ثم خص الصلاة لعظم مكانتها^(١)، قال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

نزلت هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام في مسيلمة الكذاب، وكذاب صنعاء: الأسود العنسي^(٢)، كل منهما ادعى أنه نبي كذاباً وافترأ على الله،

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٩/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٣٣/١١)، أسباب النزول للواحدي ٢٢٠، الدر المنثور (٣٠/٣).

قال ابن عاشور تعقياً على هذا القول: «وهذا يقتضي أن يكون مسيلمة قد ادعى النبوة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة؛ لأن السورة مكية. والصواب: أن مسيلمة لم يدع النبوة إلا بعد أن وفد على النبي ﷺ في قومه - بني حنيفة - بالمدينة سنة تسع طامعاً في أن يجعل له رسول الله ﷺ الأمر بعده، فلما رجع خائباً ادعى النبوة في قومه. وفي تفسير ابن عطية أن المراد بهذه الآية مع مسيلمة الأسود العنسي المتنبئ بصنعاء. وهذا لم يقله غير ابن عطية، وإنما ذكر الطبري الأسود تنظيراً مع مسيلمة. فإن الأسود العنسي ما ادعى النبوة إلا في آخر حياة رسول الله ﷺ» ١. هـ التحرير والتنوير (٣٧٥/٧).

فبين الله (جل وعلا) أنه لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، أو يدعي أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الاستفهام إنكاري. والمعنى: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً: أن مثل هذه الآية فيه سؤال معروف؛ لأن معنى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ معناه: لا أحد أظلم. وإذا كان المعنى في قوله هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى﴾ لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً. فإن هذا تشكل عليه آيات أخر كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [البقرة: آية ١١٤] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧] إذ يصير المعنى: لا أحد أظلم ممن افترى، لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، لا أحد أظلم ممن دُكر بآيات ربه فأعرض عنها. فينشأ من هذا سؤال، فيقول طالب العلم: كيف يقول: لا أحد أظلم من هذا، ثم يقول في موضع آخر: لا أحد أظلم من هذا، في شيء آخر؟

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة^(١)، أشهرها اثنان، فيهما الكفاية:

أحدهما: أنه لا معارضة ألّبتة بين الآيات، وأن هؤلاء المذكورين لا يوجد أحد أظلم منهم، وهم متساوون في مرتبة الظلم، فلا يكون هنالك تعارض، كما لو قلت: لا أحد أعلم في هذا البلد من زيد، ولا أحد أعلم فيه من عمرو. فيكون زيد وعمرو مستويين في العلم، ولا يفوقهما أحد فيه، فيكون كلاّ المقالين حق.

الوجه الثاني: أن هذه المواضع تتخصص بِصِلَاتِهَا. ومعنى (تتخصص بِصِلَاتِهَا): أن كل واحد منها تُفسّره صلة موصولة، فيكون المعنى هنا: لا

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣٥٧/١، ٤١٥)، البرهان للزركشي (٧٤/٤ - ٧٥)، أضواء البيان (١٤٣/٤ - ١٤٤)، دفع إيهام الاضطراب (ملحق في آخر الأضواء ٢٥/٩)، قواعد التفسير (٥٢٨/٢).

أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المعرضين أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، إلى آخره.

وقوله ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ افتراء الكذب: اختلاقه. والكذب في أصح معانيه: هو عدم مطابقة الخبر للواقع^(١)، فالكفار كذابون، خبرهم لا يطابق الواقع، وإن ظنوا في نفس الأمر أنه خير وسداد، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٠] وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: آية ١٠٣، ١٠٤] فقلوه: ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كمن ادعى الله الشركاء، أو ادعى له الأولاد، أو ادعى أنه حرم ما لم يحرمه، أو أحل ما لم يحلله، أو قال: أوحى إلي. هذا داخل في افتراء الكذب، إلا أنه عطفه عليه بـ(أو) لأنه من أعظم أنواع الافتراء، كأنه لعظمه صار قسماً مقابلاً للافتراء وهو من أشنع أنواع الافتراء.

﴿أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ﴾ أي: قال: إن الله أوحى إليه، كمسيلمة الكذاب (رحمن اليمامة)، وكالأسود العنسي (صاحب صنعاء)، ويدخل في حكمهم غيرهم من المتبئين، حيث قال كل من هؤلاء: إنه أوحى إلي.

وذكروا في تاريخ مسيلمة أنه أرسل رسولاً إلى النبي ﷺ - يذكر أنه ابن النواحة الذي قتله بعد ذلك ابن مسعود، أرسله إليه - بكتاب فيه: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، إن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها لك، ولكن قريشاً قوم يعتدون». فأجابه النبي ﷺ: «من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»^(٢).

ومعلوم أن ما يدعي أنه قرآن بالغ من التفاهة والسقوط ما لا يخفى

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ٢٣٤.

(٢) انظر السيرة لابن هشام (٤/١٤٥٦ - ١٤٥٧)، زاد المعاد (٣/٦١١).

على أحد، كقوله: «والطاحنات طحناً، والعاجنات عجنأ، والخابزات خبزأ، فالفاردات فردأ، فاللاقمات لقمأ». وغير ذلك من الترهات والخرافات.

الذين يدعون النبوة - كمسيلمة والأسود العنسي - لا أحد أظلم منهم، حيث قالوا: إن الله أوحى إليهم - ولم يوح إليهم - ظلماً وعدواناً. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ والحال: ﴿وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (من) في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ و﴿لَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هذا كله معطوف على المجرور في قوله: ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ولا أحد أظلم ممن قال: أوحى إلي، ولا أحد أظلم ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله.

وقوله: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هذه نزلت في عبد الله بن سعد بن سرح، على قول أكثر المفسرين^(١). أسلم أولاً، وكان من كتاب الوحي للنبي ﷺ، ولما أنزل الله في سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤] عجب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من تفصيل الله هذا لخلق الإنسان فقال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فقال له النبي ﷺ: «هكذا أنزلت» فشك في كلام النبي ﷺ، قال: إني أوحى إلي مثل ما أوحى إليه، إن كان صادقاً فقد أوحى إلي مثل ما أوحى إليه، وإن كان كاذباً فقد جئت بمثل ما جاء به. وارتد عن الإسلام - والعياذ بالله^(٢) - وهو ممن أمر النبي ﷺ بقتلهم يوم فتح مكة، وكان أخاً لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) من الرضاعة، فأخفاه

(١) انظر: المستدرک (٤٥/٣)، ابن جریر (٥٣٣/١١ - ٥٣٤)، أسباب النزول للواحدي ٢٢٠، لباب النقول ١١٩، الدر المنثور ٣٠/٣.

(٢) هذا الخبر بهذا التفصيل لم أقف عليه بسند صحيح. وإنما ورد في بعض المراسيل. فالله تعالى أعلم. قال ابن عاشور معقباً على القول بأنها نزلت في عبدالله بن أبي السرح: «وهذا أيضاً مما لا ينتلج له الصدر؛ لأن عبدالله بن أبي السرح ارتد بعد الهجرة ولحق بمكة، وهذه السورة مكية» ا.هـ التحرير والتنوير (٣٧٥/٧).

عثمان عنده حتى سكنت الحركة واستأمن النبي ﷺ له فأمنه^(١)، وحسن إسلامه، وكان والياً لعثمان على جهة مصر، وهو الذي فتح إفريقية، وقتل ملكها (جرجير)، والذي تولى قتله عبد الله بن الزبير كما هو معروف في التاريخ^(٢). أنزل الله فيه عندما ارتد: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ونظيره قول بعض الكفار: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: آية ٣١].

ثم إن الله (جل وعلا) لما بين أنواع الكفرة الظالمين باجترائهم على الكذب، كادعائهم لله الأولاد والشركاء، وكقول بعضهم: إنه أوحى إليه، وكقول بعضهم: إنه قادر على أن ينزل مثل ما أنزل الله. بين وعيده لهؤلاء الكفرة، قال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا نبي الله ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ حين الظالمون كالذين يفترون على الله الكذب، ويقولون: إنهم أوحى إليهم. أو يقولون: سننزل مثل ما أنزل الله. لو ترى حين الظالمون أمثال هؤلاء حين هم ﴿فِي غَمَرَاتٍ مُّوتٍ﴾ غمرات الموت: سكراته وشدائده وكرباته. وأصل (الغمرة) هي ما يغمر الشيء، كالماء الذي يغمر الوادي فيغطيه، كل ما غمر شيئاً حتى غطاه وستره^(٣). المصدر من ذلك: (غَمَرًا) والمراد بـ(غمرات الموت): شدائده وسكراته وكرباته، حين هم في سكرات الموت وشدائده وكرباته. والحال: ﴿وَأَلْمَلِكُكُ بِأَيْسُطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ بأسطوا أيديهم: يعني بأسطوها إليهم بالضرب الوجع، والأذى الفظيع. والعرب تكني عن السوء بـ(بسط اليد)، كقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: آية ٢٨] وكقوله: ﴿إِنْ يَتَفَقَّحُوا يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ﴾ [المتحنة: آية ٢] والدليل على أن بسط الملائكة أيديهم إليهم أنه

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، حديث (٤٣٣٦، ٤٣٣٧)،

(عون المعبود) (١٢/١٢ - ١٣)، النسائي في تحريم الدم، باب: توبة المرتد، حديث

(٤٠٦٩) (١٠٧/٧)، والحاكم (٤٥/٣). وانظر: صحيح سنن أبي داود (٨٢٣/٣) -

(٨٢٤)، صحيح سنن النسائي (٨٥٣/٣).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٤/٣، ٣٧١).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٣٨/١١)، القرطبي (٤١/٧)، الدر المصون (٤١/٥).

للأذى والضرب الجميع: آيات جاءت بذلك، كقوله ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ صُنْعًا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَبَسَطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٥٠] فَضَرَبُهُمْ هذا لوجوههم وأدبارهم هو الذي بسطوا إليهم أيديهم به في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ هذا هو الأظهر^(١)، خلافاً لمن قال: إنهم يمدون أيديهم إليهم ليأخذوا أنفسهم وأرواحهم من أبدانهم، كما يمد الغريم يده لغريمه ليأخذ حقه عليه بشدة وعنف.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أخرجوا أنفسكم: فيه وجهان معروفان من التفسير^(٢):

أحدهما: أن المعنى: أخرجوا أيها المُحتَضِرُونَ أَنْفُسَكُمْ من هذه الكربات إن كانت لكم قدرة. والمعنى: لا تقذرون على الخروج عما يريد الله أن يفعله فيكم.

القول الثاني: أن روح الكافر إذا علمت بما لها عند الله من العذاب الشديد تفرقت في جسده وامتنعت من الخروج، فهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قدموا أرواحكم وأخرجوها من أبدانكم لنأخذها.

ثم قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهون: هو أشد الهوان، وهو الذل والخزي - والعياذ بالله - وإنما أضاف العذاب إلى (الهون) لأنه عذاب موصوف بأن صاحبه يقع عليه أعظم الهوان وأشدّه، كقولك: رجل سوء، وعذاب هون، وما جرى مجرى ذلك^(٣).

وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ لأن الله بين أن الذين يفترون على الله الكذب لا أحد أظلم منهم في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

ثم بين أنهم عند الاحتضار تتوفاهم الملائكة، ويبسطون أيديهم إليهم

(١) انظر ابن جرير (٥٣٨/١١ - ٥٣٩)، القرطبي (٤١/٧)، الأضواء (٢٠٣/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٤٢/٧).

(٣) انظر: الدر المصون (٤٣/٥).

بضرب الوجوه والأدبار. ثم بين علة ذلك: ﴿يَمَا كُنْتُمْ﴾ في دار الدنيا ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ كادعائكم له الأولاد والشركاء، وأنه حرم ما لم يحرمه، وأحل ما لم يحلله، وكقول بعضكم إنه أوحى إليه ولم يُوحَ إليه شيء، وكقول بعض الكفار: إنه سينزل مثل ما أنزل الله. كل هذا من افتراء الكذب على الله، الذي بين الله أنه سبب لعذابه وضرب الملائكة إياه، حيث بين العلة بقوله: ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من افتراء الكذب بادعاء الأولاد والشركاء، وما جرى مجرى ذلك ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكنتم عن آياته (جل وعلا) إذا ثلثت عليكم تستكبرون، تتكبرون عنها وتأنفون من اتباعها؛ لأن قادة الكفار ورؤساءهم كانوا إذا ثلوا عليهم القرآن ودُعوا إلى الدين قالوا بجهلهم: نحن الآن رؤساء متبوعون، كيف نتنازل ونكون أتباعاً مأمورين مرؤوسين؟ لا يكون ذلك!! ولذا أجرى الله العادة أن من يُناصب الرسل بالعداوة هو أشراف الناس، والمترفون منهم، كما صرح الله به في آيات من كتابه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: آية ٣٤] وفي حديث هرقل مع أبي سفيان الثابت في الصحيح: أن ملك الروم (هرقل) لما سأل أبا سفيان: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء^(١). أجرى الله العادة بذلك، ومما يوضح هذا أن أول الأنبياء الذين بُعثوا إلى الأرض بعد أن وقع الكفر والإشراك بالله: هو نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، كان أتباعه من ضعفاء قومه؛ ولذا قال له قومه: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: آية ١١١] وقالوا له: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدْوَى الرَّأْيِ﴾ [هود: آية ٢٧] وآخرهم نبينا ﷺ. كذلك قدمنا في هذه السورة الكريمة العظيمة - سورة الأنعام - أن رؤساء الكفرة قالوا له: لا نجالسك حتى تطرد عنا هؤلاء النتنى، يعنون

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب (٦)، حديث رقم: (٧)، (٣١/١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام. حديث رقم:

ضعفاء المسلمين. وقد مر معنا ما أنزل الله فيهم في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُؤُا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] وأنه ﷺ لما نُهي عن طردهم كان يجلس معهم، فإذا كانت له الحاجة قام عنهم، فأنزل الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: آية ٢٨] حتى صاروا يقولون: قوموا عن النبي ﷺ ليمكنه أن يقوم لحاجته. ولما أجرى الله العادة بأن أول من يكذب الرسل ويُناصبهم بالعداوة الرؤساء المترفون، قال هنا فيهم: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

/ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٤].

لما بين الله (جل وعلا) في هذه الآيات من سورة الأنعام أنه لا أحد أظلم ممن افتري على الله كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى الوحي كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله، وبين الله (جل وعلا) أن هؤلاء الظالمين الذين قالوا هذه المقالات أنهم إذا حضرتهم الوفاة بسطت الملائكة أيديهم إليهم بالعذاب والنكال، وقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] بين حالتهم التي يُبعثون عليها، وشدة ضعفهم وعدم قوتهم التي كانت هي سبب تمردهم في الدنيا.

وقوله في هذه الآيات: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يدخل في معناه: من ادعى أنه ينظم للبشرية ما يغنيها عن نظام الله (جل وعلا) الذي وضعه، ومن اتبع هذا - والعياذ بالله - فقد اتبع أحداً لا أظلم في الدنيا منه - والعياذ بالله - فالذي ينزله الله لا يقدر أحدٌ على أن ينزل مثله. ومن ادعى أنه ينزل مثله صرَّح الله في هذه الآيات الكريمة أنه لا أحد ألبتة أظلم منه.

وبهذا تعلمون أن الذين يتنطعون ويدَّعون أنهم ينظمون للبشرية نظاماً أحسن مما أنزل الله، أنهم يدخلون في هذه الآية، وأن الملائكة ستضربهم عند الموت. ستضرب وجوههم وأدبارهم، وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ومعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا. فالسلطة العليا الحاكمة على كل شيء هي التي لها الأمر والنهي.

فهؤلاء الذين يتمردون على نظام السماء، ويحاولون قلب الحكم السماوي لو جاء أحد يريد أن يقلب الحكم عليهم ويحكم بغير ما شرّعوا لقتلوه شرّاً قتلة، مع أنهم يتجاهرون بأن نظام خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير، الذي نظم فيه علاقات الدنيا، وأوضح فيه طرق الخير في الدنيا والآخرة، وأتبع فيه متطلبات الروح بالتربية والتهديب، ومتطلبات الجسم على الوجوه الشرعية، يقولون: إنه لا يصلح، ولا ينظم الحياة، ولا يساير التطور الحالي للحياة. الذين يقولون هذا والذين يتبعونهم، لا شك أنهم داخلون في هذا الوعيد في قوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. لأن من أعظم ما أنزله الله: وَضْعُ النظام البشري الذي يمشي عليه البشر ليؤاخي بينهم، وينشر بينهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق الشرعية.

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً كثيرة^(١): أن من ادّعى أن هنالك تنظيمًا ينظم الحياة البشرية في الدنيا مثل تنظيم الله أو أحسن من تنظيم الله، أن هذه الدعوى كفر بواح، لا يشك فيه من له أدنى عقل، والآيات المصّرة بذلك بإيضاح كثيرة في القرآن العظيم^(٢)، منها: أن الشيطان لما جاء تلامذته من كفار قريش، وجاءهم بوحي الشياطين، وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميّنة، من هو الذي قتلها؟ فلما أجاب وقال: «الله قتلها». أوحى إليهم الشيطان أن قالوا: ما ذبحتموه بأيديكم - يعنون المذكّي - تقولون: حلال. وما ذبحه الله بيده الكريمة - يعنون الميتة - تقولون: هو حرام؟ فأنتم إذا أحسن من الله؛ حيث كانت ذبيحتكم أحلّ من ذبيحته^(٣)!! فهذه قضية اختلف الحق والباطل فيها في مضغّة لحم شاة ماتت ولم تُذكّ، فجاء تشريع الشيطان بأنها: حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، وجاء نظام الإسلام، وتشريع السماء، على لسان سيد الخلق: أنها حرام؛ لأنها لم تُذكّ، ولم يُذكر عليها اسم الله، فصّرّح الله (جلّ وعلا) بأن الذين يتبعون قانون إبليس، ونظام الشيطان،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) انظر: أضواء البيان (٤٣٩/٣).

(٣) انظر: ابن جرير (٧٨/١٢)، ابن كثير (١٧١/٢).

ويحلّلون لحم الميتة الذي حرمه نظام السماء، أنهم كفرة مشركون؛ ولذا قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة. ثم قال: ﴿وَأَنْتُمْ لَفَسِقٌ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْكُمْ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ﴾ يجادلوهم بوحى الشيطان: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذا أحسن من الله. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْكُمْ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ﴾. ثم قال - وهو محل الشاهد -: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتموهم في نظام إبليس في تحريم تلك اللحمية التي حللها إبليس على لسان أتباعه - بدعوى شبهة أنها ذبيحة الله، وحرّمها الله في تشريعه السماوي على لسان نبيه ﷺ - صرح الله بأن من اتبع نظام إبليس وأحل تلك الميتة، وترك نظام الله الذي هو تحريمها: أنه مشرك بالله، كما قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن الرب هو الذي يحلل ويحرم، فمن اتبعت تحريمه وتحليله فقد جعلته ربك. وهذا الشرك: شرك طاعة، ونظام، وقانون في التحريم والتحليل، وسيؤبّخ الله مرتكبيه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم الفظيع الشنيع من النار؛ وذلك أن الله يقول لمن كانوا يتبعون نُظْمَ الشيطان وقوانينه التي شرعها على ألسنة أوليائه، تاركين نظام السماء الذي أنزله خالق الخلق على لسان نبيه، يقول الله لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: الآية ٦٠] يعني: باتباع نظامه وتشريعه وقانونه ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٦١] وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والجبل الكثير الذي أضله: هم الذين يتبعون تزيينه في المعاصي، وتشريعه، ونظامه المخالف لتشريع السماء، ونظام خالق الكون ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ لا عقول لكم حيث تتبعون نظام إبليس، وتتركون نظام خالقكم (جل وعلا)، ثم قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠ - ٦٥] وقال الله (جل وعلا) عن نبيه إبراهيم أنه يقول لأبيه: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يعني بقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لا تتبع نظامه وتشريعه بالكفر والمعاصي، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: آية ٤٤].

وقد سَمَى الله (جل وعلا) الذين يُطاعون في معصية الله، سماهم (شركاء) في هذه السورة الكريمة، سورة الأنعام، في قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَّاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لما أطاعوهم في التحليل من قتل الأولاد، وقال جل وعلا: ﴿إِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُوا إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وعبادتهم له هي: اتباع تشريع، وقد بين النبي ﷺ هذا البيان لما سأله عدي بن حاتم (رضي الله عنه) عن قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفَقَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [التوبة: آية ٣١] قال عدي للنبي: كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال: «ألم يحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟» قال: بلى، قال: «بذلك اتخذوهم أرباباً»^(١).

وقد صرح الله (جل وعلا) في سورة النساء أن من يدعي الإسلام ويزعم أنه مؤمن، ثم يريد التحاكم إلى الطاغوت من تشايع الشيطان، أن دعواه للإيمان مع ذلك بالغة من الكذب والبطلان ما يستوجب التعجب منها، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: آية ٦٠].

والآيات بمثل هذا كثيرة، وعلى كل حال فعلينا جميعاً نحن المسلمين أن نعرف ونعتقد أنه لا تشريع إلا لخالق السماء والأرض، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، والدين ما شرعه الله، والأمر أمر الله، والنهي نهي الله، والحسن ما حسنه الله، والقبيح ما قبحه الله، وكل نظام وتشريع غير تشريع السماء وبال وويل على صاحبه - والعياذ بالله جل وعلا - ولذا أولئك يدخلون في قوله هنا: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

وقد بين (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة، أن أولئك المستكبرين في دار الدنيا، الذين يستكبرون عن آياته، الذين كان لهم في الدنيا خدم، وحشم، وأتباع، وأبهاء، أنهم يوم القيامة يُبعثون ويُعرضون إلى ربهم لا أتباع لهم، ولا حشم، ولا خدم، حتى ولا نعال، ولا ثياب، كل واحد بمفرده ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: آية ١١١] ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٤] لأن الإنسان يخرج من بطن أمه وحيداً فريداً، لا مال له، حافياً، عارياً، لا نعال له، ولا لباس، غير مختون، لا خدم له، ولا حشم، كذلك يخرج من قبره وحيداً فريداً متجرداً من الأبهاء التي كان فيها، ليس معه خادم، ولا وزير، ولا مال، ولا نعل، ولا لباس، يحشرون يوم القيامة حفاةً عُرَاةً غُرَلاً. أي: غير مختونين؛ ولذا يقول الله للذين يستكبرون ويكفرون - كانوا يجمعون في دار الدنيا بين أمرين: التكبر، والتعظيم، وعدم الإذعان لآيات الله والإيمان به، ويزعمون أن الأصنام التي يعبدونها من دون الله أنها تشفع لهم يوم القيامة، وتنجيهم من كربات يوم القيامة، فوبخهم الله هذا التوبيخ العظيم - قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ هو مجيئهم يوم القيامة محشورين معروضين على خالقهم (جل وعلا) ﴿فُرْدَيَّ﴾ الفرادى: جمع فَرْدٍ أو فَرْدٍ. خلافاً لمن قال: إن واحده (الْفَرْدَان) كالسكران والسكرارى. وواحد في الحقيقة: الْفَرْدُ والفَرْد، وتقول: هو فَرْدٌ وفَرْدٌ، إذا كان واحداً^(١). وربما قيل فيه: فَرْدٌ، ويروى بهما معاً قول نابغة ذبيان^(٢):

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا بِذِي الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنَسٍ وَحَدٍ
مَنْ وَخَشٍ وَخَجْرَةٍ مَوْشِي أَكَارِعِهِ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

ويروى: الْفَرْدُ^(٣)، والفَرْد: هو الوحيد الذي لا شيء معه، ﴿جِئْتُمُونَا فُرْدَيَّ﴾ كل واحد منكم فرداً بمفرده، ليس معه مال، ولا ولد، ولا حشم،

(١) انظر: الأضواء (٢٠٤/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

(٣) انظر: ابن جرير (٥٤٣/١١ - ٥٤٤)، المفردات (مادة: فرد) ٦٢٩، القرطبي (٤٢/٧)، الدر المصون (٤٤/٥ - ٤٥).

ولا خدم، حتى إنه حاف عارٍ ليس بمختون^(١). وهذا معنى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وفي إعراب (الكاف) من (كما خلقنا) وجهان من الإعراب^(٢):

أحدهما: أنه في محل نصب نعتاً لمصدر. والمعنى: جئتمونا مجيئاً مشابهاً لخلقنا لكم أولاً في التجرد عن المال، والأعوان، والحشم، والخدم.

الثاني: أنه في محل الحال. أي: جئتمونا فرادى في حال كونكم مشابهين حالتكم الأولى التي ولدتكم عليها، لأن الواحد منكم يخرج من بطن أمه فرداً لا مال له، ولا ولد، ولا حشم، ولا خدم. وهذا معنى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿وَرَزَقْتُمْ مِمَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ العرب تقول: «خوِّله» إذا أعطاه وأنعم عليه، ﴿مِمَّا خَوَّلْتُمْ﴾: أي: ما أعطيناكم، وأنعمنا عليكم به من المال والخول، والخدم، تركتموه وراءكم، أي: خلفكم، حيث مُتَم عنه ولم يأت معكم.

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الشفعاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لنا فيكم، وأن نصيباً لهم من حقوقنا، وتعبدونهم معنا، وتزعمون أنهم يشفعون لكم، ما نراهم معكم. وهذا توبيخ لهم - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْعُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مُبْحِنُهُمْ وَقَعْلًا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: آية ١٨].

وقوله: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ فيه قراءتان^(٣): ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ فعلى قراءة: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ (الْبَيْنُ) من الأضداد، يطلق على البعد، وعلى الوصل. والمعنى: تقطع وصلكم، والوصلات:

(١) انظر: ابن جرير (٥٤٣/١١)، البحر المحيط (١٨٢/٤)، القرطبي (٤٢/٧ - ٤٣)، الأضواء (٢٠٤/٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٨٢/٤)، الدر المصون (٤٥/٥).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٩.

الاتصالات التي كانت بينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: آية ١٦٦]،
 الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا تنقطع يوم القيامة، كما قال الله في
 سورة العنكبوت: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفي القراءة الأخرى:
 ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
 وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: آية ٢٥]^(١). وعلى قراءة: ﴿لَقَدْ
 تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فبعض العلماء يقول: فاعل الفعل هو المصدر (لقد تقطع هو)
 أي: التقطع، أي: وقع التقطع بينكم، وبعض العلماء يقول: أصله (لقد
 تقطع ما بينكم)، وهو في بعض القراءات الشاذة^(٢). ومعنى القراءتين
 واحد^(٣)؛ ذلك لأن العابدين والمعبودين يوم القيامة يتعادون غاية المعادة^(٤)،
 كما قال الله جل وعلا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُم عِزًّا﴾ [٨١، ٨٢]
 وقال: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [٥] وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ
 ﴿١﴾ [الأحقاف: الآيتان ٥، ٦] وهذا هو معنى قوله هنا: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ
 بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُم مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

قد بينا مراراً^(٥) أن (الضلال) في القرآن وفي لغة العرب يُطلق على
 معان متعددة، منها: يطلق الضلال على (الغيبوبة والاضمحلال)، كما هنا.
 فكل ما غاب واضمحل تقول العرب فيه: (ضل). ومنه قوله هنا: ﴿وَضَلَّ
 عَنْكُم مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: غاب واضمحل، ولم يوجد معكم، كما
 قال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: أن الأرض

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٤٤. وفي الآية قراءات أخرى غير ما ذكر.

(٢) انظر: حجة القراءات ٢٦١ - ٢٦٢، ابن جرير (٥٤٩/١١)، القرطبي (٤٣/٧)، البحر المحيط (١٨٢/٤)، الدر المصون (٤٨/٥).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٤٩/١١)، القرطبي (٤٣/٧).

(٤) انظر: الأضواء (٢٠٤/٢).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

أكلت عظامهم فاختلطت بها، فذهبت بها، واضمحلت فيها، كما تقول العرب: ضل السمن في الطعام. وهو معنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الأخطل^(١):

كُنْتُ الْقَذَى فِي مَوْجِ أَكْدَرٍ مُزْبِدٍ قَذَفَ الْآتِي بِهِ فَضْلًا ضَلَالًا

أي غاب واضمحل، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه تقول العرب للدفن إضلالًا، تقول: أضلوه إذا دفنوه، ومنه قول الشاعر^(٢):

وَأَبْ مُضِلُّوهُ بَعَيْنٍ جَلِيَّةٍ وَغُودِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَنَائِلٌ

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: غاب، وذهب، واضمحل عنكم، ما كنتم تفثرونه من أن هذه الأصنام أنها تشفع لكم، وتنقذكم من كربات يوم القيامة. وهذا توبيخ من الله (جل وعلا)، وهذا التوبيخ وبخهم الله بمثله في سورة الكهف، وزاد توبيخهم بأنهم كانوا يُنكرون هذا البعث، كما قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ رَحِمْنَا الْكَافِرِينَ﴾ [الكهف: آية ٤٨].

ثم بين أنه إذا جمعهم فرادى يجدونه مَخْصِيًا عليهم جميع أعمالهم، كما قال بعده: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٤٩] فالناس يوم القيامة يُحْشَر كل واحد منهم بمفرده، لا مال معه، ولا خدم، ولا حشم، والدليل على أن (الْفَرَادَى) واحده فَرْد أو فَرْد: قوله في سورة مريم: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: آية ٩٥]، دل ذلك على أنه واحد قوله هنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والعرب تقول: تركت هذا وراء ظهري. يعني: خلفي. أي: تركت ما خولناكم خلفكم، أي: وراء ظهوركم حيث ارتحلتم عنه في الدنيا، فعلى الإنسان أن لا يترك - أعني خلف ظهره - ما خوله الله، وأن ما أعطاه الله يقدمه لآخرته بصرفه في وجوه

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

(٢) السابق.

الخير، والاستعانة به على ما يرضي الله جل وعلا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ [الأنعام: الآيات ٩٥ - ٩٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٥، ٩٦].

بين الله (جل وعلا) في هذه الآيات عجائب صنعه الدالة على أنه المعبود وحده، القادر على كل شيء. وهذه مع أنها آيات، فهي نعم عظام، فهو يُذكر الخلق بنعمه العظام، وآياته العظام.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] الفَلَقُ في لغة العرب معناه: الشق^(١). وفي هذه الآية ثلاثة أوجه معروفة من التفسير^(٢):

أشهرها وعليه الجمهور، وهو ظاهر القرآن العظيم الذي دل عليه بعض القرائن أن معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ إن الله (جل وعلا) فالق الحب، يفلق حب القمح - مثلاً - إذا بُذِرَ في الأرض يفلقه ويشقه عن سنبلة فيها مئات الحب، ويفلق النواة.

﴿وَالنَّوَىٰ﴾ جمع نواة، وقيل: هو اسم جمع^(٣) للنواة^(٤)، كنوى

(١) انظر: المفردات (مادة: فلق) ٦٤٥، الدر المصون (٥/٥٦).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٥٠)، القرطبي (٧/٤٤٤)، البحر المحيط (٤/١٨٤).

(٣) في عمدة الحفاظ (٥٩٩) والدر المصون (٥/٥٧): (اسم جنس).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٥٥٠)، القرطبي (٧/٤٤٤)، الدر المصون (٥/٥٧)، عمدة الحفاظ (مادة: نوى) ٥٩٩.

التمر وغيره، فكل ثمر في داخله عجم يسمى: نوى. فإن الإنسان يندر النواة في الأرض - نواة النخلة مثلاً، وهي صلبة قاسية - فيشقها الله، ويُخرج منها هذه النخلة، هذه الشجرة العظيمة، ذات الخوص، وذات العيدان، وينبت من تلك النخلة تمراً أيضاً، فالذي يشق الحبة إذا بذرت في الأرض، ويُخرج منها سنبلة، ويشق النواة، ويُخرج منها نخلة، أو شجرة أخرى - إذا كانت نواة غير نواة النخل - من يفعل هذه الأفعال التي تشاهدونها فهو العظيم القادر على كل شيء، وهو الرب وحده، المعبود وحده (جل وعلا)، فعلى هذا الوجه الذي عليه جمهور المفسرين يذكرنا الله بعظمته، وكمال قدرته، حيث ينبت السنبلة من الحبة، والنخلة من النواة، فمن يفعل هذا فهو عظيم قادر على كل شيء، وكأنه يشير إلى أن ذلك السنبل الذي يفلق عنه الحبة هو معيشتنا التي لا نستغني عنها، فكما أنه من باهر آياته فهو من نعمه العظمى علينا، وقد أوجب الله على كل إنسان منا أن ينظر في هذا؛ لأن الله قال بصيغة أمر تقتضي الوجوب، في سورة عبس قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ [عبس: آية ٢٤] فأوجب على الإنسان بصيغة الأمر النظر إلى طعامه، ومعناه: كأنه يقول: أيها الإنسان انظر إلى طعامك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، من هو الذي خلق الماء الذي أنبته الله بسببه؟ أيقدر أحد غيره على أن يخلق الماء؟! لا، هب أن الماء خُلق، من يقدر على إنزاله على هذا الأسلوب العجيب رشاشاً يُسقي الأرض من غير أن يضر بأحد، لا يقدر على هذا إلا الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ﴾ [النور: آية ٤٣] من فتوق السحاب ومخارجه رشاشاً؛ لأنه لو نزل مجتمعاً لأهلك ما سقط عليه. هب أن الماء خُلق، وأنه أنزل إلى الأرض على هذا الأسلوب الغريب العجيب حتى شربت الأرض ورويت، من هو الذي يقدر على شق الحبة عن السنبلة أولاً، ثم على شق الأرض وإخراج مسمار النبات منها؟ هب أن مسمار النبات خُلق؟ من هو الذي يقدر أن يُخرج منه السنبلة؟ هب أن السنبلة خرجت، من هو الذي يقدر على تنمية حبها، ونقله من طور إلى طور، حتى يصير

صَالِحاً مُذَكِّراً، صَالِحاً لِلْأَكْلِ؟ ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] هذا ذكره الله بقوله: ﴿لِنَنْظُرَ أَإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿٢٥﴾ [عبس: الآيتان ٢٤، ٢٥] يعني: فسقينا به الأرض، ثم شققنا الأرض عن النبات شقاً بعد أن شققنا الحبة عن السنبلة، كما قال هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ هذه غرائب صنع الله وعجائبه يبينها لخلقه، ويذكرهم بنعمته ليعلموا عظمة من خلقهم (جل وعلا) فيعبدوه وينيبوا إليه.

هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ يعني: فالق الحب عن السنبلة، وفالق النوى عن الشجر، كالنخل مثلاً. هذا من غرائب صنعه وعجائب قدرته، ومن نعمه العظمى عليكم، حيث أنبت لكم الحبوب والثمار لتأكلوها منها.

وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ هذا التفسير هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو المعروف عن علماء السلف والخلف، وفي الآية قولان آخران:

أحدهما: أن معنى كونه فالق الحب والنوى: أن حبة القمح مثلاً فيها شبه شق في بعض جوانبها، والنواة فيها شق في جانبها، أنه هو الذي جعل ذلك الشق في الحب، وجعله في النوى ليري الناس كمال قدرته.

الوجه الثاني: هو ما ذكره بعض أهل العلم: أن الفلق والفطر والخلق كلها مترادفة. فمعنى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي: خالق الحب والنوى وغير ذلك.

والأول هو أشهرها.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ لأن الحبة اليابسة كأنها

ميتة، وكل شيء ينمو ويتزايد تُسميه العرب حياً؛ ولذا يُسمون النبات حياً؛ لأنه ينمو، ويُسمون اليابس منه - الذي لا ينمو - يسمونه ميتاً. ومن هنا كانوا يقولون للأرض الجذبة القاحلة: ميتة؛ لأن نباتها يابس لا ينمو، فإذا نبت فيها النبات الأخضر النامي سَمَّوها: حية. كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴿يَسْأَلُونَ﴾ [الآيات ٣٣ - ٣٥]. ولذا قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الحي هنا: هو السنبُل الأخضر النامي، والنخل، والشجر الأخضر النامي يُخرجه الله من ذلك الميت اليابس الذي لا ينمو، وهو الحب اليابس، أو النوى اليابس، وكذلك يخرج الله النطفة - وهي ميتة - يُخرجها من الحي الذي هو الإنسان، والبيضة من الدجاجة. فقلوه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي يخرج النامي من النبات والحيوانات من الميت وهو بذر النبات اليابس الذي لا ينمو بذاته، وكذلك ما يخرج من الإنسان، كالنطفة فإنها لا تنمو بنفسها إلا أن الله (جل وعلا) يُخرج منها الحي، كما قال: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ المعنى: أن الله (جل وعلا) يخرج الحي النامي كالنخلة، والسنبلة من الحبة، والنوى، ويخرج الإنسان من النطفة، والدجاجة من البيضة مثلاً، كما أنه يخرج الميت من الحي، يخرج أيضاً ذلك الزرع الميت من الحي الذي هو النبات، ويخرج الثمر من الشجر الذي هو النامي، كما يخرج أيضاً النطفة والبيضة من الحي الذي هو الإنسان والدجاجة.

هذا معنى قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، خلافاً لمن قال: إنه يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، وما جرى مجرى ذلك^(١). القول الأول هو المشهور.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي: وهو أن يقول طالب العلم: قال ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ بصيغة المضارع، وعطف عليه قوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ

(١) انظر: ابن جرير (٥٥٣/١١)، القرطبي (٥٦/٤)، (٤٤/٧).

مِنْ الْحَيِّ بِصيغة اسم الفاعل، فما النكته العربية في عطف اسم الفاعل هنا على المضارع؟ ولم لا يُعطف عليه مضارعاً آخر؟ كما فعل في سورة آل عمران حيث قال: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: آية ٢٧].

عن هذا السؤال للعلماء وجهان^(١):

أحدهما: أن قوله: ﴿وَتُخْرِجُ﴾ معطوف على اسم الفاعل، وعليه فالمعنى: إن الله فالتق الحب والنوى، ومخرج الميت من الحي. فهو اسم فاعل معطوف على اسم فاعل؛ لأن قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كأنه تفسير لقوله: ﴿فَالِقُ الْخَيِّْ وَالنَّوَى﴾ فجاء باسم الفاعل في ﴿فَالِقُ الْخَيِّْ وَالنَّوَى﴾ وفسره بأن معناه: يخرج الحي من الميت. أي: يخرج النخلة التي هي نامية حية من النواة التي هي ميتة، والسنبله التي هي نامية حية من الحبة التي هي ميتة. وإذا كان قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ الْخَيِّْ وَالنَّوَى﴾ يكون قوله: ﴿وَتُخْرِجُ﴾ عطفاً على ﴿فَالِقُ﴾ فهو اسم فاعل معطوف على اسم فاعل. وعلى هذا فالتقدير: إن الله فالتق الحب والنوى. أي: مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.

الوجه الثاني: هو أن عطف اسم الفاعل على الفعل، وعطف الفاعل على الاسم المشتق، كلها أساليب معروفة في القرآن وفي لغة العرب. ومن أمثلة عطف الفعل على اسم الفاعل: قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [المملك: آية ١٩] لم يقل: وقابضات، وقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ① ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ ② ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ ③ ﴿فَأَنْزَلَ بِهِنَّ نَقْعًا﴾ ④ [العاديات: الآيات ١ - ٤] ولم يقل: فالمثيرات. وكذلك عكسه، وهو: عطف الاسم على الفعل - اسم الفاعل على الفعل - أمر معروف موجود في كلام العرب، ومنه قول الراجز^(٢):

(١) انظر: ملاك التأويل (٢٩٥/١)، البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٧/٥).

(٢) البيت في البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (١٧٨/٣).

بات يُعْشِيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرٍ يَفْصِدُ فِي أَسْوَقِهَا وَجَائِرٍ
فَقَوْلُهُ: «جائر» معطوف على «يقصد» بمعنى: قاصد وجائر. وهذا
أسلوب معروف في كلام العرب.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ ثم إن الله لما نبهنا على عظمته وكمال
قدرته، وأنتك أيها الإنسان تشاهدك تبذر حبة في الأرض، فيُخرجها لك
سنبلة خضراء فيها مئات الحب، وتبذر نواة في الأرض فيُخرج لك منها
نخلة ذات أغصان، وذات خوص وجريد، وذات ثمر، وهذا من أبدع صنعه
(جل وعلا)، دال على أنه الرب وحده. قال بعد هذه الآيات: ﴿فَأَنزَلْنَا
تُؤْفِكُونَ﴾ أين تُصرفون عن النظر في هذا؟ كيف تشاهدون غرائب صنعه
وعجائبها الدالة على كمال قدرته، وتسوون به غيره، وتعبدون معه ما لا
ينفع ولا يضر؟ أين تصرفون؟ وأين تذهب عقولكم عن أفعال ربكم العظيمة
الدالة على أنه المعبود وحده؟

و﴿تُؤْفِكُونَ﴾ مضارع مبني للمفعول، من (أَفَكَهَ يَأْفِكُهُ) إذا قلبه،
العرب تقول: «أَفَكَ الْأَمْرُ يَأْفِكُهُ» إذا قلبه، ومنه قيل لقري قوم لوط:
(المؤتفكات) لأن جبريل أفكها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها، ومن هنا
قيل للكذب: إفك؛ لأن الإفك أسوأ الكذب؛ لأنه صرف للكلام عن وجهه
الحقيقي إلى وجهه الباطل. فمعنى: ﴿فَأَنزَلْنَا تُؤْفِكُونَ﴾ أين تصرفون
وتقبلون عن هذه البراهين والآيات العظيمة الدالة على عظمة ربكم وجلاله،
وأنه المعبود وحده جل وعلا.

ب/١٠ / ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٦].

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ قرأ هذا الحرف القراء السبعة ما عدا
الكوفيين: ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ وقرأه الكوفيون - حمزة والكسائي
وعاصم -: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ بصيغة الفعل الماضي^(١).

وإعراب ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ فيه للعلماء ثلاثة أوجه لا يكذب بعضها بعضاً^(١):

أحدها: أنه خبر مبتدأ محذوف. أي: هو (جل وعلا) فالق الإصباح.
الثاني: أنه نعت للرب في قوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾، الله فالق الإصباح.
فهو نعت لاسم الجلالة.

وقال بعض العلماء: هو خبر آخر لقوله: ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى﴾، ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ والخبر يتعدد للمبتدأ، وإذا دخلت (إن) على مبتدئ متعدد الخبر: تعددت الأخبار لها، والمعنى كله على هذه الأعراب الثلاثة معنى واحد.

ومعنى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح: أصله مصدر (أَصْبَحَ يُصْبِحُ إِصْبَاحًا)، إذا جاء ضوء النهار من بعد ظلام الليل^(٢).

وعامة القراء السبعة قرؤوا: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة. مصدر (أَصْبَحَ، يُصْبِحُ، إِصْبَاحًا). وهو مصدر سُمِّيَ به، [والعرب]^(٣) تقول للمصبح: إصباحاً، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس^(٤):

ألا أيها الليل الطويلُ ألا انجَلِ بصبح وما الإصباح فيك بأمثل
فبين أنه يقصد بالإصباح: الصبح، فأصله مصدر (أصبح، يصبِح، إصباحًا).
وهناك قراءة شاذة قرأ بها الحسن وغيره: (فالق الأصباح وجاعل الليل

(١) انظر: فتح القدير (١٤٣/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٥٤/١١)، القرطبي (٤٤/٧)، البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٨/٥).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها المعنى.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ١١٧.

(٥) انظر: ابن جرير (٥٥٦/١١)، القرطبي (٤٥/٧)، البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٨/٥).

القراءة: (الأصباح) بفتح الهمزة جمع (صبح)، والعرب تقول: «أصباح، وأمساء». جمع (صبح، ومساء). و«إصباح وإمساء»، مصدر (أصبح، وأمسى) وهو كلام معروف في كلام العرب، ومنه قول الراجز^(١):

أَزْبَى رِيحاً وَبَنِي رِيحٍ تَنَاسُخُ الْأَمْسَاءِ وَالْأَصْبَاحِ
ويروى:

..... تَنَاسُخُ الْإِمْسَاءِ وَالْإِصْبَاحِ

وعلى قراءة الجمهور: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ معناها: مُبْدِي ضَوْءِ الصُّبْحِ بعد ظلام الليل.

وفي هذا المعنى سؤال معروف، لطالب العلم أن يقول: الله ذكر هنا أن الإصباح هو الذي يفلقه الله. والذي يُفلق في الحقيقة: الظلام، هو الذي يُفلق ويُشق عن نور الصباح، أما كون نور الصباح هو الذي يُفلق ويُشق فهذا فيه إشكال، فيه سؤال معروف للعلماء.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة^(٢):

منها قول بعضهم: الكلام على حذف مضاف: فالق ظلمة الإصباح. وأنه حذف المضاف إليه، ولا يخلو من بُعد؛ لأن هذا المضاف لم تحذف به قرينة.

وقال بعض العلماء: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ لأن الإصباح يبدأ شعاع الصبح أولاً وتحت ظلام، ولم يُسفر إسفاراً تاماً يكشف الظلام كشفاً كلياً، ثم ينصدع ذلك الإصباح انصداعاً كلياً عن ضوء النهار كما ينبغي، وهذا معروف ومنه قول أبي تمام^(٣):

وَأَزْرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أَبْيَضِهِ وَأَوَّلُ الْعَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

(١) البيت في البحر المحيط (٤/١٨٥)، الدر المصون (٥/٥٩) وشطره الأول فيهما هكذا: «أَفْنَى رِيحاً وَبَنِي رِيحٍ».

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/١٨٥)، الدر المصون (٥/٦٠).

(٣) البيت في مشاهد الإنصاف (ملحق بالكشاف ٤/١١)، الدر المصون (٥/٦٠).

فعلى هذا القول: أن الإصباح يبدو أولاً وهو مختلط بـعَلَسِ الظلام، ثم إن الله يشق ذلك الإصباح الذي بدأت أوائله مختلطة بالظلام شقاً واضحاً عن وَضَحِ النهار، وهذا هو المعروف، أن الظلام سواء كان ظلاماً دامساً، أو ظلاماً مختلطاً ببعض ضوء الصبح، هو الذي يُشَقُّ عن الصبح كما هو معروف، ومنه قول أبي نواس^(١):

تردّت به ثم انفرى عن أديمِها تفرّي ليلٍ عن ضياءِ نهارِ
هذا هو المعروف، وهم إما يُقَدِّرون مضافاً فيقولون: فالحظ ظلمة الإصباح. أي: شاقها بضوء الصبح، أو ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾. أي: أوائل الإصباح المختلطة بـعَلَسِ الظلام، فالحظها وشاقها عن النور، نور النهار الحقيقي.

وقوله: ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ على قراءة: ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ فلا إشكال، اسم فاعل معطوف على اسم فاعل. وعلى قراءة: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾^(٢) هو مما كنا نقول: إن الاسم إذا كان مشتقاً - كاسم الفاعل هنا - يُعْطَفُ عليه الفعل، ويُعْطَفُ هو على الفعل، كما قال في الخلاصة^(٣):

واعطِفَ على اسمٍ شبه فعلٍ فعلاً وعكساً استعمل تجذؤه سهلاً
ومثاله في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتَنَ وَيَقِظْنَ﴾ [الملك: آية ١٩] وقوله جل وعلا: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾^(٤) - إلى قوله - ﴿فَأُتْرِكَ بِهِمْ نَقْعًا﴾^(٥) [العاديات: الآيات ١ - ٤] كما قال هنا: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾.

(١) البيت في مشاهد الإنصاف (ملحق بالكشاف ٤/٤٥)، البحر المحيط (٤/١٨٥)، الدر المصون (٦٠/٥) وفي هذه المصادر: «عن بياض... إلخ».

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٩، حجة القراءات ٢٦٢، ابن جرير (١١/٥٥٦)، القرطبي (٧/٤٥)، البحر المحيط (٤/١٨٦)، الدر المصون (٥/٦٠).

(٣) الخلاصة ص ٤٨، وانظر شرحه في التوضيح والتكميل (٢/١٨٩).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٥٥٧)، القرطبي (٧/٤٥)، البحر المحيط (٤/١٨٦)، الأضواء (٢/٢٠٤).

أحدهما: أنه جعله سكناً أي: شيئاً يسكن الناس فيه؛ لأن الناس في النهار يكدحون في أعمالهم، ثم يروحون في تعب، فيجدون ظلام الليل مناسباً للهدوء والراحة. وعلى هذا فهو من السكون الذي هو ضد الحركة. يسكنون فيه وينامون لينقطع عنهم تعب الكد بالنهار، كما في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: آية ٤٧] من (السَّبَت) بمعنى القطع. يعني: يقطع عنهم تعب الكد في النهار، ومما يدل على هذا: أن الله في سورة القصص لما بين أن الليل والنهار آيتان من آيات الله العظام، بين أيضاً أنهما نعمتان من نعم الله العظام، وجعل السكني في الليل من ذلك الإنعام حيث قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَصِيرَةٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تُسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني في الليل ﴿وَلِتَسْتَغْفُوا مِنْ ذُنُوبِهِ﴾ [القصص: الآيات ٧١ - ٧٣] من طلب حوائجكم وأرزاقكم بالنهار، وهذه الآية تبين أن السكن هنا: أي محلاً تسكنون فيه ملائماً للسكنى؛ لأن الليل ظرف مناسب للسكنى.

وعلى هذا: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ جعله ساجياً مظلماً مناسباً للسكنى، كما قال: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ (٢) [الضحى: آية ٢] أي: إذا صار ساجياً مظلماً، صالحاً للسكنى، ملائماً للهدوء، وعدم الحركة.

وقال بعض العلماء^(١): السكن في لغة العرب: هو كل ما ترتاح إليه وتحبه فتسكن إليه؛ ولذا قيل لامرأة الرجل: (سَكْنُهُ) لأنه يأوي إليها، وكل شيء أويت إليه وارتحت إليه فهو سكن لك. والمعنى: شيء يستريحون إليه، ويأوون إليه، لمناسبته للراحة والهدوء. وهذا معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ الحُسْبَانُ هنا: هو من (الحِسَاب) على أشهر

التفسيرات.

قال بعض العلماء^(١): هو جمع حَسَاب، كشهاب وشهبان، وحِسَاب وحُسْبَان.

وقال بعض العلماء^(٢): هو مصدر (حَسَب) بفتح السين، (يَحْسِب) [بكسرهما]^(٣)، (حِسَاباً وحِسَابَةً وحُسْبَاناً)، إذا عَدَّ الشيء، والمعنى: جعل الشمس والقمر حُسْبَاناً يعني: خلقهما بحُسْبَان، يحسب حركتهما وسيرهما بأسلوب متقن لا يتغير في السَّنة؛ لتعلموا بذلك الحساب عدد السنين والأشهر والأيام. وهذه من نتائج الشمس والقمر التي ذكرها الله (جل وعلا)؛ لأنهم يعرفون بها الشهور والأيام والأعوام، فيعرفون من ذلك شهر الصوم، وشهر الحج، ويعرفون عدد النساء، وأجال الديون، وما جرى مجرى ذلك، هذه من فوائد الشمس والقمر التي أكثر الله (جل وعلا) من ذكرها.

ومعلوم أن أصحاب النبي ﷺ - كما قدمناه في هذه الدروس في سورة البقرة - أنهم تأقت نفوسهم إلى هيئة القمر، فقالوا للنبي ﷺ: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بديراً^(٤)؟ وهذا سؤال عن هيئة

(١)(٢) انظر: ابن جرير (٥٥٩/١١)، القرطبي (٤٥/٧)، البحر المحيط (١٨٦/٤)، الدر المصون (٦٤/٥).

(٣) في الأصل: (بفتحها). وهو سبق لسان.

(٤) الروايات الواردة في أن الآية نزلت بسبب سؤالهم عن الأهلة متعددة، ومن ذلك:

- ١ - ما أورده الواحد في أسباب النزول ص ٥٣ - من غير إسناد - أن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: يا رسول الله، إن اليهود تغشانا ويكثرُونَ مسألتنا عن الأهلة، فأنزل الله... الحديث. وذكره الحافظ في العُجَاب (٤٥٣/١) وقال ص ٤٥٤: «لم أر له سنداً إلى معاذ، ويُحتمل أن يكون اختصره أولاً، ثم أورده مبسوطاً» أ.هـ.
- ٢ - ما أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٦٩/٣)، وابن عساكر في تاريخه (مختصر ابن منظور ٢٥/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن عَمَّة - وهما رجلان من الأنصار - قالوا: يا رسول الله، ما بال الهلال... فنزلت... الحديث. وقد أورده ابن الأثير في أسد الغابة (٢٩٢/١)، والسيوطي في الدر (٣٠٢/١) وقال: «أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس... إلخ. كما أورده في لُبَاب النقول ص ٢٨ وعزاه لأبي نعيم، وابن عساكر.
- وقد أورده الواحد في أسباب النزول ص ٥٣ - من غير إسناد - والحافظ في الإصابة (٢٠١/١) عن الكلبي من غير ذكر الوساطة، وهما: أبو صالح الذي يرويه عن ابن=

القمر، والنبي ﷺ أرسل ليبين للناس كل ما لهم فيه فائدة، وما يحتاجون إلى بيانه من آيات الله، وغرائبه، وعجائب صنعته، فأنزل الله جواباً لسؤالهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِ﴾ [البقرة: آية ١٨٩] فبين أنها مواقيت، وهذه المواقيت إنما كانت مواقيت لأنها بحساب معين مقدر نظمه العزيز العليم (جل وعلا). ومشارك الشمس ومغاربها معروفة في كل يوم من السنة، وكذلك منازل القمر معروفة، وفي هذه المشارق والمغارب - التي تشرق منها الشمس وتغرب، ومنازل القمر - يعرف الناس بها عدد السنين، والشهور، والحساب، ويعرفون شهر صومهم، وشهر حجهم،

عباس. كما أورده الحافظ في العُجاب (٤٥٥/١) وقال: «وأما أثر الكلبي فلعله في تفسيره الذي يرويه عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد وجدت مثله في تفسير مقاتل بن سليمان بلفظه، فلعله تلقاه عنه» ١. هـ وقال المُنَوي في الفتح السماوي (٢٣٢/١): «إسناده واه» ١. هـ.

٣ - ما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٢٢/١)، وابن جرير (٥٥٤/٣) من طريق العوفي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت... الحديث. وقد أورده السيوطي في الدر (٢٠٣/١)، ولباب النقول ص ٢٨ وإسناده ضعيف أيضاً.

٤ - ما أخرجه ابن جرير (٥٥٣/٣) عن قتادة مرسلًا. وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٥٣ - من غير إسناد - والسيوطي في الدر (٢٠٣/١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير. وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٢/١) كما أورده الحافظ في العُجاب (٤٥٣/١) وقال (ص ٤٥٤): «أخرجه يحيى بن سلام عن شعبة عنه بهذا اللفظ، وأخرجه الطبري...» ١. هـ.

٥ - ما أخرجه ابن جرير (٥٥٣/٣) عن الربيع بن أنس مرسلًا. وذكره الحافظ في العُجاب (٤٥٤/١)، والسيوطي في الدر (٢٠٣/١).

٦ - ما أخرجه ابن جرير (٥٥٤/٣) عن ابن جريج مرسلًا. وذكره الحافظ في العُجاب (٤٥٤/١).

٧ - ما أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٢/١) عن الربيع عن أبي العالية مرسلًا. وذكره الحافظ في العُجاب (٤٥٥/١)، والسيوطي في الدر (٢٠٣/١)، ولباب النقول ص ٢٨. وقد روي عن جماعة غير هؤلاء كعطاء، والضحاك، والسدي، كما أشار لذلك ابن أبي حاتم في التفسير (٣٢٢/١).

قال الحافظ في العُجاب (٤٥٥/١): «وقد توارد من لا يد لهم في صناعة الحديث على الجزم بأن هذا كان سبب النزول مع وهاء السند فيه، ولا شعور عندهم بذلك، بل كاد يكون مقطوعاً به لكثرة من ينقله من المفسرين وغيرهم» ١. هـ.

وَعِدَدَ نَسَائِهِمْ، وَأَجَالَ دِيُونِهِمْ، وما جرى مجرى ذلك. أما غير ذلك، فقد بين القرآن أنه مما ليس لهم فيه جدوى ولا فائدة. ومعلوم أن القرآن العظيم يبين للناس كل ما يحتاجون إليه، والنبى ﷺ بين كل ما يحتاج إليه. ونحن نقول هذا، ونقول: إن الله (جل وعلا) لم يجعل لخلقه في القمر أشياء غير ما هو مُشاهد من عدد السنين والحساب، ومما جعل الله في الشمس والقمر بمجاري عاداته وقدرته من المنافع للنباتات، والثمار، والمعادن، وغير ذلك.

نحن نتكلم على هذا القرآن ولا نرضى لأحد أن يُؤوله بغير تأويله، ولا أن يعطفه على آراء الكفرة الفجرة، في الوقت الذي نعلم فيه أن دين الإسلام يأمر بالتقدم في جميع ميادين الحياة. دين الإسلام يأمر المجتمع بالتقدم في جميع ميادين الحياة. والإخلاذ إلى الأرض، والتواكل والكسل: مُخَالَفَةٌ للأمر السماوي الذي يأمر به خالق السماوات والأرض؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] فهذا أمر. فالمتواكل المُخِلِد إلى العجز والاستسلام، ولم يُعِد ما يُسْتَطَاع من قوة، فهو مخالف لأمر الله في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وبهذا يُعلم أن التقدم، والكفاح، والإعداد للقوة: كل هذا أوامر القرآن العظيم، ونظام السماء، وأن العاجز المتكاسل المخلد إلى الأرض مخالف لأوامر الله، والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: آية ٦٣] وعلى كل حال فلا شك أن دين الإسلام، وهذا القرآن العظيم، ينظم للإنسان جميع ميادين الحياة في دينه، ودنياه، هذا هو الحق. ودين الإسلام دين تقدم، ودين كفاح في الميدان، ودين قوة، وإذا قرأتم آيات من كتاب الله عرفتُم ذلك واضحاً، إذا قرأتم مثلاً آيتين من سورة النساء يقول الله فيهما: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسِلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، والمفروض أن الرجال تنزل رؤوسهم عن أعناقهم، والقرآن في هذا الوقت الضنك الحرج، ترونه يُنْظَم الخطة العسكرية على أحسن الوجوه، وأبدعها، وأحصنها من العدو، في

الوقت الذي يأمر فيه بالاتصال^(١) بخالق هذا الكون، والتأدب بالآداب الروحية السماوية، التي هي الصلاة في الجماعة، هكذا أوامر القرآن، الاتصال بالله، وتربية الأرواح وتهذيبها على ضوء النور السماوي، مع القوة الجسمية المادية في جميع مظاهرها مهما تطورت، وتسمعون الله يقول في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: آية ٤٥] قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ يعني: إذا التقى الصفان وقت التحام الكفاح المسلح، وقوله: ﴿فاثبُتُوا﴾ هذا تعليم عسكري سماوي عظيم، معناه: الصمود في الخطوط الأمامية من خطوط النار، عند التقاء الصفين، وفي هذا الوقت يقول الله جل وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وهذا مما يدل أن دين الإسلام دين كفاح، ودين قوة، ودين عظمة وتقدم في الميدان، ودين تربية الأرواح على ضوء تعاليم خالق هذا الكون، والاتصال بخالق هذا الكون (جل وعلا)؛ لأن الإنسان المسكين إذا فقد حظه من ربه خسر كل شيء، وماله في الحياة فائدة.

فعلينا جميعاً معاشر المسلمين أن نعلم أن الدين - ديننا - أنه تراث سماوي عظيم، وأنه يأمر بالتقدم والقوة في كل الميادين، وأن الإخلاق إلى العجز والضعف خلاف أوامر القرآن، وأنه مع هذا يهذب أرواحنا على ضوء تعليم السماء، ويقربنا من ربنا (جل وعلا). وقد بين لنا القرآن في مواضع منه: أن من كان متمسكاً بهذا الدين كما ينبغي، وكانت صلته بالله قوية كما ينبغي، ذا روح مُربى على ضوء نور القرآن، أنه ولو بلغوا من القلة لا يمكن أن تقهرهم قوة، ولا أن يغلبهم غالب؛ لأن الله الذي اعتمدوا إليه، وصاروا من حزبه: قوي قاهر، لا يغلبه شيء. ونضرب لكم بعض الأمثال بهذا:

أنتم تعلمون في التاريخ، وتاريخ القرآن، أن النبي ﷺ وأصحابه عام غزوة الأحزاب - غزوة الخندق - لما حاصره المشركون ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم، الذي نوه الله به معظماً أمره: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ

(١) في الأصل: على الاتصال.

يَا اللَّهُ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا لقوة ذلك الحصار العسكري، وهم في ذلك الوقت، جميع من في الأرض يقاطعونهم في السياسة، والاقتصاد، ليس بينهم روابط سياسية، ولا اقتصادية مع أحد، وهم في فقر، وقلة، وجوع، وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت يطوي حزامه على الحجارة من الجوع، هم في هذا الوقت من الجوع وشدة الأعداء، وقوة الحصار العسكري، وكل من في الأرض أعداء لهم يقاطعونهم سياسة، واقتصاداً، ما العلاج؟ وما قاوموا به هذا الأمر العظيم، وهذا الحصار العسكري؟

الجواب: أنه قوة الإيمان بالله، وصدق الالتجاء لخالق هذا الكون، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم لله، وقوة الإيمان به، والاستسلام له (جل وعلا)، كان من نتائجه ما قص الله علينا في سورة الأحزاب ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ أَي: مَنْ حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: الآيات ٢٥ - ٢٧] يعني: إن كنتم ضعافاً عاجزين فمن توكلتم عليه وآمنت به وكنتم عباده حقاً ليس بعاجز، بل هو قادر على كل شيء؛ ولذا ختم القصة بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

ونظير ذلك ما قصه الله في سورة (الفتح) عام الحديبية، لما نزلت سورة (إنا فتحنا) عام ست من الهجرة، رجوع النبي ﷺ من عمرة الحديبية، لما عقد الصلح مع قريش، وأنزل الله عليه سورة (الفتح). كان لما بلغهم أن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وبايعوا النبي ﷺ تحت سُمْرة من شجر الحديبية، بايعوه بيعة الرضوان، عند هذه البيعة علم الله من قلوبهم الإخلاص، والإيمان الكامل، والصدق كما ينبغي، ونوه بإيمانهم الذي علمه في قلوبهم قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةَ فَلَمَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿[الفتح: آية ١٨] فَتَوَّه عَنْ إِيْمَانِهِمْ بِالْأَسْمِ الْمُنْهَمِ
الموصول. أي: ما في قلوبهم من الإيمان بالله (جل وعلا) كما ينبغي، عدّد
نتائج هذا الإيمان الخالص الكامل، عدّد نتائجهم عليهم، ثم ذكر من نتائجه
أن قال: ﴿وَأَخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ فصرح بأن إمكانياتهم العددية والعُدديّة لم
تُقدرهم عليها. ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ فأقدركم عليها. وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: آية ٢١] كما قال في (الأحزاب).
يعني: إن كنتم في ضعف فهو قوي قادر.

وعلى هذا تعلمون أن دين الإسلام أولاً يأمر بالقوة والتقدم في كل
الميادين، وقهر الكفار، والعظمة والقوة في كل الميادين، مع أن أهله
منصورون من خالق السموات والأرض (جل وعلا)، فالإسلام هو هو،
وصلته بالله هي هي، وقوته (...) ^(١).

وأهلها، فنجحوا في ذلك بعد عشرات القرون، نجحوا فيه عن طريق
تعليم النشء، يأخذون أولاد المسلمين ويغرسون في قلوبهم ما شاؤوا من
الكفريات، والإلحاديات، وتصوير الإسلام ورجال الإسلام العظام بصور
مُشوّهة مُنْفَرّة، بعيدة من الحقيقة بُعد الشمس من اللمس، واليوم نجحوا
نجاحاً باهراً، فصار جميع شباب المسلمين - إلا من شاء الله - ينظرون إلى
الإسلام بعين عوراء لا تعرف الحقيقة، يتصورونه بصورة مشوهة خسيّة،
بعيدة عن الحقائق كل البعد - والعياذ بالله - وبهذا فصلوا المسلمين عن
شرعهم وتراثهم، حتى صاروا يُحَكِّمون قوانين إبليس، وفصلوهم عن
مجدهم، وعن قوتهم بالله جل وعلا.

ونحن دائماً نذكر أمثال هذا لِنُوجِّه المسلمين إلى قوة الإسلام، وقوة
صلته بالله، وأن أعداء الله إنما توصلوا لإهانتهم وتشتيتهم بعد أن حالوا
بينهم وبين الدين بكل الوسائل.

فعلى المسلمين أن يعلموا أن خالق السماوات والأرض هو الذي له

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. وللشيخ رحمه الله كلام بنحو هذا في تفسير
سورة الأنعام، الآيات (١١٥، ١٥٥)، الأعراف (٣، ٣٨)، الأنفال (٣٠، ٤٥، ٦٠)،
التوبة (٣٠)، وفي الرحلة إلى إفريقيا.

التشريع، وأن تشريعه هو التشريع الذي يقوم بالمصالح البشرية في الدنيا، يربي الأرواح، ويعطي الأجسام حقوقها، وينير الطريق للإنسان في جميع ميادين الحياة الدنيا، والحياة الآخوية.

والمسلمون إذا ألهمهم الله الرجوع إلى دينهم ذلّ لهم كل شيء، وخضعت لهم رقاب كل جبار في الدنيا؛ لأن دين الإسلام دين لا يُغلب المتمسك به حقيقة ولا يُقهر؛ ولذا كان من علامات دين الإسلام: أن الطائفة الضعيفة القليلة المتمسكة به تغلب الطائفة القوية الكثيرة التي لم تتمسك به؛ ولأجل هذا سُمّي الله (يوم بدر) سماه (فرقاناً)، وسماه (بيّنة)، وسماه (آية)؛ لأنه برهان فارق بين الحق والباطل. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: آية ٤١] يعني بقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر؛ لأنه يوم فرق الله فيه بين الحق والباطل؛ لأن الفئة الضعيفة القليلة لا يمكن أن تقهر الفئة القوية الكثيرة إلا بتوفيق ونصر من الله. وقال (جل وعلا) في يوم بدر: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: آية ٤٢] وقال في يوم بدر أيضاً في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرَآءَةِ ثَغْلٌ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَأُخْرَىٰ كَافَّةً﴾ [آل عمران: آية ١٣] وهذه الآية - التي هي لهم - والعبرة: أن الفئة القليلة الضعيفة غلبت الفئة القوية الكثيرة، وهذا لا يكون إلا بنصر الله كما قال الله جل وعلا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قُلِّي الحب عن السنبُل، والنوى عن النخل مثلاً، وقُلِّي الإصباح عن ضوء النهار، وجَعَلِ الليل ساجياً مظلماً ملائماً للسكون، وتسيير الشمس والقمر بحساب متقن، وليعرف الناس بها عدد السنين والحساب، وغير ذلك من الحِكم، كل هذه الغرائب والعجائب ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ تقديره الذي قدّر هذا؛ لأن كل شيء عنده (جل وعلا) بمقدار.

و﴿الْعَزِيزِ﴾: معناه الغالب الذي لا يغلبه شيء؛ لأنه لا يقدر على هذه الأفعال العظيمة إلا الغالب القاهر الذي لا يغلبه شيء.

والعَزَّة في لغة العرب: الغَلَبَةُ. ومنه: ﴿وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: الغلبة، وفي الذكر الحكيم: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أي: ظلمتني في المخاصمة. ومن أمثال العرب: (من عَزَّ بَرٌّ)^(١) يعنون مَنْ غَلَبَ اسْتَلَبَ. ومنه قول الخنساء الشاعرة^(٢):

كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا حِمَى يُخْتَشَى إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَرًّا
وربما أطلقت العرب نادراً العزة على (قلة الوجود وصعوبته)، فيقولون: «الشيء الفلاني عزيز». أي: قليل الوجود وصعب المنال، إلا أن (العزيز) في أسمائه (جل وعلا) معناه: الغالب الذي لا يغلبه شيء.

وقوله: ﴿أَلْعَلِمِ﴾ المحيط علمه بكل شيء (جل وعلا)؛ لأن الله (جل وعلا) عِلْمُهُ محيط بكل شيء، ومن أراد أن يعلم عظمة علم الله (جل وعلا) فلينظر إلى الحُجَّاج يوم جمرة العقبة، يجد هذا العالم على اختلاف ألوانه، وأشكاله، ونواحيه، وألسنته، يجده كله مصبوباً صبة واحدة، الأنف مجعول هنا، والعينان هنا، والفم هنا، ومع هذا لم يضق العلم حتى يكون اثنان مصبوبين في قالب واحد، كل واحد منهما مُغَايِرَ بينه وبين الآخر، لا يلتبس منهم اثنان، حتى إن آثارهم في الأرض، وبصماتهم في الأوراق، وأصواتهم، كل هذا لا يشتبه منه شيء، وكل هذا أحاط به العلم قبل أن يوجد!! فعِلْمُ الله محيط بهذا قبل أن يوجد، وكلُّ يُوَضَّعُ وَيُطْعَمُ وَيُخْلَقُ على ما سبق به العلم الأزلي، فالله (جل وعلا) عِلْمُهُ محيط بكل شيء.

وقد قدمنا مراراً: أن الله (جل وعلا) يحيط علمه بالشيء وغير الشيء؛ لأن (الشيء) لا يُطْلَقُ في الاصطلاح إلا على (الموجود)، في مذهب أهل السنة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: آية ٩] فقولوه: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ دليل على أن الغدوم ليس بشيء^(٣). وقد دلت على هذا آيات أخر، والله (جل وعلا) يعلم المعدم الذي هو ليس بشيء، وقد بينا في هذه السورة الكريمة فيما مضى أمثلة

(١) انظر: الأمثال لأبي عبيد، ص ١١٣.

(٢) ديوان الخنساء، ص ٥٩. وفيه: «حِمَى يَتَّقَى».

(٣) انظر: شرح الطحاوية ص ١١٨.

كثيرة من ذلك؛ لأن الله قال في هذه السورة الكريمة - سورة الأنعام -: ﴿فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ﴾ فالكفار إذا رأوا العذاب يوم القيامة وعانوا الحقيقة ندموا على تكذيب الرسل، وتمنوا الرد مرة أخرى إلى الدنيا فقالوا ﴿يَلَيْتُنَا نَرُدُّ﴾ يعنون إلى الدنيا ﴿وَلَا تُكَذِّبْ بِآيَاتِ رَبِّكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] يعني: ليتنا رُدِدْنَا ونحن نصدق الرسل ولا نكذبهم كالمرة الأولى، هذا الرد الذي تمنوه: الله (جل وعلا) عالم بأنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فقد صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] وقد قدمنا مراراً: أن المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين لن يحضروها أبداً؛ لأن الله هو الذي تَبَطَّهَم عنها بإرادته لحكمة، كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُمْ عَذَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَهُ وَتَبَطَّهَم عَنْهُ هُوَ عَالِمٌ بِأَنَّهُ لَا يَكُونُ، وَمَعَ ذَلِكَ صَرَّحَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ أَنَّ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] إلى آخر الآيات، والآيات القرآنية كثيرة دالة على هذا. فالله يعلم الجائزات، والواجبات، والمستحيلات، المعدومات، والموجودات، ويعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يكون، يعلم أن لو كان كيف يكون، يعلم ما تخفي الضمائر، ويعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب خالق خطرات القلوب؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: آية ١٤] وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّ آوْبُ إِلَىٰ رَبِّهِ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: آية ١٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٧] ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله جل وعلا.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ أي: خلق لكم النجوم.

﴿لِيَهْدُوا﴾ كل هذا من غرائب صنعه وعجائبه؛ لأن النجوم يهتدي بها الناس في ظلمات الليل، سواء كانوا في بر أو بحر، وقد يكون الناس

مُلْجَجِينَ فِي الْبَحْرِ لَا يَعْرِفُونَ جِهَةً قَصْدَهُمْ إِلَّا بِالنُّجُومِ، وَكَذَلِكَ تَأْتِيهِمُ الظُّلُمَاتُ فِي فَيَافِي الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ فَيَسْتَدْلُونَ بِالنُّجُومِ، وَرَبِّمَا كَانُوا فِي مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ إِذَا جَاءَهُمْ غَيْمٌ هَلَكُوا، فَإِذَا رَأَوْا النُّجُومَ فَرَحُوا كُلُّ الْفَرَحِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِهَا الْجِهَاتِ، وَيَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى قَصْدِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(١):

يُهْلُ بِالْفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا كَمَا يُهْلُ الرَّاكِبُ الْمُعْتَمِرُ
يَذْكُرُ فِيْءًا مِنَ الْأَرْضِ إِذَا رَأَى رُكْبَانَهَا الْفَرْقَدَ بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهُمْ:
أَهْلُوا يَصِيحُونَ بِالْفَرْقَدِ فَرَحًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَتْنِي رُبِّالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: آية ١٦].

وَقَدْ بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ثَلَاثًا مِنْ حِكْمِ خَلْقِ النُّجُومِ، ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ^(٢):
مِنْهَا: أَنَّهَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّونَ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، يَعْنِي: ظُلُمَاتِ
الْليْلِ الْكَائِنَةِ بَرًّا أَوْ بَحْرًا كَمَا قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ زَيَّنَ بِهَا السَّمَاءَ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصْنُوعٍ﴾ [الملك: آية ٥].

الثَّالِثُ: أَنَّهَا تُرْجَمُ بِهَا الشَّيَاطِينُ كَمَا قَالَ: ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابَ أَلَسَّيرِ﴾ [الملك: آية ٥].

هَذِهِ الْحِكْمُ الثَّلَاثُ: مِنْ رَجْمِ الشَّيَاطِينِ بِالنُّجُومِ، وَتَزْيِينِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا
بِهَا، وَاهْتِدَاءِ النَّاسِ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، هِيَ حِكْمٌ ثَلَاثٌ ذَكَرَهَا اللَّهُ
مِنْ حِكْمِ خَلْقِهِ لِلنُّجُومِ.

وَالنُّجُومُ: هِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي تُرَى فِي السَّمَاءِ. قِيلَ: سُمِّيَ النُّجُومُ نَجْمًا
لِأَنَّهُ يَطْلُعُ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الطُّلُوعَ نَجْمًا، تَقُولُ: «نَجْمُ النَّبَاتِ». إِذَا
طَلَعَ^(٣).

(١) الْبَيْتُ لِابْنِ أَحْمَرَ، وَهُوَ فِي الْقُرْطُبِيِّ (٢٢٤/٢).

(٢) انْظُرْ: ابْنُ كَثِيرٍ (١٥٩/٢)، فَتْحُ الْقَدِيرِ (١٤٣/٢)، مَعَارِجُ الْقُبُولِ (٤٢٨/١)، الْأَضْوَاءُ (٢٠٥/٢).

(٣) انْظُرْ: الْمَفْرَدَاتُ (مَادَّةُ: نَجْم) ٧٩١.

وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْأَبْحَرِ﴾ إنما أضاف الظلمات إلى البر والبحر لأن المسافرين قد يكونون في ظلمات الليل تارة في بر، وتارة في بحر، فأضاف الظلمات إلى مكانها من بر أو بحر للملاسة بينهما^(١).

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: الدلالات الواضحة على قدرتنا وكمالنا، وأنه ليس لأحد أن يعبد غيرنا.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهذه الآيات التي فَصَّلَ كما ذَكَرَ من أنه يفلق الحب عن السنبل، والنوى عن النخل، وأنه (جل وعلا) يأتي بالليل بدل النهار، والنهار بدل الليل، وأنه (جل وعلا) يُسَخِّرُ الشمس والقمر، وأنه (جل وعلا) خلق النجوم، وبيّن من حكمها: اهتداء الخلق بها، هذه الآيات الباهرة القاهرة قد فَصَّلناها لقوم يعلمون.

وإنما خَصَّ القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها^(٢)، ومن أساليب القرآن العظيم: أن يُخصَّص بالكلام المُنتَفِعَ به^(٣)، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِبِيدُ﴾ [ق: آية ٤٥] وهو مُذَكِّرُ للأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُذَكِّرُ مَنْ أَتْبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يُخَشِنُهَا﴾ [النازعات: آية ٤٥] ونحو ذلك.

وقد بيّنّا فيما مضى^(٤) أن (الآيات) جمع (آية)، وأنها عند المحققين من علماء العربية، أصلها: (أَيَّيْه) على وزن (فَعَلَّة). وقع الإعلال بموجبه الأول، فأبدلت الياء الأولى ألفاً، فقالوا: (آية).

(١) انظر: البحر المحيط (١٨٨/٤).

(٢) انظر: القرطبي (٤٦/٧)، البحر المحيط (١٨٨/٤) وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

إطلاقين، أما الإطلاقان في لغة العرب فأشهرهما: أن العرب تطلق (الآية) على (العلامة)، تقول: «آية كذا»، أي: علامته. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة أن الله مَلَكٌ طالوت عليكم: أن يأتيكم التابوت. وهذا أشهر اصطلاح الآية. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان - وهو عربي قح جاهلي - تفسير الآية بالعلامة، حيث قال^(١):

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لَسْتُ أَغْوَامِ وَذَا الْعَامِ سَابِعِ
[ثم بين^(٢) أن مراده بالآيات: علامات الدار وآثارها، حيث قال^(٣):

رَمَادٌ كَكُخْلِ الْعَيْنِ لَأَيًّا أَبْيَنُهُ وَنَوْيٍ كَجَذَمِ الْحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعِ
المعنى الثاني من إطلاق الآية في اللغة: أن العرب تطلق الآية على الجماعة، تقول: جاء القوم بأيّتهم، أي: بجماعتهم. ومنه قول بُرج بن مسهر^(٤):

خَرَجْنَا مِنَ النَّقَبَيْنِ لَا حَيٍّ مِثْلُنَا بَأَيْتِنَا نُزْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا
أي: بجماعتنا.

إذا عرفتم أن (الآية) في لغة العرب تطلق على (العلامة)، وتطلق على (الجماعة)، فاعلموا أن (الآية) في القرآن تطلق إطلاقين^(٥):

أحدهما: الآية الكونية القدريّة.

الثاني: الآية الشرعية الدينية.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وقد أتممت النقص من كلام الشيخ - رحمه الله - عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٥) السابق.

أما الآية الكونية القدرية فهي العلامة التي نصبها الله كوناً وقدرًا، ليبين بها لخلقه أنه الرب وحده، المعبود وحده، كَفَلَّهِ الْحَبَّ عن السُّنْبُلِ، والنوى عن النخل، وكَاتِيَانَهُ بالليل بدل النهار، والنهار بدل الليل، وكَتَسْخِيرِهِ الشمس والقمر، وكخلقه النجوم لِيُهْتَدَى بها، هذه آيات كونية قدرية، وضعها خالق هذا الكون كوناً وقدرًا، جعلها علامة لخلقه أنه القادر على كل شيء، المعبود وحده، والآية الكونية القدرية في القرآن هي من الآية اللغوية التي بمعنى (العلامة) لا غير.

الثاني من إطلاقي الآية في القرآن: الآية الشرعية الدينية، كقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] أي آياته الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم.

أما الآية الشرعية الدينية فقد قال بعض العلماء: هي من (العلامة) لغة أيضاً؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها لِمَا فيها من الإعجاز.

وقال بعض العلماء: الآية الشرعية الدينية من الإطلاق اللغوي الآخر، أي: بمعنى الجماعة؛ لأن الآية: جماعة من كلمات القرآن اشتملت على بعض ما اشتمل عليه القرآن من الإعجاز، والعقائد، والحلال، والحرام^(١).

وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. أما القوم الذين لا يعلمون فتفصيل هذه الآيات لا ينفع فيهم؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً، فهم كالأنعام؛ لأن الحمير والبغال والبغير لا يفهمون هذه الآيات عن الله، والله (جل وعلا) فضل عليهم الأنعام، قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: آية ٤٤] فالكفار - والعياذ بالله - أنزل درجة من الأنعام، وإيضاح ذلك: أن البغل - مثلاً - والبغير، البغلة التي تعطيها الشعير وتُعَلِّفُهَا إذا رَأَتْكَ صَهَلَتْ إِلَيْكَ، وظهر عليها الفرح إذا رَأَتْكَ، الكافر يُغْدِقُ الله عليه نِعَمَهُ، وهو يرتكب مساخطه، ويناصبه بالعداء جل وعلا!!

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.